تاريخ الحركات القومية في أوربة

الجزء الثاني

يقظة القوميات الأوربية
الحرية والقومية



تصنيف
الدكتور نور الدين حاطوم
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة دمشق

دار الفكر



تاريخ

الحركات القومية

يقظة القوميات الأوربية



تاريخ

الحركات القومية

يقظة القوميات الأوربية

الجزء الثاني

الحرية والقومية

تأليف وتعريب

الدكتور نور الدين حاطوم

دار الفكر

الطبعة الأولى

١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م

طبع في دار الفكر بدمشق - شارع سعد الله الجابري - ص . ب ٩٦٢
هاتف ١١١٠٤١ - ١١١١٦٦ - برقياً فكر

إلى

الرواد الأوائل

حملة مشاعل التحرير القومي

تحية ومجداً



الحركات القومية الأوربية
في النصف الأول من القرن التاسع عشر

القسم الثاني

الحرية والقومية

المقدمة

الدور ١٨١٢ — ١٨٤٨

يعتبر الدور الممتد من ١٨١٥ إلى ١٨٤٨ ، من وجهة النظر القومية ، أوضح من عهد الثورة الفرنسية والامبراطورية ، لأن القوميات استيقظت فعلا في هذا الدور على أساس الحرية السياسية ، ونشأت بحق القوميات الأوربية ، ان في عالم الأفكار أو في عالم الوقائع .

إن الشكل ، الذي شهدنا به القوميات في الجزء الأول من الحركات القومية ، كان بسيطاً على قدر الامكان ، وتجلى بالدفاع الوطني ضد الغاصب الأجنبي ، أي انه كان عاطفة بسيطة جداً ، غريزية ، عفوية ، دون وعي أو شعور تقريباً ، أو على الأقل دون فلسفة ، ودون مذهب فكري نظري . وانا لنتساءل ما ستكون هذه العاطفة القومية عندما لا يكون لرد الفعل الوطني غاية أو هدف ، أي عندما لا يكون هنالك غاصب قاهر ؟ وفي الواقع ، ان الوضع لم يختلف بالنسبة لبعض القوميات عندما عادت الى النزاع الذي بدأت به ، لأن هذا الوضع بقي نفسه ، لم يتغير ، وهذه حال اليونان وايرلنده ، ويمكننا القول في هذه الحال ان لا انقطاع في التاريخ . فقد ناضل اليونان ضد الحكم التركي ، والايرلنديون ضد الطغيان الانكليزي بعد ١٨١٥ ، كما كانت الحالة بعد ١٧٨٩ . أما في البلاد الاخرى ، مثل المانيا وايطاليا ، فقد زالت اليد التي كانت تضطهدها ، ولكن ما زال في ألمانيا شيء من الروح القديم الذي يمكن

أن نسميه روح « المحارب القديم » ، ونجده في الجمعيات الوطنية ، والجمعيات الرياضية ، والتعبئة العسكرية ، وكراهية الأجنبي التي تلاحق العناصر الدخيلة في كل مكان وفي كل مناسبة ، حتى في اللغة الدارجة ، ولكن هذه الحالة كانت وقتية ولم تدم طويلا .

لذا ينبغي للقوميات قواعد اخرى غير هذه العاطفة الوطنية البسيطة لتعتمد عليها ، أي كان على هذه القوميات أن تنتقل إلى عالم السياسة. ان فكرة الحرية هي التي أوجدت القوميات في هذا الدور الثاني ، موضوع هذا الكتاب ، وذلك لأن القومية لم تعد مجرد عاطفة فحسب ، بل مطالبة ، ولا مجرد غريزة ، بل مذهباً فكرياً . ولا شك في أن سبب هذا الانتقال يرجع ، في الأصل ، إلى حادث واحد وهو الشكل الذي صبغ به الوضع الأوربي الجديد الذي حل محل الامبراطورية الفرنسية بعد عام ١٨١٥ .

الفصل الأول

الحرية الفرنسية وانعكاساتها الدولية

لقد خنقت سياسة مترنيخ والمؤتمرات آخر حركة لروح المقاومة والتحرير التي ظهرت في إسهام الشعوب في تقويض الامبراطورية الفرنسية، وزال ، على هذا النحو ، العنصر الذي ظل ، حتى الآن ، يؤلف جوهر هذه القومية الأولى وهي كره فرنسا . غير أنه من الممكن وجود عقائدية (اديولوجيا) أخرى لا تتمسك إلا بالحاجات السياسية التي كانت تتمثل ، في ذلك الحين ، بالحرية .

كان نظام الحكم المطلق ، الذي فرض على أوربة كلها ، سياسياً واكليركياً معاً ، واكليركياً لجميع الديانات الارثوذكسية والبروتستانتية والكاثوليكية ، حيثما وجدت . وأنسى هذا النظام الثقيل والضعيف معاً الطغيان النابوليوني وأعباءه ، لأنه كان نظام طغيان للطغيان . ولقد كان من حسنات الامبراطورية الفرنسية ، على الأقل ، أن عادت على الشعوب بالفائدة بسبب نظامها وفوائد الاصلاحات التي أتت بها والمشاركة في سياسة العظمة . وحدث في الأفكار نوع من المثالية والاعجاب والتعلق بنابوليون ، وبدأ اجلاله يظهر في أوربة : فمن ذلك أن البولوني **مودانسكي** كتب يقول : « كانت **النابوليونية** في فرنسا تعني ، بالنسبة لنا ، شيئاً كالوطنية » ؛ وكذا الحال في بلجيكا وفي ألمانيا . وهنا نجد شيئاً يلفت النظر

حقاً: فقد تشكلت في بالاتينا، في ألمانيا الغربية، جمعيات المحاربين القدماء، محاربي الجيوش النابوليونية، واحتفلت في ١٥ آب بعيد الامبراطور. ونظمت، في ألمانيا الغربية هذه، أشعار كثيرة، وألفت قصص، ورسمت صور، على شرف الامبراطور، وغرس، عبر ألمانيا، صف من أشجار الحور على الطريق الذي سلكه نابوليون للحاق بجيشه العظيم.

وتوازياً مع هذه الحركة، التي خلطت في فرنسا بين فكرة الثورة وذكرى نابوليون، وجد عمل آخر في أوربة يخلط بين نابوليون من جهة، والحركات القومية من جهة أخرى، على الرغم من قيام حركات قومية، كما رأينا في الواقع، ضد نابوليون. فقد اعتمد على بعض التصريحات التي نجدها في «مذكرات» نابوليون في جزيرة القديسة هيلانه، ونذكر منها، على سبيل المثال، ان نابوليون كان يقول في معرض كلامه عن الألمان والايطاليين والاسبانيين: «لقد كان بودي أن أجعل من هذه الشعوب شعباً واحداً، بل أمة واحدة». وكان يصرح، في تلك الجزيرة نفسها بشأن ايطاليا، بأن هدفه كان: «تربية الايطاليين تربية قومية»؛ وأضاف في يوم آخر: «ان روما هي المدينة التي سيختارها الايطاليون ذات يوم عاصمة لهم». وتكلم عن حق ايرلنده في الانفصال عن انكلترا، وحق الألمان في الاتحاد: «لو جعلتني السماء أميراً ألمانياً، لحكمت دون شك الثلاثين مليوناً ألمانياً متحدين».

وهكذا حول رد الفعل ذكريات نابوليون إلى حجج لصالح القومية ضد تسوية أوربة عام ١٨١٥.

وكان لهذا النظام من الحكم المطلق والسلطة العامة استثناء أخذ يعمل لصالح فرنسا: فقد تمتعت هذه الدولة بنظام الحرية المدنية والسياسية،

ومنحها ملكها ميثاقاً ، وكانت الحياة السياسية فيها كثيفة اعتباراً من ١٨١٥ . وكان صوتها ، في هذا الصمت بل في هذا الخبل العام ، يتردد خاصة وينتقل بعيداً ، كما كان الصوت الوحيد الذي يسمع في أوربة : فقد كان نفوذ انكلترا الفكري العقائدي ضعيفاً فعلا ولا يؤثر في الشعوب . لأن النظام الانكليزي لم يكن شيئاً جديداً ، ولأن الانكليز لا يهتمون بنشر أفكارهم إلا قليلا ، وأخيراً لأن حياتهم السياسية كانت انكليزية نوعياً ولا يمكن أن تكون درساً للشعوب الأخرى . ولهذه الأسباب مجتمعة لعبت فرنسا دور المربي في أوربة .

ومع ذلك ، فلم تنعش فرنسا وحدها الحركات القومية التي ستقوم في أوربة . بل سينضم اليها جهد عميق يؤثر في الجوهر القومي ، ويقوم به تلاميذهردر أو خلفاؤه ، ونجده في تيار الأفكار الفلسفية الجديدة . ولم تكن الحركة المستقلة ، التي ضربت فرنسا فيها المثل ، مخالفة لهذا الجهد العميق ، وسيتحدان مع بعضها في المضمار القومي . وهكذا نعود إلى الحالة التي كانت في نهاية القرن الثامن عشر ، قبيل الثورة الفرنسية ، ولكن في مرحلة متقدمة نوعاً ما ، ويجري الخلط من جديد بين فكرة الحرية وفكرة القومية من جهة ، وبين رسالة فرنسا واستقلال الأمم من جهة أخرى .

١ — الدرس الفرنسي

لقد أصبحت فرنسا مربية أوربة ومعلمة لها ، ولا سيما بعد أن أبدى العهد الرجعي اختلافاً مذهلاً بين دور فرنسا السياسي في أوربة ، وقد أصبح ضعيفاً ، لأن الدبلوماسية الفرنسية كانت ملزمة على الأقل بالانطواء وأحياناً بالطاعة ، و بين اشعاعها الفكري العظيم . لقد كانت

حركة الفكر الفرنسي في العهد الرجعي كثيفة في المضمار الأدبي والسياسي والفني ، و استقت هذه الحركة الابداعية الهامها من أوربة ، حتى ان نوعاً من النفوذ والتداخل قد تم بين الأدب الألماني والانكليزي والأدب الفرنسي ، وتهيأ في فرنسا ، بالمقابل ، نظام جديد للأفكار فرنسي جداً وشع في أوربة . وأعطت فرنسا لأوربة درساً سياسياً ظهر بشكل حركة فكرية عامة ، ولم يكن بصورة نوعية وأساسية قومياً .

الحزب القومي . — لقد أخرجت فرنسا«المذهب القومي» لنفسها في بادىء الأمر . وعلى عكس ما مر في القرن الثامن عشر ، حيث كان الانطلاق من الأفكار إلى الوقائع ، نشأ الحزب القومي في فرنسا منطلقاً من الحوادث : لقد نشأ من رد الفعل ضد الاحتلال والمعاهدات ، وضد خذلان الهزيمة عام ١٨١٥ . ثم أضيفت إليه أنواع العناصر المتضررة من العهد الرجعي والجيش وضحايا الارهاب الأبيض وغير ذلك . وكان الفرنسيون يحنون إلى العظمة المفقودة ويحز الألم نفوسهم من اقتطاع حدودهم . وفي الوقت نفسه كانت الحياة السياسية في الداخل عجيبة ، وكان للحزب القومي، الذي أسهم فيها ، برنامج أخذه عن البيان الذي ألقى به مجلس ممثلي المائة يوم والدستور الذي صوت عليه هذا المجلس عام ١٨١٥ في فترة هذا الحكم الأخير لنابوليون بعد عودته إلى فرنسا . وقد رفع هذا الحزب القومي الأمرين ، المطلوب القومي والمطلوب الحر ، إلى مصدرهما وهو السيادة القومية وسيادة الشعب ، ولم يقبل بسيطرة طبقة من الطبقات في الداخل ، ولا بسيطرة الأجنبي في الخارج . ولذا أخذ المذهب الفرنسي القومي مظهراً مزدوجاً : وهو التوكيد الديموقراطي والتوكيد القومي معاً.

وأعرب هـذا الحزب القومي ، من الوجهة العملية ، عن أفكاره

ببعض حاجات أو مطاليب : فمن ذلك انه نفر من آل بوربون « الذين عادوا في عربات الأجنبي » ، وبشر بكره معاهدات ١٨١٥ . وبهذا المعنى كان الحزب القومي حزباً ثورياً وتركيبه يدل عليه : لقد كان يسمى ، في الأصل ، **حزب المستقلين** ؛ ويضم بين عناصره جماعات من الجمهوريين ، مثل لافاييت ، وضباطاً وضباط صف بونابارتيين وارادت جمعية الفحامين ، وهي جمعية سرية كبرى تأسست بعد ١٨٢٠ ، أن تعيد للشعب ممارسة السيادة القومية . وكانت على اتصال بالجمعيات السرية في أوربة : مع جمعية الفحامين الايطاليين ،ومع عصبة الفضيلة (التوغند بوند) في ألمانيا ، أي ان هذه الحركة الثورية كان لها طابع دولي ، بالرغم من أنه لم يكن أي اتفاق بين هذه الجمعيات لقيادة حركة عامة مشتركة ، وعبرت عن نفسها ، في فرنسا ، بمؤامرات عسكرية ، بعد بعض المحاولات الثورية .

هذا هو الوجه الثوري للحزب القومي . بيد أن له وجهاً برلمانياً أيضاً. فقد كان يكافح سياسة العهد الرجعي الخارجية ، سياسة اشتراك فرنسا بالحلف المقدس . وكان المستقلون يهاجمون سياسة **باسكيه** المترددة ووزارة **ريشيليو**: فمن ذلك ان دست جملة في الرسالة التي وجهت إلى الحكومة في قضية السياسة الخارجية ، وشجبت سياسة الدوق ريشيليو حتى سقطت في كانون الأول ١٨٢١ . وكانت المعارضة بخاصة عنيفة ضد الحملة الفرنسية على اسبانيا : فقد اشترك اليسار في معارضته مع اليسار المتطرف (أقصى اليسار) وقام بالنضال في المجلس **دوايه كولار** و **دوليسير وبينيون** والجنرال **فوا** و **مانويل** . وتوصل النقاش بسرعة إلى أقصى درجات العنف ، وطرد النائب مانويل من المجلس في العام ١٨٢٣ . وفي الحملة الاسبانية نفسها حاولت جماعات من الأحرار ان تقاوم في جبال البيرينه ، وكان

يقودها الكولونيل فابيه ، حتى إن ضابطاً قديماً يدعى آرمان كاريل انخرط في صفوف الاسبانيين بغية اخفاق الحملة الفرنسية التي ذهبت لاخماد ثورتهم . وعارض الأحرار الفرنسيون في هذه الحملة بمبدأ عدم التدخل أي احترام الحركات القومية في الدول الأجنبية .

ومع هذا فقد أخفقت هذه الحركة الثورية ومات نابوليون في ٥ أيار ١٨٢١ ، وسمح هذان الحادثان بتطهير هذه الحركة المضطربة قليلا والثورية في البدء ، وبنقلها إلى صعيد المذهب بعد أن أخفقت عملياً .

وكانت النتيجة ، التي حصل عليها هذا الحزب القومي ، الفصل بين فرنسا الحرة وبين مسؤولية سياسة الحكم المطلق في أوربة ١٨١٥ . وهكذا ظهرت فرنسا خصما وبالتالي حليفاً لكل من آلمهم نظام ١٨١٥ في أوربة .

الاعلام . — لم يضم الحزب القومي إلا جماعة قليلة ، ولذا فان شروط التصويت والتصويت المزدوج خاصة ابعدت تأثيره الفعلي بسرعة ، فضلا عن انه لم يكن إلا صوتاً في مجموعة واسعة كثيراً . وابتداء من ١٨٢٠ بخاصة قدمت فرنسا إلى أوربة مذهباً حراً معقداً كثيراً .

وفي الواقع ، ان الاختلاف بين فرنسا وباقي أوربة ، عدا انكلترا ، هو أنه وجد في فرنسا رأي عام يعبر عن نفسه في المناقشات البرلمانية ، وفي الصحافة ، وفي نشاط المكتبات والنشر الفرنسية ، وباختصار في كل ما يسمى الاعلام . وبذا كان صوت فرنسا عاماً ويؤثر في كل الأفكار ، ويمتد إلى جميع البلاد ، وبشع على باقي أوربة ، ويفرض نفسه على أناس من أقصى اليمين : مثل شاتو بريان الذي ظل ، طوال حياته ، مدافعاً متحمساً عن حرية الصحافة . وان أكبر خطأ ارتكبه آل بوربون ، وكان سبباً من الأسباب

الأساسية التي أدت إلى سقوطهم ، هو أنهم لم يأخذوا بعين الاعتبار هذا الرأي العام وأرادوا أن يحكموا ضده .

لقد وجد ، بفضل هذا الاعلام ، نقاش واسع في الافكار ، وأخذ يتناول مختلف أنواع المشاكل . وكان العهد الرجعي من اغنى العهود بمناقشة المذاهب التي وجدت في الحياة الفرنسية . ومع ذلك ، فلم تكن أفكار الثورة وحدها المصدر الذي استقت منه اوربه ، لأن المذاهب السياسية ، التي ظهرت في فرنسا في ذلك العصر ، حركت جميع الأحزاب . لقد وجدت مذاهب يمينية ، مثل مذاهب **بونالد** ، وهي مذاهب تقليدية تتصل في فرنسا ، لحد ما ، بافكار هردر ؛ وكان بونالد يرى ، في الواقع ، أن « تركيب » الشعب هو نتاج تاريخه وتقليده . وقد أعطت نظريات بونالد هذه مع نظريات **جوزيف دوميستر** حججاً للمدرسة التاريخية السويسرية و الألمانية ممثلة في آراء هالر و **سافيني** والمحافظين الألمان الذين كانوا أنصاراً للقومية دون حرية . وإلى جانب مذاهب بونالد ، وجدت نظريات أساسية صدرت عن **لامانيه** : وكان تأثير لاهوت لامانيه في الدفاع عن الديانة المسيحية ، أي نظريته في « الحس المشترك » ، عظيماً على اليقظة الدينية في أوربه ، وليس في فرنسا وحدها ، كما كان تأثير حريته في الآجل عظيماً أيضاً . وظهر تأثير لامانيه في المانيا الجنوبية خاصة وفي بلجيكا ، وكانت مونيخ ، في آخر العهد الرجعي ، مركزاً للأفكار المسيحية الحرة والحية جداً .

أمام هذه النظريات اليمينية ، وجدت نظريات اليسار ، وكان زعيمها الأساسي **بنيامين كونستان** ، فقد كان يبشر بان الفردية هدف أسمى للتشريع ، وان الدولة لا تستطيع الاعتداء على الحرية ، ودافع عن الفرد

ضد الدولة ، ووضع نظرية الحكم التمثيلي والسلطة الوزارية البرلمانية .

وبين نظريات اليمين ونظريات اليسار كان النظريون يحتلون الوسط : كان دوايه كولار يعلم « السيادة المتشكلة » معارضاً بها سيادة الحق الالهي و سيادة الشعب ؛ ويعتبر التمثيل الانتخابي وظيفة ، وظيفة يعرفها القانون ، وليس تفويضاً للسيادة كما تريد الثورة ، و ينظم توازن السلطات المتساوية لتأليف الهيئة السياسية . ويرى غيزو أن السيادة ليست خاصة إلا بالعقل ، وان السلطة يجب أن تعطى للكفاءات .

ولا نجد في كل هذه الأنظمة الكبرى الفلسفية والسياسية مذهباً خاصاً بالقومية ، ولكن هذه المذاهب كانت تبريراً للمطلب الاساسي الذي يحفظ للشعوب : الحرية ، الحرية التي هي الشرط الأول للقومية وكل هذه المذاهب تبرر تعاون المجتمع في حياة الدولة ، أي توسيع الدولة على الصعيد القومي .

وفي هذا المجموع من الافكار التي كانت تضطرب وتناقش في العهد الرجعي، خارجاً عن المذاهب الفلسفية والسياسية ، تجدر الاشارة إلى تأثير المدرسة التاريخية الفرنسية . ففي العهد الرجعي بدأت المدرسة التاريخية الفرنسية وكان يشعر بها كحاجة نظرية عندما كان الفلاسفة السياسيون بحاجة للتدليل التاريخي : فقد دعم شاتوبريان « عبقرية المسيحية » بما اعتقد أنه توثيق تاريخي كامل ؛ وكان لامانيه بحاجة الى تحقيقات تاريخية كبرى لوضع أسس مذهبه . وكانت فلسفة فيكتور كوزن تعتمد ايضاً على أساس من تاريخ الفلسفة وهكذا كان التاريخ حاجة لجميع هذه النظريات في الفلسفة السياسية .

هذا ولم توضع مشكلة القومية أمام المؤرخين . ولكننا نجد في آثارهم

بعض اتجاهات تحملهم على تعريف الأمة . فقد استؤنف في العهد الرجعي نقاش القرن الثامن عشر في العناصر المقومة للدفاع الفرنسي ، على اثر بعث النظريات الفرنجية ، التي قال بها الكونت دو مونلوزيه . وقام على هذا النحو جدل في الفكرة القائلة بأن فرنسا كانت ، في الأصل ، نتاج أمتين توضعتا فوق بعضها ، الأمة الغالية والأمة الفرنجية . وجعل اوغستن تييري من هذا النقاش نوعاً من تفسير وشرح عام : فهويرى في تاريخ الشعوب المختلفة ، التي درس ثورة المضطهدين فيها ضد سادتهم ، ثورة جاك بونوم ضد الأمراء في فرنسا ، وثورةالسكسون ضد الغزاة النورمانديين في انكلترا . وكانت آثاره الأساسية في عام ١٨١٧ « محاولة في ثورات انكلترا » ، وفي ١٨٢٥ « فتح النورمانديين لانكلترا » ، وفي ١٨٢٧ « رسائل في تاريخ فرنسا » . وكان غيزو مؤرخاً موثوقاً وأكثر يقيناً من حيث الطريقة من اوغستن تييري : ففي ١٨٢١ و ١٨٢٢ نشر دروسه التي ألقاها في السوربون في « أصول الحكم التمثيلي في أوربة » ، وأبان فيها أن اتجاه التاريخ ينزع نحو شكل الحكم الحر ؛ وفي ١٨٢٣ نشر « محاولات في تاريخ فرنسا » ؛ وفي ١٨٢٦ و ١٨٢٧ ، دراساته الاولى في « ثورة انكلترا في القرن السابع عشر » ، وفي ١٨٢٨ بدأ دروسه الأكبر في تاريخ الحضارة في أوربة ثم في فرنسا . ومن نظريات غيزو تخرج هذه الفكرة ، وهي ان العنصر النوعي لتاريخ فرنسا هو الصعود التدريجي للبورجوازية . وقلب تيير أفكار أو ذكريات الثورة الفرنسية بدراسة هذه الثورة كحادث تاريخي وبين تسلسل الأحداث في « تاريخ الثورة » في عشر مجلدات صدر من ١٨٢٣ إلى ١٨٢٧ . وأخيراً كان سيسموندي مؤرخاً واقتصادياً معاً : نشر في التاريخ من ١٨٠٩ إلى ١٨١٣ « تاريخ

الجمهوريات الايطالية » ، وبدأ في العام ١٨٢١ « تاريخ الفرنسيين » . وفي الوقت نفسه أي من ١٨١٩ إلى ١٨٢٤ صدرت كتبه المطولة في الاقتصاد السياسي ، ثم تناول بعض أشكاله الجديدة في العام ١٨٢٦ .

ولم يكن هؤلاء المؤرخون الفرنسيون الكبار مغلقين عن النظريات الخارجية لأن حركة الافكار الفرنسية كانت على صلة بمجرى حركة الافكار الأوربية : كان غيزو على صلة بطرق ونتائج العلم الجرماني . وفي ١٨٢٥ ترجم **لورتيه** « بحوث في القومية » لمؤلفه **يان** . وفي ١٨٢٧ و ١٨٢٨ ترجم **ادغار كينيه** إلىالفرنسية « فلسفة التاريخ » لهردر . ولم يعلم الفرنسيون صناعة التاريخ للشعوب الأخرى ، لأن هذه الشعوب تعرفها كالفرنسيين بل ومن الممكن القول انها تعرفها أفضل منهم ، لأن المدرسة التاريخية الألمانية تمتاز في ذلك العهد ، بسعة وتفوق في الطرق غير منازعين ولا مدافعين . ولكن تأثير المؤرخين الفرنسيين في الحركة الأوربية كان عظيماً بفضل مناقبهم في التأليف والشكل ، وبفضل موهبتهم في معالجة الأفكار ، وارتفاعهم فوق الرواية المحضة لاظهار نظريات كبرى أو أفكار كبرى عامة . وعلى هذا النحو يتضح اعجاب **غوته**، الذي عبر عنه في محادثاته مع **اكرمان** أمين سره ، بالمدرسة الفرنسية : فقد عاد خلال مرات عديدة ، عام ١٨٢٩ ، في احاديثه على أهمية هذه المدرسة : في ١٧ شباط ، وفي ٢ ، و ٣ ، و ٦ نيسان قال ، في معرض كلامه عن الثلاثة اساتذة الكبار في السوربون ، **فيلمان**، **كوزن** ، **غيزو** : « ان هؤلاء الرجال الذين ينظرون إلى جميع الاشياء بفكر حر وتحت زاوية جديدة ، ويذهبون دوماً على خط مستقيم إلى الهدف ، على حين أن غيرهم ظل ، حتى هذا اليوم ، يدخل إلى الحديقة

ويأخذ طرقاً ملتوية ، ان هؤلاء الرجال هم على درجة من الجرأة تمكنهم من فتح ثغرة في الجدار وصنع باب في المكان الذي ينفذ منه إلى المشى الاساسي » (١٧ شباط) . وبعد بضعة أسابيع أعرب إلى إكرمان « عن إعجابه بالنفاذ وسعة النظر ورجاحة العقل الكبرى عند هؤلاء الرجال الذين توصلوا إلى معرفة كاملة لماضي فكر القرن التاسع عشر ، وهذا ما انتج بالطبع نتائج خارقة » . وكان يفضل بخاصة غيزو ويعجب بطريقته وذكائه .

وكانت جاذبية هذه المدرسة التاريخية الفرنسية بالنسبة لأوربة تظهر في الفكر المذهبي والفكر الفلسفي الذي يتطلع إلى استخلاص مبدأ الأشياء من التاريخ ، وبذا تكون دروس التاريخ مفيدة للعصر الحاضر .

تأثير القضية اليونانية . – وفي السنوات الأخيرة من العهد الرجعي أفل نجم المناقشات الكبرى النظرية الصرفة في الأفكار السياسية و القومية ، وكانت الأفكار التي اقترحها الفرنسيون لتربية أوربة غنية ومعقدة ، ولكن كانت لها قيمتها الذاتية وقيمتها النموذجية . وكان هذا التعقيد ملائماً في حينه ، حتى ان المطلب القومي في السنوات الأخيرة زال في فرنسا ، لأن الاهتمام بالسياسة الداخلية ، حيث كانت الاحزاب في نزاع ضد حكومة فيليل ، نقل الأفكار القومية البحتة إلى الصعيد الخلفي . ولكن القضية اليونانية خرجت في ذلك الحين ، وكان لتشكل القومية اليونانية قيمة نموذجية ، ولعلنا نذكر أنه أدى إلى اجماع الرأي بين الاحزاب ، وأن النخبة الأوربية كانت لصالحه . وهكذا كان للقضية اليونانية تأثير مزدوج : فقد أعطت الفكرة القومية قوة لا تقاوم وقضت على النظام الاوربي لعام ١٨١٥ قضاءاً مبرماً ، من جهة ، لأنها انشأت دولة جديدة على أساس

قومي ؛ ومن جهة أخرى، لأن الحكومات قاومت الاعتراف بها. ولا يغرب أن تشكل المملكة الاغريقية يرجع الفضل فيه بصورة أساسية إلى الدبلوماسية الفرنسية ، وستتكرر هذه السابقة الهامة بعد ثورة ١٨٣٠ ، عند تشكل الدولة البلجيكية .

وفي غضون هذا الدور ، الذي انكسف فيه المطلوب القومي وراء النضال السياسي ، استمر المفهوم القومي في تشكله ولو بشكل أصم ، وسينكشف تقدمه في السنوات الأخيرة من العهد الرجعي ولا شيء أدل على ذلك من أنه أخذ يتسرب إلى أفكار أحزاب اليمين: فمن ذلك أن **لافيرونيه**، وزير الشؤون الخارجية في وزارة **بولنياك**، قوم في هذا الاتجاه الدبلوماسية الفرنسية بعد أن ظلت دون حراك في وزارة فيليل . وفهم المتطرفون انفسهم قيمة المطلوب القومي . وما كان في السابق مفهوماً عند شاتوبريان نفسه أصبح الآن لدى مجموع الحزب الملكي فكرة مشتركة عامة تقريباً. وكانت فكرة بولنياك العميقة تهدف إلى أن تحصل فرنسا على قسم من برنامجها القومي . وقد أعد مشروعاً لتنظيم أوربة ، انطلاقاً من القضاء على الامبراطورية العثمانيـــة ، وأمن به لفرنسا امتلاك بلجيكا . وبمقتضى الحاجات نفسها في استمالة الرأي نحوه ومشايعته الرأي القومي ، علق أهمية خاصة على حملة الجزائر ومع ذلك تجب الملاحظة ، ان المعارضة السياسية التي قامت ضد بولنياك في الداخل لم تمكن جهوده في السياسة الخارجية من أن ترد اليه الفضل الذي يستحقه

وبالمقابل ، تشكل ، بالعكس ، في آخر ١٨٢٩ وبداية ١٨٣٠ حزب قومي ثان واوسع بكثير من الأول لمعارضة حكومة العهد الرجعي . فقد أسس الصحافيون الثلاثة : **تيير** ، **مينيه** ، **آرمان كاريل** ، في كانون

الثاني ١٨٣٠ جريدة وأعطوها اسماً له مغزاه وهو « القومي » . وتألف فريق من الشبان الجمهوريين في آخر ١٨٢٩ واعتمدوا على تقاليد المؤتمر الوطني (الكونفاسيون) في عهد الثورة الفرنسية الكبرى ، وأخذوا يتباهون بلقب « الوطنيين » وطالبوا به في جريدتهم « المنبر » .

ويجب ألا يظن بان العهد الرجعي في المضمار الخارجي كان بالضرورة دور ممحياً ، ولم يكن له تأثير عميق في أوربة . لقد كرر على أوربه درس الحرية والفكرة في أن حياة الشعوب معلقة بانتصار الحرية . لقد تلقى نوعاً ما دروس الثورة والامبراطورية ووضحها وجعل أفكار الثورة وحوادث الامبراطورية قابلة للتمثل لدى الأمم الآخذ بالتشكل .

٢ — الرسالة الفرنسية على المحك

وهذا المذهب ، الذي ألفته فرنسا واقترحته على أوربة في العهد الرجعي ، وضعته ثورة تموز ١٨٣٠ على محك التجربة والاختبار . لقد كانت هذه الثورة ضربة خطيرة لأوربة عام ١٨١٥ ، ففيها انهار جزء من أجزاء النظام الأوربي الاساسية ، وهو سلالة آل بوربون التي أعادها الأجنبي إلى فرنسا وثبت من أجلها حدود فرنسا ووضعها السياسي ، هذا فضلاً عن أن ثورة تموز أثارت في أوربة دوياً في الأفكار وحركة واسعة ، وذلك لأن هذا الحادث لم يبق فرنسياً فحسب ، بل أصبح أوربياً .

مذهب ثورة تموز ١٨٣٠ . — لقد بدلت ثورة تموز وضع فرنسا تماماً بالنسبة إلى القضية القومية ، وامتازت في الواقع بثلاث صفات : كانت ثورة حرة ليبرالية ، وثورة مناوئة للاكليروس ، وثورة قومية . لقد أخذ الأحرار على العهد الرجعي امحاء البلاد في المحفل الأوربي .

وكان رمز هـذه الثورة وهذا المطلب الجديد تبني العلم المثلث الالوان ، علم الثورة والامبراطورية . والحجة التي أعطيت في الأصل لصالح دوق اورلئان المرشح للملك ، هي أنه أسهم في معارك الثورة وحروبها ، واشترك بل وقاد جيش الثورة في فالمي وفي جيباب . وأبدى رجال ثورة تموز مطاليب قومية ووطنية : فقد قال غودفروا كافنياك في ٣١ تموز ١٨٣٠ إلى دوق اورلئان ، وهو الملك لوي - فيليب في المستقبل : « انها ليست ثورة حرة ليبرالية ، فكر بذلك جيداً : انها ثورة قومية » . وعرض الشبان الجمهوريون على غيزو ، في ٦ آب ، اثناء مناقشة إعادة النظر في الميثاق ، برنامجهم والشروط التي وضعوهـا لدعم النظام الجديد ، ومن بين هـذه الشروط المذكرة التي كتبها بوانفيلليه : « لنزحف بجرأة على الراين ولنسترد الضفة اليسرى » .

ومما يعطي إلى ثورة تموز هذا الطابـع القومي هو أن حكومات ١٨١٥ فكرت بالاتحاد أمامها في ائتلاف وأخذت تتسلح ، وبدت أنها متهيئة للزحف على فرنسا . غير أن لوي - فيليب لم يفسح أمامها المجال واستطاع أن يفصل انكلترا عن جميع الدول ، بعـد أن أكد لها تخلي فرنسا عن كل منفعة تتعلق باطماع أرضية ، وبفضل انكلترا اعترفت أوربة به . ولكن الثورة كانت لها نتيجة مباشرة وهي فصل أوربة إلى كتلتين متعارضتين : فرنسا ، وتدعمها انكلترا الليبرالية ، ضد أوربة الحكم المطلق .

واستمر هذا المطلوب الأول وأفصح عن نفسه في برنامج كان برنامج اليسار كله ؛ وأخـذت الصحف الفرنسية « تتكلم بمعاودة الدخول إلى حدودنا » واستعادة ضفة الراين اليسرى . وأبلـغ هؤلاء الصحافيين كان

أرمان كاريل رئيس تحرير جريدة « القومي » . كتب في ٥ تشرين الثاني ١٨٣٠ . « يجب أن تكون الثورة تحريراً لفرنسا في الداخـــل والخارج » .

وبدأ كاريل حملة تطالب بمحاربة أوربة : « ان الحق العام لأوربة لا يمكن أن يؤرخ في واترلو ، بل في أيامنا ، في تموز ! » وطالب باعادة النظر المباشرة في « معاهدات ١٨١٥ المخزية » . وكتب . « ان الحكومـة لا يمكن ، دون أن تخون مصالح فرنسـا وتخونها بشكل مجرم وجبان ، وشائن ، أن تسمح بأن تكون الضفة اليسرى لنهر الراين تابعـة إلى حكومة أخرى غيرها أو إلى أمـة تتفق وإياها في وحدة أفكار تامة » (١٧ نيسـان ١٨٣١) . وكان مقتنعاً بان جيوش أوربة غير قادرة على الوقوف أمام الشعب الفرنسي ، أمام الجنود المواطنين ، الذين يدفعون الجنود المحترفين . وفي بعض الأحيان ، في أيلول وفي آخر كانون الأول ١٨٣٠ ، نرى في صفوف اليسـار دفعاً لضم بلجيكا إلى فرنسا : فقد طالب بذلك نائبان وهما : الجنرال **لامارك** ، **وموغن** . وكان رجال ثورة تموز مقتنعين بأن كل شيء ممكن لفرنسـا ، وان أوربة تنتظر من فرنسـا القيادة . وقد أعرب **لوي بلان** في تاريخه ، « تاريـخ عشر سنوات » ، عن المفاهيم التي كانت تجري آنذاك في فرنسا والتي كان يشارك بهـا . « لم ير بعـد شيء مثل ذلك في التـاريـخ ، لقـد ظهـرت الدول المتغطرسة صرعى ؛ ولن تحيـــا الأمم بعد الآن إلا بمساعدة فرنسا وسماحها » .

وفي بداية ١٨٣١ هجرت بسرعة فكرة استعادة الضفـة اليسرى لنهر الراين ، ووضع برنامج الضم جانباً ، وتغلبت الفكرة الليبرالية (الحرة)

على الفكرة القومية . فقد كان يراد بسط المكسب الذي حققته الثورة في فرنسا ، وهو التحرير الفرنسي ، على الشعوب الأخرى ، وذلك بمعاودة الدعاية الجيروندية للأفكار الثورية في أوربة ، وحرب تحرير الشعوب ، وعلى الأقل ، عند الحاجة ، دعم الشعوب الثائرة على طغاتها بالأسلحة الفرنسية . وكانت قضية تحرير القوميات إحدى النقاط الست في البرنامج السياسي لجريدة « المستقبل » التي يحررها لامانيـــة . وقامت الصحف الليبرالية كلها بحملة اجماعية لصالح الثورات في أوربة : وكتبت جريدة «الكرة» (الغلوب) : « إن أماني أوربة تدعو فرنسا للصف الأول من بين الأمم ، فلتقبل باعتزاز هذه الوظيفةالعالية ، ولتمسك بيد قوية صولجان العالم ، وإذا دفعت حتى النهــــاية ، فلتضرب بشدة الأمراء والاباطرة الارستقراطيين الذين يستشرون بعنادهم الأحمق في الحفـاظ على حكم شعب لصالح شعب آخر » .

وهكذا أصبحت فكرة رسالة فرنسا ، فرنسا محررة الشعوب الأخرى ، مذهباً فرنسياً وفكرةً رائجة .

الثورة البلجيكية . — ولكن الثورة لم تنفرد بفرنسا ، فبعد سنتين ، اضطربت أوربة بحركات سياسية لم تنسج بخاصة على منوال الثورة في فرنسا ، بل كانت أكثر تعقيداً منها. غير أن الثورة في فرنسا كانت ، على الأقل ، بالنسبة لهذه الحركات ، فرصة سانحة ومشجعة . فقد انفجرت قبل آخر العام ١٨٣٠ ثورتان : ثورة في بروكسل في ٢٥ آب ، وثورة في فارسوفيا في ٢٩ تشرين الثاني .

وتستحق الثورة البلجيكية دراسة خاصة . لأنهـــا ولدت ، كالثورة

الاغريقية ، دولة جديدة في أوربة . ولقد اسهمت فرنسا في هذه الحركة ، ويجب أن نميز في موقفها حيال هذه الثورة أمرين : موقف الرأي وموقف الحكومة .

موقف الرأي الفرنسي . — اتجه الرأي بما سمي « حزب الحركة » معارضاً في ذلك « حزب المقاومة » . فقد وجد في باريس جمع صغير من البلجيكيين الديموقراطيين اللاجئين ، مثل الزعيم **بوتر وتيلمانس** . وبعد ثورة تموز أقام الأحرار الفرنسيون مآدب على شرفهم ، وألقوا بنداءات لتحرير البلجيكيين وأرسلوا رسلاً إلى بروكسل ، وكان بعضهم يفكر ويؤمل بضم بلجيكا إلى فرنسا مثل : **بينيون** ، **لافيت** ، **دوبون دولور** ، وهم وزراء ، وكانت هذه الفكرة تداعب خيالهم ، وكانت منتشرة بخاصة في عالم اليسار المتطرف (أقصى اليسار) ؛ حتى ان لوي بلان لام حكومة تموز لوماً عنيفاً لأنها لم تغتنم هذه الفرصة وتوسع فرنسا نحو الشمال . وعندما قامت الثورة في بروكسل انتظم متطوعون في باريس وألفوا الجوقة الباريسية ؛ وانخرط فرنسيون آخرون في الجيش البلجيكي ضباطاً وضباط صف ، نذكر على سبيل على المثال منهم **جنفال** وكان مؤلف النشيد القومي البلجيكي « **لابرابانسون** » .

وإذا ادرك الفرنسيون أن امكان ضم بلجيكا كان وهماً وضلالاً ، فقد دعموا ، على الأقل ، بقواهم كلها البلجيكيين في تنظيم دولتهم : شجعوا الكونغرس الوطني البلجيكي على أن يسوي وحده مشاكل تنظيم المملكة دون أن يهتم بأوربة : وألقى بينيون لهذا الغرض خطاباً عظيماً في المجلس الفرنسي في ١٣ تشرين الثاني . وليكيدوا للوي ـ فيليب اثاروا قضية ترشيح دوق **لوشتانبرغ** ابن **أوجين بوهارنيه** لعرش بلجيكا .

وهاجموا بعنف انصاف الحلول التي اتخذها مؤتمر السفراء ، ثم هللوا على قدر استطاعتهم للحملة الفرنسية عام ١٨٣١ و ١٨٣٢ التي خلصت البلجيكيين من الجيش الهولندي . ودعم الرأي الفرنسي بحرارة النظريات القومية التي قال بها البلجيكيون المتشددون ، حتى ان هذه الحركة كانت في بعض الأحيان تضايق الدبلوماسية الفرنسية بل وكادت تفسد القضية البلجيكية.

موقف الحكومة الفرنسية . — وكانت الحكومة الفرنسية بالطبع اكثر سياسة وحذراً ، وقدمت للبلجيكيين خدمة جلى : فبفضل الدبلوماسية الفرنسية انشئت الدولة البلجيكية وقبلتها أوربة . ولا شك في أن حكومة لوي - فيليب لم تكن بعيدة عن المنفعة كل البعد ، ولكنها قبلت بالتسويات أي بالحلول الوسط . ولم يكن تالليران ، وكان سفيراً في لندن ، ولا لوي ـ فيليب مشبعين بنظريات القومية ، بل كانا يعملان من وجهة نظر دبلوماسية صرفة ، واقتضت ترتيباتها الدبلوماسية تسوية لقضية البلاد المنخفضة وانتهت أخيراً لصالح القومية البلجيكية . ومنذ البدء جعل لوي ـ فيليب أوربة تقبل بمبدأ ترك البلجيكيين وأنفسهم في حركتهم الاستقلالية : ففي ٣١ آب (كانت ثورة بروكسل في ٢٥ منه) صرح الكونت موليه إلى السفير البروسي ، دوفرتو ، بأن الجيوش البروسية إذا دخلت بلجيكا ، فان الجيوش الفرنسية تدخلها مباشرة لدعم البلجيكيين . ثم حمل لوي ـ فيليب لندن على قبول مبدأ الفصل بين البلاد المنخفضة وبلجيكا مقابل تصريح أعرب فيه عن تخلي فرنسا المطلق عن هذه البلاد . وتفاهم تالليران مع آبردين ، وزير الشؤون الخارجية الانكليزي ، ثم مع خلفه بالمرستون ، على عرض القضية البلجيكية على مؤتمر السفراء المنعقد في لندن ، وحمل المؤتمر على قبول مبدأ الهدنة في ٤ تشرين الثاني . وفي ٢٠ كانون الأول قبل المؤتمر الدولي

استقلال البلجيكيين بتسوية اتفق عليها بشأن البلاد والوضع الدولي للدولة الجديدة ، وفي ٢٠ كانون الثاني ضمنت أوربة حياد بلجيكا بعد أن قبله المؤتمر . وأخيراً في ٢٧ كانون الثاني تقررت أسس دستور المملكة الجديـدة .

وتخلت الحكومة الفرنسية عن التوسع الأرضي ، وبالتالي عن البرنامج القومي . واكتفت بتأمين الأمن الفرنسي على حدودها الشماليـة بازالة الدولة الفاصلة (الحاجزة) التي شكلت ضدها في العام ١٨١٥ ، وتغطت بالعكس ، بدولة محايدة دوماً على حدودها الشمالية . وكان لهذه السياسة فائدة مزدوجة : للبلجيكيين ، بانشاء دولة مستقلة ؛ وللسياسة الدولية بصالحة فرنسا وانكلترا بزوال المشكلة القديمة ، مشكلة البلاد المنخفضة التي كانت سبباً في النزاع بين هاتين الدولتين منذ قرون . ومقابل هذا النجاح قبل لوي – فيليب بعض التسويات الأرضية في تعريف بلجيكا ، ورفض أن يكون ابنه الدوق دونومور ملكاً لبلجيكا بعد أن انتخب في شهر شباط . وكان البلجيكيون يؤملون عن هذا الترشيح أو الانتخاب أن يجروا فرنسا للدفاع عن مملكتهم . وظل لوي – فيليب على الصعيد الدولي وقبل باختيار ليؤبولد دوساكس كوبورغ ملكاً للبلجيكيين ، وتمت التسوية النهائية للدولة البلجيكية بمعاهدة الاثنتي عشرة مادة المؤرخة في ٢٦ حزيران ١٨٣١ .

وبعد هذه الخدمة الرفيعة قدمت الحكومة الفرنسية للبلجيكيين خدمة أخرى أعظم منهـا وأنقذتهم من نكبة . فعندما أراد الجيش الهولندي استعادة بلجيكا ودخلها في ٣ آب ١٨٣١ ، كان رد الفعل العفوي للحكومة الفرنسية مباشراً ، ودون أن تشاور الدول الأخرى أرسلت

الجيش الفرنسي لنجدة البلجيكيين . وكان جيش الجنرال جيرار سريعاً وتمكن من ٩ إلى ٢٠ آب أن يجبر الهولنديين على التخلي عن بلجيكا . وعندما لم يقبل ملك البلاد المنخفضة ، غليوم ، بمعاهدة الاربع والعشرين مادة المؤرخة في ١٥ تشرين الأول ١٨٣١ اقترح لوي - فيليب أن تفرض عليه بالقوة ، وانطلق الجيش الفرنسي لاسترجاع آنفرس ، آخر حصن لم يجل عنه الهولانديون ، بحملة سريعة دامت من ١٥ تشرين الثاني إلى ٢٣ كانون الأول ١٨٣٢ .

وانشئت الدولة البلجيكية بفضل فرنسا ، وإذا لم تكن مطابقة مطلقاً للتطلعات القومية وأماني البلجيكيين القومية فذلك لاعتبارات السياسة الداخلية وبسبب كراهية انكلترا التي اضطر لوي - فيليب أمامها أن يقبل بتسويات للحفاظ على الاتفاق الدولي . هذا وتجب الاشارة إلى ان لوي - فيليب حاول مرتين ، ودون جدوى ، ان ينتهز الفرصة لاصلاح تسوية حدود ١٨١٥ واستعادة هذه الاقتطاعات الخفيفة ، فيليبفيل ، ماريا نبورغ ، بُويّون ، التي جرت عام ١٨١٥ ؛ إلا أن لوي - فيليب استطاع أن يحصل من الحكومة البلجيكية على إزالة مواقع هذا « الحاجز » أكثر من المؤتمر نفسه .

وهكذا نرى ، في القضية البلجيكية ، أن الحكومة الفرنسية ، وان لم تتبع تماماً برنامج الحزب القومي الفرنسي والبلجيكي ، فقد دعمت على الأقل هذه السياسة الجديدة التي أدت إلى إنشاء دولة قومية ، دولة بلجيكا .

قضية بولونيا . — أما في قضية بولونيا فقد كانت النتائج مغايرة تماماً . لقد كان الفرنسيون يعتبرون دوماً بعث بولونيا عنصراً من العناصر الأساسية في تجديد أوربة . وكانت فرنسا تشعر بندم قديم بسبب تقسيمات

القرن الثامن عشر ، وبعاطفة وحدة نفسانية مع البولونيين في الوقت الذي كانت نظرياتها في الحق العام تجعلها تقبل ببعث الدولة البولونية . ولقد جعل الفرنسيون ، وبخاصة منذ ١٨١٥ ، فكرة القومية البولونية نقطة من نقاط برنامجهم . لقد كانت الهجرة البولونية الاولى بخاصة عسكرية ، وانصهرت في الجيش الفرنسي . وكانت بولونيا تريد أن تعيد بناءها على أسس جديدة . وفي ١٨١٥ أوجد المالكون الجدد لبولونيا في مختلف أقسام الدولة أوضاعاً ملائمة :

في **غاليسيا** ، لم يهتم الحاكم النمساوي إلا قليلاً بهذا الاقليم النائي وترك الماغناث البولونيين احراراً في حياتهم العاطلة وفي السيطرة الاقطاعية التي يمارسونها على فلاحيهم . وعرفت غاليسيا مركزاً فكرياً هاماً في مدينة **لامبرغ** أو **لفوف** في اللغة البولونية ، حيث أسس البولوني الثري ، الكونت **اوسولانسكي** ، في العام ١٨١٣ معهداً ، ومكتبة ومتحفاً ، ووثائق ودروساً للغة والتاريخ والآداب البولونية .

وفي **بروسيا** ، اعطى فريديريك غليوم الثالث رعاياه الجدد وعوداً صريحة في العام ١٨١٥ : « وانتم أيضاً ، لكم وطن ، وستدخلون ملكيتي دونما حاجة إلى التخلي عن وجودكم القومي » . ووعد خاصة باحترام اللغة البولونية . وفي الواقع ، عين للاقليم حاكماً بولونياً قريباً لأسرة آل هوهنتسولرن ، وهو الامير **رادتسيفيل** . واعتمد على الاكليروس وعامله معاملة حسنة : وقد أعرب المطران ، رئيس أساقفه **لوفيتش** ، الأمير **كارينسكي** عن تعلق الاكليروس البولوني بحكم آل هوهنتسولرن . وصدرت في العام ١٨١٩ براءة ملكية تحمي الفلاحين من تجاوز الأمراء . وفي

١٨٢٢ انشىء دياط قومي في بوسن واحترمت اللغـــة البولونية في المدارس .

في **مملكة بولونيا** ، كان القسم الهـــام القسم الروسي الذي أطلق عليه القيصر الكسندر في العام ١٨١٥ اسم « مملكة بولونيا » . وقد حفظ لها سماؤها القومية في كنيستها وفي مدارسها . وكان للمملكة نقدها (عملتها) ، وجماركها ، وجيشها وادارتها . وكان الروس الوحيدون في بولونيا نائب الملك **قسطنطين** ، أخ القيصر ، والمفوض الامبراطوري، أما باقي الادارة فكان بولونياً ، حتى ان الكسندر منح بولونيا دستوراً مع مجلسين : المجلس الأعلى ، والمجلس الأدنى ، وكان ينتخب بالتصويت الضريبي ، ووزارة بولونية . ومن الطبيعي ان لم تكن هذه الوزارة مسؤولة أمام المجلسين، وأن النشاط التشريعي لهذين المجلسين كان ضعيفاً ، وما عليها إلا أن يصوتا على القوانين الجديدة والضرائب الجديدة . ومع هذا فقد كان يوجد في هذه المملكة البولونيـــة الصغيرة من الناخبين ما يفوق عدد الناخبين في فرنسا بموجب ميثاق ١٨١٤ . وكانت السياسة التي تسلكها الوزارة البولونية سياسة نافذة وقوية . فمن ذلك أن الوزير المسمى **لوبيكي** ، الذي يسمى كولبير البولوني ، تشبهاً بكولبير الفرنسي وزير لويس الرابـع عشر ، نظم الادارة الماليـة تنظيماً حسناً ، وانشأ مصارف ، وشركات حسم ، ونما الازدهار المـادي في المملكة : لقد انشئت بخاصة صناعات جديدة ، صناعات الأقمشة ، وهيئت لتأخذ أهمية كبرى في لودز ، وزاد السكان بنسبة مليون ونصف في خمسة عشر عاماً. ولم تضايق الحكومة الروسية الحياة الفكرية ، بل على العكس ، لقد تشكل مركزان هامان للحركة البولونية حول الجامعات : في **فيلنو** في ليتوانيا التي لم تكن داخلة في المملكة البولونية ، وفي **فادسوفيا** . وفي

فيلنو كان القيم على الجامعة ، ويسميه القيصر ، الأمير تشارتوريسكي البولوني . وفي هذه المنطقة الليتوانية الداخلة في روسيا ، تشكل مركز للحضارة البولونية يضم علماء وأساتذة آداب ، مثل الأخوين سنياديكي وكان أحدهما كيميائياً والآخر رياضياً ، وبخاصة مؤرخاً سيلعب فيما بعد دوراً في الحركة البولونية وهو يواشيم لولوفيل . أما في فارسوفيا فقد أخذت جامعتها أهمية عظمى وانشئت بجانبها « جمعية أصدقاء العلوم » . ووجدت في كل هذا حركة نشيطة جداً لم تكن في إلهامها بولونية فحسب بل سلافية بشكل عام .

وهكذا كانت الظروف المادية والعامة للحياة في أقسام بولونيا المختلفة سعيدة ، ويبدو ، اذا أخذنا بالمنافع المادية ، ان بالامكان أن تشايع بولونيا سادتها الجدد .

ومع هذا فان الناس لم يكونوا مسيرين بنفعتهم المادية فقط ، بدليل أن معارضة قومية تشكلت مباشرة ضد روسيا ، لا ضد بروسيا وضد النمسا ، مع أن روسيا وحدها ، كما رأينا ، هي التي أعادت بناء نواة بولونيا .

وكانت هذه المعارضة على صعيدين : معارضة ليبرالية (حرية) ومعارضة قومية ومن حيث السياسة الصرفة يأخذ البولونيون على الدستور في أن القيصر أعطاهم اياه غير كاف : فلم تكن دورة الدياط الا كل عامين . وسلطاته غير كافية . ولم يكن القيصر لينكر ذلك . فقد ذكر الدياط في ١٨١٨ ان سلطته التشريعية محدودة بالقوانين الجديدة . وفي العام ١٨٢٠ صوت الدياط بالاجماع إلا ثلاثة أصوات على برنامج مطالب قومية ، فأجاب القيصر في العام ١٨٢١ بجواب مهدد : فقد هدد بولونيا بحذف جزء من

حرياتها « إذا لم تظهر بأنها أهل للبقاء في النظام الذي منحته » . وقويت معارضة البولونيين والدياط السياسية للحكومـــة الروسية في عهـد القيصر نيقولا وكان رجعياً في أعماقه ، ولكنه ، مع ذلك ، ابقى الدستور البولوني الذي أقسم عليه منذ تسلمه العرش وتوج في بولونيـا . وبلغت هذه المعارضة نقطة الذروة في دورة الدياط في شهر أيار ١٨٣٠ : فقد عارض البولونيون المفوض الامبراطوري نوفوسيلتسوف واعتبروه جاسوساً للقيصر ، كما عارضوا سياسة الاستبداد المستنير نوعاً ، التي سلكها الوزير لوبيكي .

وظهرت هذه المعارضة بخاصة على الصعيد القومي . وكانت الشكوى الكبرى ، التي قدمها البولونيون للروس ، من تقلص بولونيا وتحديـد مملكة فارسوفيا وجعلها أصغر بكثير من بولونيا التاريخية . وبالفعل كانت حصة روسيا من بولونيا ٦٣٤٠٠ كم٢ ، على حين أن المملكة كلها كانت ١٢٧٠٠٠ كم٢ . وقد تشكلت ، في الواقع ، من الحصة التي أخذها الروس عام ١٨١٥ أكثر بكثير مما تشكلت من بولونيا القديمة . وكان البولونيون يطالبون باعادة بناء دولتهم القديمة من الوجهـة الأرضية . ففي ١٨١٥ احتج كوزيوسكي العجوز بحرارة على تقليص بولونيا . وطالب البولونيون بليتوانيا واكرانيا، وما من أحد كان يفكر في ذلك الحين أن من الممكن يوماً ما وجود قومية ليتوانية وقومية اكرانية . وكان هذا الاقليم يؤلف ما يسمى « التخوم الروسية - البولونية » التي منع الروس القيصر من ربطها ببولونيا نفسها . وكان يطالب بـ « بولونيا الكبرى » أو بولونيا القديمة رجال الآداب ، كالشاعر ميسكيفيتش في « الاغـــاني التاريخية » ، التي صدرت عام ١٨١٦ ، والمدرسة الابداعية البولونية ، على حين أن المدرسة الاتباعية ، بصورة عامة ، كانت محبة للروس .

ولدت هذه المعارضة الليبرالية والقومية حزبين قادا النضال بشكل يختلف أحدهما عن الآخر : الحزب الأول وكان يضم أشد المتزمتين ، وكانوا ، كسائر أحرار أوربة في ذلك العصر ، ينتظمون في جمعيات سرية كالجمعية التي تشكلت في ١٨٢٤ وعرفت باسم « الجمعية القومية الوطنية ». وقد كشفت الضابطة الروسية أمرها وحكم على زعمائها بالموت . وحاول هؤلاء الأحرار أن يتفاهموا مع الجمعيات السرية الروسية المعاصرة أثناء الثورة عند جلوس القيصر نيقولا الأول . وتعرض للخطر بعض البولونيين مع زعماء ثورة بطرسبورغ ، وأوقفوا ، وحاكمهم الدياط وحكم على بعضهم بالسجن خمس سنوات وبرأ ثلاثـــة آخرين . وفي ١٨٢٦ تشكلت جمعية سرية أخرى وأخذت اسم « اتحاد الضباط » وكان هؤلاء الضباط شباناً من تلاميـــذ المدارس العسكرية ، وقد انضم اليهم مدنيون وصحفيون ونواب . وكان غرضهم اعداد ثورة في بولونيا بمساعدة الجيش البولوني . وهيئت هذه الثورة المسلحة في العام ١٨٢٨ .

وكان هؤلاء الأحرار البولونيون على صلة بضباط الجيش والمفكرين، وكانت فكرتهم اعادة بناء بولونيا التقليدية وكره الروس كراهيـة شديدة ، وسيسمون « **الحمر** » مقابـــل معارضة جماعة آخرين معتدلين يسمون « **البيض** ». ويساقون عادة من بين رجال الطبقة الارستقراطية في المجتمع، من كبار الموظفين البولونيين والاكليروس ، وكانوا من أنصار الانتظار وترك سنوات الخطر السيئة تمر ، والاكتفاء بالحفاظ على ما حصل عليه أي بالدستور البولوني ، وعدم اعطاء الروس حجة لتهديم النظم الليبراليـة (الحرة) .

وعندما قامت ثورة ١٨٣٠ الفرنسية أحدثت فوراناً عظيماً وأمـــلا

كبيراً . واتاح القيصر نفسه المناسبة أداة الثورة ، لأن الجيش البولوني جند لضرب الثورة البلجيكية . وثارت قطعـــات هذا الجيش في ٢٩ تشرين الثاني في فارسوفيا واستولت على قصر البيلفيدير ، ولكن الدوق الأكبر قسطنطين تمكن من الفرار مع الجنود الروس في الجيش . ثم تشكلت حكومة مؤقتة ودعي الدياط للانعقاد .

حاول البيض أن يوجهوا الحركة ، وتزعموها وسلمت القيادة إلى جنرال كان في الجيش النابوليوني وهو شلوبيكي ، وقام هذا بمفاوضات مع قسطنطين والقيصر ، ولكن القيصر صرح في بيان ١٧ كانون الأول بانه يشترط شرطاً أولياً وضرورياً وهو خضوع البولونيين خضوعاً كاملاً .

وعجزت الحكومة البولونية بسرعة عن تلبية مطالب المتطرفين ، الحمر ، الذين سيطروا على الدياط المنتخب . وفي ٢٠ كانون الأول صوت الدياط على « بيان الشعب البولوني » وهو : « ان الشعب البولوني خرج من حالة الخضوع والتبعية التي كان فيها ، وقـــد وطد العزم على ألا يعود إلى السلاسل التي حطمها ، وألا يضع سلاح أجداده قبل أن يحصل على الاستقلال والسلطة ، الضمانين الوحيدين للحرية ،أويؤمن الحريات، وله مـــلء الحق مزدوجاً في أن يعتبرها تراثاً نبيلاً من أجـداده وضرورة عاجلة في الحاضر . ولن يتخلى عن النضال قبـــل أن ينضم إلى أخوته الراسفين في غـل بلاط سان بطرسبورغ، وقبـل أن يحررهم ويجعلهم يشاركون في حرياته وفي استقلاله » . وأمام هذه الأهمية التي أخـذها الحمر انسحب البيض أي المعتدلون وشلوبيكي ، في كانون الأول وفي كانون الثاني ١٨٣١ .

وأعلن الحمر سقوط آل رومانوف والحرب على روسيا . ووجهوا نداءً إلى أوربة ، ودخل الجيش البولوني ليتوانيا .

أحدثت ثورة بولونيا في فرنسا فعلًا سحرياً : فقد تشيعت لها الأحزاب وجميع السياسيين ، من لافاييت الى مونتالامبير ، للقضية . وتألفت لجان لمساعدة البولونيين .

وساندت جميع الصحف الحركة ، من صحيفة « القومي » الى صحيفة «الدستوري » . وألف بيرانجيه أغاني أنشدت في شوارع باريس . وطالب لافيت باصلاح « خزي ١٨١٥ » وتقسيم بولونيا بالسلاح . وعلى اثر قداس أقيم للاحتفال بالذكرى السنوية لوفاة **كوسيوسكو** ، في ٢٣ شباط ، قامت مظاهرة في باريس ضد سفارة روسيا ، وضرب الجمهور نوافذها بالحجارة . ووجه فرنسيون رسائل سباب وشتائم وتهديدات إلى القيصر : فمن ذلك أن الجنرال **برتيه** كتب إلى القيصر نيقولا الأول رسالة تبدأ بهذه الكلمات : « ياسيد ، أعتقد بأن بربريتك في أقصاها » . ودفع اللاجئون البولونيون في فرنسا السياسيين والحكومة للتدخل .

ماذا يمكن أن تقوم بـه الحكومة الفرنسية لصالح بولونيا ؟ من البديهي ، شيئاً قليلًا ، وكما قيـل في القرن الثامن عشر : تعالى الله كثيراً ونأت فرنسا كثيراً . لقد أعلمت الحكومة البولونيين على لسان سفيرها الدوق **موورتمار** الذي عاد إلى سان بطرسبورغ ، **بأن** من المستحيل عليها أن تدعمهم بالسلاح ودعتهم إلى الاعتدال . وصرح وزير الشؤون الخارجية ، **سيباستياني** ، إلى سفير روسيا في فرنسا : « ان تقويض هذه المملكة سيكون عملًا مناقضاً لبنود مؤتمر فينا » وطالب الحكومة الروسية بالحفاظ على المملكة البولونية ، وقدم وساطته . وأبعد **كازيمير- بيريه** بالحال فكرة التدخل المسلح ، ولكنه حاول ، على الأقل ، تدخلًا دبلوماسياً : اقترح في ٢٠ حزيران ١٨٣١ على انكلترا والنمسا القيام بتدخل مشترك لدى القيصر .

ولكن الانكليز رفضوا في ٢٢ تموز . ومع ذلك حاولت فرنسا « تدخلاً معنوياً » لدى الحكومـــة الروسية ، ولكن نسيلوود رفض محاولات السفير الفرنسي .

وتجمع بسرعة جيش روسي يتألف من ١٢٠٠٠٠ رجل وحمل على البولونيين في شهر شباط ، وشيئاً فشيئاً دحر البولونيون قرب فارسوفيا ، ثم توقفت العمليات أثناء الكوليرا ، واستؤنفت في آخر الصيف بقيادة الجنرال باسكيفيتش وصل الجيش الروسي أمام فارسوفيا وعرض باسكيفيتش على البولونيين الخضوع مقابل العفو العام وبقاء الدستور . ولكن العناصر المتطرفة تزعمت الحركة البولونية وأخذت تذبح الأسرى الروس في سجون فارسوفيا . وطالب البولونيون بالاستقلال والحدود القديمة ورفضوا كل مفاوضة مع الروس . ولذا عاود باسكيفيتش العمليات ، وضربت فارسوفيا بالقنابل وأخذت في ايلول . وهكذا أخمدت الثورة .

وأحدث هذا الاخفاق البائس للثورة البولونية خوراً حقيقياً في فرنسا . وعندما عـــلم باستسلام فارسوفيا ، في ١٥ إيلول ، ساد حزن عام : أغلقت المسارح كلها ، وعلقت الأعمال . وفي اليـوم التالي ، قام في المجلس نقاش مؤلم في القضية البولونية ، وفي هذا النقاش قال الجنرال سيباستياني ، وزير الشؤون الخارجية ، هذه الكلمة الحزينة : « النظام يسود في فارسوفيا » ، فأجاب عليها مندوب بولوني مستشهداً بقول الكتاب المقدس : « حيث يصنعون الصحراء يسمون ذلك سلاماً » . وصوت المجلس موافقاً على سياسة الحكومة . ولم يبق هنالك شيء آخر للعمل . وأصبحت القضية البولونية منذ الآن قضية فرنسية . وفي كل عام كان المجلس الفرنسي ، في رده على خطاب العرش ، يؤكد الأمل واليقين بان بولونيا ستحيا يوماً ما .

لقد كانت نتائج هذه الثورة بالطبع شؤماً على بولونيا . فقد صرح **اوكاز** (مرسوم) قيصري لاقى استحسان الروس ، حتى الأحرار، مثل **بوشكين** : « ان بولونيا تؤلف منذ الآن جزءاً من الأمبراطورية ولا تشكل مع روسيا الا امة واحدة » . والغي الدستور وعوض بنظام أساسي في ٢٦ إيلول ١٨٣٢ ينظم الادارة الروسية في بولونيا . وفيه يعد القيصر بالحفاظ على الكنيسة واللغة البولونيتين . وفي الواقع ، كانت حكومه باسكيفيتش حكومة ارهاب عسكري : حذفت جامعة فارسوفيا والجمعيات السياسية والفكرية أيضاً . وأقيم موظفون روس مقام الموظفين البولونيين ، وأصبحت اللغة الروسية اجبارية في الادارة . وشيئاً فشيئاً الحقت المؤسسات البولونيـــة المختلفة بالمؤسسات الروسية : ففي ١٨٣٩ التحق التعليم العام بوزارة سان بطرسبورغ ، وربطت بولونيا بمجلس الشيوخ الروسي الذي كان محكمة تميز ومجلس دولة . وادخل قانون العقوبات الروسي الى بولونيا عوضاً عن قانون نابوليون . وقسمت البلاد إلى عشر « حكومات » . وكان هذا آخر وجود قومي لبولونيا .

ترينا هذه الحركة البولونية عدة حوادث هامة ، أهمها :

١ — تمجيد الفكرة القومية التي أخذت في بولونيا شكلاً متطرفاً تبعاً للمزاج البولوني ، هذا المزاج المتحمس المندفع الذي نراه عند البولونيين ويدفعهم في كل شيء إلى التطرف . ونجد هنا سماء خاصة للحركة البولونية ترجع إلى المزاج القومي .

٢ — الصلة الوثيقة بين فكرة الحرية وفكرة القومية اللتين تمتزجان تماماً في بولونيا .

٣ — لقد أحدثت هذه الثورة فرقة جديدة بين البولونيين ، وهجرة

جديدة أهم بكثير من هجرة آخر القرن الثامن عشر ، ومن الممكن ان يقال ان روح بولونيا ذهبت لتلجأ في الخـــارج وان قلبها ينبض خارج حدود البلاد البولونية .

الثورة في ايطاليا . ـ لقـــد أدت ثورة ١٨٣٠ في بلجيكا وفي بولونيا إلى ثورات قومية كبرى في أوربة ، ولكن هذه الحركات لم تصل إلى هذا الحد ، ولم تتجاوز مرحلة الاضطراب : ففي أوربـة الوسطى رافقت ثورة ١٨٣٠ حركة قومية ، في إيطاليا وفي ألمانيا ، تستحق دراسة خاصة . ولنشر ، فيما يتعلق بايطاليا ، الى ان حركة قومية مزدوجة تألفت في السنوات التي سبقت عـام ١٨٣٠ : احداهما حركة مستقبل ، ولكنها لم تحمل بعد ثمارها ، وكانت أيضاً بعيدة جداً عن كل ما أعطت في الآجل . كانت هـذه الحركة فكرية أو بالاحرى أدبية ، حركة ابداعية ، تتصل بشواهد **الفييري** و **فوسكولو** في الوطن في زمن الأمبراطورية الفرنسية ، وتدعو إلى إيطاليا ، إيطاليا المستقبل ، أو أنها ترجع إلى عظمة إيطاليـا الرومانية . وهنا تبدأ حركة تربية فكرية تظهر بعـــد ١٨٣٠ بحركة **البعث** ولكنها كانت في حالة رسم أولي . ولذا فإن الشكل الآخر للمعـــارضة يبقى على الصعيد الأول ، وهـو شـكل العمل الذي رأيناه في حركة « الفحمية » التي أجهضت في ١٨٢٠ وفي ١٨٢١ ، ولكنها عاشت ودامت لأن العاملين الذين ولداها قويا مع الزمن . لقد أصبحت السيطرة النمساوية في إيطاليا عامة وثقيلة ، وبالتالي ازداد كره الالمان، **التدسشي** ، في ايطاليا . واستعيدت كلمة الأمر القديمة التي كانت تردد في القرن الخامس عشر : «فروا من البرابرة » . ومن جهة أخرى ، قوي رد الفعل السياسي أيضاً . ففي نابولي تبنى الملك فرنسوا ، الذي حكم حتى ١٨٣٠، سياسة

الارهاب . وفي روما أعيدت الحكومة القديمة ، بعد زوال كونسالفي والبابا بيوس السابع ، في حبرية ليون الثاني عشر . وكانت سياسة النمسا قوية وشديدة جداً في منطقة ميلانيا . وناضل الايطاليون دوماً هذه الرجعية بتشكيل الجمعيات السرية وتدبير المؤامرات . الا ان هذه الجمعيات السرية كانت قوة مبعثرة وليست أهلاً للتوفيق بين بلد وآخر ، فضلاً عن أن قوة هذه المعارضة لا تتناسب مع قوة الحكومات .

لقد كان مثل فرنسا اشارة لاستئناف النضال . ويجب أن نقـــول: المثل والعمل . فقد تشكلت لجنة ايطالية في باريس لنشر منشورات ثورية تغرق بها ايطاليا ، ولارسال المـال إلى الوطنيين الايطاليين وتشجيعهم على القيام بالثورة . واستقبلت باريس لذلك قبيل الثورة استقبالاً حماسياً الشاعر سيلفيو بيلليكو بعد ان أطلق سراحه من سجنه وكتب فيه كتابه «سجوني» [١] وكذلك مبدأ عدم التدخل الذي نادت به الحكومة الفرنسية ، كان أيضاً مشجعاً للايطاليين . وحاولوا الحصول على الحريات . وكانت الجمعيات الايطالية المختلفة تريد دستوراً ليبراليا ، وإنشاء حرس قومي ، وحرية الصحافة . ومع ذلك لم تذهب الحركة حتى التنفيذ إلا في إيطاليا الوسطى أي في الدول الايطالية التي كانت الحكومات فيها أضعف من غيرها ، وحيث أحدثت وفاة البابا بيوس السابع ، في ٣٠ تشرين الثاني ١٨٣٠ ، فترة ظل فيها العرش الحبري شاغراً عدة أشهر .

نشبت الثورة في إيطاليا الوسطى ، في ٥ شباط ١٨٣١ ، وكانت نقطة الانطلاق دوقية مودينا ، وكان الدوق فيها يشارك ، في الأصل ، بفكرة محاربة النمساويين ، ولكنه عنـد العمل تخلى واختفى . ثم

---

(١) ترجم الأب يوسف سعد كتاب «سجوني» الى العربية ونشره في القاهرة ١٩٥١

انفجرت أيضاً في بولونيا وفي المـــدن الأخرى في رومانيو والمارش واومبريا وأخيراً في بارما حيث تألفت حكومة مؤقتة .

وكانت هذه الحركات تشبه من حيث الشكل حركات ١٨٢٠ و ١٨٢١ . ولكن وجد فيها شيء جديد : ففي الدولة الحبرية ، في **القصادات** (أي المناطق التابعـــة للبابا) والمارش تأسست حكومة مؤقتة من النبلاء والبورجوازيين ودعت الى الانعقاد مجلساً من النواب المنتخبين في بولونيا وألقى هذا المجلس بنداء لتشكيل حكومـة إيطاليا الوسطى في دولة واحدة ، في ٤ آذار . وتدل هذه الاحداث على تطور سياسي اكثر تقدماً مما كان في ١٨٢٠ : لقـــد وجد برنامج اصلاحات ، وهذا ما لم نره في نابولي او بيمونت في ١٨٢٠ و ١٨٢١ . لقد وجدت عبارة تدل على أفكار جديـــدة : وهي الكلام عن **الوحدة** . وسمي مجلس بولونيا « مجلس نواب الأقاليم الحرة » . ثم أطلق النواب على أنفسهم اسم : نواب « الأقاليم الايطالية المتحدة » . ومن الطبيعي ان هذه الثورات الخفيفة لم تدم ، وكان رد الفعل النمساوي مباشراً : فقـــد احتلت الجيوش النمساوية في البدء بارماً ومودينا ثم رومانيو ، وخضع الثوريون بعد قليل ، في شهر آذار ، اثر الوعد بالعفو العام .

موقف الحكومة الفرنسية . ــ حيال هذه الثورات الايطالية كان موقف الحكومة الفرنسية حرجاً نوعاً ، كانت مأخوذة بين الرغبة في الحفاظ على السلام وعدم كفاية جيوشها من جهة ، وهياج الرأي الذي كان يريد التدخل لصالح إيطاليا من جهة أخرى . وأكدت الحكومة بأنها راغبة في الحفاظ على السلام: أكد ذلك مراراً الجنرال سيباستياني في المجلسين ، في ١٣ تشرين الثاني ١٨٣٠ ، وفي أول كانون الأول . وصرح إلى سفير النمسا ، آبوني ، في

٢١ تشرين الثاني ، بأنه ، من جهته ، عدو صريح لنظام الدعاية والحزبية ، ولكن الحكومة أمام دفع الرأي، اضطرت إلى اتخاذ تدابير لاعادة بناء الجيش لتكون لديها ، عند مقتضى الحال ، قوة لدعم حججها . وأوضح بأن فرنسا إذا كانت لا تريد التدخل في الخارج ، فهنالك بعض دول متاخمة لفرنسا ولا تقبل فرنسا بأن يتدخل في أمر هذه الدول ، ويريد بذلك : بلجيكا وسويسرا والدول الساردية . ولخص رئيس مجلس الوزراء : لافيت ، وجهة النظر الفرنسية بهذا الشكل : يوجـد **امكان** حرب إذا احتلت مودينا ، **واحتمال** إذا دخلت الدول الرومانيـة ، **ويقين** إذا احتجت البيمونت . وعندما استلم كازيير بيريه الوزارة ، في ١٣ آذار ١٨٣١ ، كانت النمسا تصفي ثورات ايطاليا الوسطى . وحافظ كازيير بيريه على سياسة أسلافه ، وقـال في ١٨ آذار إلى المجلس : « إننا نتمسك بمبدأ عدم التدخل في كل مكان بطريق المفاوضات ، ولكن مصلحة فرنسا وكرامتها تستطيعان وحدهما أن تحملانا السلاح ، ولن نتنازل لأي شعب عن حق يجبرنا على القتال لقضية . ان دم الفرنسيين لا يخص إلا فرنسا » . وفي الوقت نفسه أعلم الحكومة البيمونتية مرتين بأن النمساويين إذا هاجموها فان فرنسا تأتي لدعمها .

على أن سياسة فرنسا وإن كانت في مجموعها سياسة عطالة ، فقد دلت على أن القضايا الايطالية تهمها لدرجة خاصة : وهي تعتبر أن مصلحة فرنسا الرئيسية في منع النفوذ النمساوي من أن يثقل كثيراً على ايطاليا . وكانت الحكومة الفرنسية تدافع عن استقلال الدول الايطالية كما تدافع عن حرية حكوماتها .

كانت سياسة كازيير - بيريه ماهرة : فقد دل على أن لدى فرنسا امكانات العمل إذا أرادت ، ودعا ٨٠،٠٠٠ رجل ليكونوا تحت السلاح ،

وأرسل اسطولاً للتجوال في الآدرياتيك . وحشد بعض الجيوش في تولون : وصرح إلى الدوائر الدبلوماسية ، في ٢٧ آذار ، بأنه يجب اتخاذ أمرين منعاً لاحتمال وقوع الحرب وهما : جلاء الجيوش النمساوية خارج الأراضي الرومانية (من روما) التي دخلتها ؛ ومن جهة أخرى ، سياسة اصلاحات تقوم بها الحكومة الحبرية . ولدعم وجهة نظره أرسل سفيراً إلى روما ، الكونت سنت اولير وكلفه بأن يقترح على البابا برنامج اصلاحات ليبرالية (٣١ آذار) . وبعد مفاوضات صعبة حصل سنت اولير على أن ينعقد مؤتمر للسفراء في روما ، في ١٤ نيسان ، ويطالب البابا ، باسم أوربة ، باصلاحات .

وحصل على عفو عام لجميع الثائرين ، في ٢٠ نيسان ، ثم في ٥ تموز على اصلاح الادارات البلدية . وفي الوقت الذي كان يدفع فيه الحكومة الرومانية على القيام باصلاحات تجعل الثورة دون جدوى وتعدل الحركة الثورية ، كان كازيير - بيريه يقوم بمساع ملحة للحصول على جلاء الجيوش النمساوية وتوصل لذلك : فقد انسحبت الجيوش النمساوية من رومانيو في ١٥ تموز . وكان في ذلك نجاح مزدوج للسياسة الفرنسية وسابقة دبلوماسية هامة . وفي هذا ما يدل على بداية سياسة ستصبح في المستقبل خطاً للسياسة الفرنسية في ايطاليا وذلك بمنع سيطرة قوية للنمسا على ايطاليا وإثارة حركات اصلاح سياسي فيها .

وللأسف حدثت نكسة للثورة في رومانيو ، بسبب خرق حكومة الكرادلة ، ونتج عنها من جديد تدخل نمساوي : وفي الواقع ان الكردينال الباني ، أمام هذه الثورة الثانية ، دعا الجيوش النمساوية ، في ٢٥ كانون الأول . فدخلت رومانيو واحتلت بولونيا في ٢٨ كانون الثاني ١٨٣٢ .

فلم يقبل بذلك كازيير بيريه ، وتدخل في روما ليضطر البابا إلى دعوة فرنسا ضد النمساويين ، وأرسل اسطولاً وحملة إلى الادرياتيك لاحتلال ميناء انكونه في ٢٢ شباط . ولسوء الحظ وجهت القضية توجيهاً سيئاً : فقد أظهر قائدا الاسطول والحملة ، غالوا وكونت هذه الحملة كطليعة للجيش الفرنسي ، وشجع الجنود والضباط الفرنسيون أحرار البلاد ، وأمام هذه العملية احتج البابا بشدة . وساء أوربة أن ترى فرنسا تتدخل في دولة حرة . وارتبك كازيير بيريه ، وما وسعه إلا أن أنكر على القائد غالوا عمله . وعلى مرأى من حنق الأحرار ، تفاوض مع البابا وانتهى إلى الاعتراف باحتلال انكونه في ١٦ نيسان ١٨٣٢ . وفي الواقع ، لم ينجح التدخل الفرنسي ، لأنه لم يجبر النمساويين على الانسحاب من بولونيا ، وستبقى الجيوش الفرنسية في انكونه ما دامت الجيوش النمساوية باقية في بولونيا ، أي حتى ١٨٣٨ .

كان موقف الحكومة الفرنسية تجاه هذه القرارات الايطالية لابساً : فقد كانت بين التنازل أو الحرب . وكانت مسؤولية فرنسا المعنوية في الثورات الايطالية واضحة ، ومصلحة السياسة الفرنسية ملتزمة . ومع هذا فان الحكومة لم تشأ أن تطيع منطق وضعها ، لأنه قد يؤدي بها إلى التدخل بالسلاح لدعم هذه الثورة الايطالية ، ولم تشأ أن تكون على رأس حركة ثورية أوربية .

الثورة في ألمانيا . - لم تصل الحال في ألمانيا إلى الثورات : لأن حركة ١٨٣٠ لم تتجاوز مرحلة الاضطراب . كانت قضية الحرية السياسية ، بسبب النظام الداخلي للدول الألمانية وبسبب سياسة مترينخ ، تهم الألمان أكثر من قضية الوحدة القومية . ومن الممكن القول ان هذه القضية قد أغمي عليها : إن الحقد الذي كان يرى من ١٨١٣ إلى ١٨١٥ زال.

وكان برنامج الألمان الأحرار صغيراً : كانوا يطلبون في مختلف البلاد مجالس تصوت على الموازنة وحرية الصحافة والقضاء والحرس القومي . ولقد كان من نتائج ثورة تموز ان أثارت في ألمانيا اضطراباً كبيراً كانت تشجعه لجنة موجهة للاجئين الألمان في باريس . وفي البلاد التي وجدت فيها مجالس ، كانت المعارضة قوية وجريئة : ففي دوقية باد الكبرى حصل المجلس على نشر الجلسات وضبطها ، وعلى الغاء الرقابة في ١٨٣٠ . وفي كل مكان تقريباً ، في دول ألمانيا الجنوبية، كانت الجرائد والمناقشات السياسية والعرائض نشيطة ، وكان الألمان يؤكدون موقفهم الحر بالمواربة عن طريق المظاهرات، لصالح بولونيا و إيطاليا . وقد خاف بعض السادة هذه الحركة فمنحوا شعوبهم دساتير ، في برنسفيك ، وهس - كاسّل وساكس ، وهانوفر . حتى انه وجدت بعض مظاهرات تتسم بروح قومية : فمن ذلك ان نائباً بادوياً (من باد) يسمى فوكر طالب في العام ١٨٣٢ بانشاء برلمان للاتحاد الجرماني . وتشكل اتحاد للصحافة هدفه جمع المال للتعويض عن الصحافيين المحكومين بمخالفات من قبل المحاكم ، وللقيام بالدعاية لصالح دولة اتحادية فدرالية . ونشرت هذه الجمعية كراريس وعقدت مجالس ، وكان أهمها المجلس الذي عقد في قصر بالاتينا البافارية ، في هانباخ ، في ٢٧ أيار ١٨٣٢ ، وحضره فرنسيون وبولونيون إلى جانب الالمان. ورفعت راية البورشنشافت السوداء والحمراء والذهبية، والقيت خطب لصالح سيادة الشعب ودول أوربة المتحدة . وكانت هذه المظاهرات عذراً ومحركاً جديداً لسياسة مترنيخ الذي أوقف كل حركة اضطراب .

وهنا وقفت الحكومة الفرنسية دون حراك ، ولم يكن لها سياسة ألمانية ، ولم يكن لديها أي مفهوم لتأمين نفوذ فرنسا بجمع الدول الحرة

في ألمانيا الجنوبية حولها ، اما بتشجيع سياسي أو بامتيازات اقتصادية .

وهكذا ، إذا استثنينا بلجيكا ، لم تكن ثورة ١٨٣٠ ، بالنسبة لأوربة ، سبباً أو فرصة لتقدم قضية القوميات . ومع ذلك فقد كانت لها نتائج هامة : لقد أثارت ثورة ١٨٣٠ في أوربة تطوراً متسارعاً لحركة القوميات وتحويلاً لهذه الحركة . وبينا كانت أوربـــة في خبل تام من ١٨١٥ إلى ١٨٣٠ ، نجدها اضطرت على العكس من ١٨٣٠ إلى ١٨٤٨ إلى تشكيل حركات قومية كبرى وكانت ثورة ١٨٣٠ نقطة انطلاقها .

أما ما يتعلق بفرنسا فقد أحدثت الثورة في السياسة الخارجية نوعاً من فصل بين سياسة الحكومة التي تمسكت بالجمود المحافظ ، وبين متطلبات الرأي الذي أخذ يتجه ، على العكس ، نحو سياسة العمل والدعاية في الخارج . وهكذا كان نجاح الحرية في فرنسا مثلاً لأوربة ، لا سيا وان فرنسا أصبحت آنذاك عاصمة الحرية الأوربية .

٣ ـــ فرنسا عاصمة الحرية الاوربية

وفي الواقع ، ان ما رفضت الحكومة الفرنسية ان تفعله ، فعله الرأي العام . لأن السياسة لصالح القوميات . أي البرنامج القومي فيما يتعلق بفرنسا وبصالح القوميات الأوربية معاً كان في الحقيقـــة البرنامج الذي تبناه اليسار واليسار المتطرف وحتى قسم من الوسط الأيسر في عهد الملك لوي - فيليب . وستغذي أحزاب المعارضة البرلمانية اتجاهاً كبيراً وعميقاً يتشكل في سواد الأمة ، اتجاهاً جهله تقريباً لوي - فيليب ولم يقـدره ولكنه سينفجر في عام ١٨٤٨ . وهـذه الحركة القومية لصالح فرنسا داخلاً ولصالح القوميات خارجاً ضمت عدة عناصر : عناصر فرنسية وعناصر أجنبية .

العناصر الفرنسية . - كان من الطبيعي ان يتغذى هـذا الاتجاه

بالليبرالية الفرنسية التي أوضحت هذا البرنامج من قبل : لقـــد رأى لوي بلان ارتباط الشيئين وسجله في تاريخه : « تاريخ عشر سنوات » ، عندما اعترف بأن الأحزاب الليبرالية الفرنسية كانت تجعل جميع القضايا الليبرالية قضاياها ، وكما قال : « ان الديموقراطية كانت تعيش في حياة الشعوب الأخرى أكثر من حياة فرنسا الخـــاصة » . وبدا له ان هـــذا طبيعياً تماماً ومشروعاً وقال : « ان عبقرية فرنسا كانت دوماً في المواطنة العالمية » . ومن المفيد ان نرى الآن ان فكرة البرنامج القومي الفرنسي : أي المطالبة بضفة الراين اليسرى والحدود الطبيعية ، قد غابت في فكرة السياسة القومية الاوربية ؛ وان رجال اليسار في فرنسا ، لم يستسلموا لسياسة الحكومة المحافظة .

كتب آرمان كاريل في صحيفته : « واخجلتاه ، واخجلتاه ، واخجلتاه الف مرة من النظام العاجز الجبان الذي يريد أن يطالب بأنانية فرنسا السياسية !» وهو يرى ان الاحرار الفرنسيين يندفعون لجميع القضايا الليبرالية في أوربة: لبولونيا ، باجماع الرأي ، كما كان هذا الرأي مجمعاً في السابق ، للاغريق. وكان الكتاب الفرنسيون يقومون بالدعاية لصالح بولونيا مثل لامانية و كازيمير دولافين والشاعرين باربيه ، وبيرانجيه . وكذلك كان مجلس النواب ، في جميع الاعوام يصوت في رسالته إلى الملك على جملة لصالح بعث بولونيا، ثم تبعه مجلس الشيوخ في عام ١٨٤٠ .

ولكن لم تكن قضية بولونيا القضية الوحيدة الـــتي كانت تحرك الفرنسيين . فقد تشيعوا أيضاً لفكرة الوحدة الالمانية . كتب لافاييت: « القومية الالمانية عزيزة أيضاً علينا ، نحن الفرنسيين ، كما هي عزيزة على جرمانيا نفسها » . وقال لاكوردير : « من الضروري عاجلاً أو آجلاً ان تتألف الوحدة الجرمانية وسيان لدينا أن تكون بروسيا أو النمسا

الوارثة لكل هذا . أما ميشليه فقد جعل من الحركات الليبرالية والفكرية في ألمانيا شيئاً واحداً وتكلم خالطاً جميع قضايا « علم لوثر وكانط وفيخته » .

وكانت إيطاليا أيضاً احدى القضايا العزيزة على الاحرار الفرنسيين . أما الشعوب الاوربية الأخرى ، فكانت معروفة عندهم قليلاً ، وخاصة السلافيون ، ولم يكن لديهم أي فكرة عنهم إلا بين حين لآخر ، مما يتلقفونه من معلومات من سائح مر في المناطق السلافية وحدثهم بان فيها عروقاً ترغب في الوصول إلى القومية . فمن ذلك ان لامارتين دعم قضية الصرب، في كتابه « رحلة الشرق » الذي صدر عام ١٨٣٥ . وفي ١٨٤٧ وجد صحافي يدعي ديسبريه ساح في البلقان ، وكتب في « مجلة العالمين » ، في ١٥ آذار ١٨٤٧ ، وصفاً للحركة الايلليرية وكان يهلل عن ثقة لهؤلاء السلافيين رغم الجهل بهم .

وكسب برنامج القوميات بعض العناصر المحافظة : فقد كان دوفيرجيه دوهوران عضو الوسط الأيمن ومثله لوي — فيليب « يدعمان » الشعوب ضد الحكومات .

أما الأحزاب البرلمانية فقد اقتصر البرنامج على الاقل على ائتلاف بين جميع الحكومات الدستورية ضد الحلف المقدس الذي عقدته دول الشرق في مونشنغراتز . طالب اودليون بارو وتيير بهذا الائتلاف بين الحكومات الدستورية ، ولمحا إلى الحلف الرباعي الذي وقع مع انكلترا واسبانيا والبرتغال عام ١٨٣٤ وظنا أن فيه ائتلافاً من الدول الحرة ضد ائتلاف الدول المحافظة في الشرق . وعندما كان تيير رئيساً لمجلس الوزراء أراد أن يتدخل في اسبانيا لصالح الدستوريين والتقدميين، واختلف في هذه النقطة مع لوي — فيليب فأقاله .

إن الفكرة الجيروندية في الدعاية للأفكار الحرة ودعمها في الخارج بفكرة رسالة فرنسا التي تدعو الشعوب إلى الحرية أصبحت إذن برنامجاً عادياً جارياً لكل الرأي الا بالطبع الحزب المحافظ والحكومة .

الاسطورة النابوليونية . - وإلى هذا العنصر الأول ، الذي لم يكن إلا نتيجة للخلط بين فكرة الحرية والفكرة القوميـــة ، جاءت الاسطورة النابوليونية منجدة. وبعد ١٨٣٠ نمت في الحركة الأدبية والفنية ، وكانت بخاصة فكرية ، ولم تعط مجالاً لتشكيل حزب سياسي . ولم يكن لعائلة بونابرت إلا فكرة واحدة ، بعد سقوط الامبراطورية : وهي أن تنسى . وكان العنصر الوحيد لعمل اسرة بونابرت الأمير الشاب لوي - نابوليون ، وليقطع دابر الأحكام التي أثقلت كاهل آل بونابرت حاول القيام بضربة قوة في ستراسبورغ في ١٨٣٦ . وكان الدليل على عـــدم وجود حزب بونابرتي في لامبالاة الرأي أمام الحركتين اللتين حاولهما لوي - نابوليون بونابرت عام ١٨٣٦ في ستراسبورغ وفي ١٨٤٠ فيبولونيو . ومع هذا فان حكومة تموز كانت تضم في جهازهـا كثيراً من العناصر البونابارتية التي أتت على الأقل من الادارة الامبراطورية ، ولم تكن لتغضب من الالتجاء ، بين حين وآخر ، وراء مجـد الامبراطور، وهذا ما كان يعفيها من البحث عنه بنفسها . وقـــد بلغت هـذه الظاهرات البونابارتية نقطة الذروة عندما أتي برماد نابوليون إلى قصر الانفاليد في كانون الاول ١٨٤٠ . أما الجماهير فكانت التربيـة السياسية الوحيـدة التي تلقتها في ذلك العصر تتألف من القصص التي كان جنود الحرس الامبراطوري المسرحين يروونهـــا عن ملحمتهم في زمن الامبراطورية . ولم يهتم أحد بتربية هذه الجماهير . لذلك كانت تعرف الحياة السياسية فقط من قصص هؤلاء الجنود المسرحين الذين يجعلونها تألف فكرة نابوليون .

ومن وجهة النظر القومية التي تشغلنا ، انتهت هذه الاسطورة النابوليونية بتمثل فكرة الثورة وفكرة الامبراطورية النابوليونية ، ومثلت نابوليون كتجسيد للفكرة القومية الليبرالية ، واستقلال الشعوب الذي حققته فرنسا بالسلاح في أوربة الجديدة .

إن أول عرض يعني هذا البرنامج أكثر من غيره هو هـذا الكراس الذي أصدره الامير لوي - نابوليون بونابرت في ١٨٣٩ تحت عنوان : « الأفكار النابوليونية » . فقد طبعه ناشر متخصص في هذه الأفكار ، وسبق له أن نشر « تاريخ الامبراطور نابوليون » الذي ألفه **لوران** وصوره **هورادفيرنيه** ، ونشر أيضاً الموسوعة النابوليونية المسماة : « المعجم التاريخي لكل ما قاله وكتبه نابوليون في الناس والاشياء والاحداث ، من قديم ومعاصر » . وكذلك نشر **بولن** « تاريخ حروب الثورة » ، ونشر «تاريخ الفرنسيين» لمؤلفه لافاليه . إن كراس الأمير لوي - نابوليون ، وهو كتيب رقيق صغير يتألف من (١٦٠) صحيفة ، يوسع هـذه النظرية وهي ان انكلترا مسؤولة عن حروب الامبراطورية ، وان السياسة الانكليزية جرت نابوليون إلى حروب لا نهاية لها ، أي انه بالرغم عنه وسع هذه السياسة في الفتوحات والسيطرة الاوربية . أما النظرية الثانية ، نظرية الامير ، فهي ان فتوحات نابوليون لم تكن الا مقدمة وتهيئة لتنظيم أوربه ، لان هدف السياسة الامبراطورية ، برأي الامير لوي - نابوليون ، تنظيم السلام الاوربي على أسس قوية . وقال : « ان سياسة الامبراطور كانت تأسيس رابطة أوربية صلبة وذلك باعتماد سياسته على قوميات كاملة وعلى مصالح عامة راضية » . ان رأي الامير لوي - نابوليون هو أن سياسة الامبراطور كانت تشكيل القوميات

في أوربة ثم ادخال هذه الدول القومية في رابطة أوربية كبرى يمكنها أن تحافظ على السلام إلى الابد .

يوجد في هـذه الاسطورة النابوليونية مثالية عليا للسياسة الامبراطورية تبتعد كثيراً عن الوقائع ، وتفسير هذه السياسة الامبراطورية لصالح النظريات القومية التي كانت دارجة في ذلك الحين . وهكـذا جاءت الاسطورة النابوليونية تعزز بقوة برنامج القوميات .

الأزمة المصرية عام ١٨٤٠ . – ويضاف إلى ذلـك عنصر ثالث وهو الازمة التي سببتها القضية المصرية عام ١٨٤٠ . فقد صوبت رأي هؤلاء الاحرار الذين يزعمون بأن فرنسا ، في وسط أوربة ، تمثـل عنصر عمل ليبرالي . وان معاهدة ١٥ تموز ١٨٤٠ ، التي اشركت انكلترا في توقيعها بروسيا والنمسا والروسيا ضد محمد علي عزيز مصر ، من شأنها أن تكون تألباً أوربياً ضد فرنسا . وفي الحقيقة ، ان الدول لم تفكر في عمـل سياسة عامة معادية ، الا روسيا التي أرادت الحرب ، ولكن الرأي الفرنسي على الاقل فسر المعاهدة على هذا النحو : فقد رأى فيها اعادة تشكيل تألب ١٨١٥ ضد فرنسا . وازداد هذا التفسير أيضاً بسياسة التعبئة العسكرية التي سلكها تيير . واعتقـد الناس انهم على شفا حرب . واتقـد لهيب الوطنية فوسعت قوميـــة اليسار حتى البورجوازية . وطالبت الصحف والخطباء بضفة الراين اليسرى . واستأنفت جريـدة « القومي » حملتها منذ البدء . وألفت عدة أغاني وأشعار ، وأشهرها « الراين » للشاعر دوموسيه الذي أجاب عن شعر مماثل للالماني بيكر . وكان النبآن الجديدان اللذان أثارا بخاصة حركات الرأي هذه هما : الاول في ١٦ تموز عندما علم نبأ معاهدة ١٥ تموز ، والثاني في ٢ تشرين الاول عندما علم نبأ ضرب بيروت بالقنابل واسقاط تركيا لمحمد علي . وقامت مع المطالبة

بالراين فكرة الثورات الاوربية التي تثيرها وتدعمها فرنسا. وتكلم لوي - فيليب نفسه بـ « نزع الكمام عن فم النمر » وكتبت جريدة « الزمان » في ٢٨ تموز : « ان أوربة ضعيفة جداً ضدنا ، وبامكانها أن تحاول أن تلعب معنا لعبة الحرية الفظيعة ، وسنلعب معها أفظع لعبة الثورات ، وإذا ما دفعنا الى أن نجول من جديد بالعلم المثلث الالوان من عاصمة لعاصمة ، فلن نفعل ذلك مطلقاً ، هذه المرة ، لنراكم ضدنا انتقام الشعوب بل لنشجعها على التحرير » . وطالبت صحيفة « القومي » بالحرب ، وكأسلوب للحرب قالت بوجوب نقل الثورات إلى ايطاليا وألمانيا بكاملها ، وبولونيا ؛ وأضافت : « يجب محو عار معاهدات ١٨١٥ » .

وفي الواقع ، سقطت هذه الاثارة الحربية بسرعة ، ولكن الأزمة تركت وراءها نتائج لا تمحى . لقد عارضت فرنسا ، من جديد ، أوربة المحافظة كلها . ويمكن القول ان قوتها الثورية عبئت بالطاقة بهذه الومضة الحربية . وقوي النظر حتى كاد ينتقل إلى العمل . وفي السياسة الداخلية أيضاً ، كانت نتائج الأزمة خطيرة . فقد خفضت من جديد وبشكل عجيب من اعتبار لوي - فيليب في نظر اليسار . وستكون المعارضة منذ الآن عنيفة وعامة . ومهما تكن سياسة الحكومة الخارجية ، على ما أبدت من تعقل وحكمة في سياسة التفاهم الودي ، فلن يقبل الرأي العام بها مطلقاً .

العناصر الاجنبية . وإلى هذه العناصر الفرنسية التي شكلتها سياسة فرنسا الليبرالية في أوربة ، تضاف عناصر أجنبية : إن أزمة ١٨٤٨ كان من نتائجها أن زادت في فرنسا نفوذ العناصر الأجنبية ونشاطها . إن هجرة اللاجئين السياسيين إلى فرنسا حدثت خاصة عقب الثورات الأوربية في العام ١٨٣٠

و ١٨٣١ . وكان المهاجرون يفدون اليها من مختلف نقاط أوربة : وجد روس ، مثل الروائي تورغونيف ، وباكونين الذي ظل في فرنسا حتى عام ١٨٤٧ : و هوتزن الذي جاء في هذه السنة نفسها . ووجد ايرلنديون ولكن وجد خاصة ثلاث جماعات :

١ - ألمان مثل مهاجري « ألمانيا الفتاة » هاين و بودن .

٢ - اشتراكيون : مثل كارل ماركس ، الذي ظل في فرنساحتى عام ١٨٤٥ قبل أن يذهب إلى انكلترا .

٣ - ايطاليون أتوا من جميع نقاط شبه الجزيرة : ولقد رأينا ماتزيني ، غداة خروجه من السجن ، يأتي ويلجأ في مرسيليا عام ١٨٣١ ، ومن ثم في باريس .

وأخيراً بولونيون . وقد وجد ، بين خمسة آلاف وثلاثمائة عائلة بولونية مهاجرة ، ان أربعة آلاف منها التجأت في فرنسا .

استقبلت فرنسا هؤلاء المهاجرين استقبالاً كريماً من قِبَل الحكومة والشعب . وأعطتهم الحكومة إعانات يومية ، واحتفت بهم الصالونات . وكان مهاجرو أوربة يتدافعون للالتفاف حول لافاييت حتى وفاته ١٨٣٤ . ثم وجد بعد ذلك صالون السيدة آغو وصالون الأميرة بلجيوجوزو . واختلف المهاجرون أيضاً إلى صالات الكتابة (التحرير) ، وفتحت لهم المحافل الماسونية ابوابها رحبة . وبعدزمن رأت الحكومة ،تجنباً لفوضى نشاطهم ، أن تقيمهم في بعض مدن الأقاليم وأصبحت هذه المدن مراكز تجمع لهم .

اختلط هؤلاء اللاجئون بالحياة الفرنسية . وكانوا ينتسبون إلى شتى المهن ، ولكنهم كانوا في الغالب مفكرين ، نقلوا إلى فرنسا هيئآتهم ووسائلهم وجمعياتهم التي أعادوا تشكيلها ، وصحفهم ، مثل : « الحوليات

الفرنسية – الألمانية » ، وأحياناً عملهم ؛ وبعضهم كان يتجمع على الحدود، وعلى استعداد للعمل في الخارج : فمن ذلك أن اللاجئين الألمان ، في ١٨٣٣ ، نظموا هجوماً مفاجئاً جريئاً عقد في بزانسون لضرب فرانكفورت. وفي السنة التالية ، في ١٨٣٤ ، كانت محاولة اللاجئين الايطاليين على شامبيري وعندما اضطربت الأمور في سويسرا في ١٨٤٦ و ١٨٤٧ ونظم الراديكاليون السويسريون جيشاً من المتطوعين ضد التجمع الانفصالي **الزوندربوند** ، الذي ألفته الكانتونات السبعة الكاثوليكية ضد الحكومة الفدرالية ، انخرط المهاجرون من كل القوميات في جيش الجنرال **دوفور** الذي حل التجمع في أعقاب الحرب الأهلية . وحافظ هؤلاء المهاجرون بالطبع على صلاتهم مع أبناء وطنهم ، والجمعيات السرية ، التي كانت الشكل الوحيد لعمل ممكن في بلادهم . وحاولوا أيضاً أن يعملوا من هذه الجمعيات الخاصة تجمعاً عاماً : وأول هذه التجمعات كان في « اتحاد المبعدين » ، وقد تأسس في ١٨٣٤ ؛ ومن ثم في « أوربة الفتاة » التي أسسها ماتزيني عام ١٨٤٤ . وهكذا نظم اتحاد للاجئين عرّفه ماتزيني بأنه « شعب الشعوب ، ووطن جميع الأوطان وأمة المحكومين » . وكانوا بالطبع على اتصال دائم بالعناصر الثورية الفرنسية ؛ وكانت الصحف كجريدة « الاصلاح » ، جريدة « اليسار المتطرف » تتضمن معلومات عن الحالة الداخلية في ألمانيا وايطاليا تظهر هذه العلاقات بين الجماعات الثورية . وقام على هذا النحو تضامن بين العناصر الديموقراطية والقومية في أوربة واتخذ فرنسا مركزاً له . وقام في فرنسا ، وبخاصة في باريس ، نوع من تعبئة دولية للثورة .

الجمع البولوني . – كان من أهم هذه الجموع المهاجرة جمع يستحق أن نقف عنده بعض الوقت ، وهو **الجمع البولوني** . فقد شكل المهاجرون،

كما قيل ، الجزء الخامس من بولونيا ، وهو على كل حال أكثر الأقسام تطوراً وقوة من وجهة نظر المقاومة . وعلى اثر ثورة ١٨٣٠ و ١٨٣١ ، ازداد نظام خنق الحريات في أقسام بولونيا الثلاثة : في بولونيا الروسية ، سلكت حكومة باسكيفيتش سياسة التمثيل التدريجي لجميع المؤسسات البولونية والمؤسسات الروسية : في ١٨٤٢ ، رفعت الشعارات البولونية وحلت محلها الشعارات الروسية . وفي ١٨٤٣ ، أخذت الأقاليم البولونية أسماء روسية والموظفون ألقاباً روسية . وفي ١٨٤٦ ، روست أسماء الشوارع ؛ وفي ١٨٤٧ ، حل القانون الرومي محل قانون نابوليون ؛ وفي العام السابق أي ١٨٤٦ ، أغلقت المدارس الثانوية في فارسوفيا بسبب « تحريض الأفكار » . وفي ١٨٣٥ أتى القيصر نيقولا إلى فارسوفيا ورفض أن يستمع إلى الخطاب الذي أعده وفد بولوني ليقرأه عليه ووجه اليه هذا الكلام : « لأوفر عليكم كذباً ، لأنني أعلم أن عواطفكم ليست كما تريدون أن أعتقد . وإذا ركبتم العناد في الحفاظ على أحلامكم في الطوبائية والقومية المتميزة وبولونيا المستقلة فستجر عليكم هذه الأضغاث أحلام مصائب كبرى . لقد أقمت القلعة ، وأصرح لكم بأنني ، عند أقل ثورة ، أصعق المدينة ، وأقلب فارسوفيا رأساً على عقب ، وأؤكد أنني لست بالذي يعيد بناءها » . ونشر خطاب القيصر في « جريدة المناقشات» وأثار هياجاً عظيماً في أوربة كلها .

وفي بولونيا البروسيه ، هجرت سياسة التسامح التي كانت في البدء . وحل محل الأمير رادتز يفيل حاكم ألماني ، فلوتفيل . وسلك هذا الأخير سياسة جرمنة منظمة ضد الأديرة والمدارس بل وضد الملكية الريفية الصغيرة . وفي غاليسيا كانت رقابة الحكومة قاسية جداً . وكان من بنود الحلف المقدس المصغر في مونشنغراتز عام ١٨٣٣ ، ذلك الضمان

الذي اتخذه الأمراء الثلاثة حيال بعضهم في الحفاظ على تقسيم بولونيا .

كانت نتيجة هذه السياسة كبت العاطفة القومية في بولونيا على الصعيد الروحي ، وعلى هـذا الصعيد بخاصة . وتحولت هـــذه العاطفة إلى نوع من صوفية اتجهت نحوها الروح البولونية بصورة طبيعية . وأخذت هذه القومية البولونية فكرة رسالة بولونيا في أوربة . ولم يكن البولونيون يعتبرون أنفسهم مهاجرين يبحثون عن ملجأ ضد الاضطهادات ، بل حجاجاً للمثل الأعلى « حجـاج ميكيفيتش البولونيين » . فمن ذلك أن الأستاذ برودزينسكي قال في خطاب له ، في فارسوفيا ، إلى جمعية أصدقاء العلوم ، قبل أن تسحق الثورة تماماً ، في ٣ أيار ١٨٣٠ : « الأمة ، هي فكرة فطرية ، وان الذين تضمهم اليها يحاولون ان يحققوها ، انها أسرة لهـــا حوادثها الخاصة ورسالتها » . وهو يرى أن بولونيا اكتشفت قانون الحركة الحقيقية للعالم الأخلاقي ، واعترفت « بأن كل أمة جزء من الجماعة ويجب أن تدور في فلكها وحول مركز مشترك كما تـــدور الكواكب حول بؤرتها المركزية » . وان رسالة بولونيا الخاصة هي ان تسهر على الاتصال بـين أوربة المتمدنة والعالم البربري ، العالم الروسي . ويعتبر ميكيفيتش ، وهو أكبر شاعر قومي ، ان هذه هي رسالة بولونيا وهو لا يمجد القومية البولونية فحسب ، بل انه يجعـل من الهجرة نوعاً من واجب : « ان كل من يبقى في وطنـه ويشكو العبودية للحفاظ على حياته ، سيفقد وطنه وحياته ، وإن كل من يهجر وطنه للدفاع عن حريته مخاطراً بحياته ، ينقذ وطنه وتكون له حياة الخلود » . و يرى ان قضية بولونيا قضية مشتركة للعالم المتمدن : « ففي كل مكان في أوربة يوجد فيه اضطهاد للحرية ويكافح الحرية ، يوجد فيه أيضاً كفاح من أجل بولونيا ، وعلى البولونيين جميعاً أن يقوموا بهذا الكفاح » . وانتهت هذه

الصوفية البولونية عند بعضهم إلى نوع من مذهب فلسفي سري ، ونخص بالذكر بعض الشخصيات الغامضة المبهمة مثل توفيا نسكي .

الاتجاهات البولونية . — كان في هذه الهجرة البولونية عدة اتجاهات : فقد كان الانقسام وروح الحزب شراً عضالاً في بولونيا وهذه الانقسامات التي رأيناها في فارسوفيا حدثت في المهجر . وقد أعيد تأليف الفريقين اللذين وجدا قبل ١٨٣٠ مرتبطين ، إلى حد ما ، بالوضع الاجتماعي :

المعتدلون . — تجمع المعتدلون حول الأمير آدم تشارتوريسكي المشاور القديم لالكسندر الأول ، ورئيس جامعة فيلنو (فيلنا سابقاً) ، وقد قطع علاقته مع القيصر نيقولا وأقام في باريس بعد الثورة. كان الأمير آدم تشارتوريسكي يملك ثروة كبرى ويتمتع بوضع اجتماعي عظيم بل ووضع دولي ، وقد وضع هذه العناصر في خدمة بولونيا وأبناء وطنه . فكان يأتي لمساعدتهم ، ويبحث لهم عن سند في فرنسا ، وانكلترا ويناضل ضد الروس . سكن في باريس في قصر لامبير ، في جزيرة القديس لويس ، وأصبح هذا القصر نوعاً من وزارة بولونية . وكان يضم ضد الروس ، البولونيين وسلافيي البلقان : الصرب والبلغار والرومان . وكان المعتدلون وتشارتوريسكي يعتمدون على العمل الأخلاقي والعمل الدبلوماسي ولا يعتمدون على العنف وينتظرون فرصة تحرير بولونيا .

الديموقراطيون . — أما الديموقراطيون ، على العكس ، فقد تخلصوا من هذا العمل ومن نفوذ تشارتوريسكي . ولكنهم أخذوا ينقسمون الى فئات عديدة كلما ابتعدوا عن ١٨٣٠ .

كان الفريق الأول ، وهو الأهم والأكثر اعتدالاً من غيره ، يوجهه ليلوفيل وكان هذا مؤرخاً في جامعة فيلنا ، ثم هرب وترأس في باريس « اللجنة القومية » التي تشكلت في كانون الأول ١٨٣١ .

وفي آذار ١٨٣٢ تشكل فريق آخر أميل لليسار وهو : « الجمعية الديموقراطية » .

وبعد ١٨٣٥ انتظم ثوار « بولونيا الفتاة » في فريق يدعى «المركزية»: وأرادوا إعادة بناء « بولونيا الكبرى » بولونيا من البالطيك إلى البحر الأسود ، على أن تكون دولة ديموقراطية وتقوم بتربية السلافيين جميعاً .

وظلت هذه الفرق الديموقراطية المختلفة ، على نقيض المعتدلين ، وفية لمذهب الثورة والجمعيات السرية ، التي نظموها في البلاد المحتلة : فمن ١٨٣٣ إلى ١٨٥٠ اكتشفت الضابطة الروسية في مملكة بولونيا القديمة ثلاث عشرة منظمة هدامة اشترك فيها ٥٧٤ شخصاً ، و أوقفوا كلهم ، وجرت محاولتا ثورة ، احداهما في ١٨٣٣ ، والأخرى في ١٨٣٨ .

وفي السنوات الأخيرة التي سبقت ثورة ١٨٤٨ ، أفاد البولونيون من تسامح ملك بروسيا الجديد ، الابداعي فريديريك - غليوم الرابع الذي اعتلى العرش في ١٨٤٠ ، ومن الازدهار الناجم عن التدابير الادارية التي اتخذتها الحكومة البروسية وكان منه تحسين مصير الفلاحين البولونيين . وعوضاً عن فارسوفيا ، التي جثمت دون حراك تحت الرقابة ، تألف في بوزن مركز فكري بولوني حل محل الجامعات القديمة في المملكة . وفي بوزن نفسها وجد فريق من الكتاب والفلاسفة ورجال العلم وخاصة أطباء ، وبخاصة **مازينكوفيسكي** ، وفتحت مكتبات ، وتألفت جمعية تعاونية للطلاب تحت ادارة المربي **ايستكوفسكي** . وفي بوزن انتظم أيضاً مركز تبشير لتحرير الفلاحين : نشر **كامينسكي** في ١٨٤٥ كتاب « تعليم الديموقراطية للبولونيين » . وهذه الحركة الفكرية والاجتماعية التي توجهها الطبقة النبيلة البولونية

الروسية كانت على اتصال بتشار توريسكي . وسرعان ما قامت المعارضة بين المعتدلين والثوريين . وفي ١٨٤٣ الف العنصر الثوري لجنة سرية تناصر الاشتراكية وتهيء للثورة .

وشارك هؤلاء البولونيون اللاجئون في فرنسا وفي باقي أوربة وسيشاركون في جميع الحركات الثورية ، مهما كانت ، التي تقوم في أي نقطة ممكنة من أوربة . ونجدهم في جميع المؤامرات ، وفي جميع الثورات ، وسيجربون بخاصة قواهم في الثورات انطلاقاً من ١٨٤٦ وفي ١٨٤٧ . وكانت عظمة هذه الهجرة البولونية تقوم على القيمة الفكرية لأعضائها الذين يشكلون مدرسة أدبية من الشعراء ولا سيما **ميكيفيتش** ، **سلوفيسكي** **كوازينسكي** ، والفنانين ، مثل **شوبان** والعلماء المؤرخين مثل ليلوفيل. وكانت عظمتهم أيضاً في إيمانهم الذي لا يتزعزع في الوطن . وكان ليلوفيل يمجد حماسة الشباب ويقول : « سترون بولونيا تبعث حية ، وأكثر شباباً ، وأكثر مجداً ، وأكثر جمالاً » . وكتب أحدهم وهو اللاجىء **هيلكيل** في ١٨٤٦ : « لقد أصبحت الوطنية للبولونيين ديناً » .

العقيدة القومية الرسولية . — كان الفرنسيون أميل إلى فهم هذه الصوفية البولونية ، حتى اننا نرى القومية الفرنسية ، في السنوات التي سبقت ١٨٤٨ ، تأخذ لوناً جديداً وتصبح نوعاً من عقيدة مسيحية تحركها فكرة رسالة فرنسا . لقد نسيت عصبية ١٨٤٠ بسرعة . وبقي منها ان فرنسا ابتعدت نهائياً عن النمسا . وظل كره النمسا عقيدة ، ودامت إلى ما بعد جميع الحوادث ، حتى الحرب الكبرى ، بل وحتى ١٩١٩ وتركت تماماً المناقشات التي كانت تثار في السابق في العرق . وتروضت فكرة القوميــــة نهائياً . وفي العام ١٨٤٠ طرحت « نظرات في

تاريخ فرنسا » لاوغوستن تييري النظريات المتعلقة في الفرنجة وأعادت اعتبار الأب دو بوس.

اتجهت هـذه القومية الفرنسية نحـو العقيدة الرسولية . وكانت هـذه العقيدة تشويهاً ابداعياً لفكرة قديمة . وكان المتوقع منها عظمة فرنسا من نمو جيرانها الذين دعتهم إلى الحياة المستقلة . و اعتبرت فرنسا مسيح الأمم . وقال لوي بلان : « لقد فرض الله الفداء على فرنسا عنصراً لقوتها وشرطاً لحياتها » . وعبر عن هذه العقيدة بأشكال مختلفة : فمثلا في نشيد « مارسييز السلام » نجد أن الشاعر لامارتين عارض فيه الاغاني القومية لعام ١٨٤٠ ، و كتب فيما كتب : « ان بعث إيطاليا يكفي مجد شعبٍ » . وهذه هي الحالة الفكرية التي نجدها في « كتاب الشعب » لمؤلفه لامانيه ، وفي المثالية الدينية المناصرة للاشتراكية عنـد بيير لورو أو بوشيز ، وفي حماس مونتا لامبير لصالح البولونيين أو لصالح البلجيكيين . وكان الجمهوريون والاشتراكيون، الذين تأسست مدارسهم بين ١٨٤٠ و ١٨٤٨ ، يثقون بالغريزة الشعبية. وخصصت جريدة « القومي » ، في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٤٤ ، مقالاً لدور فرنسا في أوربة الذي يعتمد دوماً على الفكرة نفسها وهي : أن تحرير الشعوب يساير ويوازي عظمة فرنسا .

ونعطي لهذه العقيدة الرسولية مثالين مميزين بصورة خاصة لانهما من أناس تخولهم مهنتهم كثيراً من الموضوعية ، وهما المؤرخان ميشليه وكينيه . وقد عرف كل منهما نظريات هردر ، وترجمها كينيه عام ١٨٢٧ و ١٨٢٨ ، وتراها في تمجيدهما العبقرية الشعبية . ولكن الالهام أتاهما بصورة خاصة من الفكرة الثورية عندما وضعتهما ظروف عملها السياسي في حملة حانقة على الكنيسة ، في ١٨٤٢ و ١٨٤٣ ، وعظم التمجيد الثوري .

ميشليه . ـ ابتعد ميشليه ، في دروسه في كلية (كوليج) فرنسا ، عن كل برنامج . وكان مستمعوه يأتون اليه من جميع نقاط أوربة و يجد أمامهم فكرة القومية ويخول فرنسا رسالة قيادة أوربة في هذا الطريق . لقد كانت فرنسا بالنسبة اليه موئلاً لحرية العالم : « ان البشرية بكاملها تهتز فيه » . ويقول : « ان فرنسا تحمل عبقرية المجتمع الإلهية » . « ان فرنسا ملاح سفينة البشرية » . وبفرنسا أصبحت الأفكار أوزبية ـ ان فرنسا جعلت من لوثر ومن لوك أنا جيل للعالم أجمع . « وهكذا انكشفت كل فكرة منعزلة بفرنسا . انها تقول كلمة أوربة ، كما قالت أغريقية كلمة آسيا . ولماذا قبلت هذه الرسالة ؟ لأن عاطفة الكرم الاجتماعي تنمو بها في النظر وفي العمل ، وباسرع من أي شعب آخر » . ولكن ميشليه يرى أن تفتح فرنسا يرجع تاريخه إلى الثورة . فلقد هيأ ماضي فرنسا ، أثناء قرون ، الثورة الفرنسية ، وروح فرنسا هي روح الشعب . وليس العباقرة إلا فيضاً وتعبيراً لهذه الروح الشعبية . ولا عمل لهم إلا التعبير عن هذه الغريزة الشعبية . وينتهي ميشليه بصنع كلٍ من التاريخ والعرق والطبيعة ، ويستخلص منه ديناً للشعب ولفرنسا

ادغار كينيه . ـ كانت له مناقشات تاريخية ورؤى نبوية . ودروسه في كلية فرنسا ارتجالية عموماً وليس لها برنامج ، وكان يكثر من الأمثلة والدراسات التي يكون غرضها : الوطنية القومية ورسالة فرنسا الانسانية . ويخلط كل هذا بقضايا واضحة من التاريخ . كان نبياً لدين ديموقراطي وثوري . وعلى هذا الأساس أراد أن يعيد بناء وحدة الحياة الاجتماعية . وفي آخر حياته ، في ١٨٦٩ ، عاد إلى دروسه في كوليج فرنسا ولخص الأسباب التي وقف لها في ذلك الحين حياته بقوله : حب فرنسا الذي يفيض بحب الانسانية : « لقد حاولت أن أنقذ الضمير الانساني من

الفخاخ المنصوبة له » . وأعطى لنفسه صفة حواري الأمم : « ما دام الكلام لي ، فقد دافعت عن قضية الشعوب والضعفاء ، والقوميات » . إن ما كان يريده هو أن يحول فرنسا رسالة انسانية عظمى : « لقد عبدت فرنسا وحلمت لها المجد الذي تصبح فيه مثلا أعلى للشعوب الحديثة » .

وكان لهذين الرجلين ، ميشليه وكينيه ، سماعة كبرى في أوربة . وبالمقابل ، ان ما كانت تنتظره أوربة هـو أن تأتي فرنسا لنجدتها . وقد قبل بأن تكون فرنسا ذخراً للحضارة الحديثة ، ولكن فرض عليها أن تتفانى في انتصار أفكار الحرية والقومية التي تعتمد عليها هذه الحضارة . ويقول كينيه « إن فرنسا لا تستطيع أن تقف الا وألف لسان أجنبي يصرخ على الفور في اذنها : ازحفي ! ازحفي ! » .

أبدت الحكومة الفرنسية تحفظاتها تجاه هـذا المفهوم للسياسة ، فقد نجا لوي ـ فيليب وغيزو من عدوى هذه العقيدة الرسولية . وبالعكس ، قلقا من صلة هذا البرنامج المتعلق بالقوميات بالأفكار الثورية . حتى ان الحركات الثورية التي رافقت ، في ١٨٤٠ ، انفجار القومية كانت سبباً من الأسباب التي جعلت لوي ـ فيليب يتراجع أمام الحرب . وابتداء من ١٨٤٦ كانت حركة المطاليب القومية والديموقراطية على وشك قلب أوربة . ولذلك قلق لوي ـ فيليب وغيزو : لم يحب لوي ـ فيليب الوحدة الايطالية ، وخشي غيزو الوحدة الألمانية ، وخاف من « الفائدة الكبرى التي يمكن أن تجنيها بروسيا منذ الآن في ألمانيا ، ومن الفكرتين اللتين تسعى لامتلاكها تدريجياً : الفكرة الجرمانية والفكرة الليبرالية » وكان وضع الحكومة الفرنسية صعباً ، لأنها كانت مأخوذة بين رغبتها في تأمين السلام والاستقرار ، وهذ ما يقربها من النمسا ، وبين الزبانة الليبرالية التي تتدافع للالتفاف حول فرنسا في أوربة وأصل ملكية تموز نفسها ،

التي خرجت عن ثورة ١٨٣٠ . وحاول غيزو أن يقف بين الثورة والنظام وبذل جهداً في دعم السلطة ، ولكن شريطة أن تكون هـذه السلطة مصلحة ، وحاول أن يقنع الحكومات بأن تقوم بالاصلاحات لتجنيب الثورات ، واثنى على هذه السياسة في ألمانيا وايطاليا وسويسرا . ولكن هذه السياسة كانت صعبة القياد لأن فرنسا لم تعمل شيئاً . وما كان من انكلترا إلا أن تزعمت الثورات وأخذتها على عاتقها لتلعب على فرنسا لعبتها السيئة ، وبدأ بالمرستون في ١٨٤٦ و ١٨٤٧ حملة تحريض ثورية حقيقيـة في أوربة ، وأرسل لهذا الغرض اللورد منتو إلى سويسرا وإيطاليا . وكانت هـذه السياسة صعبة المتابعة أيضاً ، لأنها اصطدمت ، في البرلمان الفرنسي ، بهجوم عنيف . ففي العالم السياسي ، كانت حملة البرلمانيين ضد غيزو شبيهة بحملة الصحافيين والثوريين في الجمهور . وفي حزيران ١٨٤٧ وكانون الثاني ١٨٤٨ استصوب تيير واوديلون ـ بارو الاصلاحات الليبرالية الألمانية التي قام بها فريديريك ـ غليوم الرابع ، واصلاحات الامراء الايطاليين ، لتشجيـع الألمان والايطاليين على إنشاء وحدتهم ، وقدما اليهم مساندة فرنسا .

هذا ويجب الا نرى في الثورات ، التي انفجرت في أوربة كلها في العام ١٨٤٨ ، تقليداً لفرنسا ، وأثراً للدعاية الفرنسية فحسب ، لأن هذه الثورات المختلفة خلطت أيضاً ، على شاكلة فرنسا ، قضيتها الخاصة ، مع غيرها وكانت قومية كما كانت متأثرة باصل فرنسي . ولكن الشعور بهذه الحركة القومية وبالأهمية التي أخذتها فكرة القومية بالتدريج في أوربة منذ ١٨٣٠ كان في فرنسا أكثر منه في غيرها . وكانت الفكرة القومية توجه أوربة إلى جانب الفكرة الديموقراطيـة . كتب هنري مارتن في ١٨٤٧ في كراس يسمى : « عن فرنسا و عبقريتهـا ومصيرها » : لم تع القوميات نفسها وعياً تاماً وحياً ، في أي وقت مضى ، كما هي عليه في

هذا الحين ، حيث يحكم عليها بعض النظريين بالموت . ولم تنقل بقوة في أي وقت مضى على السياسة العامة وتعمل على تجديدها كما هي في الحال . وإن علائم قوية تبشر ، قبل قليل من السنوات ، بأن قضايا القوميات ، مختلطة مع القضايا الاجتماعية ، ستسيطر على جميع القضايا الاخرى في القارة ، وان الدول التي لا تستقي سبب وجودها من هذا المبدأ ستتحول أو تتفتت» .
وفي ١٨٤٩ خصص هنري مارتن نفسه لهذه القضية اطروحته اللاتينية التي هي بهذا العنوان : « اختلاف الامم في سبيل الحفاظ على وحدة الجنس البشري » .

أما ما يتعلق بارتباط الحرية والقومية ، والليبرالية ونظرية القوميات ، فقد لاقت المؤلفات الثلاث الكبرى في تمجيد الثورة الفرنسية ، التي صدرت في ١٨٤٧ ، للمؤلفين لامارتين ومشيليه ولوي بلان ، نجاحاً عجيباً في فرنسا وفي أوربة . وكان هذا النجاح اشارة مميزة تبشر بثورة ١٨٤٨ .

الفصل الثاني

تشكيل دولة بلجيكا

تعتبر الثورة البلجيكية اختاً لثورة ١٨٣٠ الفرنسية . ومن المفيد أن نقف عند هذه الثورة وتشكيل الدولة البلجيكية لنرى أنها تؤلفان نسخة ثانية عن الحركة القومية التي رأيناها عند تشكيل أول دولة قومية في اغريقية .

كان بين تشكيل بلجيكا وتشكيل اغريقية تشابهات واختلافات ، وترجع التشابهات إلى أننا نجد في القضية البلجيكية ارتباطاً بين الفكرة الليبرالية والفكرة القومية ؛ ونرى تنازع هذه الحركة القومية مع عمل الدبلوماسية التي تريد أن تحدد نموها . ولم يكن لبلجيكا قومية مسبقة ، بل كانت العاطفة القومية في البدء معارضة سياسية ، ثم اتسعت تدريجياً وطالبت بالاستقلال . وقد اختلط فيها الحادثان معاً وكبرا معاً : الوعي القومي من جهة ، وانشاء الدولة من جهة أخرى .

١ — اخفاق الدمج وبداية المعارضة القومية

لم يكن لبلجيكا في العام ١٨١٤ تقاليد قومية ، ولم تكن في الماضي دولة مستقلة ، لأنها كانت ، منذ العصر الوسيط ، تابعة بالتوالي إلى اسبانيا ، فالنمسا ثم فرنسا . ولم يكن لها وحدة مادية أيضاً ، وحدتها الأرضية

في ظل النظام القديم : فقد كانت أمـــارة ليبج مستقلة ، ولم تؤلف اللوكسمبورغ جزءاً من الدولة نفسها كالفلاندر . ودخلت في ظل الحكم الفرنسي في عهد الثورة والامبراطورية في دولة واحـدة تتألف من تسع مقاطعات . وكانت تقاليد بلجيكا تتمثل بارادة الاستقلال الذاتي البلدي ، وهذا الاستقلال قديم ويرجع إلى عاطفة عميقة في العصر الوسيط حين كان يتكلم عن « جمهوريات البــــلاد المنخفضة » . وكانت « القومونات » الفلاماندية شكلا أساسياً وغريزياً للحركة السياسـية البلجيكية ويضاف الى ذلك عنصر ثان يؤلف أساس التقاليد التاريخية في البلاد ، وهو المطالبة بالحرية الفردية والاقتصادية .

لقد تمثلت بلجيكا دون كثير من الصعوبة في النظام الفرنسي منذ أن وقعت الكونكوردات وهدأت المنازعات الدينية . ولكن في السنوات الأخيرة ، أدى نزاع نابوليون ضد البابا ، ابتداء من ١٨١١ ، ثم الازمة الاقتصادية ١٨١٣ ، إلى تحلل الأفكار من السيطرة الفرنسية . وعندما أريد تحرير البلاد ، بقيت هذه دون حراك ، في ١٨١٣ و ١٨١٤ ، ولم توجد ثورة ، كما وجد في هولانده ، أو هزة وطنيـة ، أو مشاركة في النضال في سبيل الخلاص ، حتى ان البلجيكيين لم يعبروا عن أي رأي فيما يتعلق بالنظام الذي ينتظرونه . وكل ما سجله المراقبون الأجانب عن هذا البلد إنما هو مجموعـة مصالح مدنية واقتصادية ترغب أن ترى نفسها مضمونة ، وهي مصالح يرجع تاريخها إلى الثورة ؛ ومن جهة أخرى ، ترغب في الحرية المحلية والاقليمية . وكذلك بقي رأي البـلاد لا مبالياً تماماً أمام حكم المائة يوم لنابوليون وأمام معركة واترلو .

وهكذا وقف البلجيكيون موقفاً سلبياً أمام تسوية مصيرهم الخـاص

من قبل أوربه ، وفي الواقع ، من قبل انكلترا التي انشأت مملكة البلاد المنخفضة حيث ارتبطت بلجيكا بهولانده التي ألفت السبعة عشر اقليماً القديمة في الأزمنة الحديثة وذارت ضد فرنسا . وعندما وصل الملك غليوم إلى بروكسل في ١٣ تموز ١٨١٤ استقبلته رعاياه الجدد بشكل لائق .

وعندئذ ثبتت أوربة الحدود التي بقيت حدود بلجيكا خلال قرن ، حتى ١٩١٩ . وبموجب معاهدة باريس ١٨١٤ كانت الحدود بين فرنسا وبلجيكا الحدود القديمة التي كانت عام ١٧٨٩ . ولكن بروسيا ، في ذلك الحين ، طالبت بالبلاد الفالونية حتى نهر الموز ، ولتتخلى عن هذه المطاليب وجب أن تعطى تعويضاً : ولقد تخلى الملك الجديد غليوم إلى بروسيا بدوله الوراثية في ناسو ؛ ودخلت اللوكسمبورغ في الاتحاد الجرماني وأقيمت في المدينة نفسها حامية فيدرالية (اتحادية) .وأخيراً، على الحدود ، أعطيت لبروسيا ثلاث مناطق صغيرة : **اوبن** ، **ما لميدي والقديس** - **فيت** . وفي العام ١٨١٥ ، جرت تغييرات في الحدود بموجب معاهدة باريس الثانية : أخذت البلاد المنخفضة من فرنسا:فيليبفيل ماريانبورغ ، بويون، وبعض القرى من هينوت.وفي‌العام ١٨١٥ ، بخاصة، شيدت ، كما في بداية القرن السابع عشر ، مواقع من « الحواجز » ضد فرنسا : على الشاطىء ، اوستاند و نيوبور ؛ وعلى خط نهر الايسكو : انفرس ، ترموند ، غاند ، اودينارد ، تورنيه ؛ وعلى خط نهر الموز : لييج ، هوي ، نامور ، دينان ؛ وعلى الحدود الأصليه الخاصة : ايبر ، مونن ، آط ، مونس ، شارلروا ، فيليبفيل ، ماريانبورغ . وبموجب اتفاق ١٥ تشرين الثاني ١٨١٨ يحق لانكلترا في حالة حرب أن تحتل مواقع الغرب ، كما يحق لبروسيا احتلال مواقع

الشرق . وانتهى تنظيم هذه الحصون الحاجزة عام ١٨٢٠ . ونظمت بلجيكا على هذا النحو ، من الوجهة العسكرية ، بشكل معسكر كبير محصن ضد فرنسا .

النظام الاساسي .— فرضت أوربة على الملك غليوم عدداً من الشروط لحكم المملكة التي أعطيت له وهي « الثمانية بنود » التي قبلها من أوربة في ٢١ تموز ١٨١٤ . وبموجب ارادة الدول يجب تحقيق الدمج « الأكمل » بين قسمي الدولة ، بلجيكا وهولندة . ويجب على الهولنديين الا يكونوا مفضلين في الدولة الجديدة . وفرض على الملك أن يمنح حمايته وفضله متساويين إلى جميع الأديان ، وأن يصل الكاثوليك والبروتستانت إلى الوظائف العامة ، وأن تكون الفوائد التجارية عامة لجميع الاقاليم، على كل من الشعبين ، البلجيكي والهولندي ، أن يعطي موافقته على تغيير القانون الاساسي. وحصل البلجيكيون في الدولة على تمثيل لائق في المجالس التمثيلية . وكانت هذه المجالس العامة تنعقد على التوالي في لاهاي وفي بروكسل .

وهذا النظام الأساسي ، وهو نوع من دستور ، الذي منحه الملك غليوم الأول إلى الهولنديين ، أعادت النظر فيه بأمر الملك لجنة مختلطة من البلجيكيين والهولنديين ، ونشر في ١٣ تموز ١٨١٥ . وبموجبه انشىء إلى جانب الملك مجلس يسمى « مجلس المملكة العام » ، ويتألف من مجلسين : مجلس يسميه الملك ، و«مجلس الممثلين» ويسميه مجلس المملكة العام . وقد خول هذا المجلس العام سلطة تشريعية ناقصة ، لأنه لايملك حق المبادهة ، حتى ان بعض قطاعات التشريع سحبت من صلاحياته ، مثل التعليم العام والنفقات المستديمة التي كان يصوت عليها لمدة عشر سنوات لا سنوياً . ولم توف الوعود التي قطعت فيما يتعلق بحرية

الصحافة واستقلال القضاء ، وبدا أن هذا التنظيم الجديد ، هـذا التنظيم الدستوري ، لم يرض المواطنين والدول الكبرى إلا قليلاً .

ومع هذا فقد كان الملك غليوم مخلصاً طيب الارادة ، غير أنه كان مستبداً مستنيراً ، ورجلاً من القرن الثامن عشر أكثر منه رجلاً حديثاً . ويبدو أنه كان دون علم منه ، ورغم ارادته الطيبة ، هولاندياً جداً ، لأن ثقافته ومحيطه وجهازه الاداري كانت هولاندية أكثر منها بلجيكية، وقد فهم من عملية الدمج التي فرضتها عليه أوربة ، أنها ذوبان تدريجي لبلجيكا في هولانده ، يضاف إلى ذلك أن كل هيئات الادارة في الدولة أقيمت في هولانده . أما الدين والتمثيل لدى الدول فقد قسما بالتساوي بين بلجيكا وهولانده . ولكن هذه المساواة في التقسيم كانت ، في الواقع ، ضارة بالبلجيكيين ، لأن الدين الخاص ببلجيكا لم يكن إلا عشر دين هولانده . وإذا أعطى تمثيل متساو للسكان ، فقد كان البلجيكيون مع ذلك ثلاثة ملايين ونصف ، بينما كان الهولنديون مليونين . ورغم المبدأ ، كانت الأكثرية للهولنديين في الوظائف العامة. فقد وجد في الادارة أحـد عشر .موظفاً بلجيكياً كبيراً ، على حين أنه وجد فيها مائة وسبعة عشر هولاندياً . وفي الجيش وجد ٢٨٨ ضابطاً بلجيكياً مقابل ١٩٦٧ هولندياً. وكانت اللغة القومية « للدولة النيثيرلاندية »، حتى ان مرسوماً صدر في ١٨١٩ يجعل معرفتها اجبارية للحصول على وظيفة عامة أولتحرير صكوك قضائية أو للتسجيل لدى الكاتب العدل .

وهكذا سويت عملية الدمج على حساب البلجيكيين . وكان الملك غليوم فكراً مشخصاً حسياً جداً ، وعملياً جداً . وقد اعتمد على شيئين لاستمالة رعاياه البلجيكيين وربطهم بـــه : على الرخاء الاقتصادي ، وعلى نشر

« الأنوار » . وكان في هاتين النقطتين رجلا جداً من رجال القرن الثامن عشر .

الرخاء الاقتصادي . — كان الرخــاء الاقتصادي متحققاً لأن السياسة الاقتصادية التي سلكها الملك كانت محايدة حيال نصفي دولته ، حتى ان البلجيكيين أفادوا منها أكثر من الهولانديين وبعد أزمــة تكيف في السنوات الأولى ، أزمــة امتدت حتى ١٨٢٠ ، أفاد البلجيكيون من الظروف الجديدة الملائمة : ان السوق الهولاندية مع زبائنها ، وخاصة مع مستعمراتها ، انفتحت الآن للتجار والصناعيين البلجيكيين عوضاً عن السوق الفرنسية التي انفصلوا عنها من جديد بخط جمارك . وان نهر الايسكو ، الذي أغلقه الهولانديون منذ بداية القرن السابع عشر ، فتح ثانية ، وعلى اثر ذلك نمت انفرس نمواً عظيماً. وساعد التشريع ، الذي كان ملائماً للرؤساء ، ورخص اليد العاملة البلجيكية على التوسع الصناعي . ووضع النظام الجمركي عام ١٨١٦ لحماية الصناعة البلجيكية ، ثم خفف وأعيد تنظيمه عام ١٨٢١ . وكانت الحكومة تشجع انطلاق الحركة الاقتصادية بسياسة المكافآت ، والأشغال العامة ، وانشاء مؤسسات الاعتماد (التسليف) ، وأهمها الشركة العامة عام ١٨٢٢ وعلى هذا النحو نمت جميع أشكال الحياة الاقتصادية نمواً عظيماً ، وبخاصة الصناعة ولا سيما الصناعة القطنية والصناعة المعدنية . وفي ١٨٢٧ انشىء في سيرينغ أول فرن عال في أوربة القارية . ودخل استخدام الآلة بسرعة على مثال انكلترا ، وازداد الانتاج الصناعي لبلجيكا حتى انه أقلق الانكليز. ونمت انفرس نمواً فائقاً جعل الميناء يقفز كثيراً ويسبق امستردام بعد أن كان له منذ بداية القرن السابع عشر منافساً بائساً . ونمت الزراعة

أيضاً ، ومن الممكن أن يقال ان بلجيكا ، في أوربة حتى ١٨٣٠ ، كانت أكثر البلاد ازدهاراً ورخاءً . وازداد عدد السكان نصف مليون نسمة : وفي العام ١٨٣٠ بلغ أربعة ملايين تقريباً . وإذا كانت المصالح المادية تسير الناس ، فليس للبلجيكيين ما يجعلهم يعارضون حكومتهم الجديدة .

نمو الانوار . – واعتمد غليوم أيضاً على نمو الأنوار . وكان هذا النمو مفهوماً من مفاهيم القرن الثامن عشر وفي الوقت نفسه تقليداً لهولاندة في اهتمام الدولة وعملها على تنمية التعليم العام . وكان البلجيكيون ، من وجهة النظر هذه ، متخلفين : كان الشعب أمياً ، والبورجوازية البلجيكية دون مطالعة ، والارستقراطية دون أي حب اطلاع فكري. وعلى خلاف الامبراطورية الفرنسية التي لم تهتم إلا بالتعليم الثانوي ، اهتم غليوم بتنمية التعليم العالي والتعليم الشعبي . وفي تشرين ١٨١٧ فتح ثلاث جامعات دولة : **غاند** ، **لوفن** ، **ليبيج** ، ودفعت الدولة ثمن الأبنية وتكاليف صيانتها ، وسمت الأساتذة . وأصلحت أكاديمية العلوم والآداب الجميلة في بروكسل عام ١٨١٦ . وأنشئت في عدة مدن مدارس نموذجية للتعليم الشعبي . وأجبرت كل قومون (مدينة) على فتح مدرسة عامة . وسجلت الأنظمة المدرسية بعناية ، وكان من واجب الحكومات أن تراقب التعليم الابتدائي وتنشطه . وانشئت مدرسة للمعلمين في **هارلم** ، وأنمي التعليم الثانوي أيضاً ، وانشئت ، إلى جانب المدرستين الثانويتين النابوليونيتين في بروكسل وليبج ، مؤسسات للتعليم الثانوي في جميع المدن الكبرى . وأخضعت لتفتيش الدولة الكليات الثانوية الحرة التي نمت في كل مكان تقريباً .

وفي الحقيقة ، بذل جهد رصين لتعويض تخلف البلجيكيين بالنسبة

للهولانديين وسدت الثغرات . وكان في تنمية التعليم هذه فكرة سياسية وهي تشجيع نشر اللغة النثرلاندية عن طريق تنظيم تعليم اللغات .

عقبات التلاحم . ـ ولكن سياسة غليوم الهادفة إلى جلب البلجيكيين اليه اصطدمت بقوى روحية وتعثرت . ويبدو لنا أن أسباب تفتت مملكة البلاد المنخفضة نفسية وفكرية .

النفوذ الفرنسي . ـ لقد بقيت بلجيكا بلداً فرنسي اللغة والحضارة ، ولذلك لم يستطع الهولانديون أن يؤثروا عليها . كان رد الفعل ضد سياسة الملك اللغوية شديداً جداً من جانب الاكليروس أولاً ، ثم من جانب الموظفين بشكل عام، ومن عالم المحاماة وعالم القانون. ففي ١٨٢٢ وقعت عرائض في غاند ضد ازدواجية اللغة الاجبارية . ورفضت المجالس التمثيلية استعمال اللغة النثرلاندية . وأصبح سوء المزاج مرأ بين الاكليروس والادارة : رفض الاكليروس أن ينشد قداس الروح القدس عند الدخول إلى المدارس الثانوية (آثينيه) ؛ ورفضت الادارات أن تحضر المواكب. وفي بضع سنوات أصبح المرسوم الخاص باستعمال اللغة القومية لاغياً .

وتشكلت رابطة هولاندية في بلجيكا ، وفتحت لها أقساماً في مدن الفلاندر الكبرى وفي بلاد الفالون ، ولم تستطع أن تحقق غرضها : ففي ١٨٢٩ كانت تضم ٦٤١ مشتركاً فقط ، ولم تكن لتضم الا بضعة موظفين . وحاول الاكليروس ، بشكل عام ،منذ القرن السادس عشر ، وجهد استطاعته ، أن يقف في وجه انتشار اللغة النثرلاندية التي يمكن أن تكون عجلة للهرطقة الكالفنية ، وعزل البلاد الفلاماندية . وبقيت اللغة الفلاماندية لغة شعبية محدودة وفي عالم المفكرين كان التكلم فقط باللغة الفرنسية لغة الارستقراطية والبورجوازية حتى في البلاد الفلاماندية نفسها .

وفي الجامعات التي أنشأها غليوم لم يقم الأساتذة بالعمل الذي عول عليه ، مع أنه انتخبهم بعناية ، وأتى بعلماء من المانيـا وهولانده ولكن هؤلاء الاساتذة لم يعملوا شيئاً . وعنـدما تكون الدروس باللغـة النترلاندية يغيب المستمعون . واكتفى معظم هؤلاء الاساتذة باعطاء دروسهم ، وعند الانتهاء منها ينصرفون لأشغالهم الشخصية دون أن يقوموا باتصال مع عالم الطلاب أو مع زملائهم ، ولم يكن لهم أي تأثير على الشبيبـة أو أي تأثير علمي . ومما يبرهن على ذلك أن زعماء حركة الاستقلال في ١٨٣٠ كانوا ممن تثقفوا في المدارس الثانوية (آثينيه) وفي الجامعـات التي كان يراد منها أن تقنعهم بامتياز لغة الملك . . أما أبناء الطبقة البورجوازية فكانوا يوفدون للدراسة في فرنسا ، إذا كان بامـكان أهلهم ايفادهم ، ليتخلصوا من الدعاية النترلاندية ، كما كان أبناء الفلانـدر يرسلون إلى المدارس الثانوية في البلاد الفالونية .

وكان الكتاب يبحثون عن نمـــاذجهم في فرنسا ، ويقفون عنـد صيـغ كلاسيكية قديمة بطل استعمالها . ولم يتجدد عالم الأدب في بلجيكا ، ولم يكن في بلجيكا ابداعية ، وعلى خلاف معظم البلاد الأخرى ، لم تكن الحركة القومية مرتبطة بالحركة الابداعية . و كان رجال الشمال والعلمـــاء والاخلاقيون الهولانديون يحتقرون هذه الآداب العابثة البلجيكية . ففي اكاديمية بروكسل حيث كان نصف الأعضاء ينطق باللغة الفرنسية ونصفهم باللغة النترلاندية ، كان النترلانديون يقاطعون الجلسات ولا يحضرون . وفي العالم السياسي ، كانت الغلبـة للغة الفرنسية والنفوذ الفرنسي كما في العالم الفكري . وفي مجلس المملكة العام ، حيث كانت اللغتان مقبولتين ، كان الكلام في الواقـع بالفرنسية ، لأن النواب البلجيكيين لم يشاؤوا التكلم بلغة أخرى غير الفرنسية ، وكان النواب النترلانديون مجبرين على

استعمال الفرنسية لافهام زملائهم ، وكانت جميع الجرائد البلجيكية تتجه نحو فرنسا،وتأخذ اخبارها من فرنسا وتستقي منها مادة مقالاتها الجوهرية .
وقد تعزز هذا النفوذ الفرنسي على الصحافة وعلى العالم السياسي في بلجيكا باقامة محكومين ومبعدين بعد أن طردهم من فرنسا مجلس النواب الملكيين المتطرفين في العهد الرجعي في فرنسا بعد مؤتمر فينا ١٨١٤ — ١٨١٥ . وكان هذا الأمر يهم السياسة لأن النفوذ الفرنسي يمثل بالنسبة للبلجيكيين تربية بالمعنى الليبرالي والمعنى البرلماني ، وبالتالي يغذي معارضة سياسية لسلوك الملك .

لذا كله لم يتم الانسجام الفكري ، وبقيت بلجيكا كتلة فرنسية . وما دامت الحياة السياسية متمركزة في الطبقات البورجوازية والنبيلة فان القضية الفلاماندية التي سيكون لها فيما بعد كثير من الأهمية في بلجيكا لا توضع . وهكذا أخذ الاختلاف يظهر تدريجياً بين بلجيكا ، البلد الفرنسي ، وهولانده . ودام الخصام رغم جهد الحكومة ، ولم ينجح غليوم الأول في نزع بلجيكا عن فرنسا وربطها بهولاندة .

القضية الدينية . ـ أما حجر العثرة الثاني فهو **القضية الدينية** ، وقد وضعت في الأصل عند تشكل مملكة البلاد المنخفضة . وكانت عظيمة الأهمية لأن العاطفة القومية لم تتشكل بعد بوضوح في بلجيكا ، ولذا كانت القضية الدينية مكوناً للرأي . وفي كل مناسبة خطيرة كانت الجماهير بقضها وقضيضها تقف مجمعة وراء الاكليروس : لقد وقفت وراءه عندما نشب النزاع الديني في عهد الامبراطور جوزيف الثاني في عهد النظام القديم ، ووقف الشعب مناضلاً ضد الاضطهاد الديني في عهد حكومة الادارة (الديركتوار)؛ومن ثم لمقاومة سياسة نابوليون الأول المناوئة للحبر الروماني . وما دامت القومية البلجيكية غير واضحة المعالم فان العاطفة

الكاثوليكية كانت العلامة الوحيدة لهذه القومية . وقد قام سوء الظن بين حكومة مملكة البلاد المنخفضة والكنيسة ، وكان الاكليروس قلقاً من الحاق بلجيكا بدولة بروتستانتية وليبرالية نقشت في أعلى دستورها الحرية والمساواة في العبادات ، بالرغم من أن الحكومة لم تقم بأي دعاية أو سياسة بروتستانتية . واحتج الاكليروس على القانون الأساسي في ٢٨ تموز ١٨١٥ . ووجه الاساقفة للملك « لومهم باحترام » ونخص بالذكر منهم اسقف غاند المونسنيور دوبروي الذي شجب الدستور في ٢ آب . وعندما صادق النبلاء على الدستور قام الاكليروس عليهم بحملة شديدة وأثار على اليمين (القسم) مشكلة وجدانية . وأخيراً ، حكمت الاسقفية بكاملها ، في ايلول ١٨١٥ ، على الدستور « حكماً مذهبياً » .

ومن جهة أخرى ، لم ينظم تشكيل الكنيسة . وقد صدرت براءة ١٠ أيار ١٨١٦ وحافظت على كونكوردات عام ١٨٠١ والأحكام الملحقة بها ، ولكن البابا لم يقبل بهذه الكونكوردات التي تسلم السلطات على الكنيسة إلى أمير بروتستانتي . ونجد في هذه الكونكوردات مادة صريحة تنص على أنه في الحال الذي يكون فيها الحكم بأيدي بروتستانتي ، تستأنف المفاوضة لتغيير المعاهدة . وقد حافظ الملك على الكونكوردات بلا شرط ولا استثناء ، وتصرف الاكليروس كما لو كانت الكونكوردات غير موجودة ، كما لو استرد استقلاله التام : فقد ادعى بحرية جمعياته الدينية ، ولم يحسب للحكومة حساباً . ووضعت بخاصة مشكلة خطيرة : وهي مشكلة بين الولاء (الاخلاص) للسلطات المدنية التي تجبر الكونكوردات الكهان والاساقفة على أدائها . وفي بعض الابرشيات رفض الكهان الجدد اليمين . وكان النزاع شديداً . وحاولت روما مع ذلك أن تهدئه . وعندما رسم المونسنيور دوميان اسقفاً على مالين ، وهو الذي

أقسم اليمين للقانون الاساسي عنـدما كان عضواً في لجنة اعادة النظر في الدستور ، أقرّ بان هذه اليمين ليس لها قيمة إلا بالنسبة إلى النظم المدنية ، وبالتالي يمكن شرعاً حلفها (أيار ١٨١٧).

ومع هذا فقد قام خلاف عنيف في مجموع هذه الكنيسة بين الحكومة واسقف غاند المونسنيور دو بروي . وكان هذا رجلاً عنيفاً متزمتاً ، وقد سبق له أن دبر النضـال ضـد نابوليون فـأمر بسجنه . واستمر بنفس الحماس في معارضته لحكم غليوم الاول . وكانت ابرشيته نوعاً من كنيسة منفصلة في الفلاندر في داخل الكنيسة البلجيكية ، حتى ان الكنيسة تميزت غيظاً وقررت القاء القبض عليه . وفر دوبري إلى فرنسا ، وحكم غيابياً بالنفي في ٨ تشرين الثاني ١٨١٧ . ولكن هذا الحكم لم يضع حداً لمعارضة ابرشيته : فقد حافظ نواب الاسقف العامون على موقف الاسقف المذهبي والاداري ورفضوا قبول التدابير الحكومية . وتوفي مونسنيور دوبروي في ٢٠ تموز ١٨٢١ وتوقف النزاع مؤقتاً .

قامت المعارضة في الاصل بين الاكليروس والحكومة . وكان مفهوم غليوم الاول ، في علاقات الكنيسة والدولة ، مفهوماً جوزيفياً ونابوليونياً ، ولذا أراد أن يصنع من الكنيسة الكاثوليكية البلجيكية كنيسة خاضعة للادارة . غير أن النفوذ الفرنسي كان عظيما على الكنيسة البلجيكية وبدا خطيراً لسببين : ففي نظر الاكليروس والكاثوليكيين في بلجيكا كان وضع الكنيسة الفرنسية نموذجياً : ففي العهـد الرجعي كان نفوذ الاكليروس على الحكومة وازدهار الكنيسة عظيمين : وقـد أفادت الكنيسة فوائد جمة من العهد الرجعي ، وخاصة ابتداء من ١٨٢٠ . ولذا أراد الاكليروس البلجيكي أن يتبع هذا المثل الذي ضربته فرنسا .

ومن جهة أخرى . نشأت ونمت ، بتأثير لامانيه ، أفكار كاثوليكية حبرية رومانية . ولهذين السببين كان النفوذ ، الذي تمارسه الكنيسة الفرنسية على الكنيسة البلجيكية ، خطراً على الحكومة . ولذا أراد غليوم أن يضع يده على تثقيف وتشكيل الكهان لبناء هذه الكنيسة القومية المستقلة عن تأثيرات الخارج . وكان سوق الكهان ضعيفاً فضلا عن جهلهم . ورغب غليوم أن يثقفهم حسب مذهب الدولة ويكافح النفوذ الذي يمكن أن يؤثروا به على تربية الأطفال . ولذا أصدر عدة قرارات وأولها : القرار الصادر في أول شباط ١٨٢٤ ويفرض على مدارس الجمعيات الرهبانية طلب الترخيص من الحكومة ، وعلى المعلمين تقديم شهادة الكفاءة التي تسلمها الدولة . وهذا الالزام ساعده على أن يطرد من بلجيكا « اخوة المدارس المسيحية الفرنسيين » الذين يعلمون في المدارس الابتدائية البلجيكية . أما القرار الثاني الصادر ، في ١٤ حزيران ١٨٢٥ ، فيضع المؤسسات التعليمية ، مهما كانت ، تحت اشراف الدولة ويطلب من جميع الاساتذة درجات جامعية . وفي الوقت نفسه انشئت « الكلية الفلسفية » ، وهذا الاسم له معناه ومغزاه ، وارتيادها اجباري على كهان الغد قبل دخولهم إلى المدارس الكهنوتية . ونظمت الكلية مباشرة وافتتحت في لوفن ، في ١٧ تشرين الأول ١٨٢٥ : وقد انشئت لتكون عظيمة : وكان لديها من الامكنة مايجعلها تضم الف ومائة تلميذ ولكن وجد فيها ١٦٧ ، وأخذ هذا العدد يتناقص في السنوات التالية . وأخيراً في ١٤ آب ١٨٢٥ ، قررت الحكومة بأن البلجيكيين ، الذين أتموا دراستهم في الخارج ، لا يقبلون في الجامعات ولا يمكنهم أن يقبلوا في الوظائف العامة في بلجيكا . وهذه القرارات ، كما نرى ، تهدف إلى قطع الكنيسة البلجيكية عن كل تأثير فرنسي وإلى وضع تثقيف رجال

الدين تحت ادارة الحكومة . احتج الاكليروس مباشرة ، حتى ان مطران مالين نفسه المونسنيور ميان قاطع مدارس الدولة ، وخطب على منبر المطرانية خطباً شديدة شجب فيها قرارات ١٨٢٥ . فقامت الحكومة تجاه هذه الخطب بتدابير انتقامية لاقت استحسان الكالفنيين الهولانديين .

وأخيراً حاول غليوم تنظيم الكنيسة وبخاصة الأسقفية . كانت الوظائف الكنسية مضطربة ، ووجدت كراسي اسقفية كثيرة وشاغرة : أسقفية ليبج منذ ١٨٠٨ ، منذ عهد نابوليون ، اسقفية تورنيه في ١٨١٩، وأسقفية غاند في ١٨٢١ ، وأسقفية نامور في ١٨٢٨ . ولم يكن هنالك كونكوردات لأن البابا رفض تجديد معاهدة ١٨٠١ ، ولذا لم يكن بالامكان شغل هذه الكراسي الشاغرة . ومن جهة أخرى ، كانت الحكومة ترغب في إضعاف معارضة الكاثوليك بالتفاوض مع روما ، وقامت بمفاوضات مع البلاط الحبري أدت إلى كونكوردات ٢٥ تموز ١٨٢٧. وأفادت هذه الكونكوردات روما لأنها ربطت الكنيسة الكاثوليكية في هولنده بالكرسي الأقدس : وأنشئت رسمياً أسقفيات امستردام ، بوالودوق ، أو ترخت ، في هولنده ؛ وفي بلجيكا أسقفية بروج التي حذفت عام ١٨٠٢ . ومن جهة أخرى شهد الأساقفة الاعتراف بحق ادارة مدارسهم الكهنوتية كما يريدون . ومقابل ذلك ، أصبح للحكومة الحق بنصيب في رسم الأساقفة ، وذلك بأن تعرض قائمة المرشحين ، الذين تشير بهم مجالس الكهنة على روما لرسمهم ، على الحكومة ، وتستطيع هذه أن تحذف الأسماء التي تبدو لها خطرة . وبعد أن يتقلد الأساقفة مناصبهم يقسمون اليمين للحكومة . وبدا أن كونكوردات ١٨٢٧ ، سوت مشكلة تنظيم الكنيسة . ولكن سوء نية الحكومة الهولندية ظهر حالاً ، لأن الحكومة أرسلت بلاغاً ، إلى حكام الأقاليم في ٥ تشرين

الأول ، يصرح بأن تطبق الكونكوردات « مع التحفظات التي تقتضيها القوانين » ، وبانتظار تسمية الأساقفة الصالحين والعقلاء والمستنيرين بقي تشريع التعليم ساري المفعول .

كانت القطيعة تامة بين الأكليروس البلجيكي والحكومة . وكان الأكليروس سيد الجماهير . ويضاف إلى ذلك أن سياسة الحكومة في التمثيل والدمج في البروتستانتية الهولندية وفي مناوأة الأكليروس كان من نتيجتها أن أصبحت القضية الدينية أرضاً للمعارضة ، معارضة تدافع عن السيماء التاريخية والتقاليد البلجيكية تجاه حكومة أخذت بالتدريج وجه حكومة أجنبية . ومع هذا فلم تكن القضية الكاثوليكية بعد قضية بلجيكا كلها في تلك الفترة ، لأن الأكليروس كان مرتبطاً بحزب المحافظين أي ان الكنيسة ما زالت مرتبطة بالتعاملات القديمة والامتيازات والنظم السائدة في النظام القديم . . ولتصبح المعارضة الكاثوليكية معارضة قومية حقاً كان عليها أن تتحرر من ارتباطها بالنظام القديم .

المعارضة . — وفي السنوات الأخيرة للمملكة ، من ١٨٢٨ إلى ١٨٣٠ ، حدث تطور في الظروف السياسية كان من نتيجته أن أسقط كل ما أبقى على انفصـــال حزبيّ المجتمع البلجيكي : الأحرار والكاثوليك . وأعطى الرخاء الاقتصادي البورجوازية أهمية متزايدة ، وأشعرها بقوتها في وقت كان التحويل عميقاً في الحزب الحر كما في الحزب الكاثوليكي .

وفي الواقع ، كانت الأحزاب الحرة البلجيكية تدعم الملك ، في سياسته المناوئة للاكليروس ، ووجد في بلجيكا تقليد في معاداة الكاثوليكية كما وجد فيها تقليد للكاثوليكية ، ولكنه قليل . ومع ذلك فقد عبر عن العداء بانتشار وتشكيل حزب فلسفي على طراز الافكار الفرنسية في القرن

الثامن عشر عند الفلاسفة والموسوعيين . ودعم هؤلاء الأحرار سياسة حكومة الادارة (الدير كتوار) المعاقبية ضد الكنيسة . وبعد ١٨١٥ كانوا يمثلون ، أمام الكنيسة المرتبطة بالنظام القديم ، حزب المجتمع الحديث . كانوا حقوقيين يناصرون حرية الدولة والحريات المدنيه.وعززت الماسونية هذا الحزب عندما أعيد تشكيلها بعد ١٨١٥ ودعمتها الحكومة. وكان الامير فريديريك ، ثاني أبناء الملك ، سيد الماسونية الاعظم في مملكة البلاد المنخفضة . وقد سعت الحكومة لانتساب الضباط إلى الألوج الماسونية . وعزز الحزب الحر بعمل المحكومين الفرنسيين ، الذين جاؤوا وأقاموا في بلجيكا . وكان هؤلاء المحكومون من رجال المؤتمر الوطني بفرنسا من قتلة الملك الذين أخرجوا من ديارهم أو من رجال المائة يوم الذين استثنوا من قانون العفو العام . وهؤلاء الفرنسيون، الذين جاؤوا وأقاموا في بلجيكا ويمثلون تقاليد الثورة والامبراطورية في فرنسا، كانوا يكرهون الاكليروس وخاصة الموالين للبابا . كانوا متحمسين ويقومون بالدعاية وامتهنوا مهناً حرة ، محامين في بروكسل ، أو أساتذة، أو صحافيين . وأصبحت بروكسل على هذا النحو مركز حياة للافكار الفرنسية وانتشارها . ودعم هؤلاء الأحرار حكومة الملك في نضالها ضد الاكليروس . واستخدمهم غليوم ورحب بدعمهم لأنه كان مقتنعاً بأنه لن يكون لهذا التحالف أي صدى خطير .

وابتداءً من ١٨٢٥ ، وجد اتجاه جديد عند هؤلاء الأحرار : فقد بلغ الجيل الجديد منهم سن الرشد ، ولم يشترك هؤلاء الشباب في المنازعات القديمة ، واستمر النفوذ الفرنسي يؤثر فيهم ، ولكنه نفوذ من نوع آخر ، مغاير لنفوذ الحزب الفلسفي المرتبط بافكار القرن الثامن عشر العقلانية ؛ إنه نفوذ الأفكار التي كان يوسعها في دروس السوربون

كبار الأساتذة الفرنسيين الذين كان اشعاعهم عظيماً في أوربة ، مثـــل فيلمان ، غيزو ، كوزن ، وخاصة كوزن الذي حلت فلسفته الروحانية محل فلسفة القرن الثامن عشر الملحدة ؛ أو المثل الذي تقدمه إلى البلجيكيين مناقشات المجالس الفرنسية وقراءة الصحف الفرنسية وخاصة تأثير بنيامين كونستان ومطالبته بالحكم البرلمـــاني والحرية الفردية . وأدت انتخابات ١٨٢٧ إلى ظفر هذا الحزب الحر في فرنسا الذي فرض على الملك سقوط فيليل وتشكيل وزارة مارتنياك المعتدلة . وكانت الليبرالية الفرنسية تعرب عن رأيها في جريدة « الكرة » التي أصبح نفوذها عظيماً في بلجيكا . ومثال هذا النفوذ هو اعتناق الشاب لوي بوتر لهذه الليبرالية الجديدة ، وسيصبح هذا من زعماء الثورة البلجيكية ، وبعد أن كان في القديم عدواً للكنيسة غير اتجاهه واتجه منذ ١٨٢٤ صوب الديموقراطية والليبرالية على الطراز الفرنسي الجديد .

وكان لهذه الليبرالية الجديدة مركزان : بروكسل وليبج . ففي بروكسل تزعم الشبان خاصة حركة الاستقلال مثل : بوتر ، الدوق بتيو ، شارل بروكير ، فان دوفير ، ديفو ، لو ثومب ، وقد أسسوا في العام ١٨٢٦ صحيفه باسم « البلجيكي » . وفي ليبج تزعم الحركة الأخوان دوجه وجوزيف لوبو . وكانت لهما جريدة وقد تأسست عام ١٨٢٤ واسمها « ماتيولانسبرغ » ثم أخذت ابتداءً من ١٨٢٦ اسماً جديداً وهو « السياسي » . وبرنامج هؤلاء الأحرار برنامج حكومة برلمانية مفتوحة للجميع ، للكاثوليك كما للآخرين ، ومع ذلك فقد كان الأحرار قلة ، ويساقون من بين البورجوازية المدنية ، ولم يكن وراءهم جماهير كتلك الجماهير التي كانت تتبع الاكليروس ،

وبشكل مواز ، تطور الكاثوليك تطوراً مشابهاً ، ولنفس الاسباب ،

فقد وصلت عندهم كما وصلت عند الأحرار أجيال جديدة لقيادة الحركة . وهجر هؤلاء الشبان الكاثوليك فكرة رجعة امتيازات النظام القديم ، وتحرروا من الماضي . وكان مطلبهم ضد الحكومة التي تضطهد الكنيسة هو مطلب الحرية وحرية الكنيسة ، ثم انتقلوا إلى فكرة الحرية للجميع. وتبعوا في تطورها لامانيه وقد أصبح نفوذه عظيماً . وانطلق لامانيه هذا من حزب ما وراء الجبال ، حزب البابا ، وفكرة الحكم المطلق . وانتهى بالوصول إلى مذاهب ليبرالية عندما رأى أن ارتباط الكنيسة والحكومة يضايق نمو الكنيسة . وهنـــاك حادث يري جيداً انتشار أفكاره في الاكليروس البلجيكي الناشيء . وهو أن كتابه « تقدم الثورة في الكنيسة وفي المجتمع » عندما صدر في بداية ١٨٢٩ ، صدرت له مباشرة أربع طبعات في بلجيكا .

لقد تخلى الكاثوليكيون اذن عن مهاجمة الحرية ، وانسحبوا من موقفهم القديم الذي يشجب القانون الأساسي بعد أن وطد حرية الأديان وحرية الصحافة . وقبلوا الآن الحرية لجميع الناس . ويجب أن نذكر بين زعمائهم بخاصة الأمير **فيلكس دوميرود** والأب **فان بومل** الذي أصبح أسقف لييج . وكانت لهم جريدتان « **بريد الموز** » أي « بريد نهر الموز» و« **كاثوليكي البلاد المنخفضة** » . وتكيف الكاثوليك مع المجتمع الحديث وتبدل موقفهم تماماً ، حتى ان القاصد الحبري عجب من ذلك بل واستاء .

وعلى هـذا النحو سار الأحرار والكاثوليك سيراً متوازياً حررهم من وجهة نظرهم الضيقة القديمة ومن روح الحزب . وهذا التطور جعـــل النضال المشترك ضد العدو المشترك ممكناً ، أي ضد السلطة التي تقيد الحرية . ولا شك في أن مفهوم الحرية لم يكن نفسه تماماً عند الكاثوليك

وعند الأحرار ، ولكنه كان ضرورياً لنمو كل من الحزبين ، وترك الخلافات جانباً . ووجدت المناسبة للاتحاد بين الحزبين في تشرين الثاني ١٨٢٨ ، عندما اقترح شارل بروكير على المجلس العام الغاء صك ١٨١٥ المتعلق بالصحافة : ولأول مرة في المجلس العـام ، جرت مناقشة مبدأ كبرى في السياسة ، وامتد النقاش حتى قضية الحكم الشخصي والحكم البرلماني . وطرح اقتراح بروكير بـ ٦١ صوتاً ضد ٤٤ . وفي هـذا الاقتراع ، صوت جميع الممثلين الهولانديين وسبعة بلجيكيين ضده ، بينما صوت جميع الممثلين الآخرين ، ممثلي الجنوب ، ممثلي بلجيكا ، مع هذا الاقتراح . وهكذا أقرت القطيعة في المجلس العـام في هذه القضية حسب قسمي الدولة الجغرافيين ، حسب المنطقتين القوميتين في المملكة ، الهولنديين من جهة والبلجيكيين من جهة أخرى .

وبرهنت التجربة في المجلس العام على أنه لا سبيل إلى الحصول على نظام حر . ولذا كان من الـلازم أن تعطى الجماهير الحرية إذا أريد الحصول على اصلاحات . والقى دوبوتر إلى الكاثوليك ، في جريـدة « **بريد البلاد المنخفضة** » ، بنداء إلى الاتحاد . وتفاهم الحزبان لتنظيم المعارضة ضد الحكومة ، وظلا على الصعيد القـانوني وتأثرا في هذه النقطة بنفوذ الأحرار الفرنسيين الذين لا يعتمدون ، ضد وزارة بولنياك الرجعية ،على وسائل أخرى غير الوسائل القانونية .وتأثراً خاصة بالمثل الانكليزي، وبخاصة مثل اوكنيل الذي كان يقوم بتنظيم حملة كبرى لتحرير الكاثوليك وهكذا ظلا على الصعيد القانوني ، وأسلحتها عرائض موقعة من جميع جهات الشعب . وهـذه العرائض تتناول نقطتين مختلفتين : بعضها يطلب حرية التعليم والآخر حرية الصحـافة ، واقامة لجنة القضاء ، واصلاح الادارة لصالح الحريات المحليـة ، وفي بضعة أسابيـع اجتمع ٤٠٠٠ توقيـع ، واستمرت

الحركة طوال سنة ١٨١٩ . وفي شهر تشرين الثاني جمع ٣٦٠٠٠٠ توقيع .

وتدل جملة العرائض على أن المعارضة نجحت في توجيه اهتمام الجماهير وتدريبها . وهكذا دخلت البلاد البلجيكية كلها مسرح السياسة ، أي الشعب نفسه وليس زعماؤه السياسيون فحسب ، ولم يعد أي تميز في معارضة الحكومة وفي مطالب الاصلاحات بين مختلف الأحزاب البلجيكية . وتم الاجماع ضد الحكم ، ضد النظام الذي تجسد شيئاً فشيئاً في هولندة

ووصلت هذه المعارضة إلى درجة حادة بسبب خرق الحكومة وعدم جدوى سياستها وهي سياسة الملك نفسه ورئيس مجلس الوزراء فان مانين . وقررت الحكومة سياسة الشدة : حكم على دو بوتر بالسجن والغرامة ، فأصبح بذلك شهيداً قومياً ولم يمنع سجنه معارضته : فقد كان يلقي من السجن بالكراريس فتلاقي نجاحاً عظيماً . وحاول الملك في الوقت نفسه أن يعدل المعارضة ويقسمها . وفي قرار ٢٠ حزيران ١٨٢٩ جعل ارتياد الكلية الفلسفية اختيارياً ، وفي قرار ٢ تشرين الأول ١٨٢٩ أرجع للاساقفة استقلال مدارسهم الكهنوتية . ولكن هذه التنازلات لم تخضع الاكليروس ، ولم ينفصم اتحاد الأحرار والكاثوليك .

والقى غليوم الأول نفسه ، كشارل العاشر ملك فرنسا في توكيدات طائشة أثارت عليه معارضة اجماعية : ففي لييج وأمام مجلس القومون اعتبر المعارضة قباحة . وفي رسالة إلى المجلس العام في ١١ كانون الأول ١٨٢٩ شجب الحكم البرلماني والمسؤولية الوزارية ؛ واثنى على سلوكه الخاص ونظامه واتهم المعارضة بالعمالة لدى الاطماع الأجنبية فأجاب دو بوتر على هذه التصريحات الملكية بكراس يدعى

« رسالة محب الشعب » في ٢٠ كانون الأول ١٨٢٩ ، وبمشروع جمعية مقاومة قانونية . فحكم عليه مع حر آخر وكاثوليكيين بالنفي ، في ٣٠ نيسان ١٨٣٠ ، واضطر أن يغادر البلاد ويقيم في فرنسا .

وهكذا حفرت وهدة بين البلاد البلجيكية وملكها . ووجد الملك في طريق مسدودة . وأخذت الحكومة بوضوح وجه حكومة هولندية في نزاع مع اجماع الرأي البلجيكي كله . وكان النزاع ، في سنة ١٨٢٩ والقسم الأول من ١٨٣٠ شديداً للغاية . ومن غير المفيد أن نذكر التفصيلات ولكن الاتجاه كان واضحاً : فقد وجد اجماع معنوي في القسم البلجيكي للمملكة . وانقسمت مملكة البلاد المنخفضة إلى قسمين ، ولم يعد التلاحم ممكناً . وكانت هذه المعارضة سياسية صرفاً ، وبرنامجها الحرية البرلمانية ، وهو برنامج مماثل لبرنامج الفرنسيين الأحرار المعارضين لحكومة بولنياك . ولم تفكر هذه المعارضة البلجيكية مطلقاً بالانفصال حتى ولا رفض الملك ، بل ان البلجيكيين ظلوا موالين للنظام وتشكلت جمعية واتخذت شعارها « موالون للملك حتى العار » . ولم يطالبوا إلا بالاصلاح الدستوري ، وتمسكوا بدقة بحدود القانون ، ولم توجد بعد أقل رغبه في تفتت المملكة .

ومع ذلك فقد ظهرت من قبل عناصر ديموقراطية : من الشبان « اليعاقبة » ، كما سموا أنفسهم ، ومن خوارنة وكهان شبان متزمتين غير متسامحين . وبدأ الاضطراب الديموقراطي يقلق المعارضة ، ويفسر بصعوبات الحياة التي سببتها الازمة الاقتصادية التي حدثت في بلجيكا ، كما في فرنسا ، في سنة ١٨٣٠ . ولم ير بان من الممكن حدوث ثورة ، ولم يلاحظ أيضاً أن المعارضة السياسية يمكن أن تصبح حركة قومية .

ومع ذلك فقد كان الوضع قريباً من الحركة القومية لأن الثورة نشبت في شهر آب ١٨٣٠ .

٢ — الثورة

إذا تم الانتقال من المظاهرات السلمية إلى الثورة ، ومن المعارضة السياسية إلى المطالبة القومية ، ومن الولاء للملك إلى الاستقلال ، فذلك لم يتم حسب خطة موضوعة مدروسة أو هدف يراد الوصول اليه . ان الواقع كان ، على العكس ، له معناه ومغزاه ، لأن الثورة البلجيكية كانت نتيجة سياسة عملية نشأت عن قوة الحوادث أكثر مما أتت عن الناس ، ولم تكن موجهة من قبل رجل دولة ، بل كانت حصيلة قوة مغفلة ، قوة الشعب نفسه .

لقد كانت الثورة من عمل البلجيكيين أنفسهم . وان ثورة تموز ١٨٣٠ في فرنسا كانت بالنسبة إلى الثورة البلجيكية فرصة ، ولكنها ليست مسؤولة عنها ، لأن فرنسا لم تأت إلى الثورة البلجيكية بمساعدة مادية؛ ولم يكن في بلجيكا حزب فرنسي ، باستثناء بعض أفراد منعزلين ، مثل الديموقراطي الجمهوري **جاندوبين** ، وكان على صلة بالجمهوريين الفرنسيين أو بعض موظفي عهد الامبراطورية ، مثل الكونت **دوسيل** . ولم يكن في بلجيكا حزب بلجيكي يطلب ضم بلجيكا إلى فرنسا. وفي الاتجاه الآخر، لم يكن سوى بعض محرضين فرنسيين نجدهم في المظاهرات الأولى في بروكسل ، وهم فرنسيون متطوعون اختلطوا مع البلجيكيين الذين عادوا إلى بلادهم في ايلول ؛ وأخيراً ، الجوقة الباريسية المؤلفة من المتطوعين الذين أتوا لمساعدة البلجيكيين . ان نصيب فرنسا في الثورة البلجيكية كان مطبوعاً بمساعدة الرأي الفرنسي ومساعدة الدبلوماسية الفرنسية بشكل طبيعي ، قبل التدخل العسكري عام ١٨٣١ .

مظاهرة بروكسل. – ان تفتيت مملكة البلاد المنخفضة وتشكيل دولة جديدة لم يتما دفعة واحدة ، بل على مراحل متتابعة ، ومن هذه المراحل انبثقت القومية البلجيكية .

كانت الثورة مزيجاً من الأحداث العسكرية والسياسية المتفرقة ، وكانت نقطة الانطلاق فيها مظاهرة شعبية قامت في بروكسل في مساء ٢٥ آب على اثر تمثيل « كوخ ميناء بورتيشي » في الاوبرا . ثم انقلبت المظاهرة إلى فتنة مع نهب وتدمير آلات المصانع . ولوضع حد لهذه المظاهرات ولهذه الثورة ، كان من الضروري تشكيل حرس وطني يوطد النظام ويبقى مسلحاً وتشكل أركانه ادارة بلدية جديدة . وحدث مثل ذلك في مدن بلاد الفالون ، مع شيء من التأخير ، وفي مدن البلاد الفلاماندية . وفي كل مكان تشكل حرس مدني ولجان أمن . وهكذا كان الشكل الأول للثورة البلجيكية ثورات بلدية رفعت أعلامها المحلية وتنازلت أمامها السلطات القديمة ، وتشكلت على هذا النحو الحرية البلدية بصورة غريزية وكانت تقليداً للبلاد الفلاماندية القديمة .

كانت المطاليب التي قدمها هؤلاء الثائرون سياسية صرفة وتقدمية قليلاً . فمن ذلك أن اللجنة البلدية في ليبج ، قررت في ٢٧ آب ، وأن نبلاء بروكسل قرروا في ٢٨ منه ، أن يوجهوا إلى الملك « رسالة » يحملها اليه وفد ويطلب منه تطبيقاً صادقاً وأميناً للقانون الأساسي ، وأعربوا في هذه الرسالة عن الحرية التامة للصحافة والتعليم والنظام البرلماني واشتراك البلجيكيين في الحكم بنسبة عدد الشعب البلجيكي . وهذا البرنامج هو برنامج برلماني ، برنامج اتحاد الأحزاب الليبرالية والكاثوليك تسانده ، في هذه المرة ، جماهير الأمة . ولم يوضع النظام موضع اتهام بعد ، حتى ولا شكل المملكة نفسه .

ومن هذا البرنامج تم الانتقال إلى برنامج أكثر تقدماً تحت تأثير حادثين : من جهة ، كان عمل الحكومة تجاه هؤلاء الثوار خرقاً : أرسل الملك نجليه ، الأمير اورانج والأمير فريديريك إلى بروكسل في ٣٠ آب مع تصريحات مهددة فأثارت مظاهرات معادية قام بها سكان بروكسل ، واضطر الأمير اورانج أن يترك جنوده خارج المدينة ويدخل في مفاوضات مع زعماء الحرس المدني . ومن جهة ثانية ، عندما جاء المندوبون وطلبوا إلى الملك الاصلاحات التي تكلمنا عنها ، وأجاب الملك جواباً مسوفاً . وعندما عاد الوفد ، إلى بروكسل في أول ايلول ، قدم تقريراً أثار جموع الشعب الصاخبة . وهكذا اصطدمت المطالب البلجيكية بمعارضة الحكومة . وهذه أول خيبة ، وستجني هذه الخيبة ثمارها .

وفي غضون ذلك تعممت الحركة في بلجيكا كلها . وتوافدت على بروكسل الوفود والمتطوعون من كل مكان ، وتبنت بلجيكا ألوان بروكسل البرابانسونية : العلم الأسود والأصفر والأحمر . وأصبحت الحركة البلدية حركة قومية .

كانت نتيجة هذا الحادث المزدوج تزايداً في مطاليب الثوار ، وقام مقام هذا البرنامج الأول البرلماني الصرف فكرة الفصل بين الأقاليم الجنوبية والأقاليم الشمالية دون أي نقطة اتصال ما خلا السلالة الملكية . هذا ما طلبه البروكسليون الآن من الأمير اورانج . ووعد الأمير أن يوصي الملك بهذا المطلوب . وقد اتفق الدبلوماسيون الموجودون في بروكسل والسلطات على أن الفصل الاداري بين اقليمي المملكة أصبح أمراً حتمياً . وفي الوقت الذي تقدم فيه البرنامج في الاتجاه القومي تشكلت في بروكسل سلطة سياسية ، لجنة الأمن ، في ١١ ايلول ، التي انتخبتها القطاعات الثمانية للحرس المدني . ولم يكن هدف هذه اللجنة الادارة البلدية فحسب ، بل العمل على

تحقيق الفصل الاداري في الدولة . وكانت تتألف من أركان الحرس المدني والعناصر البورجوازية المنتخبة . وكان الفصل الاداري ، الذي يطالب به البلجيكيون ، مع الحفاظ على المملكة تحت الاتحاد الشخصي للملك ، يعني تعريف بلجيكا كشخصية سياسية منفصلة عن هولانده ، ومتميزة على الأقل عنها .

ونشأت في الوقت نفسه حركة ديموقراطية ثورية تحت تأثير الأزمة الاقتصادية ، وكان مركزها مدينة لييج . ووصلت وفودها إلى بروكسل في ٧ ايلول بزعامة دوجيه . وهاجت الأندية ، وبدأ الاستعداد للنضال . ووقعت حوادث في ضاحية بروكسل وفي ضاحية لييج بين الجنود الملكيين والشعب . وفي ٢٠ ايلول تاهت البورجوازية بالحركة الشعبية في بروكسل ؛ وأراد الشعب حل لجنة الأمن ليقيم مكانها عناصر أكثر تقدمية . وهكذا وجد العامل الشعبي الذي انفجر ولم يرض بالانفصال الاداري البسيط .

الانفصال القومي . - وحول الملك نفسه حركة المطلب الاداري هذه إلى انفصال قومي، بسبب خرقه السياسي: فقد جعل الحل الوسط غير ممكن باعطائه الأمر إلى فريديريك للاستيلاء على مدينة بروكسل بالقوة . وحاول الأمير ذلك دون نجاح من ٢٣ إلى ٢٧ ايلول . ويجب أن نلاحظ في دفاع المدينة الظافر ، إن الشعب كله ، والشعب نفسه هو الذي قاوم الجيش الملكي. لأن الزعماء السياسيين ابتعدوا ، وان البروكسليين الذين قاوموا الجيش أتوا من جميع البلاد ، باستثناء غاند وانفرس ، ومن جميع طبقات المجتمع . وأقبلت الألوف من المتطوعين من الاقليم كله لنجدة المقاومة القومية . وكانت نتيجة انتصار الشعب البلجيكي على جيش الأمير فريديريك أن قتالاً مماثلا انفجر في كل مكان ضد الحاميات الهولاندية في المدن : ففي مونس أجبر الشعب الحامية الملكية على الاستسلام في ٢٩ ايلول ، وفي لييج

في ٦ تشرين الأول ، وفي غاند في ١٥ منه ، الخ ... وبعد هذا الاخفاق في بروكسل تراجع الجيش الملكي وسار الفلاحون في أعقابه . ووقع آخر قتال في ٢٥ تشرين الأول أمام انفرس حيث وقعت هدنة في ٢٨ منه بين السلطات العسكرية والشعب . وفي القسم الأخير من شهر تشرين الأول ، لم يبق للهولانديين إلا قلعة آنفرس ومدينة ميستريخت ومدينة لوكسمبورغ . وهكذا تخلص الشعب البلجيكي في شهر من الجيش والسيطرة الهولاندية .

ومن الممكن دون عناء أن نلاحظ النتائج السياسية لهذا النصر الذي أحرزه الشعب : وهي أن فكرة الانفصال الاداري ، مع المحافظة على الاتحاد الشخصي للاقليمين تحت الحكم الملكي ، أصبحت مستحيلة . وفجأة تم تجاوز فكرة الفصل : حاول المجلس العام عبثاً التصويت على المبدأ في ٢٩ ايلول ، وحاول الملك دون جدوى أن ينظم هذا الفصل على يد الأمير اورانج الذي استقر لهذا في آنفوس في ٥ و ٧ تشرين الأول ، وحاول بالتالي أن ينقذ السلالة وقدم نفسه لزعامة الدولة الجديدة ، في ١٦ تشرين الأول . ولم يشأ البلجيكيون أن يسمعوا الكلام عن الانفصال الاداري ، ومنذ بداية تشرين الأول ، اتخذوا القرارات القطعية التي تؤدي إلى فصل المملكة إلى شطرين .

أمام هجوم الجيش الملكي على بروكسل ، تشكلت ، في ٢٣ ايلول ، لجنة إدارية من الزعماء العسكريين وانضم اليها ممثلون عن الأحزاب السياسية . وناب عن الكاثوليك فيلكس دوميرود ، وعن الأحرار فان دوفير وروجيه ، وعن الجمهوريين جندوبين ، ثم دو بوتر الذي عاد من فرنسا واستقبل في بلجيكا استقبال الظافرين . واتخذت هذه اللجنة الادارية ، في ٢٨ ايلول ، اسم « حكومة بلجيكا الموقتة » . وفي ٤ تشرين

الأول ، نادت باستقلال البلاد ، واعتبرت أقاليم الجنوب المنفصلة عن هولانده تؤلف دولة مستقلة

ولقطع محاولة الأمير اورانج في تزعم الدولة الجديدة أجابت الحكومة على عروضه بنداء في ١٨ تشرين الأول وقالت : « إن الشعب هو الذي يصنع الثورة ، إن الشعب هو الذي طرد الهولانديين من أرض بلجيكا ؛ وهو وحده ، لا الأمير اورانج ، على رأس الحركة التي أمنت إستقلاله وتوطد قوميته السياسية » . وهذا صحيح لأن الحركة كانت شعبية ، وكانت حركة عميقة عامة ، وكان تأثيرها عظيماً للغاية إذا قورن تاريخا الانطلاق والوصول . ففي ٢٥ آب ، كان البدء ، مظاهرة في بروكسل ؛ وفي ٤ تشرين الأول كان اعلان الاستقلال . وهذا يعني أن القومية كانت واقعاً حقيقياً ووجدت قبل أن يشعر بها ، ويكفي لها هذا العدوان الملكي لتعي وجودها مباشرة .

وبعد هذا يجب تشكيل قوام الدولة ، وإنشاء سلطة سياسية لتقوم مقام سلطة المملكة الزائلة . ولذا انقسمت الحكومة إلى لجان : لجنة مركزية مكلفة بالسلطة التنفيذية ، مؤلفة من بوتّر ، جندوبين ، فان دوفير ، روجيه و ميرود . وتألفت إلى جانبها لجان لمختلف الوزارات : لجنة المالية الخاصة ، لجان خاصة للشؤون الخارجية ، والشؤون العسكرية الخ ... يضاف إلى ذلك مفوضون يرسلون إلى الاقاليم لتوجيه الادارة . ومن هنا نرى أن طابع هذه الحكومة مجلسي ، وأنها سلطة واقع، ولكن لاينازعها أحد . وقد بقيت على اتصال وثيق بالشعب الذي انبثقت عنه . ومن وجهة النظر هذه ، تشبه الحكومة الموقتة البلجيكية لعام ١٨٣٠ بشكل فريد الحكومة الموقتة للجمهورية الفرنسية عام ١٨٤٨ . ولئلا تضطرب

الدولة وتنزع منها أطرها ، حافظت الحكومة الموقتة ما أمكن على موظفي النظام القديم وبخاصة على نظام القضاء

وهيأت الحكومة نظام الدوله للمستقبل : ففي ٦ تشرين الأول سميت لجنة وكلفت باعداد الدستور ؛ وفي ٨ منه أعيد تركيب السلطات البلدية بانتخاب مباشر ، وكان الناخبون موجودين من قبل ، وأضيفت اليهم الكفاءات الفكرية . وأعلنت الحكومة الحريات الكبرى الاساسية في الدولة ليتمتع الشعب بها مباشرة : في ١٢ تشرين الاول حرية التعليم ، وفي ١٦ حرية الصحافة والاديان والجمعيات والاجتماعات ، وفي ١٨ الغيت الرقابة ، وفي ٢٦ أعلن نشر المحاسبة العامة والموازنات . وتبع ذلك عدة قرارات مبدئية مماثلة . وفي ١٠ تشرين الأول ، دعت الحكومة إلى كونغرس قومي لتسلمه سلطاته عند تشكله . وجرت الانتخابات في ٣ تشرين الأول . وانعقد الكونغرس في ١٠ تشرين الثاني وثبت في اليوم التالي الحكومة الموقتة في وظائفها

وحقق تنظيم الدولة الجديد في آن واحد البرنامج السياسي والاتحاد البرلماني الذي كان ، قبل الثورة ، يوجه المعارضة ، ضد الحكومة الملكية ، والتطلعات القومية التي ظهرت أثناء الثورة . وترك الجهاز الداخلي للدولة على حاله ، وجرت محاولة لصبغه بروح عامة جديدة وكل هذا يدل على تسلم الشعب سلطته المباشرة ، وقد جرى كل شيء بحكمة واتحاد ، ولم يحدث أي عنف ، وفي هذا دليل على اجماع الرأي .

٣ ــ انشاء الدولة

وهكذا خرج تشكيل الدولة الجديدة من معارضة سياسية كانت في الأصل وبكل بساطة بين الملك وأعضاء البرلمان . وبعد ذلك يجب

انشاء هذه الدولة من وجهة النظر الدولية ، أي يجب وضعها بين دول أوربة الأخرى ، والاعتراف بها في المحافل الأوربية . وقد وجدت اغريقية قبلها أمام المشكلة نفسها ، ووجدت بلجيكا هنا عقبات مماثلة للعقبات التي لاقتها اغريقية ، بسبب دبلوماسية الدول الكبرى . ولكن البلجيكيين يمتازون عن الاغريق بميزة الاتحاد: فبينا كان الاغريق منقسمين إلى شيع وأحزاب ومنافسات شخصية ، كان الاتحاد يسود أحزاب بلجيكا . والحزب الوحيد الذي انفصل عن الحكومة ، ولكن دون أن يقوم بمعارضة ، كان فريق الديموقراطيين الصغير حول بوتر . ولم يثر الشعب أي اضطراب ولم يحدث ، بعد ثورة بلجيكا ، شيء يشبه الاضطرابات المتعددة التي دامت خلال عدة أشهر غداة ثورة تموز في فرنسا .

كان جهاز الكونغرس الذي أنشأ هذه الدولة مثقفاً ثقافة سياسية ؛ ولكن هذه الثقافة ظلت بالطبع على الصعيد النظري ولم تكن عملية ، ولم يكن لهؤلاء الرجال بعد ما يجعلهم يضعون يدهم في القضايا ، ووجدت الأطر الادارية ، وبالتالي أمكن للدولة أن تعمل ، بينما كانت الأحزاب تناقش في تنظيم الحكم المركزي . ولم يكن للبلجيكيين تقاليد يداورونها ويحسبون حسابها ، أو سلالة قومية أو أرستقراطية قومية تبحث عن مصالحها وتضع يدها على التنظيم السياسي . ولذا كان أمام جهاز البرلمانيين صفحة بيضاء وبامكانه أن ينشيء الدولة حسب النظريات السياسية .

وكانت عند البرلمانيين الارادة والامكان أيضاً لانشاء دولة لهم . ولكن العقبات في انشاء الدولة البلجيكية لم تأت من الداخل ، بل أتت ، على العكس ، من الخارج ، لقد أتت من الدول .

الدستور البلجيكي (٧ شباط ١٨٣١).- جرت انتخابات الكونغرس في الوقت الذي تم فيه النصر على الملك واعترفت به اوربه فعلا ، لأن

سفراء الدول المجتمعة في مؤتمر لندن قرروا ، في ٤ تشرين الثاني ، تعليق العداء بين الهولانديين والبلجيكيين وطلبوا سحب الجيوش الهولاندية إلى ما وراء حدود شهر أيار ١٨١٤ . وانتخب الكونغرس بـ ٣٠٠٠٠ مصوت على ٤٦٠٠٠ ناخب وضم مائتي عضو . وكان هذا المجلس مجلس بورجوازيين بخاصة : فلم يكن فيه غير ٤٥ نبيلاً و ١٣ ملاكاً للاطيان انتخبوا في الأرياف . والباقي يتألف بكامله تقريباً من المحامين وعددهم ٣٨ ، ومن أعضاء من مختلف الصناعات الحرة في المدن . ولذا كان الكونغرس من حيث الأساس مجلس مفكرين ، رجال شباب حديثي السن بالقضايا والمشاكل : فعلى المائتي عضو وجد أن ٣٤ عضواً فقط كانوا أعضاء في مجلس المملكة . وكانوا في غالبيتهم فلاماندين وكاثوليكيين ولكن لا أهمية لذلك ، لأن القضية الفلاماندية لم توضع بعد ، ولأن الاتحاد موجود وسيظل قائماً بين الكاثوليك والأحرار حتى النهاية .

اتخذ الكونغرس القرارات الأساسية في الأسابيع الأولى التي تلت انعقاده : ففي ١٨ تشرين الأول ، أعلن المجلس رسمياً وبالاجماع استقلال الدولة الجديدة ، واستقلال الشعب البلجيكي ، وسيادة الشعب . وهذا الاعلان هو عمل سيادة لا يهتم بانعكاساته الممكنة على أوربة . وهذه الدولة التي اعلنت استقلالها عرفت نفسها طبقاً لحدودها الطبيعية . وضم االكونغرس نواب ليمبورغ ولوكسمبورغ بنفس الصفة التي ضم بها نواب برابان أو أقاليم بلجيكا الأخرى . واقتصر اعلان الاستقلال ببساطة على التصريح بأن قضية العلاقات مع الكونفراسيون الجرماني ، الذي تدخل فيه اللوكسمبورغ نظرياً ، سيعاد فيها النظر .

وانصرف النواب إلى العمل . وهيأت لجنة في غالبيتها من الأحرار ، عمل الدستور . وفي ٢٢ تشرين الثاني قرر الكونغرس أن تكون الدولة

ملكية بـ ١٧٤ صوتاً مقابل ١٣ ؛ وكان الحزب الجمهوري قليل العدد جداً. ولقطع دابر مناورات عائلة ناسو ، صوت الكونغرس في ٢٤ تشرين الثاني على الابعاد الدائم لأمرة اورانج - ناسّو عن تاج بلجيكا . وإذا اتخذ الكونغرس هذا القرار فذلك لأنه كان يعلم بان تسمية أمير من امرة اورانج، على رأس الدولة الجديدة ، كان حلّاً ترغب فيه أوربة ، وهو الحل الذي أوصت به فرنسا . ووضع الدستور في بحر كانون الأول وكانون الثاني وانتهى في آخر كانون الثاني ١٨٣١ . وفي ٢٨ كانون الثاني بدأت المناقشة على الترشيحات للعرش . وقد أعلن الدستور في ٧ شباط ١٨٣١ ، وهو يتألف من قسمين : الأول يتعلق بتنظيم المؤسسات ، والثاني يدرس الحق العام في بلجيكا .

وإذا تركنا التفصيلات جانباً ، نرى أن ما يهمنا هو المبادىء الأساسية التي هي في أساس هذه الدولة القومية الجديدة : أولاً، يعلن الدستور سيادة الشعب : لأن « جميع السلطات تنبثق عن الأمة » . والمبدأ المحرك للدستور هو الفردية الليبرالية . وينسب للفرد الحد الأعظم من الحرية الممكنة ؛ ولا يقيد حرية الصحافة والتعليم ، والاجتماع بأي قيد ، ويحاول أن يضعف إلى الحد الأعظم السلطة الملكية ، من حيث النظر ، ومن حيث النظرية البرلمانية ، وذلك لينهج نهج انكلترا ، ولكن أيضاً بسبب سوء الظن بما يمكنّ أن تفعله السلطة الملكية وتمارسه ، كما فعل غليوم الأول . ولم توجد في بلجيكا سلالة قومية أو ارستقراطية لها حقوق وبالتالي امكن تنظيم السلطة الملكية بشكل برلماني مطلق .

وإذا خفضت السلطة الملكية إلى الحد الأعظم ، فقد انتقل كامل السلطة إلى البرلمان ، وهو يضم مجلسين : مجلس الشيوخ ومجلس النواب . وفي ذلك ضمان لتوازن السلطات ، وبالتالي لاحترام الحريات . وقد انبثق

هذا البرلمان عن نظام ضريبي . والتمييز بين المجلسين هو فقط ضريبة قابلية انتخاب أقوى بالنسبة لمجلس الشيوخ منها بالنسبة لمجلس الممثلين . وكانت ضريبة العضوية في مجلس الشيوخ الفي فلورين ضريبة مباشرة . وما يلفت النظر في الدستور البلجيكي، الذي يختلف عن دستور لوي - فيليب الفرنسي، هو أنه لا يحدد الضريبة بشكل مباشر . ولكنه يدل فقط على الحد الأدنى الذي لا يمكن للضريبة أن تنزل دونه أي عشرين فلورين ، وهذا يطابق اثنين وأربعين فرنكاً في ذلك العصر . ولم تحدد الضريبة في ذلك الحين بهذا الانخفاض ، ولكنها كانت امكاناً لاصلاح نص عليه في الدستور . وكان ينتظر تربية البلاد تربية سياسية قوية لتخفيض الضريبة حتى الحد الادنى القانوني بقانون انتخابي ، وهذا ما حصل في ١٨٤٠ .

ولم يعد الدستور إلى اللامركزية الاقليمية القديمة . بل اريد تجنب تفتيت المملكة . وأقر استقلال البلديات لأن الحرية المحلية هنا كانت غير خطرة على الدولة .

لقد اسس الدستور البلجيكي إذن ملكية برلمانية تعتبر أكمل تعبير وجد في عصر الليبرالية البورجوازية . وأصبح نموذجاً لجميع أحرار أوربة حتى ١٨٤٨ . وقد دل من جانب واضعيه على ارادة سياسية واضحة جداً ، ووعي قومي متطور جداً . وكان اعداد الدستور والقوانين الأساسية من عمل المؤتمر بكامل استقلاله وسيادته .

الموقف الأوربي . - وإذا كان الكونغرس يعمل من نفسه ، فقد اعتبرت أوربة بأن لها كلمتها التي يجب أن تقولها . وفي الواقع ، لم تكن بلجيكا أرضاً منعزلة ، بل ان لها قيمة دولية ، وقد جعل وضع البلاد المنخفضة منها قضية من القضايا المثيرة في أوربة . حتى ان الملك غليوم نفسه ادخل هذه القضية في عالم الدبلوماسية : ففي ٢٨ آب

استنجد ببروسيا لتدعمه ضد رعاياه الثائرين . ولكن الحكومة الفرنسية جمدت مباشرة هذا التدخل البروسي فمنذ ٣١ آب أعلم وزير الشؤون الخارجية ، موليه ، السفير البروسي بأن الجيوش الألمانية إذا دخلت الحدود البلجيكية فان فرنسا تدافع عن الدولة الجديدة . وفي هذه الظروف ، تخلت الدول عن الملك غليوم على مثال انكلترا . غير أن هجوم الهولانديين واخفاقهم في بروكسل جعلا من القضية البلجيكية قضية دبلوماسية ، لأن الملك ، أمام الصعوبات ، القى بنداء ناشد فيه اوربة المساعدة : وكان قيصر روسيا حانقاً غاضباً مغتاظاً من الثورة البلجيكية فجند جيوشه في بولونيا لاطلاقهم في بلجيكا . ومن جهة ثانية ، كان الزعماء السياسيون يخشون من عدم القدرة على مقاومة الهجوم الملكي ، فاستنجدوا بفرنسا ، وارسل جندوبين بالحال إلى باريس ، فرفض لوي - فيليب التدخل ولكنه صرح بأنه لا يقبل بتدخل اوربي لصالح هولنده ، واقترح على انكلترا مفاوضة دولية لحل المشكلة ، شريطة ألا يفرض على البلجيكيين حل لا يريدونه . وهكذا نرى في آن واحد ، من جهة ، الحكومة الموقتة تعلن الاستقلال في ٤ تشرين الأول ؛ ومن جهة ثانية ، فرنسا وانكلترا تدعوان الدول الأخرى، في ٣ تشرين الأول ، إلى مؤتمر سفراء ينعقد في لندن لتسوية المشكلة الدبلوماسية . وقد انعقد هذا المؤتمر في ٤ تشرين الثاني ، وقرر تعليق السلاح وانسحاب الجيوش ، وهذا يعني ، في الواقع الاعتراف بوجود الدولة الجديدة .

وأفاد البلجيكيون من الخوف الذي تملك العالم من امكان خروج حرب عامة من المشكلة؛ ومن رغبة فرنسا في تفتيت مملكة البلاد المنخفضة التي نظمت ضدها عام ١٨١٥ ؛ ومن انفجار الثورة في فارسوفيا في ٢٩ تشرين الثاني وتوقف كل حركة ممكنة للجيوش الروسية ؛ ومن انتخابات

انكلترا ، في ١٥ تشرين الثاني ، التي أعطت السلطة إلى حزب الهويغ فشكل وزارة جديدة ، في ١٩ تشرين الثاني ، عوضاً عن وزارة ويللنغتون . وهذه الحوادث المختلفة توضح القرار الذي اتخذه المؤتمر الدولي في ٢٠ تشرين الثاني معترفاً باخفاق عملية الالتحام التي حاولتها أوربة في عام ١٨١٥ : « إن المؤتمر مستعد للاعتراف باستقلال بلجيكا القادم ولكن بادخاله ببنود المعاهدات، ومصالح الدول الأخرى وسيادتها والحفاظ على التوازن الاوربي » . وأخيراً احتفظ المؤتمر بحقوق غليوم الأول والكونفدراسيون الجرماني على اللوكسمبورغ ، وهي حقوق لا يمكن أن يؤثر عليها بشيء » . واعترفت الدول ، كما نرى بانشاء الدولة الجديدة ، ولكنها أكدت ارادتها بأن تفرض عليها سلطة الشروط . وهكذا فان بلجيكا الجديدة لن تكون حرة كما تريد .

الشروط الدولية - نرى عملا مزدوجاً متوازياً معاً : فمن جهة ، الكونغرس الذي ينظم دولته ، دون أن يهتم بالدول ؛ ومن جهة أخرى ، المؤتمر الذي يناقش فيه السفراء ، في نزاع شديد ، تنظيم الدولة الجديدة : تنافس من جهة ، بين فرنسا وانكلترا ضد دول الشرق : بروسيا والنمسا وروسيا ؛ ومن جهة أخرى أيضاً ، يجب أن نقول ، تنافس بين فرنسا وانكلترا يسمح لبالمرستون بأن يساوم تالليران والسفراء الآخرين على أن الدول ستصنع نظام بلجيكا في الحدود التي يستطيع فيها صيانة الدبلوماسية العامة ، والمصالح الدولية ، وخاصة مصالح انكلترا . ومن غير المفيد أن نعرض هذا النزاع الدبلوماسي الذي يخرج عن موضوعنا ؛ والنتيجة التي حصل عليها هي بروتوكولا ٢٠ و ٢٧ كانون الثاني ١٨٣١ اللذان يعرفان « أسس الانفصال » بين بلجيكا والبلاد المنخفضة .

وستتمع الدولة الجديدة بوضع دولي جديد ليس له من مثيل الا نموذج آخر في ذلك العصر ، وهو وضع سويسرا : الحياد الدائم وضمان الدول كافة . أما أرض هذه الدولة فان الدول لم تعترف بها كما عرفها البلجيكيون أنفسهم ، لأنها تركت الفلاندر الزيلاندية ، أي أفواه الايسكو ، للأقاليم المتحدة ، أي لهولانده التي كانت تملكها قبل ١٧٩٠ . ومن جهة أخرى ، فصلت أيضاً اللوكسمبورغ عن بلجيكا ، باعتبارها تابعة لأمراء ناسّو ، أي إلى ملك هولانده وإلى الكونفدراسيون الجرماني . وقسم الدين بين هولانده وبلجيكا بنسبة السكان . وأخيراً عين المؤتمر بنفسه العاهل الذي سيحكم البلجيكيين .

وأثارت شروط ٢٠ و ٢٧ كانون الثاني مباشرة الخلاف بين مؤتمر السفراء والكونغرس : واحتجت الحكومة البلجيكية بمذكرة في ٣٠ كانون الثاني على التحفظات التي أبداها مؤتمر السفراء للدولة الجديدة . وصرحت في أول شباط ، في بلاغ « بأنها لن تتنازل في أي حال لصالح الحكومات الأجنبية عن السيادة التي خولها الشعب البلجيكي إياها . ولن تخضع مطلقاً لقرار يمكن أن يقضي على سلامة البلاد ويشوه التمثيل القومي ، وستطالب الدول دوماً بتطبيق مبدأ عدم التدخل » . وهكذا عاكس الكونغرس مبادىء الحق الاوربي بمبدأ السيادة القومية للشعب البلجيكي وحق قوميته التي أرادت الدول أن تضيق أرضها .

وفي **مشكلة اللوكسمبورغ** و **مشكلة الدين** دعمت الحكومة الفرنسية البلجيكيين ؛ وقد أكد ذلك الجنرال سيباستياني وزير الشؤون الخارجية الفرنسي في رسالة قرئت في الكونغرس في أول شباط بقوله : إن فرنسا لن تصادق في الوقت الحاضر على بروتوكولي ٢٠ و ٢٧ كانون الثاني . ويبدو أن تاليران لم يتمسك بالتعليمات التي أرسلت اليه في هذا

المعنى . وظن الكونغرس أنه على حق في اعتماده على مساندة فرنسا ؛ وفعلاً جاءته تشجيعات من الأحزاب الليبرالية في فرنسا ، من **حزب الحركة ومن الجمهوريين** . وأعتقد ، من جهة ثانية ، أنه في حالة تمكنه من أن يفرض على فرنسا التزاماً في دعم بلجيكا والدفاع عنها ، وليجعل من ذلك ضرورة لها انتخب ، في ٣ شباط ، **الدوق دونومور** بن الملك لوي فيليب ، ملكاً . وعندما علم الملك الأب بالقضية أجاب البلجيكيين بالرفض ، في ٢ كانون الثاني ، وأكد سيباستياني هذا الرفض برسالة تليت في الكونغرس في ١٣ كانون الثاني وأراد مؤتمر السفراء أن يوقف الترشيح فقرر ، في أول شباط ، بأنه لن يعترف بأمير من الأسر الحاكمة في الدول المشتركة في المؤتمر ملكاً للبلجيكيين . ولكن الكونغرس البلجيكي تجاوز هذا التأكيد ، اثر التطمينات التي تلقاها جندوبين من أحزاب اليسار الفرنسي ، والتشجيعات التي أعطاها وزير فرنسا **بريسون** إلى الأحزاب البلجيكية برغبته في العمل على اخفاق ترشيح البوناپارتي الدوق **دولوشتانبرغ** . ولهذا السبب انتخب الدوق دونومور ملكاً لعرش بلجيكا لاجبار فرنسا على أن تأخذ بيدها مهمة الدفاع عن المملكة البلجيكية . ولكن لوي - فيليب رفض مباشرة التاج لابنه وأربك رفضه البلجيكيين . وقرروا أخيراً انتخاب الكونت **سورليه دوشوكييه** وصياً على العرش في ٢٤ شباط ، ريثما يتدبرون أمرهم ويبحثون عن عاهل لهم .

استاءت الدول من هذا القرار ، الذي اتخذه البلجيكيون ، ووقفت موقفاً مهدداً ؛ وفي ١٩ شباط ، أكد مؤتمر السفراء إلحاق بلجيكا بارادة الدول بقوله : « لكل أمة حقوق خاصة ، ولكن أوربة لها حقها أيضاً ؛ وقد خولها النظام الاجتماعي هذا الحق ، وان الحوادث ، التي تولد دولة

جديدة ، لا تخولها الحق في إفساد نظام عام تدخل فيه ، كما ان التغييرات الطارئة على دولة قديمة لا تخولها الاعتقاد بأنها في حل من تعهداتها السابقة ». ويقول مؤتمر السفراء : إن بروتوكولات لندن « أساسية وغير قابلة للنقض » . وأضاف المؤتمر تهديداً جديداً : فقد اعترف للدول الأخرى باستعمال حقوقها بأي تدبير تراه مفيداً ؛ وبتعبير آخر ، انه يقبل بأن يستخدم الكونفدراسيون الجرماني القوة لاثبات حقوقه في اللوكسمبورغ . وصرح أخيراً بأنه لن يقبل بأن يقوم البلجيكيون بأي مشروع كان ضد الأراضي الهولاندية .

رد الفعل البلجيكي . – كان رد فعل البلجيكيين ضد هذا القرار ، الذي اتخذه المؤتمر ، شديداً جداً . وحرضت الجرائد الرأي ، فقامت المظاهرات في كل المدن البلجيكية . وطالب الديموقراطيان جندوبين ودوبوتر بحرب هولندا ، والاتحاد مع الثوريين الفرنسيين ، والاتفاق مع ثورة بولونيا وثورات ايطاليا . وانشئت رابطة قومية في ٢٣ آذار ألقت بياناً في ٢٧ منه جاء فيه : « بزعيم يفرضه الأجنبي أو يدل عليه فقط ، لن يكون استقلالنا إلا وهماً ، وثورتنا إلا وقتاً ودماً مهدورين ، لنكن بلجيكيين ولننه ثورتنا كما بدأناها بأنفسنا ! » . وأرسل الوصي ، في ١٠ آذار ، نداءً إلى اللوكسمبورغيين : « لقد بدأنا ثورتنا بالرغم من معاهدات ١٨١٥ ، وسنثور رغم بروتوكولات لندن ! ... إن اخوتكم لن يتخلوا عنكم أبداً ! » . واعتبر المؤتمر بيان سورليه دوشوكيه اثارةً ، وتفوه تاليران وبالمرستون لدى الرسول البلجيكي بكلمات قاسية جداً . وهكذا قوت معارضة أوربة للارادة البلجيكية العاطفة القومية والحماسية الوطنية .

ولسوء الحظ لم يستطع البلجيكيون الحفاظ على هذا الموقف حتى النهاية. وفي فرنسا ، أبعد حزب الحركة عن السلطة وأصبح كازيير – بيريه

رئيساً لمجلس الوزراء في ١٣ آذار ، وكان في السياسة الخارجية ، على وفاق وثيق مع انكلترا ، ولذا لم يكن للبلجيكيين أمل بفصل سياسة فرنسا عن سياسة انكلترا . وفي بلجيكا نفسها ، تشكلت ، في ٢٨ آذار ، وزارة جديدة برئاسة **دولوبو** . وكان هذا الرئيس ، في الأصل ، محباً للحرب وشارك في حماس البلجيكيين الوطني ؛ وقد قال في ٧ نيسان : « الحرب وشيكة الوقوع ولا يمكن اجتنابها ؛ وأقول أكثر ، لقد أصبحت ضرورية . يجب علينا أن ندافع عن اللوكسمبورغ ، انها قضية شرف » . ولكنه قدر تدريجياً الوضع الدولي ، وأدرك أيضاً الضرورة الداخلية في وضع حد للفوضى ، ووجود ملك لتوجيه الدولة ؛ وتطور بتأثير الواقع . وفي غضون ذلك ، اتفقت فرنسا وانكلترا على المرشح لعرش بلجيكا وهو : الأمير **ليؤبولد دوساكس - كوبورغ** . وقد اقترح على هذا ، قبل ذلك ، عرش اليونان ، وقبل لوبو أخيراً به . وفي النصف الثاني من شهر نيسان أرسل وفداً للاتصال بالأمير . وأثارت هذه القضية أيضاً صعوبات كثيرة ، لأن الجانبين غير متسامحين . وخلال شهرين تعاظم الحماس في بلجيكا ؛ وانقلبت المظاهرات إلى ثورة ؛ وتظاهر الجمهور حول قصر البرلمان . ومن جهة ثانية عيل صبر الحلفاء ؛ وفي ١٠ أيار أرسلوا انذاراً مع تهديد بالحصار الاقتصادي واحتلال اللوكسمبورغ . وأخيراً استحصل لوبو من الكونغرس على السماح بالمفاوضة ، وفي ٤حزيران ١٨٣١ ، انتخب الكونغرس ليؤبولد ملكاً للبلجيكيين . وسوي الوضع **بمعاهدة الثاني عشرة مادة** في ٢٦ حزيران ١٨٣١ ، التي أدخلت بعض التغييرات على أسس الانفصال في ٢٠ و ٢٧ كانون الثاني ؛ ونظم الدين بحسب أصل القروض لا بحسب الرجوع إلى رقم السكان ؛ أما بشأن اللوكسمبورغ فقد حوفظ على « الوضع الراهن » الحالي (أي الاندماج

في الدولة البلجيكية) بانتظار الاتفاق مع دوق اللوكسمبورغ الأكبر ، أي ملك هولندة بوساطة الدول ؛ وأن تكون الملاحة حرة على نهر الابسكو ، وأخيراً يمكن للبلجيكيين أن يتفاوضوا مع هولاندة بمبادلة عدد من المناطق البلجيكية المغلقة فيما وراء الحدود على الأرض الهولاندية مقابل الليمبورغ .

وأثارت معاهدة الثماني عشرة مادة في البـــدء عاصفة في بروكسل ومناقشات حارة . وأخيراً انتهى الكونغرس بالموافقة على المعاهدة بـ ١٢٦ صوتاً ضد ٧٠ ، في ٩ تموز ١٨٣١ . ووصل ليوبولد إلى بلجيكا في ١٦ تموز ١٨٣١ ونصب ملكا على البلجيكيين .

هذه هي بلجيكا وقد أصبح لها نظام داخلي ، ودستور ، وملك ، ووضعها الدولي وأرضها وحيادها الدولي . ولقد أقيم هذا الوضع الدولي على نقيض الارادة القومية لحاجات الدبلوماسية الدولية .

موافقة هولاندة . — احتج ملك هولاندة رسمياً على معاهدة الثماني عشرة مادة في ١٢ تموز ، وفجأة ، في ٢ آب ، خرق الهدنة ، وفي ٣ منه ، اجتازت الجيوش الهولاندية الحدود . أمـــا الجيش البلجيكي فقد ارتجل في الأصل منذ اعلان الاستقلال ، وكان ضعيفاً للغاية ،بالرغم من تبجح البلجيكيين الذين يتصورون بأن القيام جماهيرياً يكفي لاحراز النصر ، ويرون في الجيش الهولاندي خصماً قليل الخطر جـــداً لأن الشعب كان كافياً لابعاده في أيام بروكسل في آخر إيلول . وأحدث الهجوم الهولاندي انهياراً عسكرياً كاملاً . فقد اندحر الجيشان البلجيكيان الأساسيان ثم انكسرا ، أحدهما في ٨ آب في **هاسيلت** ، والآخر في ١٢ منه في **لوفن** ، ووصل الفرسان الهولانديون على بعد ثلاث فراسخ من بروكسل . وصحب هـذا الانهيار العسكري انهيار سياسي : **ألقى**

الملك ، من تلقاء نفسه ، نداء يستنجد به فرنسا وانكلترا ، ولكن الوزارة أوقفت هذا النداء وناقشت . وحتى ٨ منه ، عارضت دخول كل جيش أجنبي للبلاد . غير أن عجز الحكومة عن دعم النزاع جعل الملك يأخذ بيده توجيه الحكم . وأنقذت بلجيكا بتدخل فرنسا : فقد دخل الجنرال جيرار بلجيكا في ٩ آب ، وانسحب الهولانديون أمام الجيش الفرنسي وعبروا الحدود في ٢٠ منه باستثناء قلعة آنفرس حيث ظلوا مجبرين على القتال .

وهذا الاخفاق الذي مني به البلجيكيون كان تأثيره الدبلوماسي فظيعاً : فقد أثار حسد الانكليز وقلقهم أمام عمل فرنسا العسكري في بلجيكا . واعترف بالمرستون بالحال بأن البلجيكيين غير قادرين على الدفاع بأنفسهم ، ولذلك يجب أن يتصور بان تؤلف هولاندة حاجزاً ثانياً ضد كل توسع فرنسي . وافقد هذا الاخفاق البلجيكيين اعتبارهم ، ولفظ الانكليز كلمات احتقار بشأنهم ، ولم يكن تالليران ليعتقد بامكان بلجيكا واقترح تقسيمها . وانتصرت بروسيا والنمسا وروسيا ، ولم يبق إلا لوي- فيليب يدافع عن البلجيكيين . واستطاع بتدخلاته أن يخفف شروط الدول . وفي ١٥ تشرين الأول ، قررت الدول أن تبدل معاهدة الثماني عشرة مادة بمعاهدة الأربع وعشرين مادة التي فاقمت خطر الاولى : لان هذه المعاهدة لم تقدم ، كأساس للوساطة ، بل كقرار من أوربة . وأعطيت المناطق المغلقة في الشمال ، والليمبورغ على ضفة نهر الموز اليمنى ، وميستريخت وأفواه الايسكو إلى هولاندة دون شرط . وقسمت اللوكسمبورغ وأعطيت المدينة وثلث الدوقية إلى ملك هولاندة وظلا جزءاً من الكونفدراسيون الجرماني . ولم يأخذ البلجيكيون إلا أقسام آرلون وبويون: وحدد الدين بعقد على أن يدفعه البلجيكيون للهولانديين .

أثارت معاهدة الـ ٢٤ مادة الحزن في بلجيكا . وفكر ليوبولد بالتنازل عن العرش ، وكان النقاش في المعاهدة شاقاً للغاية في الكونغرس : وأخيراً قرر المجلسان التصديق عليها ، في الأول والثالث من تشرين الثاني وكانت دول الشرق غاضبة أيضاً . فقد اعتبرت هذه المعاهدة مشينة وأجلت تصديقها . وللفصل في الأمر صادقت فرنسا وانكلترا على المعاهدة في ٣١ كانون الثاني ١٨٣٢ ، ورفض الهولانديون توقيعها ، وابعاد أي وساطة ، وكانوا غير متسامحين حتى انهم اتعبوا وأغاظوا حماتهم الخاصين. وانتهت بروسيا والنمسا بتصديق المعاهدة في ١٨ نيسان ، والروسيا في ٤ أيار .

وألحت فرنسا عندئذ أن توضع المعاهدة موضع التنفيذ رغم رفض الهولانديين ، وانتهت باقناع بالمرستون . وفي ٢٢ تشرين الثاني ١٨٣٢ أرسلت إلى الحكومتين مذكرة تخطرهما بتنفيذ المعاهدة ، ولا يطلب البلجيكيون أفضل من ذلك ، تحت طائلة الحصار الاقتصادي والتدخل لاجبار الدولة المقاومة على قبول تنفيذ المعاهدة . وظل ملك هولاندة مصراً على رفضه ، فحكم عليه بالحصار ابتداءً من ٥ تشرين الثاني ودخلت الجيوش الفرنسية بلجيكا في ١٥ تشرين الثاني ، وحاصرت انفرس واستسلمت هذه في ٢٣ كانون الأول ، وضاقت التجارة الهولاندية ذرعاً بالحصار فقرر الملك عندئذ أن يوقع في ٢١ أيار ١٨٣٣ اتفاقاً ، دون الاعتراف بالمعاهدة ، وتعهد فيه بألا يهاجم الاراضي البلجيكية ، وأن يترك كامل الحرية للملاحة على نهر الايسكو .

وهيأ عناد هولاندة للبلجيكيين فوائد واقعية : فقد استعادت مساندة أوربة والحفاظ على الوضع الراهن ، أي دمج اللوكسمبورغ والليمبورغ فعلاً بانتظار تنفيذ المعاهدة حقاً . وفكر البلجيكيون بان حالة الواقع هذه مع التمديد تنتهي بأن تصبح حالة حق ، وأن اللوكسمبورغ

واليمبورغ ستكونان تابعتين لها في الواقع إلى الأبد . وظل نواب الاقليمين ينتخبون في المجلسين ، وبالتدريج زال الحزب الاورنجي في بلجيكا .

ولكن الهولانديين وجدوا أخيراً أن العبء ثقيل ، لأن الجيش ظل مجنداً ، وفي هذا ما يثير مشاكل مالية مزعجة . وفي ١٨٣٨ هدد المجلس العام باطراح الموازنة بعد أن ثقلت بالنفقات العسكرية . لذا قرر الملك أن يعلن فجأة ، في ١١ أيار ١٨٣٨ بأنه ينوي تصديق معاهدة ال ٢٤ مادة . وقامت على اثر ذلك أزمة عنيفة في بلجيكا : لقد هز انفجار الوطنية البلاد وكان عاماً . وأتت من كل جانب عرائض واحتجاجات من الكاثوليكيين يدعمهم الكاثوليكيون في فرنسا والأحزاب الليبرالية، ومن الديموقراطيين أيضاً يدعمهم اليسار الفرنسي . وبدت الحكومة للبلجيكيين فاترة جداً في مقاومتها لهولاندة . وفرضت عليها تدابير عسكرية،وأجاب الكونغرس برسالة حربية على خطاب العرش الذي يعد بالدفاع عن حقوق البلجيكيين « بثبات وشجاعة » واعتبر أن هذا الكلام ليس تعهداً كافياً . وأتى فيلكس دوميرود وصهره مونتالامبير من بوهيميا بضابط بولوني من ضباط الثورة ليكون قائداً عاماً للبلجيكيين بعد أن هربوه وأوصلوه إلى بلجيكا ، على مرأى من استياء القيصر ومترنيخ بالطبع . وكان يخشى من أن تنساق الحكومة الملكية البلجيكية بحركة ثورية وطنية .

ولكن موقف أوروبة لم يترك أملاً للبلجيكيين : لقد كانت انكلترا لامبالية بصورة مطلقة بهذا الاحتجاج . وأعلمت في ٢٤ أيار بأنه يتوجب على بلجيكا أن تتخلى عن كل أمل بتغيير المعاهدة ؛ ثم أعلمت الدول بأنها لا تدعم وجهة النظر البلجيكية بضرورة إعادة النظر في المعاهدة . وقام ليوبولد عبثاً بمساع لدى الملكة فيكتوريا في شهر حزيران وفي شهر إيلول

وكان لوي – فيليب يجابه صعوبات داخلية ، نضال الائتلاف ضد وزارة موليه ، فلم يشأ أن يلقي بنفسه في صعوبات دبلوماسية . ورأى البلجيكيون أن فرنسا وانكلترا قد تخلتا عنهم وهما الوحيدتان اللتان تستطيعان دعمهم . وفي كانون الثاني ١٨٣٩ عرضت الحكومة البلجيكية أن تشتري الليمبورغ من الهولانديين ، فرفض الهولانديون واضطر ليؤبولد أن يقدم للمجلسين مشروعاً يخوله توقيع المعاهدة . وكان النقاش مؤثراً ودام خمسة عشر يوماً . وأخيراً وافق الكونغرس ، مجلس النواب بـ ٥٨ صوتاً ضد ٤٢ ، ومجلس الشيوخ بـ ٣١ صوتاً ضد ١٤ ، في ١٨ و ٢١ آذار ١٨٣٩ .

ووقع النظام النهائي لبلجيكا بمعاهدة ١٩ نيسان ١٨٣٩ التي نسخت من جديد معاهدة الـ ٢٤ مادة ، مع اعادة نظر واحدة ، وذلك بانقاص رقم دين بلجيكا لهولاندة بخمسة ملايين .

وهكذا كررت التجربة البلجيكية التجربة الاغريقية . وكونفع الحل القومي الصادر عن ارادة الشعب وأجبر على التسوية التي فرضتها دبلوماسية الدول . وفي هذا الخلاف ، بين السيادة القومية والدبلوماسية، كانت المواقع في القضية البجيكية مماثلة لمواقع القضية الاغريقية . واصطدمت الدولة الجديدة بعداء بلاطات الشرق الثلاثة ، وكان موقف فرنسا حاسماً في القضية البلجيكية كما كان في القضيةالاغريقية ، ولم تتصور انكلترا القضية في كلا الحالين الا من وجهة نظر أنانية .

لقد كانت التجربة البلجيكية ذات أهمية كبرى في قضية القوميات من وجهة النظر التاريخية والعقائدية . وكان تشكل الدولة البلجيكية نصراً للمفهوم الفرنسي في القومية . فمنذ الأصل ، وفي كل المظاهرات نجد فكرة رضى الشعوب بتشكل الدولة ، وفكرة

العقد بين المواطنين الذي هو في أساس الدولة الجديدة والقومية الجديدة .
وانا نتساءل بعد هذا مم تتألف هذه القومية البلجيكية . ان القضية العرقية لا توضع هنا لانه لا يوجد عرق بلجيكي ، لأن البلجيكيين لا يتميزون فيما بينهم في أي مكان من الوجهة العرقية عن الفرنسيين والهولانديين ، ولا توجد وحدة لغة : لأن نصف بلجيكا يتكلم اللغة الفالونية أي الفرنسية . والنصف الآخر يتكلم الفلاماندية .
والتقاليد التاريخية ضعيفة ، وقد اضطر المؤرخون البلجيكيون ، الذين يبحثون عن سابقات للمملكة الجديدة ، أن يصعدوا إلى الدولة البورغوندية ، دولة فيليب الطيب وشارل الجسور في القرن الخامس عشر ، التي كانت موقتة جداً . ان القومية البلجيكية تبدو لنا بصورة أساسية حادث ارادة تألفت من عناصر فكرية صرفاً ، وهذا ما جعل واقعيي العصر لا يؤمنون بهذه القومية : ولنذكر أن تالليران لم يعتقد بأن الأمة البلجيكية يمكن أن تدوم ، بل ستنهار يوماً ما وعندئذ اما أن تتلقفها فرنسا بكليتها ، أو ان يلجأ الى تقسيمها . وقال ذات يوم إلى الأميرة دو ليفين : « البلجيكيون لا يدومون ، لاحظي ، انهم ليسوا أمة : ان مائتي بروتوكول لا تصنع أمة . وبلجيكا هذه لن تكون بلداً أبداً ، ولن تدوم » .
وكانت وجهة النظر هذه وجهة نظر دبلوماسيين آخرين كثيرين . وقال بريسون ، القائم باعمال فرنسا في بروكسل أيضاً : « لم تكن بلجيكا في الماضي أمة مستقلة . وكان مصيرها ازعاج الغالب أو التكيف معه » .
أما دليلنا على أن القومية البلجيكية كانت موجودة فهو أنها دامت رغم تنبؤات الدبلوماسيين ، وما وسعها إلا أن أكدت نفسها طوال القرن التاسع عشر . وقد قوت الحياة المشتركة هذه القومية التي انبثقت فجأة عام ١٨٣٠ .

الفصل الثالث

الحركة القومية الايطالية

كانت القوميــــة الإيطالية قضية من القضايا الهامة التي شغلت أوربة طوال القرن التاسع عشر . وظلت هـذه القضية من ١٨٣٠ إلى ١٨٦٠ مدرجة على جدول أعمال الدبلوماسية الأوربية ، لأنها لم تكن قضية إيطالية فحسب ، ولأن مصير إيطاليا لم يكن متعلقاً بها وحدها .

كانت القضية الإيطالية ، من وجهة النظر التاريخية والسياسية ، قضية « تعبير جغرافي » عند حد قول مترنيخ . ولكن الواقع يؤيد فعلا وجود قومية إيطالية حقيقية ضمن إطار جغرافي إيطالي واضح المعالم .

يلاحظ في البدء أن إيطاليا تضم عناصر أجنبية ، وأن هنالك اختلافات عميقة في النفسية والسلوك بين النابوليين والصقليين . والرومانيين في شبه الجزيرة ، أو بين الناس في الشمال ، مثل الميلانيين والبيمونتيين . ولكن هذه الاختلافات اقليمية وليست اختلافات عرقية .

ومن جهة أخرى ، يوجد في إيطاليا جنس إيطالي تكون تاريخياً وجغرافياً بتأثير التقاليد والحركات التاريخية والاقتصادية ، وبانصهار المجلوبات الأجنبية في السكان الأصليين ، وتشكيل شعب واحد عرف باسم الشعب الإيطالي .

ويوجد في إيطاليا أيضاً ، وهذا نادر تقريباً ، وحدة دين ووحدة لغة . فمن حيث الدين لم تعرف إيطاليا الانحرافات الهرطقية ، بل ظلت كاثوليكية

من أقصاها لأقصاها . كذلك لا يوجد في إيطاليا آداب إقليمية تدل على اختلاف روحي بين الإيطاليين . وأخيراً يوجد في إيطاليا تقاليد إيطالية تتغنى بها إيطاليا كلها . وهذه التقاليد ترجع إلى الإمبراطورية الرومانية وعز روما القديم ؛ وإلى روما الجبرية البابوية في العصر الوسيط . وستكون عظمة هذا المجد الإيطالي الماضي مرجعاً وحجة للقوميين الإيطاليين طوال القرن التاسع عشر . وهذا المجد يفخر به الإيطاليون جميعاً دون استثناء ، لا فرق في ذلك بين شمال إيطاليا أو جنوبها .

وفي الحقيقة ، يوجد في إيطاليا قومية ايطالية حقاً لأن مقومات القومية متوافرة فيها ، ولكن ما يعوز ايطاليا ، وسيعوزها زمناً طويلاً ، إنما هو الإرادة والقوة لإدخال هذه الشخصية القومية في إطار سياسي موحد. إن ما يوضع أمام إيطاليا ، ليس اختراع القومية الإيطالية أو اكتشافها بل تحقيق هذه القومية الإيطالية ، الموجودة فعلاً ، في حيز الواقع السياسي .

١ ــ أصول الحركة القومية وأشكالها الأولى

تمتاز القومية الايطالية في أننا لا نجد في ايطاليا ، قبل عام ١٨٣٠ ، حركة وحدة ايطالية ، وما ذلك إلا لأن قوى التماسك وقوى التفتيت كانت في حالة صراع ، لا سيما وأن الظروف السياسية والاجتماعية كانت تعمل لصالح التجزئة . أما بعد ١٨٣٠ فقد انقلبت العلاقة بين هذه القوى .

لقد بسط التقسيم الذي وضعه مؤتمر فينا عام ١٨١٥ التقسيمات القديمة وأقام سبع دول مكانها وهي :

١ - مملكة الصقليتين ونفوسها سبعة ملايين ونصف .

٢ ـ المملكة البيمونتية ـ الساردية وتتألف من أربعة ملايين نسمة .
٣ ـ المملكة اللومباردية ـ البندقية ونفوسها أربع ملايين وربع .
٤ ـ الدولة الحبرية (دولة البابا) ونفوسها مليونان ونصف .
٥ ـ الدول الأخرى وهي الدوقيات الثلاث : توسكانا الكبرى . مودينا ، بارما .

ووجدت أيضاً ، بعد ١٨١٥ ، حالات مؤقتة عقدت هذا التقسيم السياسي : فمن ذلك ان بارما وبليزانس وغواستلا اعطيت إلى الامبراطورة ماري ـ لويز مدى الحياة . وبانتظار وفاتها كان على آل بوربون في بارما ، وهم المالكون الشرعيون لهذه الدوقيات ، أن يقيموا في امارة لوقا التي يجب أن تعود فيما بعد إلى توسكانا . وماتت ماري ـ لويز في ١٨٤٧ ، وعندئذ أقيم آل بوربون في دولهم ، وعادت امارة لوقا إلى توسكانا . وكذلك حافظت أم فرنسوا مودينا على ملكيتها الشخصية في دوقية ماسا ـ كراره الصغرى حتى عام ١٨٢٩ .

وإلى جانب هذه التعقيدات تجدر الاشارة إلى أن تقسيم إيطاليا السياسي كان ، في بعض النقاط ، مخالفاً للعلاقات الاقتصادية : فمن ذلك ان رومانيو كانت تنظر ، من الوجهة الاقتصادية ، نحو سهل البو أكثر مما كانت تتطلع نحو روما ، مع أنها كانت ترتبط بها سياسياً . وان مناطق الآبروز وأمارتي بينيفن وسبوليت كانت جزءاً من نابولي ، ولكنها كانت تتجه صوب الدول الرومانية لا صوب نابولي . وهذه الصلات الاقتصادية ، التي تقيم روابط خارجة عن الحدود ولا تأتلف مع التبعية السياسية ، تعتبر حوادث هامة ، من وجهة النظر القومية ، وستكون في المستقبل عناصر تفتيت لهذه الدول المحلية .

عقبات الحركة القومية . ـ لقد كانت العقبات التي تقف في طريق

الحركة القومية كبيرة ، لان قوى التماسك بين الأجزاء الإيطالية كانت غير كافية لتوليد حياة عامة ومشتركة . ولنوضح ذلك :

أولا ، لم يكن في إيطاليا حياة اقتصادية عامة . والحياة الاقتصادية في إيطاليا تعتمد في أساسها على الزراعة والحياة الريفية التي تتصف بالمحلية والتجزئة ، لأن كل بلد فيها يؤلف موطناً منعزلاً ، منفصلا عن المواطن الأخرى بحماية جمركية ومحرمات . ولم يكن في إيطاليا نقد وموازين ومكاييل عامة في جميع الدول . وكان التشريع يعيق عمل المصارف في كل مكان . ولم تكن على هذا النحو صناعة ، عدا بعض صناعات غزل الحرير في لومبارديا وبيمونت . ولا توجد مشاريع تجارية خارجاً عن جنوة وليفورنه وميلانو . كذلك لا توجد سلع للتصدير باستثناء الحرير الخام في الشمال ، وزيت الزيتون في جنوة ولوقا ونابولي ، وكبريت صقلية . وأخيراً لم يكن في إيطاليا أي جهاز اقتصادي حديث . وهكذا فإن الحياة الاقتصادية في إيطاليا لم تولد بطبيعتها علاقات وتضامن مصالح ، ولم توفر منافذ لنشاط المثقفين أو العمال .

أما الظروف الاجتماعية فكان من طبيعتها ، كالحياة الاقتصادية ، أن تعزل الناس أكثر مما تقربهم من بعضهم . لقد كانت كتلة السكان فلاحين ، والزراعة في حالة متأخرة . وكانت بعض منـــاطق السهول الشاطئية عرضة للبرداء (الملاريا) وخلواً من السكان أو مأهولة قليلاً . ومنذ قرون والجبال تعرى من الغابات ، والأرض تتراجع بتأثير الجت . كذلك لا توجد زراعة عقلانية ، ومردود الحنطة ضئيل ، وزراعة الكرمة وصناعة الخمور تحافظان على طرق بدائية للغاية ، وما زال المحراث القديم مستخدماً في أعمال الفلاحة . ومن الممكن القول ان المناطق الزراعية الغنية والحديثة قليلة ، كالمراعي الخضراء وحقول الأرز في لومبارديا وبيمونت ،

والزراعات الصغيرة في وادي نهر الآرنو ؛ وكروم الزيتون وبساتين البرتقال هنا وهنالك . ولم تكن الملكيات الصغيرة لتكفي إعاشة مالكيها ، وكان الفلاحون من مالكين ومزارعين يعيشون عموماً بشكل ملائم رتيب ، أما الكتلة الكبرى ، وتتألف من العمال الزراعيين ، فكانت بائسة شقية بالرغم مما تلقاه من معونة وإسعاف ونجدة من جمعيات الإحسان الكنسية .

أما عمال الصناعة فكانوا يعملون في الصناعات المنزلية أو الحرفية ، وكانت ظروف الحياة سهلة بالنسبة إلى هؤلاء العمال نظراً لطيب المناخ وقلة حاجات السكان ومتطلباتهم . غير أن ما يميز هؤلاء العمال هو أنهم لم يشعروا بشيء من الوعي الطبقي ، ولم تصل إليهم السياسة إلا آجلا بتأثير جمعية « ايطاليا الفتاة » بعد ١٨٣٠ .

ولم يكن هنالك أي اهتمام بالشعب ، ولم توضع المشكلة الاجتماعية أمام الأحرار ، حتى ان مذاهب الأحرار ، التي تتضمن الحرية الشاملة في الحياة الاقتصادية ، لم تتضمن أي اهتمام من هذا القبيل ، ولم تلعب كتل الشعب أي دور سياسي ، باستثناء بعض الحالات التي تثير فيها شدة البؤس بعض الثورات العنيفة .

وإلى جانب هذه الكتلة الشعبية وجدت طبقة الإكليروس ، وكانت عديدة وتتمتع بنفوذ عظيم على الشعب وكان الكهان من أصل شعبي . أما الادارة الكنسية فكان رجالها من الطبقات العليا في المجتمع . وهذا الأصل الشعبي للاكليروس يوضح لنا كيف أن كثيراً من الكهان اشتركوا في الحركات الثورية وخاصة في لومبارديا وصقلية وسيكون من بينهم وطنيون وأحرار ، على خلاف الاكليروس الأعلى الذي يدل موقفه على سوء الاستعمال والامتيازات التي تربطه بالنظام القديم والدولة الجبريه وسياسة الكرسي

الأقدس التي اتجهت في اتجــاه رجعي استبدادي كامل . وكان هذا الإكليروس يمارس نفوذه ضد الأفكار القومية والليبرالية .

ولم يكن في إيطاليا ارستقراطية كبرى تضم الشعب والملكيات الكبرى لا توجد إلا في كالابر وفي صقلية . وما كان المالكون الكبار يقيمون في الأرياف حتى يكون لهم أي تأثير على الشعب .

أما احتياطي القوة في إيطاليـا فيتمثـل في الطبقات الوسطى التي لعبت دورها في ظل العهد الفرنسي ، وكان منها الموظفون والضباط والمهندسون والاطباء والمفكرون. وقد تكونت هذه الطبقة في الجامعات وكان عددها عظيما ، فقد وجد في إيطاليا آنذاك أربع وعشرون جامعـة . وأكبر الجامعات جامعة بولونيا ونابولي ، ثم تورينو ، بادوا ، بافيـا ، روما وغيرها . ولم يكن في هذه الجامعات حواجز اجتماعية : كان النبلاء الشبان يلتقون فيها بالشبان البورجوازيين ؛ وبوجه الإجمال ؛ كان الأساتذة والطلاب يؤلفون شعباً حساساً مستعداً للحركة والعمل ، وكان للأساتذة تأثير قوي على طلابهم ، وكان هؤلاء وأولئك يؤلفون جهاز الحركة . وكانت جامعة بولونيا مركز الحركة الثورية عام ١٨٣١ . وسيكون أسـاتذة وطلاب جامعات بيزا وجنوة وبافيا من أول المتطوعين في ثورات ١٨٤٨ .

وكما رأينا ، كانت الحياة الاقتصادية ضئيلة . وكان المنفـذ الوحيد لهؤلاء الشبان المهن القضائية والطب ، لأن وظائف الإدارة كانت محجوزة للطبقة النبيلة . وكان الجيش مغلقاً عليهم ، لأن الرتب العسكرية كانت خاصة أيضاً بالنبلاء . والمنفذ الآخر لهم هو العمل الأدبي وخاصة الصحافة، بيد أنهم كانوا يصطدمون بالرقابة والعقبات من كل نوع . وكانت هذه الطبقة البورجوازية ، التي تثقفت في الجامعات ، تشكو بخاصـة ظروف

الحياة السياسية والاجتماعية التي توطدت في إيطاليا بعد العهد الرجعي ، وتشعر بمرارة بأنها مبعدة عن بيئتها ، وهذا ما أوجد عندها استعـــداداً للمطاليب الثورية .

الاعتبارات المحلية . - وهـذا المجتمع الايطـالي الذي يتألف من عناصر متفرقة مبعثرة ، وتفصله الحواجز الطبقية ، كان المهم فيه الظروف المباشرة والاعتبارات المحلية لاالعموميات أو التيارات العامـة . وكان نظام الاستبداد والفساد وإساءة الاستعمال فيه سائداً . ولا يختلف هذا النظام من دولة لأخرى إلا من حيث الدرجة ، وليس فيه أي رقابة على تشكيل الضرائب واستخدامها أو مسئولية سلطـة ، أو أصوات استشارية من قبل السكان عند سن القانون ، أو حق في عقـد اجتماع ، أو تأسيس جمعيات ، وحتى الجمعيات العلمية والزراعية ، أو إدارة منظمة ، إلا في المملكة اللومباردية - البندقية ، وفي بيمونت ، على علات هذه الادارة التي أخنى عليها الدهر . لقد كان نظام الرقابة يحول دون أي هجوم في المضمار السياسي . ولنشر كتاب يجب الحصول سلفاً على إذن النشر من الرقابة ، وفي بعض بلاد إيطاليا من الإكليروس ، لأي نوع من أنواع المؤلفات ، حتى المؤلفات الاقتصادية . ولذا كان الكتاب يكلف غالياً ، وبحاجة الى الانتظار مدة طويلة للحصول على السماح بالنشر ، وليس بالمؤكد الحصول عليه دوماً ، وفي الغالب كان مرور الكتاب من دولة لأخرى مستحيلاً ، ولا يوجد صحف بالمعنى الصحيح للكلمة .

وكان نظـام القضاء فاسداً بخطورة ، وكانت توسكانا وحدها في هذه النقطة معتبرة كدولة حديثة . وكانت القوانين مختلطة جداً ولا سيما في دول البابا ، وفي دوقية مودينا وفي بيمونت . وفي كل مكان توجد محاكم سرية لمراقبة كل يقظة سياسية ، وفي الدعاوى السياسية يستخدم

التعذيب المادي و المعنوي . ولصرف الناس عن الحياة السياسية المحرمة وجد جيش من الضابطة . وكانت الجاسوسية عامة في المقاهي وفي المسارح من قبل الخدم وحتى على كرسي الاعتراف .

وبالمقابل ، كان النضال شغلا أساسياً . غير أن النضال كان نضالاً محلياً ولم يكن عاماً . لقد كان في سبيل حرية إيطاليا أي ان فكرة الحرية كانت قبل أي فكرة قومية . وكانت كل دولة تناضل بنفسها منعزلة . وزادت وسيلة النضال طابع التجزئة ، ولم يمكن توجيهه إلا بجمعيات سرية ، لأن كل شكل من أشكال النضال كان محرماً ، وبالتالي كان الارتباط صعباً بين المناضلين من دولة لدولة مجاورة . ويكاد التنسيق بين هذه الحركات يكون مستحيلا . وكان رجال هذه الجمعيات السرية منتشرين في كل مكان ، من بورجوازيين أحرار ، ومفكرين ، وضباط ونبلاء تأثروا بالأفكار الفرنسية ، وكان التطلع واحداً . ولكن لم تكن هنالك حركة عامة شاملة تجمعهم . ونظراً لطبيعة النضال ضد الفساد المحلي ، ولطبيعة جمع العناصر الثورية كان العمل يمضي قبل النظرية وقبل كل عقائدية فكرية . كانت الحركة تقتضي الثورة في الجيش ، والمؤامرت ، والعصيان والتمرد . ولذا كان الاهتمام منصرفاً إلى البحث عن نتيجة مباشرة أكثر من الاهتمام بالمذهب .

وكانت الحكومات تعارض هذه الحركات بحركات مماثلة تعقد وتفتت حركة المجموع ؛ ففي نابولي عارضت الحكومه جماعة « الكاربوناري اي الفحامين » بجماعة « الكالديراري أي النحاسين » . وفي الدول الحبرية كانت الجمعيات السرية التي تقوم برد الفعل الاستبدادي الإكليركي تسمى جمعيات « رجال الإيمان الأقدس » ، وفي البيمونت تسمى جمعيات

« الاتحاديين » . و في ايطاليا الوسطى وجد نوع من تفاهم بين حكومات الدوقيات ، بين الأمراء . لذا كانت هذه الحركات حركات منعزلة ومحلية والرابط الوحيد فيما بينها هو أنها كانت فرصة لبعضها .

وظلت الحركات الثورية تعمل عملها في ١٨٢٠ و ١٨٢١ و ١٨٣١ وتثير أعمال قمع وتطهير في الجيش والموظفين ، حتى اضطر بعض الزعماء تحت هذا الضغط أن يهاجروا إلى سويسرا وانكلترا وفرنسا . وبالرغم من الإخفاق الذي مني به العمل الثوري فقد تتابعت الحركات وتلاحقت لأن مزاج الشعب الإيطالي يحب العمل السري والمؤامرة والتمرد . ومن المؤكد أن الحركة القومية لم تخرج من هذه الحركات .

٢ ـ الابداعية الايطالية

وإلى جانب هذه الحركات الثورية قامت حركة فكرية هامة وخصبة ، وهذا يرجع إلى أن الظروف الاجتماعية والسياسية أوجدت ضائقة حرجة أمام الشبيبة الإيطالية التي تخرجت من الجامعات ولم تجد منفذاً حقيقياً لنشاطها ومن جهة أخرى ، لقد تمادى القهر السياسي في غيه وضغطه حتى شعر به من ليس لهم أي رغبة في الثورة . وفي الحقيقة إن عدم جدوى الجهد الثوري كان حجة لمن كانوا يرغبون بالخلاص منه ، واتجهت الأنظار نحو الحياة الفكرية ، وآل الأمر بالوجدان القومي إلى العمل في المضمار الروحي والعقلي والأدبي أكثر مما في العمل السياسي .

إن أفضل وأنجح حركة إيطالية في ذلك العصر كانت الحركة الابداعية (الرومانتيكية) . بدأت في إيطاليا عام ١٨١٦ ببيان للشاعر **جيوفاني برشيه** (١٧٨٣ — ١٨٥١) . و التف حوله عدد من الأدباء مثل الشاعر **روسيتي** الذي تغنى بثورة نابولي عام ١٨٢٠ ، وعدد

من النبلاء الميلانيين المثقفين . وكان هؤلاء الأدباء يدافعون عن مذهبهم بجدل ضد المدرسة الاتباعية (الكلاسيكية) في مجلة « الكونسيلياتور » التي صدرت في عام ١٨١٨ و ١٨١٩ ودخلت في نضـال مع مجلة كلاسيكية رجعية استبدادية ، تدعمها النمسا وهي « المكتبة الايطالية » . وكان هؤلاء الأدباء يريدون شعراً حياً ، حديثاً ، وثيق الصلة بروح الشعب وعقائده وتطلعاته ، وأدبا أكثر مرونة وتنوعا من الأدب الاتباعي . ومن ميلانو انتقل الجدل إلى أقالـيم إيطاليا الأخرى ، إلا أن المدرسة الابداعية كانت في إيطاليا أقـل تطرفاً ودواماً منها في سائر البلاد الأوربية الأخرى ، ولذا حافظت إيطاليا على ثروة طبيعية للأدب الاتباعي

هذا وتجدر الإشارة إلى صفتين أساسيتين في هذه المدرسة الابداعية عند البحث عن يقظة الروح الإيطالية :

الاولى ، وهي البحث عن موضوعات تهم أناسا من غـير المثقفين . وهذا ماجعلها على صلة بتطلعات الشعب وعواطف الجماهير وعقائدهاوأباطيلها والعودة إلىالذكريات التاريخية وتقاليد الماضي وهذا الماضي الذي يرجع اليه هو عصر الحريات والمنازعات ، عصر النهضة الإيطالية ، وعصر الجمهوريات الإيطالية التي كتب سيسموندي تاريخها منذ عهد قريب .

الثانية ، وهي أن هـذه المدرسة الابداعية الجديدة وضعت العاطفة واللذة الأدبية والفنية في خدمة التربية القومية . فقد تخلى أدباء هـذه المدرسة عن الفكرة القديمة الكلاسيكية للثقافـة الصورية المحضة ، كما تخلوا أو لم يحبذوا المدارس الأوربيه المعاصرة الأخرى في نظرية « الفن للفن » . وكان الأدب عند هؤلاء الكتاب الإبداعيين توكيداً للحرية السياسية . وقـد اشترك محررو مجـلة « الكونسيلياتور » في العمل السياسي عام ١٨٢١ ، ونذكر منهم **كونفالونييري** ، زعيم الحركة الملانية ،

والمحرر الرئيسي للمجلة **سيلفيو بيللكو** وكان شاعراً وكاتباً مسرحياً . وقد أوقف كلاهما عام ١٨٢١ وحكم عليهما في شبيلبرغ . وقد كتب سيلفيوبيلليكو ، عندما أطلق سراحه عام ١٨٣٠ ، كتابا ذاعت شهرته في أوربة وهو « **سجوني** » . ونشره عام ١٨٣٣ ، وفيه يروي قصة اعتقاله . وكان له تأثير معنوي واسع وروحي ، في إيطاليا كلها ، بالاستسلام المسيحي الذي برهن عليه ، وبيساطة قصته وظلاماته أكثر مما تضمن من مطاليب عنيفة على طريقة الثوريين قديماً . وكذلك اضطهد جيوفاني برشيه واضطر إلى الفرار والهجرة إلى انكلترا ، وعاش فيها حتى عام ١٨٢٩ ، ومنها انطلق بأشعار تهتز عاطفة ووطنية ، واضطر روسيتي أيضاً إلى الفرار . ومع هذا فقد وجد إبداعيون غير ثوريين ، إلا أنه يمكن القول ان التمثيل قائم بين الحركة الإبداعية والحركة الليبرالية ، وبين الإبداعية والوطنية الإيطالية .

كان مركز هذه الحركة الإبداعية الحرة توسكانا . وفي فلورنسا أسس صاحب مكتبة يدعى **فيوسو** حلقة صغيرة ، صالة مطالعة صغيرة ، كانت بمثابة مكان لقاء وأخذ يستقبل فيها الكتاب من كل إيطاليا . ونشر مجلة « الأنثولوجيا » (**المقتطف**) وعاون في هذه المجلة مشاهير كتاب العصر مثل **تروبا** ، **تومازو** ، **ليوباردي** ، **كاردلوتا** ، **ماتزيني** وغيرهم . وكان برنامج هذه المجلة تمثيل مجتمع إيطاليا وحاجاتها المعنوية الأدبية ومساعدة إيطاليا على معرفة نفسها بنفسها وإنشاء مثل أعلى قومي . ولم تنتشر الانثولوجيا كثيراً ، إلا أن تأثيرها كان عظيما : لقد تشكلت حولها مدرسة خاصة لدراسة دانتي أكبر شاعر قومي ، ومدرسة مؤرخين أشهرهم **تروبا** في نابولي ، و **بالبو** في تورينو ، و **كابوني** في فلورنسا .

وكان الكاتبان الهامان اللذان يمثلان هذه المدرسة الابداعية ، دون أن ينخرطا في السياسة ، مانتزوني وليوباردي .

مانتزوني (١٧٨٥ — ١٨٧٣) . — كان مانتزوني نبيلا من منطقة ميلانو ولم يحمل لقبه كونت ، وهو حفيد الحقوقي **بكاريا** من أمه . كان في بدايته اتباعياً في أدائه وفي إلهامه ، وأخذ كثيراً من أفكار القرن الثامن عشر . بيد أنه عاد إلى الدين المسيحي بعد زواجه ، وبدأ إنتاجه الرصين ، عام ١٨١١ ، بنشر سلسلة « الأناشيد المقدسة » حتى عام ١٨٢٢ . وساهم ببيان برشيه الإبداعي وشارك في الآراء الحرة . وفي آذار ١٨٢١ ، ألف على شرف الثورة البيمونتية قصيدة اسمها « آذار ١٨٢١ » ولم ينشرها إلا في العام ١٨٤٨ . وبعد بضعة أشهر ، قصيدة عن وفاة نابوليون . ثم جرب نفسه في الأدب الدرامي وألف مأساتين نهل موضوعيها من التاريخ الإيطالي وهما . « الكونت كارمانيولا » (١٨٢٠) ، و « ادلتشي » (١٨٢٢) . ثم هجر الأدب الدرامي ونشر القصة « المخطوبين » وهي قصة تاريخية ورمزية معاً ، وتعتبر كل ما أعطاه في أدب القصة . ثم انطلق في دراسة النقد والفلسفة واللغة . كان مانتزوني مسيحياً قبل كل شيء . والعاطفة الدينية عنده مصدر القوة والشجاعة ، والدين يمثل الحب بين الناس ، إنه المثل الأعلى للمساواة والعدل وأمل المقهورين والمعذبين . وكان يطلب من الأدب أن ينشد فائدة عملية وأن يشارك في تجديد الأخلاق والمجتمع في إيطاليا ، وأن يصنع من جديد التربية الأخلاقية والروحية للأمة قبل المطالبة بالحرية السياسية . وبشر بالاستسلام والاعتدال دون التخلي . وكان متفائلا يثق بالنصر القريب لمثله الأعلى في العدل والصلاح . ومن هنا يبدو أن مانتزوني لم يكن ثورياً تماماً ، بل

مربياً . وكان تأثـــيره عميقاً في الأخلاق الإيطالية وفي نمو الوجدان القومي الإيطالي .

ليوباردي (١٧٩٨ — ١٨٣٧) . — قضى حياة قصيرة ، وكان في الفن اتباعياً رغم إبداعه الشخصي بحياته الأليمة وتشاؤمه . تأثر بالروح القومي وشعر بذل إيطاليا والانحطاط الذي تردت اليه منذ عام ١٨١٥ وأخذ بنقد حركة الحرية . قام بدراسات في فقه اللغة ، وبأعمال علمية واسعة ونشر في العام ١٨١٨ أغنيتين وطنيتين : « إلى إيطاليا » و « على الآبدة المصممة لدانتي في فلورنسا » . وفي ١٨٢٠ قصيدة إلى **إنجيلومي** قيم المكتبة الآندروسية الذي اكتشف في مخطوطات الرق نصوصاً جديدة للمؤلفين القدامى . وهذه هي مساهمته في الأدب الوطني . وقدم لإيطاليا نموذج عظماء الرجال ودروس الشجاعة ، التي أعطاها كبار المؤلفين وكبار وجوه الماضي ، لتنهض من كبوتها وتستأنف سيادتها . وكان يعلق آماله على الشباب ويتوجه إليه ، ويأمل منه أن يعطي إلى الوطن الأجيال القوية التي يحتاجها . وفي السنوات الأخيرة من حياته نشر ، عام ١٨٣٧ ، « تكملات النزاع بـــين الضفادع والجرذان » المنسوبة إلى هوميروس كالقصائد الأخرى ، ولكنها متأخرة عنه كثيراً ، وخاصم فيها الحزب الليبرالي الإيطالي ، وانتقد ثقته بنفسه وعدم كفاءته ، وانكر إمكانيات برنامج الاصلاحات الليبرالية ، وصاغ كاريكاتوراً لا يرحم للشخصيات والنماذج القومية الإيطالية . وشبه في قصيدته النابوليين (سكان نابولي) بالجرذان ، والكهان بالضفادع ، والنمساويين بالسرطانات .

ولا شك في أن إسهام مانتزوني وليوباردي في حركة التحرير الإيطالية كان إسهاماً رقيقاً بذاته ، ولكنه هام في قصده ، لأن الأديبين أضافا ثروة عظيمة لتراث إيطاليا القومي .

طابع الابداعية السياسي . - وسيقوى هذا الطابع السياسي ،الذي دشنته الإبداعية ، بعد عام ١٨٣٠ وسيصبح شكلا لليبرالية . فقد أصبح سياسياً بكامله ، وعلق فنه بالاعتبارات السياسية ، حتى ان الكتاب أنفسهم بدأوا ينطلقون في العمل ، وكان بعضهم شهداء القضية الليبرالية ، كما هي حال سيلفيو بيلليكو ، ويظهر ذلك بعودة حارة إلى الأمجاد القومية ، وبخاصة نحو دانتي . فمن ١٨٣٠ إلى ١٨٧٠ وجد أكثر من مائتي طبعة للكوميديا الإلهية ، ودراسات كثيرة وعظيمة عن الشاعر وحياته .

كذلك بدأ الإيطاليون يعلقون أهمية كبرى على الأدب الشعبي (الفولكلور) والدراسات اللغوية ، والتاريخ : ففي عام ١٨٣٣ تأسست في تورينو « جمعية تاريخ الوطن » ،وفي ١٨٤٢ ، في فلورنسا « جمعية الوثائق التاريخية الإيطالية » التي عاون فيها المؤرخ جينو كابوني مؤلف « تاريخ جمهورية فلورنسا » ، ونذكر كارلو ترويا الذي نشر عام ١٨٣٩ « تاريخ إيطاليا في العصر الوسيط » ، وميشيل امادي ، وقد نشر عام ١٨٤٢ « تاريخ مذبحة صلوات العصر الصقلية » ، وفي العام ١٨٤٥ « تاريخ المسلمين في صقلية » . ونشر كانتو : عام ١٨٣٢ ، « تاريخ لومبارديا في القرن السابع عشر » وفي العام ١٨٤٥ بدأ بنشر « التاريخ العام » . كما لفت الحق القديم ، كالتاريخ ، نظر الفقهاء . فمن ذلك أن كاتانيو قام في ١٨٤٤ بدراسة عظيمة في « الحق المدني والطبيعي في لومبارديا » .

ومع هذا الجيل من الفقهاء والعلماء والمعلمين نمت الصحافة الدورية . وتأسست مجلات عديدة ، بعد أن حذفت الانتولوجيا عام ١٨٣٣ ،نذكر منها : « دليل التوبية » و « دليل جنوة » و « إيطاليا » وغيرها .

ومن الطبيعي أن يتجه هذا الأدب التعليمي نحو السياسة . ولكن

أدب الخيال امتاز أيضاً بهذه الصفة ولو بصورة غير مباشرة وظهر أثر ذلك في أدب القصة وأشهر كتابها غيرازى (١٨٠٤ – ١٨٧٣) . فقد كان كاتباً متحمساً عنيفاً ، ونجح في الأدب بقصة « حصار فلورنسا عام ١٥٣٠ » التيأشعل بها الشبيبة الإيطاليه . كما اتجه الشعراء نحو تمجيد العاطفة الوطنية والسياسية ، وهجر النمسا وكره المنافقين والمرائين .

وهكذا أصبح الأدب سياسياً ، لا سيما وأن معظم الكتاب ساهموا في الحركات الثورية . لقد كان التماثل تاما ابتداءاً من ١٨٣٠ بين الحياة الفكرية في إيطاليا ، وبين التطلع القومي الإيطالي ، وكان دور هذا الأدب يحوم حول تربية الشعب وصنع روح إيطالية عامة ، كما كان من نتيجة هذه الحركة الأدبية تطهير الحركة الثورية وتصعيدها بتوجية ماتزيني وتشكيل جمعية « إيطاليا الفتاة » .

٣ — ايطاليا الفتاة

إن الاخفاق ، الذي مني به رجال « جمعية الفحامين » في العمل ، جعلهم يتجهون نحو الفكر والحياة النظرية . وان التأثير التربوي ، الذي خلفته الإبداعية ، أعطى العنصر الأخلاقي أهمية أساسية ، وبتأثير هذين العاملين ، خيبة العمل والتأثير التربوي للأدب ، شعر الإيطاليون الاحرار بضرورة تطهير العمل الثوري وروحنته ، وقد جسد ماتزيني هـــذه الحركة الجديدة .

ماتزيني . — ولد ماتزيني في جنوة في ٢٢ حزيران ١٨٠٥ من أسرة بورجوازية كبرى . كان أبوه طبيباً مشهوراً ، وأمه امرأة عظيمة بقوتها ومفهومهـا الجانسني الصارم للدين . وتربى ماتزيني في جامعة جنوة حيث درس الحقوق . وعندما حصل على الدكتوراه وقف نفسه

لموهبته واستعداده السياسي . فهو اذن قد نشأ وتربى وتثقف في بيئة مثالية وفكرية . بدأ الأدب بنقد الإبداعية من وجهة نظر العمل السياسي بسلسلة مقالات في « دليل جنوة » عام ١٨٢٨ ثم في جريدة « دليل ليفورنه » التي أسسها غيرازي وألغيت بسبب مقال عنيف نشره ماتزيني . وفي غليان الأفكار الذي تلا ثورة ١٨٣٠ في إيطاليا أصبح ماتزيني مشبوهاً . فقد أوقف وسجن ستة أشهر في سافونة، وحكم عليه بمغادرة جنوة والاقامة المراقبة ، ثم فر إلى كورسيكا ومنها إلى مرسيليا حيث أقام .

أعد ماتزيني مذهبه في سجنه في سافونه ، ووصل إلى مرسيليا عندما اعتلى شارل ألبير عرش بيمونت في ٢٧ نيسان ١٨٣١ ، ومنها وجه إلى الملك الجديد ، باسم الايطاليين ، رسالة يذكر الملك بمفهومه لايطاليا الحرة عندما كان أمير كارينيان ، وناشده أن يصغي لصوت إيطاليا التي لاتنتظر إلا كلمة لتكون إيطاليا شارل ألبير ، وفيها يقول : « ضع نفسك على رأس هذه الأمة ، واكتب على علمك : **اتحاد ، حرية ، استقلال** ، ونجّ إيطاليا من البرابرة » . ولم تحظ رسالة ماتزيني بجواب من الملك ، بل ، على العكس ، كان من نتيجتها أن أعطى الأمر بإيقافه إن عاد إلى إيطاليا ، وكان ذلك بداية قطيعة تامة بين الملكية الساردية وماتزيني .

وأسس ماتزيني في مارسيليا جمعية وجريدة تحت اسم « إيطاليا الفتاة» عام ١٨٣٢ ، وكانت هذه الجمعية لا تضم إلا رجالاً سنهم دون الأربعين عاماً ، وتجدر الإشارة إلى أنه كان بينهم رئيس (قبطان) في الملاحة التجارية يدعى **غاريبالدي** ، وكان أعوان ماتزيني الأساسيون في الجمعية : **روفيني** ، **ميليغاري** ، **بيونادوتي** . وكانت « إيطاليا الفتاة » جمعية سرية ، عملها ثوري ، وفي الوقت نفسه تربوي ، ومنذ السنة الاولى من

عمرها انتقلت إلى العمل وبدأت بإعداد مؤامرات في إيطاليا . ثم وسع ماتزيني إطار عمله وبرنامجه ، وأنشأ في ١٨٣٤ في بيرن في سويسرا جمعية « أوروبة الفتاة » . وفي العام ١٨٣٦ أقام في لندن ، وأخذ يوجه الحركة الإيطالية ، وأسس فيها مجلة جديدة : « رسالة الشعب » ، وكانت الضابطة الانكليزية والفرنسية تراقبان حركاته مراقبة شديدة ووثيقة .

أثر ماتزيني على الناس بكتاباته وجاذبيته وجماله وتعصبه المثالي ، وكان بعيداً عن المنفعة ، يعيش عيشة خشنة ، وكل من لازمه أو عاشره كان يشعر بأن فيه سحراً فاتناً ، فقد كان عظيم التأثير بفصاحته ومراسلاته الأولية الجسيمة ، وبأسلوبه المشرق الشيق ، وهذا ما جذب الأنظار نحوه . فقد أحاطه الليبراليون الايطاليون والجمهوريون ، والليبراليون الفرنسيون ، والنساء ، مثل جورج سان والكونتس آغول والأميرة بلجيو جوزو ، بالعطف والاحترام . وكانت تتمثل فيه صفات البطل الابداعي ، وعم تأثيره حتى أصبح زعيم الحركة الثورية في إيطاليا ، والمحرك الأساسي للحركة الثورية الدولية بما أعطاها من برنامج ومذهب .

ينطلق ماتزيني في كتاباته من نقد مزدوج : نقد الابداعية ونقد الفحمية . فهو يأخذ على الابداعية فرديتها وعدم حساسيتها برسالة سياسية أو قومية . ويعتقد ، على نقيض مانتزوني ، بأن إصلاح الفرد لا يمكن أن يكون إلا نتيجة للإصلاح السياسي ، ولذا يدعو الأدب إلى العمل السياسي ويقول : « إن موضوع الإبداعية أن يعطي إلى إيطاليا أدباً قومياً وأصيلاً للدفاع بفصاحة عن صالح أفكار الحركة القومية وضروراتها » . ويأخذ على الفحمية بأن لا إيمان لها ، ولا قوة أخلاقية ، وبخاصة ليس لها أهداف اجتماعية ، وليس لها برنامج تشريع وتربية . ويريد أن يبعد الفحامين ويقول لهم : « المكان للشبيبة على رأس الثورة ، أشعروهم بأن

لهم دوراً نبيلاً يجب أن يلعبوه ، ألهبوهم بالمديح ، وأكدوا لهم قوتهم ، ثم اقذفوا بهم على النمساويين » . ولذا ينبغي للشعب التحرر الفكري والتربية الاجتماعية والخلقية ، وهذا ما لم يتصوره الفحامون . ولكن ماتزيني كان على وفاق معهم بضرورة العمل بواسطة الكتل والجماهير ، وبدونها يخفق العمل الثوري ، ويجد الشعب نفسه مسوقاً إلى اعتبار الثورة خديعة . ويجب تعليم الشعب ، ولتعليمه يجب إعطاؤه مثلاً أعلى عظيماً : « قولوا للشعب بأنكم تريدون أن تحرروه من ظلم الأمراء وإهانات الموظفين ، وقهر أصحاب الامتيازات والأغنياء . وعندئذ ، وبخاصة ، عندما تبدأ الجماهير بالثورة ، وجهوا وجوهكم شطر لومبارديا وبشروا بالحرب ضد النمساويين » . وهو يشجب الثورات الارتجالية التي يقوم بها الفحامون دون منهاج .

لقد نظر ماتزيني إلى الشعب الأسباني الذي قام على نابوليون ونجح في طرد الأجنبي ، واستخلص من ذلك نتيجة وهي أن المتطوعين ، الذين يحركهم الايمان ، أعلى من الجيوش المنظمة ، وان الجيوش النظامية تمنى بالإخفاق أمام الحركة الشعبية . ولكن لإثارة الجماهير يجب أن يقدم لها مثل أعلى ، وهذا المثل الأعلى هو الأمة . وكان ماتزيني أول من أعطى للحركة الثورية الإيطالية برنامجاً قومياً . فحتى ذلك الحين كانت الحركة الثورية حركة حربية محلية ، ولكنها بماتزيني أصبحت قومية . ومفهومه عن القومية مفهوم طاهر نقي سام متصاعد إلى عناصر روحانية تماماً . ويقصد بالأمة عموم المواطنين الناطقين بلغة واحدة ، والمشتركين بالمساواة في الحقوق المدنية والسياسية في نية مشتركة وهي إيقاظ القوى الاجتماعية وتحسينها بالتدريج . وهو يعرف القومية أيضاً بهذا الشكل : « القومية فكرة مشتركة ، مبدأ مشترك ، هدف مشترك . والأمة هي تجمع كل الناس الذين تجمعهم اللغة أو بعض الظروف الجغرافية أو الدور الذي

فرضه التاريخ عليهم ، ويعترفون بمبدأ واحد ، ويسيرون تحت تأثير حق واحد ، لكسب هدف معين واحد . وإن النشاط المنسجم وإعـــداد جميع القوى الفردية التي يحتويها التجمع نحو هذا الهدف الوحيد ، تؤلف الحياة القومية » . ولاتثريب على هذه الجمل من حيث الوعي للفكرة القومية. وهذه المفاهيم مندفعة نحو المثالية المتطرفة : « الوطن قبل كل شيء وعي الوطن . وليس التراب الذي تدوسونه والحدود التي وضعتها الطبيعة بين أرضكم وأراضي الغـير واللغة العذبة التي تطن فيه ، إلا الشكل المرئي للوطن . ولكن إذا كانت روح الوطن لا تقيم في معبد حياتكم الذي يسمى الوعي فإن هذا الشكل يشبه جثة لا حياة فيها ، وأنتم قبر دون امم ، وكتلة أفراد لا شعباً . الوطن هو الإيمان بالوطن . وعندما يملك كل منكم هذا الإيمان ، ويكون مستعداً لسفك دمه في سبيله ، عندئذ تملكون الوطن ، لا قبل ذلك » . وهذا المفهوم ولا شك أسمى من المفهوم العادي لعمل الثوريين الفحامين .

ولكن ماتزيني يذهب إلى ما هو أسمى من ذلك في مفهومه للقومية . فهو يتجاوز مرحلة القومية ليسمو إلى مرحلة الإنسانية : « القومية هي شيء آخر أيضاً ، القومية هي القسط الذي صنعه الله للشعب في عمل الإنسانية ، هي رسالته ، هي العمل الذي يجب أداؤه على الأرض ، لتتحقق فكرة الله على هذه الأرض ، هي الأثر الذي يخوله حق المدينة (المواطنة) في الإنسانية ، هي التعميد الذي يخوله طبعه ويعين له مكانته بين الشعوب ، اخوته » . ولذا فان العمل القومي لا يقف عند حدود الأمة ، ولاينضب بخلاص الأمة وتحقيقها ، لأن الواجب ، في نظر ماتزيني ، أوسع أيضاً : « الإنسانية هي تجمع الأوطان ، الإنسانية هي تحالف الأمم لأداء رسالتها على الأرض بسلام وحب » . وهـذا ما يجعلنا نفهم

ماذا يعني آنذاك إنشاء « أوربة الفتاة » ، وكيف يرتبط بعمل الإلهام القومي عند ماتزيني . إن حبه للبولونيين ، رغبته في التوفيق بين البولونيين والديموقراطيين الروس ، يتضح بهذا الواجب نفسه الملقى على عاتق القوميين حيال الإنسانية جمعاء . ويرى ان لكل شعب رسالته في الإنسانية . ويجد ماتزيني رسالة إيطالية ، كما كان يجدها من قبل الفيبوي ، أو الإبداعيون إنه يجد روما القياصرة وروما البابوات ، اللتين سادتا العالم ، وسودتا الوحدة والسلام في العالم . ويرى « إيطاليا الثالثة » تلعب الدور نفسه . وكان مفعماً بهذه الفكرة ولا يقبل بأن تختص فرنسا بدور القائد للحضارة الحديثة الذي يعترف لها به كافة الأوربيين .

يوجد إذن في مذهب ماتزيني فلسفة كاملة متسامية للقومية . فقد تصورها بأسمى أشكالها . ولكن كيف تصورها بالنسبة لإيطالية خاصة ؟ وفي الحقيقة ، يختلف ماتزيني في هذا الموضوع عن الثوريين الإيطاليين . إن رد فعله يختلف كثيراً عن رد فعل المؤرخ سيسموندي عندما كتب في ٣ تشرين الثاني ١٨٣٢ : « من المحتمل جداً أن أكون في صف الملكية إذا أعطانا ملك بيمونت أو نابولي نواة جيش وترسانات . انني أتمسك بالاستقلال ، وبالتالي بالقوة أكثر من الحرية » . أما ماتزيني فيقبل بأن تأتي نجدة الأمراء بقوة حقيقية للقضية القومية . ولكن هذه الفائدة قد تتعدل بكثير من المحاذير ، وبتحاسد الملوك ، ولذا يحسن التخلي عنها . ونراه يهاجم بعنف مفهوم إيطاليا الاتحادي في مؤلف صغير نشر عام ١٨٣٣ لأنه يرى في نعرات إيطاليا البلدية والإقليمية « أهواء صغيرة حقيرة مسكينة تتغل في شبه الجزيرة كما تتغل الديدان على الجيفة » . وهو يرى أن لا أمل يرجى بقوة تجديد من الأمراء والملوك الإيطاليين ، وأن الوحدة وحدها تستطيع أن تحقق الأمة التي تسمو بإيطاليا إلى المستوى

الروحي لرسالتها ، شريطة أن تتحد الوحدة بالحرية التي هي الشرط اللازم والكافي لهذه الوحدة . ولذا فإن الشكل الأسمى للوحدة والضروري لإيطاليا هو **الجمهورية** والمثل الأعلى لماتزيني هو **إيطاليا الموحدة ، الديموقراطية** ، والمحكومة لصالح الشعب .

وقطع ماتزيني علاقاته مع المسيحية ومع الكنيسة التي تبدو له عقبة كبرى في تحقيق الوحدة . ولكنه ، رغم ذلك ، مازال مثالياً ومؤمناً بالله . فقد وضع في رأس مذهبه هذه الشعارات الثلاثة : **« الله ، الشعب ، الانسانية »** . وكان مذهبه في الوقت نفسه أخلاقاً ، وفي ذلك يقول : « الحياة رسالة ، والفضيلة تضحية ، والتضحية وحدها مقدسة » . وبهذا التمجيد للدين القومي والحرية كان نفوذ ماتزيني عظيماً وأعظم من نفوذ زعيم عصابة أو قائد جمعية سرية . وكانت الشبيبة الإيطالية متعصبة جداً لماتزيني ، وتؤمن به وتخضع لتوجيهاته على العمياء . وهذا المظهر الديني الذي يعطيه ماتزيني لتوجيهه ، يوضح عقيدته وتشدده وإيمانه المطلق بالحقيقة . وهذا ما جره إلى كثير من الأخطاء ، وجعله يتطلب من الإيطاليين تضحيات غير مجدية . ولكن هذه المثالية هي التي صنعت عظمته وجعلته يختلف عن سائر ثوريي الدور الأول في تاريخ الوحدة القومية الإيطالية .

ورغم أن ماتزيني شجب الفحمية فقد سار في الواقع على خطاها . كان مزاجه نشيطاً وجزعاً للعمل ، وجعلت مثاليته التضحية رخيصة في نظره ، ووجد فيها سبباً للتمجيد . ومن هنا تراكمت المحاولات ولكنها انتهت باخفاقات دامية وكل هذه المحاولات تتمثل بالطرق نفسها من تشكيل الجمعيات السرية والمؤامرات وإشعال الثورات . وقد دبرت ثورات متعددة في شمال إيطاليا وجنوبها ، ومؤامرات كثيرة ، ولكنها

باءت بالفشل . بيد أن الفائدة الوحيدة من كل هذه المؤامرات الماتزينية هي إطالة قائمة شهداء الحرية الإيطالية . وقد غدت ذكرى هؤلاء الشهداء الإيمان بالوطن وأمته .

٤ — البعث الايطالي

منذ عام ١٨٤٠ جرى في إيطاليا تغير هام في واقع الحال وفي الأفكار معاً . فقد أدت الحوادث إلى رفض العقائدية الفحمية ، وتوطد نوع من النفوذ والتوغل عبر الحدود بعد أن ظلت حتى ذلك الحين كتيمة تفصل الدول بعضها عن بعض ، وأصبح بالإمكان تشكيل حركات غير منفصل بعضها عن بعض ، كما كانت في السابق ، وتشكيل حياة قومية وتنافس على شروط هذه الحياة .

وقد أعطي لهذه الحركة اسم **البعث** وإن كان هـذا التعبير عنواناً خاصاً لجريدة تأسست عام ١٨٤٧. ولكن يجب أن يؤخذ هذا الاصطلاح بمفهومه العام ويعني النهضة .

تحويل شروط الحياة الاجتماعية . ـ لقـد تحولت ظروف الحياة الاجتماعيـة . ولكن هذا التحويل لم يكن في كل الميادين تاماً وعاماً في ايطاليا كلها ، بيـد أنه يمكن القول إجمالا ، بأن إيطاليا ، التي ظلت حتى الآن متخلفة ، أخذت تتجدد . ولوحظ التقدم المادي وخاصة في الحياة الزراعية التي ظلت أساس الحياة الإيطالية : لقـد تحسنت الطرق الزراعيه ، وأفادت إيطاليا الشمالية من النظام الإداري الفرنسي والنمساوي واهتم النبلاء باستغلال أراضيهم ، وشكلوا جمعيات زراعية ، وحاولوا تنمية التعليم الفني والزراعي ، وفتحت مزارع مدرسية وصناديق ريفيـة لتنمية

الرأسمالية القروية . ونمت زراعة الرز والذرة . وبديء بتربية الحيوانات بطريقة علمية لإنتاج الحليب والجبن . وأضيفت معامل لتكرير السكر إلى الصناعات الفاخرة النامية ، وخاصة صناعة نسيج القطن والحرير ، كما بديء باستصلاح المناطق المغمورة بالماء والموبوءة بالملاريا على الشاطيء ، ونمت المدن الكبرى . ولكن هذا النمو المادي أوقفته أو كبحت جماحه منافسة الصناعات الألمانية في إيطاليا الشمالية بما لاقتـه التعرفات النمساوية أو اللومباردية — البندقيـة من تشجيع . وفي الجنوب نمت حياة البذخ والثراء في نابولي على حساب الأرياف ، وجاء هذا الثراء من الاجارات الباهظة التي كانت تقتطع من الفلاحين .

ونمت الآلة وتجددت الشروط المادية . فقد ألفت شركات الملاحـة الإيطالية ، ومددت السكك الحديدية ، وكانت في بادىء أمرها للتسلية ، ولكنها مالبثت أن أصبحت ذات أهمية اقتصادية .

هذا وتجدر الاشارة إلى أن الدولة الحبرية ظلت متخلفة ، دون تقدم ، وفي فوضى بسبب اضطراب الادارة وأعمال الشقاوة .

ولم يقتصر هذا التقدم على الميدان المادي والعملي التطبيقي ، بل كانت تناقش الأفكار التي كانت في أساس هـذا التقدم . لقـــد نمت مفاهيم الاقتصاد السياسي الواسعة ، ودخلت نظرية **كوبدن** في المبادلة الحرة . وبدأ الكلام عن تشكيل خطوط جمركية وتخفيض التعرفات بين الدول . كما بدأت الحركة العلمية بمناقشات عامـة بين العلماء الايطاليين من مختلف البلاد . وافتتحت المؤتمرات العلمية وكان المحرك لها **شارل بونابرت بن لوسيان** ، أخي نابوليون ، وانكليزي مقيم في إيطاليا وهو **السير جون بورينغ** . وجرت العادة أن تكون المؤتمرات سنوية وفي مـدينة جديدة في كل مرة ، وعلمية تقنية بحتة . ولكن المشاكل التي كانت تعالج فيها

كانت تتجاوز بسرعة وبسهولة قضايا البرنامج وتصبح عامة أكثر منها محلية ، إذ من المستحيل أن يحدد العلم أو الاقتصاد السياسي في إطار الدول الصغيرة . وكان سياق البحث يقتضي النقاش بمشاكل تهم إيطاليا كلها . وكان يلتقي في هذه المؤتمرات أناس وعلماء من جميع الدول الإيطالية ، وبالتالي كانت تنمو فيها روح عامة . وكان التقدم الفني يقوي وضع البورجوازية الاجتماعي والسياسي وخاصة في إيطاليا الشمالية أي في لومبارديا وبيمونت وتوسكانا .

الافكار القومية الجديدة . ـ لقد أدت نتيجة هذا التقدم الفني وبداية هذا الاقتصاد القومي والاخفاق الذي لاقاه الفحامون في الطريق الثوري إلى توسيع وتحويل في العقيدة السياسية، وفضلت طرق أخرى على طرق الفحامين والثورات المحلية ، وتفوقت الفكرة القومية على الفكرة الثورية . وأصبحت الحركة السياسية تهم أناساً آخرين من غير الديموقراطيين ، لأن الحركة السياسية تعممت في المجتمع ولم تبق قاصرة على فئة صغيرة من العسكريين المستائين أو البورجوازيين الذين ليس لهم وضع في المجتمع ، كذلك لم يعد نفوذ الفكرة القومية مرتبطاً بالبرنامج الليبرالي وحده .

لقد ظهرت الأفكار الجديدة بعدة أشكال ، وأتت بادىء بدء من المهاجرين الإيطاليين : ففي ١٨٣٦ صدر في باريس كتيب ألفه **نيقولا توماسيئو** تحت هذا العنوان : « آمال ايطاليا الجديدة » وهو نداء إلى الأقاليم والاكليروس للتعاون في التجديد القومي . ونجد في هذا الكراس أول فكرة لبابا مصلح يتزعم تجديد البلاد . وفي ١٨٣٥ و ١٨٣٦ نشر الحقوقي الفيلسوف **ماميانى** كتاب فلسفة يسمى « تجديد الفلسفة القديمة الإيطالية » ، وفي ١٨٤٣ نشر « تاريخ الأدب » خاصاً بشعراء العصر الوسيط . ولكن الذي يهمنا قبل كل شيء أنه نشر في ١٨٤١ كراساً فضل فيه قبل كل شيء استقلال إيطاليا : فهو يرى في المستقبل إيطاليا

فاتحة لاستقلالها بحرب يقودها أمير قومي . ولكنه يرى لهذا الاستقلال شروطاً مبدئية : وذلك بأن تطرح النمسا في مشاكل دبلوماسية تمنعها من الدفاع عملياً عن المملكة اللومباردية – البندقية التابعة لها ؛ وأن يربى الشعب تربيته السياسية التي لم يحصل عليها بعد ، وأن تشارك الطبقات العليا في حزب الاستقلال .هذا . ويضيف ماميانى إلى فكرة الاستقلال برنامجاً كاملا للإصلاحات الاجتماعية ليعيد إلى الشعب كرامته وأمن حياته .

ولم يكن لكراس توماسيؤ أو ماميانى كبير انتشار ، ولكنها يفيدان بأن حالة الرأي تغيرت وفي الحقيقة ، ان الأفكار في المجتمع الايطالي قد تغيرت بتأثير الكاثوليكية الديموقراطية التي كان يقول بها في فرنسا لامانيه ، وفي إيطاليا الفيلسوف روسميني . وقد وجد الرأي العام الايطالي مهيأً للفهم والحماسة عندما ظهر كتاب وبرنامج جيوبرتي .

جيوبرتي (١٨٠١ ١٨٥٢) .- كان أباً بيمونتياً من تورينو ، اشتغل كاهناً في خدمة كنيسة البلاط واشترك في حركة إيطاليا الفتاة فأوقف وحكم عليه عام ١٨٣٣ ، ولجأ إلى باريس ، وبروكسل . كان جيوبرتي فيلسوفاً متافيزيقياً . وكاثوليكيته الفلسفية عريضة . وقد قال ذات مرة إلى ما تزيني بأن كاثوليكيته مرنة وتستطيع أن تضم العالم كله . ومن هذه الفلسفة نرى أن جيوبرتي يؤمن بفضيلة الأفكار وقوة المحبة للتقريب بين الناس ، وينكر العمل الثوري . غير أن ما ينقصه هو الثبات ، لأن الملاحظ عليه تردده وتغير اهتمامه وأفكاره : فقد شارك في حركات إيطاليا الفتاة الثورية واستهوته الفلسفة ، وجذبته الفكرة القومية . حتى انه نشر في العام ١٨٤٣ كتاباً مؤثراً في بروكسل بهذا العنوان : «تفوق الإيطاليين المدني والأخلاقي » .

وفي الواقع ان فلسفة جيوبرتي ليست سوى استدلال لدعم الأفكار

السياسية . وان أساس مذهبه ومشاغله واهتمامه هو وطنيته وكبرياؤه الإيطالية وفكره المحافظ ووضعه كاهناً . هذه هي العناصر التي توضح لنا اتجاه أفكاره . إن نقطة انطلاق مذهبه هي حب إيطاليا والارادة في رؤيتها عظيمة . ويبرر هذا الحب والرغبة في العظمة بخلق إيطاليا الخيالية في الماضي والحاضر معاً . ولا شك في أن هذا المذهب هو إنشاء منطق وتصور أكثر منه نتاج دراسة تاريخ أو ملاحظة . فهو يرى « أن الأمة لا تستطيع أن تحتل في العالم المكان الذي يلائمها إلا إذا اعتقدت بأنها أهل لاحتلاله» ونراه يبحث عن رسالة إيطاليا التي يجب أن تفخر بها لأن الرومانيين نشروا في العالم فكرة العدل والحق ، ولأن روما المسيحية علمت العالم السلام والمحبة . وفي خلال هذين العهدين من التاريخ علمت إيطاليا العالم أسس الحضارة . وإيطاليا هي الأمة الأم للجنس البشري » وان مركز العالم أوربة ، ومركز أوربة إيطاليا . لماذا ؟ لأن إيطاليا مهد الناس الحركيين النشيطين الأقوياء . فمن حيث العرق ، تحدر الايطاليون من البيلاجيين وهم الذرية الملكية المنحدرة من يافث بن نوح . ومن هنا يأتي تفوق إيطاليا ، ويمكن ملاحظة هذا التفوق بالعمل ويبرهن جيوبرتي على ذلك برجلين عظيمين في العالم الحديث وهما إيطاليا الأصل: **ميرابو و نابوليون** . ويلاحظ هذا التفوق أيضاً بالفكر . فالايطاليون هم الذين أبدعوا الفلسفة كالقديس آنسلم والقديس توماس والقديس بونافنتور ؛ والإيطاليون هم الذين أبدعوا العلم على يد أرخميدس وغاليليه وهناك إيطاليون كبار مثل دانتي وفناني عصر النهضة وفيكو مؤسس فلسفة التاريخ .

إن عظمة ماضي إيطاليا وتفوقها يجب أن يوحيا بالتفاؤل والأمل . ولتجد إيطاليا تفوقها في العالم الحديث يجب أن يتحد الإيطاليون اتحاداً سلمياً لا اتحاداً مبنياً على القوة ، ويجب استقلال إيطاليا . ولكن على

أي أساس يجب أن يتم الاتحاد ؟ على أساس تقاليدها . وتقاليد إيطاليا ، كما يقول جيوبرتي ، هي اتحاد إيطاليا والبابوية . إذ لا يمكن للايطالي أن يكون إيطاليا تماماً إذا لم يكن كاثوليكياً . ولصنع هذا الاتحاد يجب أن تقوم الطبقات الموجودة في خدمة الدولة . وفي ذلك يقول جيوبرتي : « يجب على النبلاء أن يبرروا ألقابهم بقيمتهم وبالتخلي عن امتيازاتهم وباحترام من هم أدنى منهم ؛ والكهان بتثقيف أنفسهم وتحريرها من مشاغلها العصرية ، وبكونهم متسامحين » . ويدعو جيوبرتي لهذا الاتحاد القومي حتى اليسوعيين. أما الأمراء فعليهم أن يقوموا بالاصلاحات ، ويمنحوا رعاياهم مجالس ، وحرية الصحافة . وإذا ما اتحد الإيطاليون وتعاونت الطبقات ، أمكن تحقيق إيطاليا بشكل اتحاد كونفدرالي ، تحت زعامة البابا ، لأن الكنيسة لها توجيه إيطاليا حسب التقاليد ، وهذا الاتحاد يحقق العبقرية الإيطالية التي هي ملكية وارستقراطية واتحادية معاً . وعندئذ تستطيع إيطاليا الاتحادية أن تستعيد دور القائد للانسانية وتجدد العالم كما فعلت في القديم .

هذا هو تحليل مؤلف جيوبرتي . ويبدو من خلاله أن مفهوم جيوبرتي السياسي والاجتماعي مع حلمه بتحويل إيطاليا ، مفهوم محافظ ما أمكن ، لأنه يأخذ كل ما يستطيع أخذه مما هو موجود . وهو ينظر إلى وحدة إيطاليا أقل مما ينظر الى اتحاد الإيطاليين ، لأن الاتحاد يفرض إصلاحاً أخلاقياً وإرادة طيبة من الجميع ، ولكنه لا يهدم ولا يقوض ما هو موجود .

وتقترب نظريات جيوبرتي من نظريات ماتزيني بالتبشير الذي يقوم به للعمل والرجاء والأمل في رفع جيل الإيطاليين المتعب إلى عظمتهم القديمة . ويقترب من ماتزيني أيضاً بفكرة رسالة إيطاليا والاستقلال القومي الذي يجب كسبه . ولكنه يختلف عن ماتزيني في عدة نقاط : أولا ؛

باكليركيته ، لأنه يعتمد في مذهبه على الكنيسة ، على حين أن ماتزيني مناوىء للإكليركية ؛ ثانياً ، لأنه ينكر الثورة ، بينما يجعلها ماتزيني عنصراً أساسياً لعمله ؛ ثالثاً ، لأنه يرى اتحاداً إيطالياً ، لا وحدة إيطالية، وبالتالي ينفي الجمهورية ، التي يريد ماتزيني تنظيمها ، ويبقي على الأمراء والدول القائمة .

ونجد في نظريات جيوبرتي عدداً من النقاط التي تذكرنا بنظريات فيخته : كفكرة الأمة الأم والدور الحضاري المحضر في الماضي والمستقبل الذي يعطيه لإيطاليا ، كما يعطيه فيخته لألمانيا لنفس الأسباب . ونجد عند جيوبرتي ، كما هي الحال عند فيخته ، حقداً على الفرنسيين ، مع اختلاف الأسباب . فقد أبدى فيخته حقده عندما كانت ألمانيا وبروسيا تحت حكم نابوليون . أما جيوبرتي فيرى أن الفرنسيين ليسوا أهلاً إلا للفوضى الفلسفية أو للاستبداد ، ويقوم بعدة اتهامات ضد السياسة الفرنسية في في إيطاليا من ١٧٩٦ إلى ١٨١٤ .

لقد كان تأثير جيوبرتي عظيماً ، وكسب كتابه شعبية واسعة ، وقبلته الأوساط المختلفة من دينية وعلمانية ، باستثناء اليسوعيين . ولكن آراء جيوبرتي أثارت ، من جهة أخرى ، انتقادات متعددة ، ونخص بالذكر انتقادات أعداء النمسا ، وانتقادات أعداء الحكومة الزمنية للبابا ، فضلا عن أن نظرياته كانت تصطدم بالوقائع . واعترض عليه ناشر يدعى نيقوليني بقوله : « إذا أراد البابا أن يعمل لتجديد إيطاليا فعليه أن يتخلى عن البابوية . »

بالبو . ـ بيد أن الناقد الأساسي الذي انتقد جيوبرتي كان قيصر بالبو ، وهو كاتب إيطالي عاش من ١٧٨٩ إلى ١٨٥٣ ، عمل ضابطاً ثم انصرف للدراسات التاريخية ونشر عام ١٨٣٠ « تاريخ إيطاليا في ظل

البرابرة » ، وفي ١٨٤٣ ألف كتاباً تحت هذا العنوان : « آمال إيطاليا » انتقد فيه كره جيوبرتي للأجانب وسخر من مطاليبه المفرطة مثل مطالبته بكورسيكا ، وتهكم متسائلاً ، لماذا لا يطالب الايطاليون أيضاً بفيومه وراغوزه وسبالاتو ومالطه ... ولم يوافق جيوبرتي على تفوق إيطاليا في الماضي والحاضر ، واعترض عليه بأنه لم يقم شرطاً مبدئياً في تحويل إيطاليا وهو الاستقلال ، وقال : « بدون استقلال قومي ، تكون الأمور الأخرى الصالحة عدما » ، ولا شيء ممكن قبل طرد النمساويين .

بيد أن بالبو أدرك بأن الإيطاليين ليسوا على درجة من القوة تمكنهم في الوقت الحاضر من طرد النمساويين ، وبأنه لا دعم يرجى من الخارج ، لا سيما وأن موقف الملك لوي - فيليب ، ملك فرنسا ، قد دل على ذلك ، ويرى أن ينتظر حدوث حادث سعيد في الخارج يساعد على طرد النمساويين ، وذلك يكون في تفتيت الامبراطورية العثمانية القريب ، لأن هذا الحادث يشغل اهتمام النمسا ، التي ترغب في الحصول على إرث في البلقان ، وقد يكون في هذا الحادث ما يضطر النمسا الى قبول التنازل عن المنطقة اللومباردية ـ البندقية .

ويتفق بالبو مع جيوبرتي في فكرة الاتحاد التي يمكن أن تحقق الشكل القومي لإيطاليا ، وفي ضرورة إصلاح معنويات الإيطاليين . وكان بالبو مؤمناً متفائلاً في يقظة الطباع في إيطاليا ، لأن « أمة من عشرين مليوناً لا تقهر إذا كانت متحدة ولها طبع » ، « وعلى كل إنسان أن يقوم بواجبه حسب وضعه ، والحكمة الإلهية تقوم بالباقي » . وفي الواقع يبدأ مع بالبو ظهور حل آخر وهو اللجوء إلى الملكية البيمونتية ، ولم يكن هذا الحل عنده إلا دلالة ولكنه سينمو بشكل آخر .

غير أن جيوبرتي نفسه أبدى بعض التحفظات على نظرياته الخاصة . ففي عام ١٨٤٥ صدر له مؤلف جديد وهو « المقدمات » وفيه أبعد اليسوعيين بعد أن دعاهم ، وآل بوربون في نابولي ، حتى انه تخلى أخيراً عن مبدأ سلطة البابا الزمنية .

مذهب الملكية البيمونتية . - لقد وجه بالبو الأفكار لصالح دولة البيمونت ، وهذا المذهب سيكون مذهب المستقبل في تشكيل الوحدة الإيطالية على يد الملكية البيمونتية التي قامت بإصلاحات إدارية واقتصادية وتعليمية أعطتها سيماء الدولة الحديثة . وقد تشكل فيها حزب حقيقي بيمونتي - إيطالي ، وكانت الطبقة النبيلة على رأس الدولة في بيمونت ، وهذه الطبقة تعتز بماضيها وعدائها للنمسا ، وقد لعبت دوراً هاماً في الإدارة ، وكانت تحب الحكم الصالح وتخشى التجديدات ، وتحتقر النظريات ، وكان بعض هؤلاء النبلاء مصطبغاً بصبغة الحرية الليبرالية نظراً لاتصالهم بالأجانب ، وزياراتهم المتكررة في فرنسا وانكلترا ، وهذه هي حال الشاب الكونت **كافور** . وكان هؤلاء النبلاء يرغبون بنظم شعبية دون أن تكون ديموقراطية ، كما كانوا قليلي التعلق بالكنيسة ويعادون السلطة الجبرية ويرغبون بتوسيع بيمونت على حساب لومبارديا .

وكانت هذه الطبقة النبيلة البيمونتية مصطبغة بصبغة القومية الإيطالية حتى ان بعض هؤلاء النبلاء سموا إلى فكرة الوحدة الايطالية في مفهوم مماثل لمفهوم جيوبرتي ، ولكنه يتجه بصورة مغايرة نحو بيمونت لا نحو البابا ، أي نحو مفهوم علماني غير إكليركي .

ماكسيم دازيليو . - يأتي على رأس هؤلاء النبلاء البيمونتيين **ماكسيم دازيليو** ، وهو من عائلة بيمونتية كبرى . كان صهر مانتزوني ، اشتهر بقصصه ، ثم تعاطى السياسة وألف عدداً من الكراريس والمقالات ، وتأثر بالأفكار التقدمية ،

وهاجم السياسة الجبرية ، وكشف عنالفوضى والفساد ، ونصح الأحرار ، وطلب إليهم أن يتخلوا عن الثورات المحلية التي تفسد مستقبل الأمة دون نتيجة ، وطلب إليهم أن يتجهوا صوب القوة الوحيدةالممكنة التي تستطيع أن تصنع إيطاليا ، أي نحو دولة البيمونت . وعلى اثر ذلك تألف حزب باسم حزب « الألبرتيين » . وبالرغم من أن دازيليو نفسه لا يعطي المثل الصالح لكل الفضائل التي يبشر بها ، إلا أن الشبيبة الجمهورية تعلقت بهذا الحزب الجديد بعد أن خاب رجاؤها من الثورات المتوالية . ووجد في هذا الحزب الالبرتي من لا يعتقدون بالبابوية المصلحةولايريدون « إيطاليا الفتاة » . ونما الحزب بسرعة فائقة حتى ان ماتزيني رأى من الضروري الدخول في مفاوضات مع أعضائه ، وعرض التخلي عن الدعاية الجمهورية إذا قبل الآخرون بالتخلي عن فكرة الاتحاد الكونفدرالي لفكرة الوحدة .

وفي بيمونت ألف الحزب جماعة منظمة على رأسها دازيليو ومامياني وكافور ، ووقف بالبو جانباً ، وكان زعماؤه السياسيون يكتبون في « المجلة الجديدة » وينقلون مقالات الجرائد والمجلات الفرنسية ، من « جريدة المناقشات » أو من « مجلة العالمين » أو الجرائد الانكليزية ، وألفوا في العام ١٨٤٧ جريدة جديدة وهي جريدة « البعث » ودعوا شارل ألبير علناً ليكون على رأس الحركة القومية ، وقد كتب كافور : « لقد دقت ساعة الملكية السافوازية » . ومن هذه المدرسة سينطلق مستقبل إيطاليا في الآجل البعيد بعد ثورة ١٨٤٨ .

ما هي نتيجة ذلك قبيل الثورة ؟ إن الحالة السياسية لم تتغير في إيطاليا ولكن الحالة المعنوية تحولت . فقد تبنى المثقفون فكرة التفاهم فيما وراء حدود الدول لخلق وطن إيطالي . ويرى الايطاليون هذا الوطن بشكل متباين جداً : لقد تصوره الأوائل وحاولوا أن يحققوه بأعمال ،

وهؤلاء هم الثوريون الذين أرادوا أن يتوصلوا إلى ذلك بالنضال ضد الانظمة الاستبدادية المطلقة المحلية ، واندفعوا في الفكرة إلى الحد الأقصى ، إلى الوحدة وحتى إلى الجمهورية ، وقد بدأت حركتهم في عام ١٨٣٠ ويمثلهم المازنيون ، وما زالت هذه الحركة مستمرة في نضالها غير المفيد عن طريق الثورات .

ومنذ ١٨٤٠ شايع المعتدلون جملة هذه الفكرة : وهي أن الفكرة الإيطالية ليست مرتبطة بالفكرة الثورية ، وأصبحت هذه الفكرة واقع العناصر المحافظة أيضاً . بيد أن الحلول اختلفت والحركة انقسمت: فهناك أنصار البابوية من جيوبرتي والغلفيين الجدد ، وهناك أعداء الحكومة الجبرية مثل دوراندو في كراسه « القومية الايطالية »، ولويجي توديللي في مؤلفه « أفكار عن إيطاليا » ، وفريق آخر مع بالبو لا يبالي بالحريات المدنية ، ولكنه يبحث قبل كل شيء عن الاستقلال ، وآخرون أيضاً، على العكس، يضعون الأفكار الدستورية فوق فكرة الاستقلال عن النمسا ، ويأتي أخيراً حزب التوسع البيمونتي ، وسيصبح أكثر عدداً ونفراً ، وسيجمع شمل إيطاليا في فريق سياسي .

ولا شك في أن الحركة القومية الايطالية ، كما نراها قبيل ثورة ١٨٤٨ ، يشوبها الاختلاف والاضطراب واللبس والغموض ، ولكن الحس القومي استيقظ تقريباً في كل مكان وعند جميع الطبقات .

ولكن كيف تتحقق هذه القومية ؟ إذا وضعنا جانباً الثوريين الذين فقدوا اعتبارهم بإخفاقاتهم المتكررة، نجد أن معظم الإيطاليون لا يتصورون بأن العمل يمكن أن يكون قريباً ، ولا سيما بعد أن وعدتهم فرنسا بالمساعدة ثم تخلت عنهم ، وهذه الخيبة أبعدت عنهم الاعتقاد بمساندة الأجنبي لهم على تحقيق مثلهم الأعلى ، حتى ان شارل ألبير ملك الدولة البيمونتية الساردية قال : « إن إيطاليا ستعمل وحدها » .

الفصل الرابع

الحرية والقومية في ألمانيا

وضعت أفكار الحرية والقومية في ألمانيا عدة قضايا معقدة وأكثر تعقيداً مما في إيطاليا ، بالرغم من أن نقطة الانطلاق كانت ، للوهلة الأولى ، أفضل في ألمانيا منها في إيطاليا ، لأنه وجد في ألمانيا دولة بشكل « الكونفدراسيون الجرماني » ، وبالرغم أيضاً من أن المطالب الألمانية كانت قطعاً نفس المطالب الايطالية ليبرالية وقومية معاً ، وأن النظريات في ألمانيا كانت أبسط مما في إيطاليا . ولا شك في أن الألمان تأثروا بالمذاهب الفرنسية في القومية منذ ١٨١٥ وقبلوها كالايطاليين ، وستكون النظريات الفرنسية عنصراً حاسماً للعمل في ألمانيا . بيد أنه وجد ، في ألمانيا من قبل ، أيديولوجيات خاصة بالنسبة للقومية . فلقد رأينا هردر وفيخته يوسعان نظريات القومية التي تعتمد على فكرة العرق ، أو بتعبير آخر ، على وحدة الأصل والانتقال الوراثي للطباع الطبيعية والمعنوية التي تكشفها اللغة . وقد طبقت هذه النظريات على ألمانيا خاصة فولدت مفهوماً متغطرساً في تفوق الجرمانية واعتبارها سابقة للأعراق الأخرى وأنقى منها . ولكن هذه الملاحظة المزعومة ، عن قدم العرق الجرماني ونقاوته ، اصطدمت بالأحداث التاريخية ، وتحولت في المستقبل إلى رسالة ألمانيا في قيادة البشرية الحديثة . وسيضاف إلى هـــذه النظريات نظرية الحقوق

التاريخية التي خرجت عن هردر وسيكون من دعاتها المؤرخ زيبيل ، وبعد ١٨٤٨ المؤرخ ترايتشكه ، وفلسفة هيغيل الخاصة ، وستعطي هذه النظريات جميعاً فكرة القومية في ألمانيا إرادة فاتحة ، وشهوة للسيطرة ، لأن القومية الألمانية كانت توسعية دوماً ، ولم تنحصر في نطاق ألمانيا بالمعنى الأصلي للكلمة ، بل تجاوزته إلى خارج الحدود ، وستنزع هذه النظريات إلى جعل الفرد آلة في قلب الجماعة وفي يد الدولة التي يعتبرها الألمان هيئة في ذاتها وقوة كبرى منظمة للمجتمع .

كذلك يجب أن نرى في القضية الألمانية تأثير الظروف التاريخية والسياسية : إن سيادة ألمانيا وعظمتها منوطتان بمفهوم مجرد ، وهو فكرة الإمبراطورية ، لا بأساس أرضي ، كما هي حال فرنسا أو إيطاليا . ثم إن التطور التاريخي ، من جهة ثانية ، أدى في ألمانيا إلى تفتيت الحياة السياسية والحركة الفكرية وخاصة في غضون القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، هذا فضلاً عن أنه وجد في ألمانيا عنصر ينقص إيطاليا وهو : دولة بروسيا ، وأن تحرير ألمانيا تم بحركة وطنية مضادة لفرنسا. ومن هنا نرى أنه لا يوجد في ألمانيا ، بسبب هذه الظروف التاريخية والسياسية ، وحدة هوية في جوهر فكرة الحرية والقومية التي رأيناها في إيطاليا أو التي نجدها بشكل نموذجي في فرنسا . إن ما نراه في ألمانيا إنما هو إمكان لمفاهيم وحدوية ترتبط بأفكار محافظة في السياسة دون أن ترتبط فقط بالعقائدية الثورية وحدها .

ونتيجة لكل ذلك تظهر الفكرة القومية الألمانية بشكل أكثر لبساً مما في إيطاليا ، لأنها مختلطة باتجاهات مختلفة ، وغالباً متعاكسة ، وسيكون لها انحرافات ، حتى ان بعض عناصر الحياة الألمانية ، كالقضايا الاقتصادية والسياسة البروسية ستتلاءم مع الفكرة القومية الألمانية وتخدمها . وهكذا

نجدنا مسوقين إلى أن نرى في ألمانيا كثيراً من الاتجاهات الفكرية المختلفة والمتناقضة مما لم نره في إيطاليا .

النظام السياسي والنزاع بين السلطة والحرية

نجد في ألمانيا ، كما في كل مكان ، نزاعاً بين النظام السياسي الاستبدادي القائم وبين حاجات الحرية التي تحرض بعض أجزاء المجتمع الألماني . إلا أن هذا النزاع بقي في ألمانيا دون نفاذ بسبب تفاوت القوى . لقد كانت الحكومات في ألمانيا مسلحة بشكل أفضل مما في إيطاليا وتساندها السياسة النمساوية والسياسة الروسية . وكان المزاج الألماني أقل نشاطاً ومطالبة من المزاج الإيطالي ، لأن أحرار الألمان لم يكونوا رجال عمل بل رجال فكر ، ولأنه لا يوجد في ألمانيا ، كما في إيطاليا ، دفع ثوري مستحكم ثابت دائم خارج عن كل مذهب . وهذا ما جعل الشعب أمام بعض الحركات جامداً لا يبدي حراكاً . يضاف إلى ذلك أن المنافع المتناقضة والمنافسات كثيراً ما أضعفت نضال المجتمع الحر أمام الحكومات بسبب انقسام المصالح والمذاهب بين الكاثوليك والبروتستانت .

عمل الحكومات . ـ لم يكن لدى الحكومات الألمانية أي فكرة في القومية . ولنذكر على سبيل المثال أن الوزير البروسي **وتغنشتاين** كان يقول ان غاية البرشنشافت (اتحاد الطلاب) « أن يقتل الوطنية الخاصة ليقيم مقامها ألمانيا واحدة لا تتجزأ ، وأن يزيل مختلف الدول الألمانية في فوضى ثورية » . وكانت الوطنية بالنسبة إلى هذا الوزير معاكسة لفكرة الوحدة الألمانية ، أو بالأحرى ، ان الوحدة الألمانية ، معاكسة للوطنية الخاصة . ويصرح زعيم الضابطة (الشرطة) **سيلدنيتسكي** بأن فكرة

« دويتشتوم » أي « الجرمانية » هي خارجة عن المألوف ، حتى ان الحكومات التي تسلمت السلطة بعد ١٨١٥ أزالت في أربعة أو خمسة أعوام العنصر الوطني والمحارب القديم الذي صنع التحرير وقاوم نابوليون ، وهذا يعني أن هذه الحكومات رفضت مباشرة روح ١٨١٣ .

لقد خولت قرارات كارلسباد عام ١٨١٩ وعمل مؤتمر فينا في ٨ حزيران ١٨٢٠ الحكومات سلطات خاصة في الإشراف ، وتمت هيمنة مترنيخ وإشرافه على ألمانيا دون رقابة ، لأن الأمراء والحكومات انحنوا أمامه بما فيهم بروسيا ، ما عدا فرتامبورغ بين حين وآخر . ومن جهة أخرى ، كانت الحكومات قوية ، وخول الدياط الألماني سلطات خاصة على الدول الفردية. ويمكن أن نستخلص من هذا التنظيم مبدأ لسياسة عامة مشتركة، وعلى الأقل، لتنسيق سياسة الحكومات الألمانية . ويمكن أن يفكر بأن امتداد سلطات الدياط قد يؤدي إلى نشوء حكومة مركزية ألمانية ؛ حتى انه كان يرى أن مندوبي الأمراء كانوا يجتمعون في حضرة مترنيخ ، في قصره الخاص في يوهانسبورغ في أيار ١٨٢٤ لتحرير القرارات التي سيتبناها الدياط لألمانيا كلها مثل تمديد نظام كارلسباد ، ودعوة الحكومات للاشراف على المجالس لمنعها من الاعتداء على المبدأ الملكي ، وانعقاد الدياط خلال دورة مدتها أربعة أشهر ، ومنع الشعوب من الاشتغال بالسياسة . ولكن السير في هذا الاتجاه توقف بسرعة اثر وفاة الكسندر قيصر روسيا ، في كانون الأول ١٨٢٥ ، وضعف وضع مترنيخ بتضاؤل جاهه في الخارج وعمله الأوربي ، حتى ان نعرات الحكومات الالمانية قويت وأخذت تدافع عن نفسها ، وخاصة في الجنوب ، وبحثت العناصر الرجعية عن دعم لها من جانب نيقولا الاول قيصر روسيا الجديد أكثر مما بحثت عن هذا الدعم من جانب مترنيخ . ولكن ما ان ظهر الخطر الثوري للعيان ثانية ، إلا

وتهيأت الحكومات من جديد لطغيان السلطة المركزية أي الدياط ، كما هي الحال غداة حركات ١٨٣٢ و ١٨٣٣ . وهكذا أتاحت هجمات الليبرالية فرصة لنجدة جديدة لعناصر التنسيق السياسي ، وجرى في ألمانيا مصغر لما جرى في أوربة عام ١٨١٥ . وكما نشأت فكرة أوربة والوحدة الاوربية من النضال ضد نابوليون ، كذلك ، في ألمانيا ، شعرت الحكومات بنفسها متضامنة تجاه الخطر الثوري . ومن جهة أخرى ، نرى أن فكرة التنسيق الجرماني ، كفكرة أوربة ، ليست بالضرورة مرتبطة بالنظرية الليبرالية .

ومهما يكن من أمر فقد استغلت الحكومات الظروف والسلطات المخولة لها واستبدت بشكل مطلق . وقوت هذه السياسة النعرات المحلية وعزلت الدول عن بعضها وباعدت الشعوب حتى النخبة فيها عن كل حياة سياسية . وقويت شوكة الحكومات بعد أن أصبحت تعتمد على عقائدية (أيديولوجيا) انبثقت عن المدرسة الإبداعية وتوطدت في اتجاهين : المدرسة التقليدية من جهة ، والفلسفة الهيغلية من جهة أخرى .

المدرسة التقليدية - تشبه المدرسة التقليدية في ألمانيا مدرسة جوزيف دوميستر وبونالد في فرنسا ، حتى انها أخذت عنها بعض النقاط ، وهذه المدرسة تستند في جزء منها على قاعدة حقوقية بفضل سافيني الفقيه والمؤرخ في الحقوق .

سافيني . - كان سافيني استاذاً في جامعة برلين ، عاش من ١٧٧٤ إلى ١٨٦١ ، واعتمد في الحقوق على التاريخ لا على العقل والطبيعة ، وأسس مع حقوقي آخر ، آيشورن ، مؤرخ الاعراف الجرمانية ، « مجلة العلم التاريخي للحقوق » عام ١٨١٥ . ويرى سافيني أن العنصر الخالق للحق ، كالعنصر الخالق للغة والاخلاق ، هو روح الشعب التي تتجسد

في الدولة ، الدولة التي تؤمن استمرار العرق ووجوده ؛ وفي رأيه أن الدولة تختلط بالتقاليد ، والتقاليد وحدها مبدعة ، وعلى الدولة أن تكون مسلحة لتكسر القوى الفردية التي تريد الخروج عن المركز وتعارض بالفعل حاجات التنظيم الاجتماعي. وهذه القوى هي: **المصلحة، والكبرياء والعامل الفردي** .

وقاوم سافيني الحقوقيين العقلانيين وبخاصة الحقوقي تيباوت الذي كان يطالب بوضع مجموعة قوانين في ألمانيا تذوب فيها القوانين الخاصة ، ولهذا الغرض ألف سافيني كتاباً بهذا العنوان : « موهبة عصرنا في التشريع والفقه » ، وفيه يضحي بالاجيال الحالية في سبيل تقاليد أسلافهم .

هالر . — واتضحت هذه المدرسة التقليدية بصورة أكثر على يد هالر وهو فقيه من بيرن ، نشر عام ١٨١٠ « اصلاح علم الحقوق أو نظرية الدولة الاجتماعية الطبيعية المعارضة لشبح الدولة السياسية الاصطناعية » ، وفيه يرى أن القوة مصدر الحق ، وهذا الحق ليس غير الحماية التي يأتي الضعيف ويلتمسها بالقرب من القوي ويضع مصيره بين يديه ، كما يجري ذلك في العائلة أو في المدينة أو في الدولة . ويقارن هالر بين الملكية والسلطة ويقول : السلطة ، كالملكية ، مجهزة بقوة الاستعمال وإساءة الاستعمال . والحد الوحيد لسلطة الامير هو الاحترام الواجب عليه لمالكي السلطة الآخرين أي النبلاء والاصناف المهنية . وليست الرعايا سوى متصرفين مؤقتين ، وبدونهم تبقى الدولة ، وما عليها إلا أن تبدل رعاياها بآخرين . فالناس إذن ليسوا مواطنين ، وليس من شأنهم مطلقاً أن يزجوا بأنفسهم في شؤون الدولة التي هي ملك الامير ويديره بواسطة خدامه المنزليين .

ويضاف إلى نظريات هالر نظريات أخرى أقل ضيقاً (أقـل رجعية منها وهي النظريات التي تسمى « نظريات حزب الحقوق التاريخية » وتعترف فقط بالحقوق السياسية المبنية على الاعراف التي تؤول بالتـالي في الدول إلى إبقاء أو إعادة تأليف المجالس القديمـة التي يرجع عهـدها إلى العصر الوسيط ، وأهم رجال هـــذا الحزب نيبور مؤرخ روما والاستاذ في جامعة بون .

تعترف هذه النظريات إذن بروح المحافظة الكاملة عند الأمراء وتحدد بشكل دقيق جداً حريات النبـلاء وامتيازاتهم ، ولكن الأهم من هذه النظريات التقليدية هو فلسفة هيغيل بنتائجها واتساعها .

فلسفة هيغيل (١٧٧٠ – ١٨٣١) .- ولد هيغيل في شتوتغارت ودرس، في جامعة توبنغن ثم في سويسرا ، اللاهوت ثم فلسفة شيلنغ التي تجاوزها فيما بعد . وعين أستاذاً في يينا عـام ١٨٠١ ثم في نورامبرغ ، وأستاذاً في هيدلبرغ عام ١٨٠٨ ، وأخيراً في برلـين عام ١٨١٨ وظل فيها حتى وفاته . وفي هذا الدور الثقافي ساهم في تحرير « صحيفة بامبرغ » مـدة عام ونصف ، وأعجب بنابوليون كثيراً ، وفي ١٨١٤ و ١٨١٥ أعرب عن رأيه لصالح الحكم المطلق . وعندما تكلم عن « الوطن الطليق » أراد بذلك سيادة الامراء ، وتحزب إذن ضد النظريات الليبرالية والثورية ، وفي كراس نشر عام ١٨١٧ دافـع عن سياسـة فريديريك فرتامبرغ عندما كان في نزاع مع دوله . وأثنى بعد قليل على قرارات كارلسباد ، وباعتباره محافظاً ، دعته الحكومة البروسية لاستـلام كرسي الفلسفـة في جامعة برلين عام ١٨١٨ .

وقبل أن يدخل جامعة برلين نشر مؤلفاته الأساسية ووضع فلسفته : ففي عام ١٨٠٧ نشر كتاب « ظواهر الفكر » ، وفي عـام ١٨١٢ « العلم والمنطق » ، وفي ١٨١٧ « موسوعة العلوم الفلسفية » . ثم أضاف

لها في عام ١٨٢٠ « فلسفة الحق » وعدداً من الدروس التي ألقاها في برلين ونشرت بعد وفاته .

كان هيغيل فيلسوفاً ميتافيزيقياً وأحد كبار العباقرة في فلسفة ما وراء الطبيعة في ألمانيا والعالم . ومن غير المفيد أن نقول ان فلسفته في هذا المظهر خارجة عن موضوع دراستنا . ولكن عدداً من النقاط يعنينا . يجب أن نشير أولاً إلى أن معارف هيغيل موسوعية حقاً . فقد وقف على نمو العلوم وجميع مظاهر الفكر الماضية والمعاصرة . فهو إذاً لا يخلو من أسس الواقع ، ولم يبن مذهبه في التجريد المحض . وكان على صلة وثيقة بالسياسة والنمو المادي لعلوم عصره . ولكنه رجل مذهب ينقل الواقع إلى النظر ويبدل وضعه ويدخله بكامله في مذهب ثم يؤسس هذا الواقع ، الذي يقف على حافته دوماً ، في ميدان ما وراء الطبيعة .

إن النقاط التي تهمنا من مجموع نظريات هيغيل هي التالية :

فلسفته في التاريخ ، ومفهومه للعلوم الاجتماعية ، ونظريته في الدولة .

فلسفة التاريخ - لم يكن هيغيل بالإنسان الذي يناضل ضد الوقائع وضد الحوادث ، إن دور الفلسفة عنده أن تفهم ما هو كائن . وما هو كائن هو العقل المتحقق . والتاريخ ، كما يقول ، « هو فهم العالم ووعيه » وإن من غلب في التاريخ كان على حق . لقد حكم النصر ضد نابوليون وضد الأفكار الفرنسية ، ولذا لم يتعلق بها البتة لأنها أفكار ناضبة . إن الغالبين لم يغلبوا صدفة . إنهم يستحقون الظفر لأنهم انتصروا . ويقول : « إن الشعب الذي يمثل زمناً ما من نمو الفكر له على الشعوب الأخرى كلها حق مطلق ، وليس لهذه الشعوب حقوق عليه . وإن الشعوب التي ولى زمنها لا تعتبر أبداً في تاريخ العالم » . وهذه النظرية تقوم في آن واحد برد فعل ضد النظرية العلمانية في تاريخ القرن الثامن عشر ، وضد

النظرية المسيحية . إنها رد فعل ضد التاريخ الدنيوي كما فهمه القرن الثامن عشر الذي يرى أن محرك التاريخ في قابلية الانسان للكمال اللامتناهي . وهي أيضاً رد فعل ضد التاريخ الديني المحض الصادر عن القديس اغسطينوس أو بوسويه ، والذي يفترض أن النشاط الإنساني لا يقدر إلا على الخراب والعدم . أما هيغيل فيرى في التاريخ السياسي « تاريخ درجات تقدم الفكر » والتطور في نظره نمـو نبتة فكرية تتضمن آثارها الأولى ظاهراً التاريخ كله ، ولا شيء يضيع في الماضي ، لأن الفكر حاضر والروح خالدة ، والأزمنة ، التي يملكها الفكر تحته ، يملكها في عمقه الحاضر » . وان عناصر التاريخ هي الدول ، المظهر الأرضي للمطلق . إنها تعتمد على مبدأ فكري ، وتعبر عن أسمى درجة يبلغها الفكر الإلهي الذي ينفذ في العالم في كل زمن من أزمان التاريخ ولكن هذه الدول تعبر بصورة غير كاملة عن الفكر الإلهي . وهذا هو السبب في سقوطها . وإن جوهر التاريخ هو إذن تمييز الروح الفكرية لهذه الدول التي سيطرت ، في زمن ما ، على العالم .

وينفي مفهوم هيغيل تمجيد الأزمنة البدائية ، إما على شاكلة جان جاك روسو ورجال القرن الثامن عشر ، الذين يرون أن الإنسان في الأصل صالح ولكن الحضارة تفسده ؛ أو على مثال النظرية الكاثوليكية التي تضع صفاء الإنسان وصلاحه في نشأة الجنس البشري قبل الذنب الأصلي . وينفي هيغيل أيضاً تفسير التاريخ بحوادث عارضة ، ويرى أن هذه الحوادث العارضة يعدل بعضها بعضاً ، كما ينفي إرادة الناس كعامل في التاريخ ، لأن العمل البشري نقطة انطلاق لنتائج لا متناهية لا يدركها صانعوها . وعليه نرى أن نظرية هيغيل تؤدي إلى تبرير الماضي . « العالم الواقعي هو كما يجب أن يكون ، والعقل الإلهي العام يجب أن يتم

بنفسه » . وهذا المفهوم ، الذي يبرر حالة الأشياء الماضية والحاضرة ، لا ينفي إمكانية الحركة : التطور دائم دون انقطاع لأن الفكر يتابع دوماً انتصاره على ماضيه .

ويرى هيغيل ثلاثة أدوار كبرى في تاريخ العالم تمثل ثلاث درجات للحرية ، هذه الحرية المفهومة كسلطة تقرير داخلي للفكر ، لا الحرية الخارجية ، الحرية المادية .

إن أول هذه الأدوار هو دور الاستبداد الشرقي ، حيث لم يكن في الواقع سوى حرية واحدة ، حرية المستبد بذاتها ، المبنية على خضوع الجميع له .

والدور الثاني هو الدور الإغريقي – الروماني الذي سادت فيه حرية المواطن الظاهرية التي تعتمد على الحق . ولكن هذا الحق ليس إلا تجريداً للعقل منفصلا عن الطبيعة ، وشكلا ناقصاً للحضارة .

والدور الثالث هو ما يسميه هيغيل « الحضارة الجرمانية – المسيحية » التي تولد حرية المسيحي الداخلية ، ودور الجرمانية فيها أن تدع المبدأ يمر إلى الواقع السياسي ، لأن العرق الجرماني ، بتعاطفه مع الفكر المسيحي ، يجب أن يعتبر العرق المختار الغائي للعالم . وإن الأعراق اللاتينية والديانة المسيحية على خطأ في مضاعفة الوجدان وجعله شطرين : من جهة ، التقوى والعنصر الديني ؛ ومن جهة أخرى ، الحق ، أي المصلحة العصرية . وقد عرف لوثير والبروتستانتية كيف يذيبان المفهومين في مفهوم واحد . « إن الباطن النقي للطبيعة الجرمانية » سمح له بصهر العامل الفردي والعقل المطلق ، الدين والحق ، الوحدة الدينية والوحدة السياسية . إن العرق الجرماني هو العرق الذي يملك الصفات الطبيعية التي تخوله تلقي أسمى وحي الفكر .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الزمن الذي كتب فيه هيغيل مذهبه نجد أن هذا المفهوم لتاريخ الحضارة ، أو هذه الفلسفة للتاريخ ، ليس إلا تبريراً للسياسات الظافرة آنذاك ، ولكنه كان أيضاً سياسة أمل وتغيير لغير الراضين .

العلوم الاجتماعية وفي مضمار العلوم الاجتماعية تختلف أفكار هيغيل أيضاً عن الأفكار التي سادت حتى ذلك الحين . لقد تشكلت في عصر هيغيل علوم الأديان ، وتاريخ الحقوق ، وتاريخ الفن ، وفهمت على أنها دراسات وقائع . وأصبح علم النفس علماً . وانفصلت هذه العلوم المختلفة عن الأخلاق والدين والفلسفة المعتبرة علوم قواعد وتعاليم فقط . ولم يقم هيغيل تمييزاً بين هذه العلوم الاجتماعية والعلوم الأصولية ، بل إنه يرى فيها كلها أشكالاً ضرورية لحياة الفكر ، ويحاول أن يمسك بمعاني هذه الحوادث الفكرية كلها . وعلى هذا النحو يقوم برد فعل ضد مذاهب القرن الثامن عشر المختلفة ، التي ترى في الحق الطبيعي تعبيراً لاستعدادات الإنسان الفطرية ، وتؤسس الأخلاق على حسابات نفعية ، وترى في الدولة نتيجة أنانيات مختلفة اتفقت فيما بينها . اما هو فيرجع أسس الحق إلى حوادث فكرية . فالملكية ليست ، بالنسبة له ، اغتصاباً مادياً بسيطاً ، كما هي بالنسبة لروسو ، إنها توكيد للشخص الذي يؤخذ بشيء خارجي دون إرادة ليجعله ملكه ويدخل فيه إرادته ، وفي هذا التوكيد يجعل الآخرين يعترفون به . إن الاعتراف بهذه الارادة المطبوعة في الملكية ، الذي هو اعتراف من قبل الناس الآخرين ، أي من قبل الارادات الأخرى ، يشكل نوعاً من عقد تبادل ، تبادل هذه الارادات التي تؤكد نفسها أو تتخلى . وهذا العقد هو أساس الحق . وإن الخلافات التي يمكن أن توجد بين هذه الارادات يمكن أن تنشأ عن الطبع الفردي

وبالتالي العارضي للإرادات المتعاقدة . ولحل هذه الخلافات يجب حكم من الخارج ، حكم قوة تلفظ قرارها وتقول ماهو الحق بذاته ، وهـذا هو الحق المدني ، وتعيد الحق إلى نصابه ، عندما يخرق ، بالجزاء الذي تقرره، وهذا هو الحق الجزائي .

وهذا الحق كما يفهمه هيغيل هو الحق الخاص دون غيره : فالحيـاة السياسية والمدينة ليستا ، كما يريد فقهاء القرن الثامن عشر ، حالة خاصة لحياة الحق . لأن هيغيل يفصل بصورة جذرية ما هو سياسي وماهو حقوقي . ومفهومه للحق يفترض إذن سلطة تقرر لتعريف الحق وتحكم تبعاً لهذا الحق. وهـذا يعني شجب الفرد كمصدر للحق . ويجنب هيغيل إرادة المواطن الفردية في خلق الحق ، ويرى أن القوانين التي سنها المواطنون ليست الا عملاً اصطناعيـاً ودون قيمة . وهذا المفهوم الفكري للحق الذي يهـدم الفردية هو أيضاً مفهوم هيغيل في أساس نظريته في الأخلاق التي تعتمد على قصور الانسان عن بلوغ المطلق الذي يتطلع إليه . والانسان لا يجـد الحرية الأخلاقية إلا في تسلسل الجماعات التي هي درجات مختلفة في السير نحو المطلق ، وهذه الجماعات هي : الأسرة ، والمجتمع ، والدولة .

مفهوم الدولة . - إن مفهوم الدولة الذي يوسعه هيغيل يؤلف جزءاً من فلسفته، وهو الجزء الذي كانت له نتائج سياسية مباشرة. فبينما التاريخ يحاول عرض الحوادث الماضية ، تكون الفلسفة اكتشافاً واستنتاجاً عقلانياً ، أي فهم ما هو حاضر وواقعي . ويتعلق هيغيل بتعريف الدولة كائناً عقلانياً بذاته. ومن قبل نظر جـــان جاك روسو الى العلم السياسي من وجهة نظر مسبقة ، ولكنه خدع لأنه ظن بأن المواطنين كانوا سابقين للدولة المدينة بوجودها للمواطنين . أما هيغيل فيرى أن كل حل ينظر إلى الدولة بأنها أقيمت لتكفل الأشخاص أو الحقوق الفردية ، لا يمكن أن يكون أساساً

للدولة ، إذ من السهل عندئذ على الأفراد أن ينسحبوا من الدولة ، ويكونوا أعضاء فيها أو لا يكونوا . ولذا يقول العكس : « الدولة واقع مطلق وليس للفرد نفسه موضوعية وحقيقة وأخلاق إلا إذا كان عضواً في الدولة » . ويقول : « الدولة هي العقلاني بذاته ولذاته » ، هي « غاية بذاتها مطلقة » ، هي إرادة ميتافيزيقية لا تتميز عن العقل المطلق ، عن الفكر ، وباختصار عن الإلـه . الدولة هي الفكر من حيث يتحقق بوعي في العالم ، بينما الطبيعة هي الفكر من حيث يتحقق دون وعي . والدولة كلها تشارك في هذا الجوهر الإلهي . الدولة شكل من أشكال الوجود الإلهي . وهكذا نرى أن هيغيل يفهم الدولة شيئاً مغايراً للمجتمع المدني ، ومغايراً تماماً لتنظيم قانوني لجماعة بشرية .

ويستنتج هيغيل من هذا المفهوم كيفية تنظيم الدولة : فهو يرى أن فكرة فصل السلطات ، وفكرة الدستور ، قضايا ليست بذات موضوع ، إنها أفكار باطلة ، وأن الدولة في شكلها الأسمى تتألف من ثلاثة عوامل :

١ - **العامل الأول** والأساسي هو **العنصر الملكي** ، فلولا الملك لما كان الشعب سوى كتلة لا عضوية . إن للمليك نوعاً من صفة إلهية ، لا لأنها من حق إلـهي كما كان يقال في السابق ، بل لأن المليك يجسد الدولة ، ولأن الدولة تجسد الفكر الذي هو الله ، والمليك يلبس جلالة لا يمكن خلعها عنه ، فهو يملك إذن إدارة الشؤون ، وخاصة الشؤون الخارجية ، ويحكم دولته بسلطة قوية ومركزية ، ويعجب هيغيل خاصة بريشيليو ونابوليون ، وعلى الملك مع ذلك أن يعتمد على المدن لأنه يجد فيها مصالح مشروعة محترمة ، ويجب عليه مراقبتها .

٢ - **العامل الثاني** هو **العنصر الأدستقراطي** الممثل بمجالس الأمير وموظفيه السامين .

٣ - **العامل الديموقراطي وهو البرلمان** ، ضمان الخير العام والحرية العامة ، لأن البرلمان يعطي للملك آراء ، ولأنه هيئة إعلان ، وبدونه يبقى جمهور الشعب في الواقع لا عضوياً وذرياً . ومن الطبيعي ، أن هذا البرلمان ، بالنسبة لهيغيل ، لا يمثل الأفراد ، بل هو هيئة تضم مجلس الأمراء الذي يمثل مصالح الملكية العقارية ، الملكية الدائمة بالوراثة ، ومجلس النواب الذي يمثل المصالح الاجتماعية الكبيرة الأخرى : الملكية المنقولة ، الزراعة ، التجارة ، الصناعة الخ ... ومن الطبيعي ألا يكون هذا البرلمان سلطة تشريعية لأن هذه السلطة تتعلق بالمليك ، ويساعده في ذلك عاملا الدولة الآخران . وأما البرلمان فهو هيئة مساعدة تنير الحكومة ، وهيئة تربية للشعب بالإعلان الذي تعطيه عن سير الدولة وبالصحافة التي يجب أن تكون حرة ما دامت غير خطرة على الدولة وغير شاتمة لها .

وهذا المفهوم نفسه يعين علاقات الدول بين بعضها أيضاً ، لأن الدولة ليست ملزمة بالعمل بموجب الأخلاق ، والحرب ضرورية بقوة الظروف . فهي بالتالي معقولة ، وإلهية ، ولا غنى عنها لصحة الشعوب ، كما يمنع تحرك الأمواج الماء من الفساد والصري . وأحياناً تكون الحرب وسيلة وحيدة لتحقيق الدولة . فهي إذن عامل ضروري لتطور الدولة . وهكذا قطع هيغيل الصلة تماماً مع المثل الأعلى السلمي للقرن الثامن عشر .

هذه هي الملامح الكبرى لفلسفة هيغيل السياسية التي كان لها تأثير كبير على العالم المعاصر . وهذا التعليم السياسي ينطلق ، كما نرى ، من مذهب يختلف اختلافاً مطلقاً عن ايديولوجيا القرن الثامن عشر كلها وايديولوجيا الثورة الفرنسية والليبرالية المعاصرة . وقد رحب المعاصرون بهذه الفلسفة كما هي ، ولاقت في المستقبل تفسيرات أخرى ، وبعض هذه التفسيرات ليبرالية من بعض تلاميذه ، مثل كارل ماركس . أما بالنسبة لعصره فقد

ظهرت قطيعة مع الليبرالية وتبريراً لسياسة الحكم المطلق التي انتصرت في ١٨١٥ . وبهذه الصفة كان ملك بروسيا فريديريك - غليوم الثالث ووزير التعليم العام آلتنشتاين يفخران بأنهما جاءا بهيغيل إلى جامعة برلين . ولقد أعطت فلسفة هيغيل بمذهبها قوة فريدة لسياسة الواقع التي سلكتها الحكومات الألمانية .

وهناك صفة أخرى لفلسفة هيغيل وهي أنها قابلة لأن تولد أو تبرر نظرية التوسع القومي ، نظرية امبريالية الدولة ، ونظرية العزة الألمانية ، وسيخرج عنها نظريات تعتمد في آن واحد على التاريخ وعلى الفلسفة ونجدها عند بسمارك وحتى عند هتلر .

وأخيراً تبدو فلسفة هيغيل تبريراً لتاريخ بروسيا وسياستها . وكان هيغيل نفسه يعي هذه الصفة في مذهبه ، وقد اعترف بذلك في درسه الأول الذي جعل موضوعه « العلاقة الانتقائية والقربى الأصلية بين الدولة البروسية والفلسفة الهيغيلية » ، وستكون فلسفة هيغيل ، بالنسبة لسياسة بروسيا ، كتاباً مقدساً ورحبة لا حد لها تمتح منها الحجج والدلائل . ووجه هيغيل النظر إلى ضرورة تنظيم الدولة ، بعد أن انصرف عن هذه الفكرة المؤلفون الألمان لصالح فكرة أكثر مرونة وهي فكرة الأمة . إن مذهبه يقنع ألمانيا بأنه ينبغي لها أن تتشكل كدولة لتكون موحدة وتتحقق كأمة . ولم يكن في ذلك الحين سوى حكومة واحدة في ألمانيا تستجيب حقاً لهذا التعريف للدولة وهي حكومة دولة بروسيا التي عرفت وحدها كيف تبلغ هذا المدلول للدولة وتنظمه .

لقد كان تأثير هيغيل عظيما جداً ، وكان نجاحه مباشراً ، ويمكن القول انه اثر في الآجل البعيد على ألمانيا المفكرة كلها ، ومن هذه

الوجهة يمكن أن تعتبر فلسفة هيغيل حادثاً قطعياً في التاريخ ، لا في تاريخ ألمانيا فحسب بل في تاريخ العالم .

وفي ألمانيا استطاعت بروسيا أن تحتل مكاناً وتلعب دوراً خاصاً ؛ لأن هيغيل أبدع الإيديولوجيا التي ستبنى عليها السياسة البروسية لتبدع الوحدة الألمانية في المستقبل .

الادارة البروسية . ـ لقد تمتعت بروسيا في السنوات ١٨١٣ - ١٨١٥ بحظوة كبيرة في الرأي الألماني ، لأنها كانت على رأس حركة التحرير والخلاص . ولكن خيبة الأمل كانت سريعة جداً ، لأن بروسيا اشتركت بسياسة مترنيخ الرجعية وصفت جماعة المحاربين القدماء من وطنيين وأحرار. ولكن تجدر الاشارة إلى حادثين عظيمين على الصعيد القومي في تاريخ بروسيا في هذا الدور: أولاً كان يجب إعادة صنع الدولة البروسية بعد سنوات السيطرة الفرنسية ، ولهذه الغاية ، رجعت الملكية البروسية إلى تقاليدها القديمة أي إلى تقاليد الحكم المستبد. ولكن هذا الحكم ، من جهة أخرى ، كان ناجعاً مادياً ومفيداً : لقد أحاط الملك نفسه بالرجعيين من أمثال **آنسيلون** الذي أبعد فكرة التمثيل القومي ، **والتنشتاين** ، وزير التعليم العام ، و **شاملز** و **كامبتز** رئيس الضابطة (الشرطة) . وتخلى عن السياسة التي جربت خلال دور النكبة وعززت السلطة الملكية بالرأي العام وباشراك الشعب بالحكم . وبسرعة سقطت بروسيا في النظام البوليسي التعسفي : فمن ذلك ان ١٢٠ طالباً اوقفوا في العام ١٨٢٣ بحجة التحريض ، وظلوا في السجن ثلاثة أعوام قبل أن يحاكموا . وكان نظام الرقابة ثقيلاً : فقد حذف الصحافة السياسية كلها واخضع الرسائل إلى رقابة الدولة . وفتحت رسائل الشخصيات الكبرى مثل شتاين ، نيبور ، **شليغيل**. ومنعت الرقابة المطبوعات ، وحتى إعادة طبع المطبوعات التي لا تحرض على الثورة

مثل «رسائل القرن السادس عشر» لمؤلفها اولريخ دوهوتن، و «خطب إلى الأمة الالمانية» لفيخته. وحرم تمثيل «ايغمونت» لغوته. و «غليوم تيل» لشيلر. وعين مفتشون لتطهير غرف المطالعة. وكانت السياسة الدينية تعاون سياسة القمع الفكري وتتابع استعباد الافكار للحكم: سلك الملك حيال البروتستانت سياسة الاتحاد القسري بين الكنيسة اللوثرية والكنيسة المصلحة. وأقيمت ارثوذكسية تقية متزمته وغير متسامحة؛ وكان زعيمها النظري وممثلها شخصاً يدعى شتال وانشأ هذا «صحيفة الصليب»، وكانت لسان «الحزب التقي». وكان شتال يهودياً اعتنق البروتستانتية وضم إلى مذاهب هالل التقليدية صوفية جديدة.

اما الكاثوليك، فقد كان أساقفتهم في السنوات الاولى يطيعون أوامر الحكومة، كما كانوا في زمن نابوليون، وظلوا كذلك إلى أن قام رد الفعل ضد جهودها، عندما أرادت أن تخرجهم عن دينهم وتجعلهم بروتستانتيين، ونشب الخلاف في قضية الزواج المختلط، بين البروتستانت والكاثوليك، وذهب بعيداً عندما سجنت الحكومة رئيس أساقفة كولونيا وبوزن.

وهكذا انقطع التيار الذي كان من الممكن أن يوجه الافكار المفتوحة والمجددة نحو بروسيا الليبرالية كرهاً بالنمسا. وانتزعت بروسيا من الحركة الليبراليه أي من الحركة القومية.

وعادت الادارة سيدة الدولة. واقتصرت الاصلاحات البروسية الموعودة على اصلاح اداري بسيط. فبموجب البراءة الصادرة في ١٥ حزيران ١٨٢٣ انشئت أو أصلحت الدياطات الاقليمية أي هيئات العصر الوسيط القديمة. وتتألف هذه الدياطات من نواب ثلاث «هيئات» وكان ناخبو هؤلاء

النواب مالكي أطيان . وكان لهيئة الطبقة النبيلة نصف التمثيل ، وينتخب النبلاء نوابهم مباشرة . وبالمقابل كانت هيئة الطبقة الريفية تنتخب نوابها على درجتين . ووجد في بروسيا ثمانية دياطات اقليمية ، بمعدل دياط لكل اقليم ، وللدلالة على أن القصد لم يكن تشكيل الدولة احدث كل دياط من هذه الدياطات ببراءة خاصة . وكانت سلطة هذه الدياطات تافهة ، وكانت تدعى لاعطاء رأيها في القوانين التي تهم الاقليم ، ولتسوية الشؤون المحلية فيما يتعلق مثلاً بالطرق والاسعاف العام وتقديم العرائض . ولم يكن ليجاب على هـــذه العرائض إلا إذا وصلت عرائض الدياطات الثمانية كلها الى برلين . وفي الواقع ، لم يكن لهذه الدياطات أي صفة تمثيلية ولا أي سلطة سياسية .

كانت المركزية قاعدة الادارة البروسية : وبموجبها كانت الدولة مقسمة إلى ثمانية أقاليم يتزعمها رئيس أعلى . وتنقسم هذه الأقاليم الى خمسة وعشرين مقاطعة «بيزيركة» وعلى رأسها حكومة ادارة (ديركتوار) جماعية تسمى « ريجيرونغ » . وتنقسم المقاطعات إلى دوائر « كرايزه » وعددها ثلثمائة كرايزة ، وتدار من قبل لاندرات أي قائمقام ومجلس الدائرة . وقد احدثت الكرايزة عام ١٨٢٥ لتقديم مرشحين لوظيفة لاندرات .

كان هذا النظام في بروسيا أصيلاً ، وهو حل وسط ، وتسوية بين الحكومة والطبقة النبيلة . فقد تركت الدولة للطبقة النبيلة نفوذاً عظيماً في القضايا المحلية . وكانت الطبقة النبيلة مسيطرة على هذه المجالس . وكان اللاندرات يختار من النبلاء ويقترحه المجلس . ويؤلف هؤلاء القائمقامون جماعة يساق منها رجال الادارة . وكذلك تركت الحكومة للنبلاء فلاحيهم . وبالمقابل ، حافظت الادارة على المصالح العامة . وكان هذا النظام يجمع بين الوظيفية والاقطاعية . ونرى فيه طبقتين ارستقراطيتين تتقاسمان

الدولة : ارستقراطية الطبقة النبيلة والبوروقراطية (الديوانية) . ولنلاحظ أن تنظيم الدولة على هذا الشكل يستجيب لنظريات هيغيل . وكانت هذه البورقراطية الادارية ممتازة . ويتم انتقاؤها بفضل امتحانات الدخول . وقد انتج الأمن الذي خولته الانظمة الدقيقة لهؤلاء الموظفين والمبادهة المتروكة إلى رؤساء المصالح في ممارسة وظائفهم ، ادارة عظيمة بنزاهتها وكفاءتها. ولهذا كان النظام قوياً.ولكن هذا النظام كان غير شعبي بسبب استعلاء هؤلاء الموظفين وفظاظتهم .

وقامت هذه الادارة بعمل جيد : نظمت الماليـــة البروسية وحلت قضية الاصلاح الزراعي لصالح الطبقة النبيلة واعادت بناء الجيش ، وأدخلت في الدولة البروسية الأقاليم الجديدة التي خصصت لها في العام ١٨١٥ وهي بروسيا الرينانية ووستفاليا . ودام هذا العمل ، الذي جرى في السنوات الأولى للنظام ، حتى وفاة فريديريك — غليوم الثالث في ١٨٤٠ ، ومن الممكن القول حتى ١٨٤٨ عندما قامت الثورة والغته .

وظهرت بروسيا في المانيا دولة غير ليبرالية ، دولة منظمة ، ونموذجاً للادارة بالنسبة لباقي المانيا . وعلى الرغم من أنها كانت نموذجاً لباقي الدول الألمانية ، فيجب أن نرى ان الحكومة البروسية كانت ذات نعرة متطرفة خاصة ، نعرة بروسية وغير ألمانية .

وكان هذا التنظيم البروسي لصالح بروسيا وحدها، ونذكر بخاصة انشاء الاتحاد الجمركي الذي امتد فيما بعد على قسم كبير من المانيا :

الاتحاد الجمركي (التسولفراين).— لقد نسب الاتحاد الجمركي زمناً طويلا إلى حركة عفوية قامت بها الاوساط الاقتصادية بغية الوحدة ، والى دفع الرأي وضغطه على الحكومة . غير أن الدراسات ، التي

قامت على الوثائق،برهنت على أن هذا المفهوم في نسبة التسولفراين إلىنوع من حركة قومية كان خاطئاً . ونجد تحليلًا لذلك في الفصلين الأول والثاني من كتاب بيير بينير [١] في « أصول الصناعة الكبرى الالمانية » وقد اثارت اسطورة التسولفراين الناجمة عن حركة قوميـــة بعض تصريحات ومشروعات مؤلفين من المانيـا الجنوبية وهمـــا فريديريك ليست و نيبينيوس . كان فريدريك ليست استاذ الاقتصاد السياسي في جامعة توبنغن . حرر عريضة باسم شركة التجارة والصناعة التي أسسها عام ١٨١٩ بعض الصناعيين من ساكس وجنوب المانيا . وهذه العريضة ، المؤرخةفي ٢٤ أيار ١٨١٩ ، توسع أمام الدياط احلام الاتحاد الجركي الكبرى ، مع برلمان مشترك ودستور مشترك . وقام ليست في السنوات التاليـة بحملة لالغاء الجمارك الداخلية ، ووجه بخاصة « مجـــلة التجارة والصناعة الالمانيتين » ولكن مفاهيم ليست كانت مشاريـع مليئة بالخيال ، وغير واضحة ، ولا تعتمد على أي مذهب تجاري محسوس .

أما نيبينيوس فقد اختص بفضل كبير في اصل التسولفراين . وكان وزيراً لدولة باد ، وقدم لمؤتمر كارلسباد خطة مفصلة لرابطة جمركية بين الدول الألمانية . ولم يناقش المؤتمر هذه الخطة ولم يخرج شيء عن ليست أو نيبينيوس . وكانت وجهة نظرهما المانية وغير بروسية ، وعلى العكس ، كانت مشاريعهما ترتيبات مناوئة لبروسيا ، واتخذت رد فعل ضد مزاعم بروسيا في تنظيم جماركها .

المرحلة الأولى : . ـ لم يكن التسولفراين ، في الواقـع ، عملًا سياسياً ، وانما هو عمل مالي ضريبي . ولم يكن عمـل رجال سياسيين قوميين ، بل عمل اداريين بروسيين وهم : المدير العام للضرائب **فون ماسن**

---

(١) راجع Pierre Bénaerts , *Les origines de la grande industrie Allemande* , PARIS 1933 .

ووزير المالية من ١٨١٥ الى ١٨٣٠ ، **فون موتز** ، وأخيراً **آيشورن** وزير الشؤون الخارجية .

في ١٨١٥ أصلح النظام الجمركي في ألمانيا مع عودة النظام القديم . واحيطت الـ ٣٨ دولة الداخلة في الكونفدراسيون الجرماني بالجمارك كدول مستقلة . ونظمت من جديد في داخل هذه الدول رسوم المرور ورسوم « الدخولية » ورسوم العبور (الترانزيت) ، وحصر الدولة وماليها . غير أن هانوفر والمدن الحرة وحرية الملاحة على الانهار ، التي أقرها الصك النهائي لمؤتمر فينا ، فتحتا ثغرة في وسط هذه المجموعة من الرسوم والجمارك الداخلية ، وأصبح ممكناً بهذين الطريقين أن تنصب على ألمانيا ، بالرغم من النظام الجمركي ، منتجات الصناعة الانكليزية التي تنافس الصناعة الناشئة في ألمانيا .

لقد خرج التسولفراين من واقعين :

الاول، وهو **ظلامات** أصحاب المصانع والتجار في البلاد الرينانية الذين سحقتهم المنافسة الانكليزية ، لأن وضعهم الاداري لم ينتظم بعد . فمنذ ١٨١٦ و ١٨١٨ كان تجار الراين وصناعيوه يطلبون إلى الحكومة البروسية التي ارتبطوا بها أن تسوي قضية الجمارك في اتجاه ليبرالي .

الثاني ، **الفوضى الضريبية** التي غرقت بها بروسيا . فقد كانت بروسيا تتألف من أربعة أقسام مختلفة وجدت في داخلها كل أنواع الأشكال والصيغ القديمة ، حتى وجد في بروسيا سبع وستون تعرفة جمركية مختلفة ومرتبطة بضريبة غير مباشرة للمدن . وكانت الجمارك مختلطة بضرائب الاستهلاك . وللخروج من هذه الفوضى المعتصة صدر قانون في ١١ حزيران ١٨١٦ ألغى رسم المرور على الأنهار والجمارك

الداخلية والاقليمية ونقلها إلى حدود الاقليم ، إلى حدود أي قسم من بروسيا . وصدر أيضاً قانون في ٢٦ أيار ١٨١٨ ووضع تعرفة موحدة لكل بروسيا ، وهي تعرفة معتدلة للحيلولة دون تنشيط التهريب وتشجيعه. وكان غرض هذين القانونين تبسيط النظام الضريبي واقامة وحدة جمركية في الأراضي البروسية نفسها . غير أنه وجدت في داخل الاراضي البروسية ٢٧ منطقة تابعة لاثنتي عشرة دولة ألمانية خارجية . وكانت كل منطقة من هذه المناطق محاطة بالجمارك البروسية .

ومن جهة أخرى ، كان النظام الضريبي يتضمن رسوم استهلاك وجمارك تتراكم وتدفع جميعاً ، وفي الوقت ذاته ، تعرفات ترانزيت على البضائع الخارجية التي تجتاز الأرض البروسية وكانت رسوم الترانزيت مصدر ربح للحكومة البروسية ووسيلة ضغط اقتصادية بيدها على الدول المجاورة وقد وجد بسبب هذا الوضع الجغرافي لبروسيا ، أن جميع الطرق ، التي تذهب من شمال ألمانيا إلى جنوبها ، تمر في زمن ما عبر الأرض البروسية ، إلا طريقين : **الاول** وهو الطريق من هامبورغ إلى هانوفر وكاسل في الغرب . **والثاني** ، في الاتجاه الآخر ، وهو طريق تجارة ليبزيغ في بولونيا وروسيا . وقد أثارت التعرفات البروسية استياء الدول الأخرى

وعندما وضعت بروسيا تعرفة الترانزيت الموحدة لأقاليمها ، صرخت الدول التي ضربت بها وصرحت بأن بروسيا تسلك سياسة سلب ونهب حقيقية على حساب الألمان الآخرين ، وتخرق حقوق سيادة الدول ، وتخرق بخاصة المادة ١٩ من الميثاق الاتحادي التي تصرح بوضع نظام عام للجمارك . واحتجت الحكومات على الحكومة البروسية في مؤتمري كارلسباد وفيينا ، ولكن الحكومة البروسية لم تشأ أن تسمع شيئاً

وتمسكت بتعرفتها . وأمام تشدد بروسيا قامت بعض هذه الحكومات بفتح مفاوضات فيما بينها للدفاع ولمقاومة التعرفات البروسية. وبمبادهة وزير هس – دار مشتات ، دوتيل، أدت المفاوضات أخيراً إلى تشكيل فريقين موقتين : فريق دول الراين ، والفريق الذي شكلته بافاريا وفرتامبرغ (١٨٢٤) .

غير أنه كان لهذه المناطق المحاطة ببروسيا محاذير بالنسبة إلى بروسيا ، لأنها تساعد على التهريب وتعيق الناس الموجودين فيها ، حتى ان دولة شفارتز بورغ – زوندرشاوسن الصغيرة طلبت وحصلت من الحكومة البروسية ، في ٢٥ تشرين الأول ١٨١٩، على دخولها في التعرفة البروسية . وفي ١٨٢٢ تبعت ثلاث مناطق أخرى المثل نفسه . وحذفت الجمارك بين هذه الدول الصغيرة المشمولة بالتعرفة البروسية ، ودفعت الحكومة البروسية، لها حصتها من الجمارك بنسبة عدد سكانها . واحترمت سيادة كل من هذه الدول الصغيرة ، وكل ما يتعلق بالزيارات والحجوز والأحكام الخاصة بالتهريب وغيرها ظل تابعاً لادارة هذه الدول . وبقي الأمر عند هذا الحد . وتتضمن هذه المرحلة الاولى تنظيم تعرفة عامة لجميع الأراضي البروسية وبعض المناطق التي شملتها . ولم يذهب التفكير إلى أبعد من ذلك خلال عشر سنوات .

المرحلة الثانية . – ثم افتتحت مرحلة ثانية في تاريخ الاتحاد الجمركي بدخول فون موتز وزارة المالية ، في ١٨٢٥ ، وسلك هذا الوزير حيال الدول الألمانية الأخرى سياسة هجوم جمركي ، إذا صح التعبير : بدأ بتنظيم الادارات المالية البروسية وتنظيم المالية والموازنة ، وركز جميع الادارات الاقتصادية الأخرى في المملكة بيد وزير المالية . وعندما تم

هذا العمل الداخلي في التنظيم الاداري ، اهتم بادخال المناطق ، التي مازالت تقاوم بعد ، في التعرفة البروسية ، وظل هذا دأبه من ١٨٢٦ إلى ١٨٢٨ . ودخلت المناطق الواحدة بعد الأخرى في التعرفة البروسية . وهكذا زال التهريب . وعبر عن هذه الاصلاحات بتوفيرات في الادارة وتبسيطها .

وضرب هذا النجاح المثل للدول المجاورة في تبسيط الادارة والتعرفة الواضحة واقتصاد الادارة ، بينما كانت الدول الأخرى ، وبخاصة دوقية هس - دار مشتات الكبرى ، جارة بروسيا ، وكانت تعاني صعوبات مالية . وكانت هس - دارمشتات تتألف من قسمين منفصلين ، ووجدت مأخوذة بين قسمي بروسيا الكبيرين ، بروسيا الرينانية وبروسيا الوستفالية من جهة ، والأقاليم الوسطى من جهة أخرى . وخنقت صناعتها من كل جهة بالجمارك البروسية . وفي تموز ١٨٢٧ اقترحت هس دارمشتات على بروسيا التفاوض بمعاهدة تجارية . وترددت بروسيا ودامت المفاوضات بعض الوقت وكانت سرية تماماً وأدت أخيراً إلى معاهدة وقعت في ١٤ شباط ١٨٢٨ . ولكن هذه المعاهدة لم تكن معاهدة تجارية ، وانما كانت معاهدة وصول هس - دارمشتات إلى النظام الجمركي البروسي . وشكلت رابطة جمركية للدولتين . وكان قانون الجمارك البروسي لعام ١٨١٨ أساساً للتعرفة الجمركية في الدولتين . وتفاوضت الدولتان على أساس المساواة بالمثل وحافظتا على استقلالها الاداري الذاتي ، وحق الرفض لكل منهما ، ومناقشة كل تغيير في التعرفة . ووقعت المعاهدة لستة أعوام . وهكذا نرى أن ما كان حتى الآن تعرفة جمركية بروسية فحسب قد أصبح اتحاداً جمركياً للدولتين ، تسو لفراين .

وكانت نتيجة هذه المفاوضة اثارة الاستياء في باقي ألمانيا ، وهذا الاستياء أدى إلى اتحاد جمركي بين بافاريا وفرتامبرغ ، وكانت المفاوضات جارية بشأنه من قبل ، ووقع أخيراً في ١٨ كانون الثاني ١٨٢٨ . ومن جهة أخرى ، تألف اتحاد جمركي ثالث متوسط ووقع في فرنكفورت في ٢١ أيار ١٨٢٨ ، لمدة عشرة أعوام وضم سبع عشرة دولة ، وكانت الدول الهامة فيه هانوفر ، ساكس ، هس - كاسل

كان رد فعل موتز شديداً حيال هذه الحالة : فقد صرح بأنه سيقوم ضد هذه الاتحادات الجمركية الاخرى « بحرب جمارك وطرق دون هوادة » . وسرعان ما رأت دول الجنوب ان اتحادها غير مجد كثيراً . وكان اقتصاد بافاريا واقتصاد فرتامبرغ متشابهين جداً ولذا لم يكن الاتحاد ملائماً لهما . وكانت الحصيلات الجمركية ضئيلة وجبايتها تمتص حتى ٤٤٪ منها . ووجدت بالاتينا البافارية المنعزلة في يسار الراين ، في حالة سيئة لأنها كانت منفصلة عن باقي الاتحاد . ولهذه الأسباب المختلفة قررت بافاريا وفرتامبرغ المفاوضة مع برلين ، وأبدت برلين استعدادها عن طيب خاطر . وبدأت المفاوضات في كانون الثاني ١٨٢٩ وأدت إلى معاهدة ٢٧ أيار ١٨٢٩ . وكانت هذه المعاهدة معاهدة تجارية ، ولم يكن القصد اتحاداً جمركياً بعد . وتضمنت المعاهدة تخفيض الجمارك تدريجياً وعلى مراحل ، بانتظار الوصول إلى الحذف الكامل للجمارك بين الفريقين .

واهتمت بروسيا حيال دول الاتحاد الجمركي المتوسط بتحويل العقبة وثقب هذا الحاجز الذي يمتد على جوانبها نحو جنوب ألمانيا . وتفاهمت مع دولتين صغيرتين خارجتين عن بروسيا ولكن وجدت بينهما منطقة بروسية ، وكانتا ترغبان بالارتباط معاً للقيام بالتجارة بسهولة ويسر ، وهما : **دوقية ساكس - كوبورغ دوقية ساكس - ماينينغن** . وتم التفاهم على شق

طريق على نفقة بروسيا وهاتين الدولتين . ويذهب هذا الطريق من بروسيا إلى لانغن - سالزا ويجتاز الدولتين والمنطقة البروسية لينتهي ، من جهة ، إلى فرتزبورغ ، في بافاريا ، ومن جهة أخرى ، إلى بامبرغ في فرتامبرغ . وعلى هذا النحو يصل هذا الطريق ، عبر الاتحاد المتوسط ، الأرض البروسية بأراضي الجنوب . وعدا ذلك ، تفاهمت بروسيا مع ميكلامبورغ ، أي مع هذه الدوقية الكبرى الواقعة في شمال ألمانيا على الضفة اليمنى لنهر الايلب ، لانشاء طريق يحاذي الايلب ، على الضفة اليمنى حتى هامبورغ . وبهذين الطريقين نحو الجنوب ونحو هامبورغ حصلت بروسيا على خط مواصلات تجاري مستقل عن الاتحاد المتوسط . وهكذا حولت العقبة التي وضعها الاتحاد المتوسط بين بروسيا والبحر ، من جهة ، وبين بروسيا ودول الجنوب ، من جهة أخرى . وتعزز الاقتصاد البروسي بقوة بهذا العمل الذي قام به فون موتز ، وعادت الحالة الاقتصادية إلى نقطة انطلاقها .

المرحلة الثالثة : مرحلة تشكيل الاتحاد الجمركي الأكبر . - لقد ضم الاتحاد الجمركي حتى الآن الدولة البروسية وهس - دارمشتات . أما في هذه المرحلة الثالثة فيمتد إلى الدول الألمانية الاخرى

كانت **ساكس** تشكو في ذلك العهد من انحطاط اقتصادي خطير . ومن جهة أخرى ، ان الحركات التي تلت الثورة الفرنسية عام ١٨٣٠ أزالت بعض الوزارات الرجعية بخاصة في الدول الألمانية المعادية لكل نوع من أنواع التجديد . فمن ذلك ان استسلمت دولتان من دول بمر الاتحاد المتوسط ، وهما : ساكس - فيار في ١١ شباط ١٨٣١ ، وهس الناخبية ، في ٢٥ آب ١٨٣١ . وكان ادخال هس الناخبية ، أو هس - كاسل ، في الاتحاد الجمركي البروسي ، هاماً بصورة خاصة ، لأن هس - كاسل

كانت تلامس الأقاليم البروسية : من جهة ، الأقاليم الرينانية ، ومن الجهة الأخرى ، الاقاليم الوسطى ؛ وبدخولها الاتحاد الجمركي أقامت رابطة بين جزأي الدولة البروسية .

دامت المفاوضات مع دول الجنوب ثلاثة أعوام وأدت أخيراً إلى معاهدة ٢٢ آذار ١٨٣٣ ، وبموجبها دخلت بافاريا وفرتامبرغ في اتحاد جمركي مع التسولفراين لمدة ثمانية أعوام . ثم دخلت ساكس بدورها في الاتحاد ، في ٣٠ آذار ١٨٣٣ ، وبضم ساكس ، دخلت دول تورنجه في ١٠ أيار ١٨٣٣ ، ابتداءً من تاريخ الاول من كانون الثاني ١٨٣٤ . ثم انضمت اليه أيضاً ، في السنوات التالية ، دوقية باد الكبرى ، في ١٢ أيار ١٨٣٥ ، ودوقية هس - ناسو ، في ١٠ كانون الاول ١٨٣٥ . وأخيراً مدينة فرنكفورت الحرة في ٢ كانون الثاني ١٨٣٦ . وضم التسولفراين عندئذ خمساً وعشرين (٢٥) دولة تمثل ستة وعشرين مليون نسمة ، ويخص بروسيا منها ثلاثة عشر مليوناً . ويؤلف هذا المجموع فريقاً جمركياً موحداً . وتقوم فيه حرية التجارة ، ووحـدة الحصائل وتقسم بنسبة السكان . وكان على بروسيا في السابق ، في ١٨١٩ ، ان تقوم بحراسة حدود تبلغ ١٠٧٣ ميلًا ، على حين أن كامل التسولفراين ، في ١٨٣٦ ، كان عليه حراسة حدود جمركية تمتد على ١٠٦٤ ميلًا أي أقل مما كان لبروسيا وحدها في السابق .

علاقة الاتحاد الجمركي بالقومية الألمانية . - إن هـذه النقطة تهمنا بالذات . ونتساءل بعد هذا لاي حد تجاوب التسولفراين مع القومية الالمانية أو نشط الحركة القومية .

إن أول ملاحظة نبديها في هذا الشأن هي أن التسولفراين لا يشمل ألمانيا

كلها . فقد بقيت ثلاث عشرة دولة خارجة عنه . وتؤلف هذه الدول الثلاث عشرة جماعتين مختلفتين :

الأولى : شكلت فيما بينها نوعاً من اتحاد جمركي ، **شتويرفراين** ، أي اتحاد ضرائب ورسوم . وتتألف من هانوفر ، برانشفيك ، اولدانبورغ بريم ، هامبورغ ، أي الاقاليم البحرية المتصلة ببحر الشمال التي كانت على صلات هامة بالتجارة الانكليزية .

الثانية : الدول الاخرى التي ظلت مستقلة عن التسولفراين والتشتويرفراين .

أما دول التسولفراين نفسها فقد حافظت ، مع ارتباطها فيما بينها باتحاد جمركي ، على نظمها الخاصة بالضرائب غير المباشرة ، وعلى أوزانها ومكاييلها المختلفة ، وعملتها المختلفة ، ورسم المرور . وعوض عن التفاوت الذي يحدثه هذا الحفاظ على سعر البضائع باختلاف الرسوم . وهكذا لم تشكل المانيا ، حتى ولا التسولفراين نفسه ، دولة موحدة من الوجهة الاقتصادية والتجارية . وهذا الواقع يضيق القيمة القومية للتسولفراين .

وهناك نقطة أخرى ، تبدو لنا ذات أهمية أساسية بالنسبة للنتائج التي نبحث عنها ، وهي أن التسولفراين لم تساعده حركة رأي أو تهلل له ، وعلى العكس ، اثار التسولفراين عداء مراً في جميع الدول : ففي هس - دارمشتات ، توجب تأجيل دعوة المجلسين لانه كان من الممكن أن تطرح المعاهدة . وفي ١٨٢٩ لم يقبلا بالمعاهدة إلا مكرهين . وفي بافاريا وفرتامبرغ بدت الأوساط الوطنية الرجعية من جهة ، والأوساط التجارية من جهة أخرى ، معادية لابرام الاتحاد . **وفي هس الناخبية** أثار توقيع المعاهدة اضطرابات خطيرة ، وأراد الجمهور أن يقبض على موظفي الجمارك

البروسيين . وفي ساكس قام احتجاج أصحاب الأقطان ، واحتجاج تجار درسدن وليبزيغ وتجار مدن نهر الايلب ، واحتجاج مالكي الأطيان . وفي دوقية باد الكبرى كانت ثلاثة أرباع الجمهور معادية ، وعندما وافق المجلس على مبدأ المعاهدة ، عقدت الحكومة مجلساً من النبلاء فأبدى عدم رغبته بـ ٣٦ صوتاً على ٦٥ عضواً . وأخيراً ، دخلت فرنكفورت التسولفراين مترددة وآسفة ، فقد لاحظت أنها منعزلة في وسط الجميع ، ولا تستطيع أن تعمل غير ذلك ، فاستسلمت . وبصورة عامة ، اضطرت الحكومات أن تضغط لأسباب سياسية على الطبقات البورجوازية والطبقات الاقتصادية بخاصة لتجعلها تقبل بالمعاهدة . ولذا يبدو لنا أن التسولفراين لم يكن نتاج حركة وجدان الجماعة الألمانية ، لأن النعرة الخاصة ما زالت موجودة والعداء للاتحاد عظيم . ولكن التسولفراين سيرى في الآجل البعيد عودة الرأي وتقديره ، وما ذلك إلا للنتائج الاقتصادية الملائمة التي عادت على الجميع بالفائدة . والنقطة الأخيرة التي يجب أن نقولها هي الآتية : هل شجع الاتحاد الجمركي على وحدة ألمانيا السياسية ؟ ان هذا المفهوم شائع ، ونجده في جميع الكتب ، وعند كثير من المؤرخين . فقد قبل على العموم ان التسولفراين كان مقدمة للوحدة الالمانية ، وان الالمان بدؤوا اتحادهم السياسي بتحقيق هذا الاتحاد الجمركي . فلنحاول أن نرى الامور عن كثب : الواقع أن بعض الالمان علقوا الآمال على الاتحاد الجمركي في سبيل الاتحاد السياسي . حتى ان موتز واضع مشروع الاتحاد كتب غداة المعاهدة مع هس - دارمشتات » في ١٨٢٨ إلى مراسليه : « الحقيقه الواضحة هي أن الجمارك لم تكن إلا نتيجة للفصل السياسي بين مختلف الدول ، ومن الصحيح أيضاً أن اتحاد هذه الدول في كتلة جمركية واحدة يجب أن

يؤدي إلى اتحادها في نظام سياسي واحد » . وأضاف : « إن بروسيا ترغب في تفاهم وثيق مع الامارات التي تمثل بحق المصالح الالمانية . وفي الحالة ، التي ينحل فيها الكونفدراسيون الجرماني ويعيد تشكيل نفسه باخراج العناصر اللامتجانسة ، يكون لنظامنا التجاري أهمية عظمى . ومن هذا الاتحاد ، الذي يبنى على المصالح الطبيعية ويجب أن يمتد بالضرورة على دول الوسط ، تولد المانيا الحرة والقوية في الداخل والخارج » . ومن هنا نرى أن موتز كان يتصور أن الاتحاد الجمركي يمكن أن تكون له نتائج سياسية آجلة ، ولكن يجب أن نلاحظ احتياطين في هذا النص .

١ - إن موتز يتكلم عن اتحاد العناصر الالمانية الخاصة ، وهذا يعني ، في تفكيره ، أنه يخرج النمسا من هذا الاتحاد .

٢ - انه يتصور أن بالامكان أن تكون لهذا الاتحاد الجمركي نتائج سياسية آجلة . ولكن في أي اتجاه ؟ في الحالة التي ينحل فيها الكونفدراسيون الجرماني ويعاد فيها تأليف دولة أخرى . وهذا ما يرينا أن النتائج السياسية للاتحاد الجمركي ، في فكر موتز ، كانت بعيدة وغامضة .

وأثار الاتحاد الجمركي ، بنتائجه السياسية الممكنة ، مخاوف أشخاص آخرين : فمن ذلك انورميني القائم بالاعمال الفرنسي في مونيخ كتب إلى حكومته في ٤ نيسان ١٨٢٩ غداة انشاء الاتحاد الجمركي الاول : « ان هذا الاتحاد أعظم حادث مر في ألمانيا منذ الاصلاح الديني » . وخشي نتائجه وقال : سيعطي هذا الاتحاد بروسيا أهمية عظيمة جداً : « وستمارس هذه الدولة على شريكاتها تفوقاً يتجاوز كل ما وجد من هذا النوع حتى هذا اليوم وكل ما يمكن تصوره » . ولكن الحكومة

البافارية طمنت بسرعة الحكومة الفرنسية بقولها بان لا خوف من الوجهة السياسية من الاتحاد الجمركي المرتقب ، لأن القصد هو الحصول على تسهيلات تجارية فقط ، وان الحكومة البافارية تحرص باهتمام على علاقاتها الطيبة مع فرنسا . واطمأن روع رومنيي . وفي شهر كانون الثاني ١٨٣٠ كتب الى حكومته بألا تعلق على الاتحاد الجمركي الا أهمية ثانوية . وهذا يرينا أن الخطر الذي يمكن أن يتأتى عن الاتحاد الجمركي لم يتصور في ذلك الحين ، وان لاانكلترا ولا فرنسا ، ولا النمسا ، أي الدول الثلاث التي يهمها بصورة أساسية ألا تتحول ألمانيا من الوجهة السياسية ، لم تر في الاتحاد الجمركي خطراً سياسياً يدفعها ، بغية تجنبه ، إلى القيام بتنازلات في الجمارك ، وبتغيير سياستها الجمركية .

ولنلاحظ انه إذا كان للاتحاد الجمركي نتائج سياسيةعلى تشكيل الوحدة الألمانية ، فيجب أن تنتظر هذه النتائج طويلاً ، لأن كونفدراسيون ألمانيا الجديد ، تحت هيمنة بروسيا ، لم يتشكل إلا في العام ١٨٦٧ أي بعد أكثر من ثلاثين عاماً . وبالعكس لم يمنع الاتحاد الجمركي ، خلال ثلاثين عاماً ، بقاء النعرات المحلية الألمانية ؛ لأن هذا الاتحاد لم يقم بأي عمل في ثورة ١٨٤٨ لا في هذا الاتجاه أو ذاك وأخيراً ، لم يمنع الاتحاد الجمركي جميع الدول الألمانية في عام ١٨٦٦ ، من أن تعلن بأنها مع النمسا ضد بروسيا ، وأن تحارب بروسيا . ويبدو لنا ، في هذه الظروف ، أن القول بأن الاتحاد الجمركي هيأ وعجل وحدةألمانيا السياسية، أو انه كان سبباً أو نتيجة للحركة القومية الألمانية ، غير مطابق للوقائع .

رد الفعل الليبرالي والنعرة الاقليمية . – أمام هذه الحكومات القوية -المستبدة والمدعومة بعقائدية فلسفية جديدة ، وأمام هذه الحكومة

البروسية التي عززت وضعها السياسي والاقتصادي بالاتحاد الجمركي ، لم يكن رد الفعل الليبرالي شيئاً مذكوراً . ومهما يكن هذا الاتحاد الجمركي في المستقبل فقد كانت نتائجه المباشرة ، على أي حال ، تعزيز النعرات الاقليمية ، واعتبره الألمان مشروعاً بروسياً ضد ألمانيا الاتحادية . وكان معززاً للنعرة الاقليمية لأنه وسع قوة بروسيا الداخلية وقوى، برد الفعل ، روح النعرة عند الدول الأخرى ، وبالتالي أسهم في فصل الأحرار الألمان عن بروسيا بعد أن خيبت آمالهم بتخليها عما كانوا يعتبرونه رسالة بروسيا في ١٨١٣ و ١٨١٥ .

وهذا التخلي من الرأي الألماني عن بروسيا يلاحظ في أفول جامعة برلين : لقد خسر أساتذة جامعة برلين الشعلة التي حركتهم عام ١٨١٣ و ١٨١٥ ، وأصبحوا دون حياة ودون عمل . ولم يعد للاهوتيين الدور الذي كان لهم في السابق . فقد شاخ شليرماخر ولم يبق له نفوذ وتجاوزت حركة الرأي زملاءه مثل نياندر . ووجد بين الفقهاء في اللغة رجال مشاهير مثل بوخ ولاخمان ولكنهما اختصاصيان وليس لهم أي تأثير سياسي . ولم يكن المؤرخان راومر ورانكه حرين ليبراليين . وخارجاً عن هيغيل ، وكان عظيم التأثير ، فقد أساتذة جامعة برلين التأثير الذي كان لهم في ألمانيا ، فضلاً عن أن الناس الذي فتحته جامعة برلين مع الروح الألمانية والقوة المبدعة التي تنشطها قد ذهبا هباءً منثوراً .

مانتزل . — وهذا الحادث هام لأن الحرية ، أمام الحواجز السياسية التي كانت تمنع كل حياة عامة في ألمانيا ، لجأت إلى العالم الفكري . إن النزعة الابداعية ، الليبرالية والقومية معاً ، التي كانت نزعة ١٨١٣ مازالت مستمرة وممثلة بكاتب اسمه **مانتزل** ، وكان كاتباً ناشئاً وأحد مؤسسي اتحاد الطلاب (البورشنشافت) . وقد طرد بسبب ذلك والتجأ في سويسرا

حيث أسس في العام ١٨٢٤ جريدة « الصحف الأوربية » ، ثم عاد بعد بضع سنوات إلى شتوتغارت بعد أن عفي عنه ، وكانت شتوتغارت في ذلك العهد أهم مركز فكري في ألمانيا. والتقى فيها بخاصة بالبارون كوتّا وكان ناشراً كبيراً ، نشر غوته وشيلر وجمع حوله كل أنواع الكتاب الألمان من مختلف النزعات ، وحتى الكتاب التقدميين . وأسس كوتا وأدار عدة مجلات منها : « الجريدة العامة » التي ظهرت في اغسبورغ وكانوا يسمونها في فرنسا « صحيفة اغسبورغ » ، و « الحوليات السياسية » وهما مجلتان سياسيتان ، وأيضاً « جريدة الصباح » وهي أدبية يديرها شاعر يسمى شواب ، وكانت دارها مركز اجتماع لكتاب ألمانيا الجنوبية . وهناك مجلة للاقتصاد السياسي تدعى « هسبيروس » وكان يديرها اقتصادي ليبرالي يسمى شولتز . وقد عهد الناشر وصاحب المكتبة كوتّا إلى مانتزل ، في شهر تموز ١٨٢٥ ، بادارة ملحق أدبي لجريدة « الصباح » ، يسمى « الصحيفة الأدبية » ، وقد أصبحت بسرعة ، تحت إدارة مانتزل ، جريدة نقد تسمع في ألمانيا أكثر من غيرها . وفي ١٨٢٨ ، نشر مانتزل مؤلفاً أحدث كثيراً من الضجة ، وكان أول مؤلف جامع في « أدب ألمانيا المعاصر » . ولاقى هذا الكتاب نجاحاً كبيراً يتجاوب مع الروح الجديدة ، ويجمع الاتجاهات الليبرالية للمدرسة الأدبية الناشئة . وفي جماعة مانتزل الليبرالية نجد الروح نفسها التي كانت سائدة في البرشنشافت أي الليبرالية والوطنية والروح الدينية . وكان مانتزل يريد أن يقيم علاقة وثيقة بين الحياة والكتب ، ويوحد الأدب والسياسة ؛ ويقول : « اليوم تحل الأفكار محل الرجال ، ولا ينازع من أجل سيد ، بل يناضل في سبيل مبدأ . الحرية وحدها خصبة ، والعبودية عقيمة ، والقتال في سبيل الحرية واجب كما هو حق »

بورنه . – كان من ظروف الحياة الأدبية الشديدة ، ومن الرقابة ، التي تمارسها السلطات ، توجيه الأفكار نحو الليبرالية . وأوضح مثال على ذلك الكاتب **بورنه** وكان أبوه يهودياً وصاحب مصرف في فرنكفورت ولد في ١٧٨٦ ودرس الطب ثم الحقوق ودخل الادارة وكانت فرنسية آنذاك ، وشكرته السلطات الألمانية الجديدة على ذلك في العام ١٨١٣ . وباعتباره يهودياً كافح في سبيل حقوق أبناء جلدته وطالب بحرية الصحافة بشكل خاص . وفي العام ١٨١٨ صبأ بغية الحصول على وظيفة يحسن بها وضعه . ولكنه وضع جانباً وتابع كفاحه في سبيل حرية الصحافة ، ونشر بخاصة في ١٨١٩ كراساً ضد الرقابة . وبسببه حذفت تباعاً جريدتان كان يعاون فيها أو أسسها . عندئذ أخذ يقوم برحلات إلى هايدلبرغ ، رباريس ، وهامبورغ ، وفينا . وفي هذه المدينة عرض عليه مترنيخ وظيفة على أن يدفع سكوته ثمناً لها ، فرفض ثم ذهب إلى باريس ونشر عن رحلته الأولى إلى باريس « لوحات باريس » وهي وصف لباريس السياسية والأدبية وغير ذلك في السنوات ١٨٢٢ – ١٨٢٥ . وأسس جريدة«الميزان» . وفي بداية عام ١٨٣٠ استقر في باريس وأراد أن يعيش فيها . كان بورنه شغفاً بحب كل ما هو عميق وحر وصحيح . كافح للحرية الألمانية ، وكان رجلاً متحمساً ، عنيفاً ، ساذجاً ومملوءاً حرارة . يحسن التهكم ، ويناضل به ضد الرجعيين الألمان . وإذا رجعنا إلى أصله رأينا فيه الواقع الأول الذي سنراه مرات عديدة وهو الاتجاه السياسي الذي خرج من ظروف الكاتب الشخصية وحياته .

الحزب الدستوري . – وكان هؤلاء المفكرون الليبراليون كثراً ومنتشرين في ألمانيا كلها . وكانت ألمانيا بلداً فقيراً وزراعياً بعد ، وبورجوازيته قليلة وحركة المفكرين الأحرار فيه دون تأثير كبير . وحل

محل هذه الحركة حركة الأحرار السياسيين في المانيا الجنوبية . وقد تأثر هؤلاء بالأفكار الفرنسية وشكلوا مدرسة دستورية مقابـــل المدرسة التقليدية ومدرسة الحقوق التاريخية اللتين رأيناهما . وكانوا ينادون ، على الطريقة الفرنسية ، بالحق الطبيعي وسيادة الشعب . وكان يمثلهم ممثلان هامان من رجال دوقية باد ــ الكبرى وهمـا روتيك وكان استاذاً في جامعة فريبورغ ، نشر في ١٨١٩ كراساً اسمه « أفكار في مجالس الدولة» وفيه يقول : « الدولة تمثل الشعب ، وليست الحكومة إلا مندوباً عن الشعب ، فعلى الدول اذن أن تأخذ جميع السلطات من الشعب لتراقب الحكومات » . ونشر بعد قليل « القاموس السياسي » وكان بمثابـــة دليل للأحزاب الدستورية .

والمثل الآخر لهذه المدرسة فيلكر ، مؤلف « التاريخ العام »، وكان آثارياً ومؤرخاً معاً ، واستاذاً في جامعة بون ، ثم أصبح بعد ذلك نائباً في دوقية باد الكبرى . وكان هذا الحزب يطـالب بدستور يضمن الحرية والمساواة للمواطنين ، ويمنع تجاوز الحكومة والاكليروس والطبقة النبيلة . ويجب أن نلاحظ بأن الحرية لاتستطيع أن تتوطد في ذلـك الحين ، في ألمانيا ، إلا في الدول الصغرى : ولكن هذه الدول الصغرى كانت ذات نعرة اقليمية فظيعة .

وكان هذا الحزب الدستوري يمارس تأثيره عن طريق نواب مجـالس الدول التي لها دساتير : وكان هؤلاء النواب يفخرون بالحالة الاجتماعيـة المتقدمة وبالحريات التي كانت عندهم وحرم منها المـــان الشمال . وكانوا يحتقرون المان الشمال . وكانت هذه المجالس في كالسروه وشتوتغـارت ومونيـخ وفيسبادن . وكان هؤلاء السياسيون من أعضاء مجالس ألمانيـا

الجنوبية أناساً متواضعين وأقوياء وشرفاء ومسالمين جداً ويتذوقون الدخول في التفصيل والعناد ، وينقصهم الاشعاع كثيراً وليس لهم مذهب . وفي الحقيقة لم يكن عندهم طبقة مثقفة كافية لتغذية جهاز سياسي . وكان الكثير من أعضاء هذه المجالس في ألمانيا الجنوبية يساقون من بين الموظفين ، ولذا لم يكونوا احراراً بالمعنى الصحيح للكلمة . ومع هذا فقد استطاع هؤلاء السياسيون في ألمانيا الجنوبية أن يقوموا بعمل مفيد ، لأنهم كافحوا في سبيل الكرامة البشرية وتمسكوا بحقوق الوجدان وحاولوا أن يقيموا كثيراً من الاخلاق في الحياة السياسية . وحصلوا برقابتهم وبملاحظاتهم للحكومة على تحسين مالية الدولة ، وتحسين في العدالة ، وبعض التقدم الاجتماعي ، مثل الغاء السخرة والاعشار الدائمة (ضريبة الكنيسة) ونمو الملكية الصغيرة . واستطاع هذا الحزب الدستوري ، رغم قلة شأنه ، أن يحصل على منع محاكمة الليبرالية . ولم يستطع رجاله ابداء مطاليب رصينة ، ولكنهم حافظوا على المفهوم الليبرالي . وما يهمنا بخاصة هو انهم لم يرتفعوا إلى الفكرة القوميـــة بل كانوا يرون أن الحرية هي الشيء الاساسي ، وان الحرية قبل الفكرة القومية ، وقبل فكرة القوميات ، على عكس ما رأيناه في ١٨١٣ و ١٨١٥ .

هذا ولم تقصر ثورة ١٨٣٠ ، في ألمانيا ، كما في كل مكان ، في تشجيع حركة الأفكار السياسية . وكانت حكومتا روسيا والنمسا منهمكتين بمشاغل السياسة العامة والتدابير التي يجب اتخاذها للحيلولة دون نمو الثورة ، ولهذا السبب لم تهتما بالمانيا وتركتا الحكومات المحلية لنفسها . وكان بامكان الاحرار القيام بعمل مباشر . وقد أعطي هذا العمل الدليل على فقدان التربية السياسية الكاملة عند الشعب الالماني ، وانحطاط الروح

القومي ، الذي ظل في الواقع محدوداً جداً وضئيلاً ، وعلى نقص القوة والافكار عند الالمان . ولم تكن هنالك الا مظاهرات صاخبة قليلاً أو كثيراً ، حتى ولا محاولات ثورة كما رأينا في ايطاليا .

وكان طبيعياً أن يهلل الأحرار بالاجماع للثورة . وفي بعض المدن ذهب هذا التهليل حتى التظاهرات المدوية : ففي هامبورغ ، مثلاً غطيت المدينة بالاعلام الفرنسية ، وحملت النساء الشعار المثلث الألوان على قمصانهن . وفي دول الشمال ، في ساكس ، وهانوفر ، وهس — كاسل وبرانشفيك كان أساتذة الجامعات يوجهون المظاهرات مع الطلاب والموظفين ويساندهم بعض القضاة المحليين في المدن الصغيرة . واستطاعوا أن يحصلوا على تنازلات من الحكومة وأحياناً على دستور دون كبير مقاومة ، أو على الاقل ، على تغييرات في الوزارة ، والاستعاضة عن الوزارات الرجعية المتطرفة بوزارات أقل رجعية . وفي الواقع ما أن تمضي المفاجأة الا وتعمل الحكومات دون حسن نية على استرجاع الامتيازات التي منحتها في أوقات الخوف والهلع ، وتعاود القمع . وبقي من كل ذلك بعض تدابير مثل : زوال تجاوز النظام الاقطاعي عموماً ، والحياة الفكرية النشيطة ، والطرق الاقتصادية الجديدة ، وبنتيجة هذه الاصلاحات قل التفاوت بين دول الشمال ودول الجنوب .

الحياة السياسية في المانيا الجنوبية . — وكانت الحياة السياسية في دول الجنوب اكثر صخباً منها في دول الشمال . وكانت الانتخابات توصل إلى المجالس أحراراً أكثر حماساً واندفاعاً من أسلافهم ، بل وحزباً راديكالياً : وتكثر الجرائد رغم الرقابة ، وتقيم الحكومات عليها الدعاوى وبالتدريج تزول هذه الصحف . وتعيش البورجوازية في المانيا الجنوبية خلال بضعة أسابيع ، وربما بضعة أشهر ، كما يقول **ارنست دوني** « في حالة سبات

مضطرب » : كان يصوت على عرائض لصالح بولونيا ، وتنظم وتغنى أشعار على شرف البولونيين ، وينادى باخاء الشعوب ، رغم الرقابة التي تحاول منع هذه المظاهرات ، ورغم قرار الدياط المؤرخ في ٣٠ تشرين الاول الذي يحرم العرائض الجماعية . ونجد في كل هـــذا يقظة للحياة السياسية لاتنطفىء في السنوات التالية وذلك في الحدود التي تستطيع فيها هذه الحياة السياسية أن تظهر بالرغم من تدخل الحكومات . ولقد ساعد **اتحاد الصحافة** الأحرار على دعم وزن الدعاوى التي أقيمت على الصحف

وقامت مظاهرات أعم من هذه الاضطرابات المحلية : ففي ٢٧ أيار ١٨٣٢ نظم احتفال سياسي كبير في قصر هامباخ ، في بالاتينا البافارية ، ورفع على أبراج القصر علم اتحاد الطلاب (البورشنشافت) ، وشربت الانخاب، وخطبت الخطب على سيادة الشعب والدول الحرة المتحدة في ألمانيا وأوربه . وتجدر الاشارة في هذه المظاهرات الالمانية إلى حضور فرنسيين وبولونيين وتشيكيين . واستطاعت جنود الماريشال دو فريده أن تبعثر هـــذه المظاهرات بسهولة ، وتوقف بعض المتظــاهرين . ونظراً لتدابير القمــع التي اتخذتها الحكومات اضطر غلاة الأحرار إلى تشكيل جمعيــات سرية لمتابعة حركتهم ، وحاول المتحمسون منهم أكثر من غيرهم ، مختلطين بالبولونيين ، وكانوا طلاباً على العموم ، ان يقوموا بضربة قوة بالهجوم على فرنكفورت ، في ٣ نيسان ١٨٣٣ ولكن هذه الضربة اخفقت ووقع فيها تسعة قتلى وأربــع وعشرون جريحاً . وبالاجمال لانجد في كل هذه الاضطرابات شيئاً رصيناً ، كما نلاحظ أن الدول البروسية فيها ظلت دون حراك تماماً .

ما هو المكان الذي تشغله الفكرة القومية في هذه الاضطرابات ؟ كان ضئيلاً وتافهاً تقريباً : طلب هنري دوغا غيرن ، نائب هس - كاسل. الى مجلس هس ، أن تتحد المصالح المادية والفكرية في ألمانيا بحرية . وبيّن أن اتحاد هذه المصالح الألمانية ضروري لمقاومة اطماع فرنسا وقوة روسيا . وطلب نائب باد ، فيلكر ، في كارلسروه ، اجتماع مجلس الكونفدراسيون . وفي مظاهرة هامباغ كان الدكتور فيرت ، الرجل الوحيد الذي كانت عنده فكرة واضحة ، وكان يتصور وحدة ألمانية بشكل اتحادي . ونشر كاتب ناشيء من أصل بروسي ومقيم في ساكس ، يدعى موندت ، في العام ١٨٣٢ ، كراساً يسمى « وحدة المانيا في النمو السياسي والروحي » وأراد اتحاداً سياسياً يفسح مجالاً لأشكال دستورية يحافظ فيها على الطبع الخاص لكل شعب . ونجد في ذلك رغبة في وحدة قومية أقوى وفي الحفاظ على النعرات المحلية .

وعلى العموم ، يمكن القول أن الفكرة الليبرالية في حركة ١٨٣٠ ، كانت فوق الفكرة القومية . فمن ذلك أن زعيم أحرار الجنوب ، روتيك ، قال في خطاب له في ١٨٣٢ : « أنا مع الوحدة الالمانية ، وأتمناها ، وأريدها ، وأطالب بها ، لأن الوحدة وحدها ، في القضايا الخارجية ، تعمل من ألمانيا دولة قادرة على ايحاء الاحترام ، وتمنع وقاحة الاجنبي من الاغارة على حقوقنا القومية » . ونجد هنا أن المطالبة بالوحدة مرتبطة أساساً بفكره بعظمة ألمانيا الخارجية أكثر بكثير من ارتباطها بالتحويل الداخلي . ويتابع : « ولكنني لا أريد وحدة تجرنا إلى حرب ضد أعز مصالحنا وعواطفنا الخاصة ، أو تضطرنا ، في القضايا الداخلية ، نحن سكان الراين ، إلى الاكتفاء بالحرية التي تكفي بوميرانيا والنمسا . أريد الوحدة ، ولكن مع الحرية وأفضل أيضاً الحرية دون وحدة على

الوحدة دون حرية . ولا أريد حرية تحت أجنحة النسر النمساوي أو النسر البروسي »

وأبان هاين الكره الذي كان يكنه ضد التعصب وبخاصة ضد المتعصبين الرجعيين : « أما ما يتعلق بفريسي القومية الذين يتآخون اليوم مع كراهية الحكومات ، ويتمتعون بحب الرقابة واحترامها ، فانني احتقر غمة هؤلاء الخدم الذين يسلكون مسلك الابطال باللباس الأسود والأحمر والذهبي » .

ان كل ذلك سبب القطيعة مع بروسيا : لقد كان الأحرار جميعاً معادين لبروسيا بعد أن أصبحت رجعية وأنانية . ان أحرار الجنوب ، بالرغم من أن روتيك من جانبه مازال يفكر بامكان بروسيا الدستورية ، والكتاب الذين سيؤلفون آجلا جماعة « المانيا الفتاة » ، ومدير « الهسبيروس » ، مجلة الاقتصاد السياسي ، شولتز ، الذي نشر عام ١٨٣٣ ، الكراس « وحدة ألمانيا بتمثيل قومي » وصرح فيه بأن بروسيا لا يمكن أن تكون الدولة المركزية للوحدة الالمانية لانها أصبحت مكروهة من المانيا ، ان هؤلاء جميعاً قطعوا صلتهم ببروسيا ، وولوا ظهورهم نحوها . ومن النادر أن يرى حر مثل الفرتامبورجوازي بفيتسر ، الذي نشر عام ١٨٣١ كراساً باسم « تبادل الرسائل بين المانيين » وطالب فيه بفصل المانيا والنمسا ، لأن هذا يضع بالبداهة المانيا تحت ضغط بروسيا . وعلى العموم ، يمكن القول بأن كل هذه الحركة الليبرالية دارت صراحة ظهرها لبروسيا الرجعية . وظلت هذه الفكرة القومية المختلطة بالفكرة الليبرالية غامضة جداً وملتبسة جداً . وأدت الحركة الليبرالية ، التي هي الأساس ، إلى ابعاد المانيا الدولتين الكبريين الالمانيتين : بروسيا

والنمسا . وإذا انفصلت ألمانيا عن حكومتي الدولتين الاساسيتين ، فما كان ليرى في ذلك الحين من سيصنع المانيا أو كيف يمكن صنع ألمانيا .

رد الفعل الرجعي . - وكانت نتيجة هذه الحركة الليبرالية تقدماً لرد فعل جديد وانتصاراً للاستبداد والتحكم . وقد اتخذ الدياط تدابير اتحادية بعد مظاهرة هامباخ وبعد ضربة الهجوم على فرنكفورت . وعدد بروتوكول ٢٨ حزيران ١٨٣٢ المبادىء والتدابير القابلة للتطبيق في ألمانيا كلها ، نذكر منها:

١ - ان العاهل لا يمكن أن يكون مرتبطاً بدستور يقر التعاون مع المجلسين .

٢ - ان التشريع الداخلي للدول يجب الا يلحق ضرراً بأهداف الكونفدراسيون .

٣ - ان لجنة من الدياط ستأخذ علماً بمناقشات مختلف المجالس الخاصة بالدول .

٤ - الا يسمح في كل دولة بهجوم على الكونفدراسيون ، وللدياط وحده الحق في تفسير صك الاتحاد .

٥ - يختص الدياط بحق التدخل العسكري في الدول عند الحاجة .

٦ - يطلب الدياط إلى جميع الدول أن تقمع تجاوز الصحافة بشدة .

ان هذا البروتوكول المؤرخ في ٢٨ حزيران ١٨٣٢ يؤلف سلاحاً لتدخل مستمر للدياط في داخل كل دولة . وفي ١٢ حزيران ١٨٣٢ ، بعد واقعة فرنكفورت ، اتخذت مقررات في فينا لاتمام التدابير ضد الصحافة والجامعات ، وشكلت لجنة تحقيق في فرنكفورت للكشف عن فروع الحركة الثورية في المانيا كلها .

وفي الدول الخاصة اتخذت عدة تدابير مشددة ضد الأحرار . وظلت اللجنة الاتحادية تعمل حتى ١٨٣٦ ، ولاحقت ١٨٠٠ شخص وحكم على ٢٠٣ طلاب منهم ، وأوقف شولتز مدير « الهسبيروس » في دار-مشتات وحكم بالسجن خمسة أعوام ، واستطاع أن يهرب ومات في المنفى، كالدكتور فيرت . وفي دوقية **باد الكبرى** ، احيل الأستاذان الحران روتيك وفيلكر على التقاعد . والغي قانون الصحافة . وفي **هس** اوقف زعيم الأحرار **سيفلستر جوردان** ، أحد واضعي الدستور ، واتهم وحكم بخمسة أعوام بسجن القلعة ، بعد دعوى دامت أربعة أعوام . وأوقف الكاتب الناشىء **رويتر** ، الشاعر المعروف ، لأنه كان في شبابه ، وهو طالب ، مشتركاً في جمعية سرية . وأقيمت بحقه دعوى مع ٢٠٤ شبان آخرين . ودامت الدعوى ثلاثة أعوام ، وحكم عليه بالموت ، ولكن عقابه خفف إلى ثلاثين عاماً سجناً ؛ وسينشر آجلاً مثل سيلفيو بيلليكو كتابه « سنوات الاعتقال » . وفي كل مكان تزعم الوزراء الاقوياء الحكومات . وهكذا توصل الى السلطة : في بافاريا ، **فالرشتاين وآبل** ؛ وفي هس ، **هاسنبفلوغ** ؛ وفي باد ، **بليتر سدورف** ؛ وفي بروسيا ، جهاز ثان من الرجعيين مثل **تشوبيه وكومبست** . وعلق دستور هانوفر في العام ١٨٣٣ .

وبعد حركة الاضطراب هذه عادت المانيا من جديد فسقطت بسرعة في حالة خور واعياء دامت حتى قبيل ١٨٤٨ . ولم يكن هنالك من رصيد فعال من وجهة النظر السياسية . وظلت ألمانيا حتى عام ١٨٤٧ في نفس الحالة التي كانت عليها في العام ١٨١٥ .

٢ — الحياة الفكرية واتجاهها القومي

لقد ظلت الحياة السياسية ضعيفة في ألمانيا ، ولكن الحياة الفكرية فيها كانت ، على العكس ، نشيطة ، ويهمنا منها بالنسبة لموضوعنا اتجاهها القومي .

كانت الحياة الفكرية كثيفة ومضطربة ، ونجد فيها اتجاهات متناقضة ، ونظماً مختلفة ، بعضها منفصل عن كل حركة سياسية ، وبعضها الآخر يتصل أحياناً بحلقات فكرية رجعية . وهذه الحياة الفكرية وإن لم تمس الحياة السياسية ، كانت ذات لون سياسي ، وكانت لها نتائج سياسية بسبب التباين بين نشاطها وبين جمود العالم السياسي من جهة ، وبسبب الضغط السياسي الذي كان يعيق حرية توسع الحياة الفكرية ويوجه عالم الفكر نحو حلول أخرى . وكان لهذه الحياة الفكرية ، بالرغم من كل ذلك ، نتائج هامة في خلق الروح القومية وفصل الألمان عن النظام الذي كان عائقاً للحياة الفكرية والروحية في كل مكان .

الجامعات الألمانية . — كانت الحياة الجامعية في ألمانيا حية ونشيطة ، وتؤدي واجباً قومياً رفيعاً ، وكان تأثير الأساتذة في ألمانيا أعمق بكثير من تأثير الصحافيين أو رجال السياسة في فرنسا . وكانت الجامعات عديدة ؛ ثم أضيف إليها جامعات أخرى كجامعة **بون** التي تأسست عام ١٨١٨ لتجعل الأقاليم الجديدة التي ورثتها عن مؤتمر فينا بروسية ؛ وجامعة **مونيخ** عوضاً عن جامعة **لاندشوت** القديمة التي حلت محل جامعة **انغولشتات** اليسوعية ؛ وجامعة زوريخ عام ١٨٣٣ وجامعة **برن** ١٨٣٤ اللتين أضيفتا إلى جامعة **بال** القديمة ، ولم تكن هذه الجامعات الأخيرة جامعات ألمانية ، ولكن لغتها ألمانية ، وكانت ملجأ للأساتذة الأحرار الذين طردوا من

ألمانيا أو الذين غادروا ألمانيا ، ولها تأثير كبير في ألمانيا الجنوبية . وقد عني الألمان بالحياة الجامعية كثيراً واهتموا بها ؛ حتى إن الحوادث التي كانت تمر في هذه الجامعات كانت تؤثر فيهم وتستهويهم أكثر من أي حادث يجري في مجلس سيامي ، وكان الجدل بين المدرستين الفلسفيتين ، مدرسة شليرماخر ، ومدرسة هيغيل ، أو الجدل بين اللاهوتيين الكاثوليك ، وعقلاني مدرسة هرمس من جهة ، والأحناف الذين أصبحو بابويين متطرفين بتأثير الإبداعية والبابوية من جهة أخرى .

كانت هذه المنافسات الجامعية أو الفكرية تجتذب ألمانيا كثيراً ، ولنذكر تأييداً لذلك هذا المثال :

في عام ١٨٣٧ ألغى ملك هانوفر الجديد أرنست أوغوست الدستور الذي سبق أن منحه أبوه لها نوفر فاحتج سبعة أساتذة من جامعة غوتنغن ، فعزلهم الملك . وهؤلاء الأساتذة هم : الأخوان غريم ، فيبر مخترع السيليغراف الكهربائي ، والمستشرق **ايفالد** ، وأستاذان في التاريخ أو العلوم السياسية ، **غرفينوس** و **دالمان** . وقد أثار عزل هؤلاء الأستاذة هياجاً كبيراً في ألمانيا ، وبالطبع من غير الحكومات ، عندما رفض الدياط طلب التدخل الذي قدمه هؤلاء الاساتذة . وفي ليبزيغ تأسست حلقة لجمع المال لمساعدة الأساتذة . وفي كل مكان صوت على عرائض على شرفهم . وقدمت إليهم كراسي في جامعات أخرى أو دكتورات شرف .

قضت تدابير القمع هذه قضاءاً تاماً على الحياة السياسية في الجامعات إما بعزل الأساتذة وإما بالرقابة على الطلاب ، حتى ان الطلاب الذين انتسبوا إلى البرشنشافت لم يستطيعوا الحصول على وظائف في الدولة والكنائس والمدارس ، وحرم عليهم أن يكونوا أطباء ومحامين . هذا

ولما لم تكن الحياة السياسية سوى جزء ضئيل جداً من هذه الحركة الجامعية ، ولذا لم يكن لها من أهمية .

وإذا كانت الحياة الجامعية ضعيفة من وجهة النظر السياسية فقد كانت لها دواع أخرى للاعتزاز والفخر . لقد كانت الحركة العلمية عظيمة : في الرياضيات ، والكيمياء ، وعلم الحياة ، وعلم النفس الفيزيائي ، وفقه اللغة ، والتاريخ . ونبغ عدد من المؤرخين مثل **درويسن** المختص بالتاريخ القديم. فقد نشر « تاريخ ماكدونيا » وتكلم فيه عن فيليب ماكدونيا ومحاولة توحيد إغريقية ، كما يتضمن هذا التاريخ تلميحات لتاريخ ألمانيا الحاضرة ؛ والمؤرخ **رانكه** ، فقد نشر عام ١٨٣٤ « تاريخ الشعوب الرومانسية والجرمانية » . وهو مؤرخ يتهن ، وجداني ، واسع المعرفة ، موضوعي لم يشتغل بالسياسة . ولكن تلاميذه خرجوا على هذا الموقف الموضوعي مثل **زيبيل** عام ١٨٣٨ عندما طالب « بحق المؤرخ في الهوى » وطلب من الجامعات أن تتأثر بروح العصر . وبين فقهاء اللغة نذكر **لاخمان** . فقد نشر في عام ١٨٢٦ ، نشرة نقدية للملحمة **النيبيلونغن** ، **وجاكوب غريم** ، نشر عام ١٨١٩ « علم النحو الألماني » ، وفي عام ١٨٢٨ « الحقوق القديمة الألمانية » ، وفي عام ١٨٣٥ « علم الأساطير الألمانية » . وإلى جانب هؤلاء نجد ما هو خاص بألمانيا ، وهو مفسرو الكتاب المقدس . فقد تشكلت مدرسة بكاملها تهتم بالكتاب المقدس ، وتدرس النصوص البدائية والتاريخ البدائي للكنيسة في توبنغن حول **كريستيان باور** . وخرج من هذه المدرسة بعد بضع سنوات كتاب ترك أصداء كبيرة وهو « حياة يسوع » لمؤلفه **دانيل يوواكيم شتراوس** . فقد طبق شتراوس الطرق النقدية والتاريخية على تاريخ يسوع ، وأراد أن يستخلص من هذا التاريخ ما هو تاريخي حقاً ، وما هو أسطوري ببساطة ، وفي آخر تحليله

لم يبق شيء تاريخي من حياة يسوع . فقد فسر يسوع بكامله بأساطير . وأثارت هذه المدرسة التفسيرية حركة حملت على الدين على يد آرنولد روغه، وفويرباخ ، وهذا الأخير تلميذ يساري لهيغيل نشر عام ١٨٤١ مؤلفاً يدعى « جوهر المسيحية » . وانتهى هؤلاء الهياغلة إلى نفي الدين .

وأخيراً تحقق الاتصال بين هؤلاء العلماء بعقد مؤتمرات اختصاصين وخبراء : ففي ١٨٢٢ بدأت مؤتمرات علماء الطبيعة والأطباء ، وفي ١٨٢٨ مؤتمرات فقهاء اللغة ، وفي السنوات التي سبقت الثورة أصبحت هذه المؤتمرات ، كما في إيطاليا ، وسيلة سياسية لنشر الفكرة القومية . وفي ١٨٤٦ بدأ الجرامنة يعقدون المؤتمرات .

ولا شك في أن هؤلاء العلماء ليسوا رجالا سياسيين ، ولكن هذا النشاط الذي قاموا به كانت له أهميته ، لأنه ينمي روح البحث والنقاش النقدي الذي أخذ يصطدم بنظام الرقـــابة السياسية ، وبسبب ذلك ، انقلب إلى استياء من النظام . وعلى نقيض الجمود السياسي كانت هذه الحياة الفكرية نشيطة وأصبحت أماً لروح معارضة . على أن هؤلاء العلماء والفقهاء في اللغة والمؤرخين ، وان كانوا يعملون بصورة منعزلة كل واحد منهم في حقل اختصاصه ، فقد ساهموا في خلق روح قومية متماسكة . و صرح جاكوب غريم في خطاب له عن أعماله في فقه اللغة : « لقد اعتبرتها دوماً عملا كريماً ورصيناً ، موضوعه معين جداً وهو وطننا المشترك وتغذيته بالحب » . وهكذا كانت هذه الحياة الفكرية والجامعية تغذيان الفكرة القومية كما تصورها هردر أكثر مما تصورها العقلانيون الفرنسيون ؛ وعلى أي حال فإن هذا العمل الذي قام به العلماء الألمان كان عملاً طويل الأجل .

الحركة الأدبية . - إن ما يلفت النظر كثيراً هو أن حركة الآداب كانت ذات أهمية كبرى لدى الجمهور وأوسع بكثير من الحركة العلمية . لقد كانت الآداب نشيطة آنذاك ولكن دون كبير قيمة . فقد وجدت مدرسة شعر ، ومدرسة قصاصين ، ومؤلفين مسرحيين . ولكن العظيم في هـــذه الآداب هو أنها قطعت الصلة بالإبـداعية واتجهت نحو ملاحظة الواقع ونحو الطبيعة . والمهم بالنسبة لموضوعنا تشكل جماعة أخذت اسم « ألمانيا الفتاة » ، وبدأت تسهم في حركة جديدة حرة قوميـة تختلف كثيراً عن حركة ١٨١٣ . لأنها كانت حركة فكرية محضة وليست حركة عمل ، وهي من جديد ، كما في القرن الثامن عشر ، حركة مواطنة عالمية وغير مناوئة لفرنسا كحركة عام ١٨١٣ .

لقد وجد هذا العالم الفكري غداة أعمال القمع التي قامت من عام ١٨٣٢ إلى عام ١٨٣٥ في كامل الاضطراب والفتور والخور ، وبدا أن ذل ألمانيا أمام الحكومات شجب الليبرالية بشكل قطعي . وظهر أن الشيء الوحيد الذي يمكن الأمل به هو انقاذ بعض الحريات التي بقيت في المانيا الجنوبية ، وانه ، قبل الحصول على نتيجة في الحقل السياسي ، يجب تحويل ألمانيا معنوياً واجتماعياً . وللقيام بهـذه الثورة المعنوية كان هؤلاء المفكرون الشبان الألمانيون بحاجـــة لمؤثرات خارجية ظهرت في الحرية الفرنسية أو ، وهذا هو الجديد ، في السن - سيمونية . فقـد قامت مدرسة السن - سيمونية في ألمانيا منذ كانون الثاني ١٨٣١ بدعاية كبرى عن طريق الكراريس العديدة الوافـدة من فرنسا . حتى ان صحيفـة « الغلوب » التي أصبحت جريدة السن - سيمونية أخذت تهتم كثيراً بالشؤون الألمانية ، وفي ألمانيا بالذات . ووجـد أدب سن - سيموني لعرض السن - سيمونية أو الرد عليها . ومن هذه السن - سيمونيـة

احتفظ الألمان ، أو على الأقل بعضهم ، ببعض الأفكار ، مثل : معارضة الأغنياء والفقراء ، التي غذت في ألمانيا حركة ديموقراطية جديدة ومحبة للاشتراكية ، ويمثلها شاب يدعى بوخنر ، فقد شكل جمعيات سرية في اقليم هس ونشر رسالة تدعى « الفلاح المسي » ضد الأغنياء وضد الأمراء ، وطالب بالثورة الاجتماعية ، وصرح بأن الذي يسيطر على العالم المعاصر انما هو « مشكلة المعدة الكبرى » وأنشأ في هس « جمعية حقوق الإنسان » مقلداً الجمعية الفرنسية ، وضمت هذه الجمعية أربعين عضواً ، ونشر في عام ١٨٣٤ درامة « وفاة دانتون » وسجن وفر من السجن والتجأ في ستراسبورغ .

وهناك فكرة أخرى ظلت آنذاك نظرية أكثر من غيرها وهي أن الحياة الاجتماعية أهم من الحياة السياسية البرلمانية بكثير ؛ وكذلك فكرة قوة الحركة الصناعية والأهمية التي يجب تعليقها على هذا الشكل من النشاط البشري ؛ وفكرة المواطنة العالمية وإخاء الشعوب اللتين يجب أن تتحدا في رابطة كبرى ، أو تجمع كبير ، لاستغلال العالم . وقد أخذ الألمان عن ذلك نوعاً من صوفية وأفكاراً في تحرير المرأة . وقامت حركة نسائية كبرى متأثرة بالسن ـ سيمونية لصالح حقوق المرأة وتحريرها من نير الرجل .

وهكذا ساعدت السن ـ سيمونية في ألمانيا على تشكيل عقائدية جديدة ، وبادرت في تحقيقات مادية في حياة الألمان الصناعية . وظهرت هذه الروح أو المدرسة الجديدة في حركتين : حركة منتشرة في ألمانيا كلها وتسمى « **ألمانيا الفتاة** » ، وحركة موضعية في الغرب ، في المناطق الرينانية وهي « **الليبرالية الرينانية** » .

ألمانيا الفتاة . ـ هذا ويجب ألا نخلط « ألمانيا الفتاة » مع فرع

« أوربة الفتاة » التي أنشأها ماتزيني . لقد تم الخلط بين الحركتين على حساب الكتاب الشبان الألمان . وفي الحقيقة ، لم يكن أحد من هؤلاء الكتاب الشبان على صلة بمتآمري ألمانيا الفتاة المتشكلة في سويسرا . لقد كانت حركة « ألمانيا الفتاة » في أساسها حركة فكرية وأدبية انتشرت في ألمانيا . وتعتبر من الوجهة الأدبية قطيعة مع الإبداعية الصوفية والمثالية للعودة إلى الواقع المشخص المحسوس ، إلى العقل ، إلى الشعب ؛ ومن الوجهة السياسية حركة تنزع إلى تحرير الأفكار والناس ، وتحرير الحقوق من الهوى ، وتحرير الأمم ابتغاء الحرية والسعادة والسلام .

لقد أتى كتاب ألمانيا الفتاة من مختلف الجهات : كان بعضهم من جماعة الكتاب الوطنيين والأحرار الذين كانوا يلتفون حول مانتزل وجريدة « الصباح »(مورغنبلات) وخاصة حول **غوتزكو**،وكانوا يرون بوجوب تقريب الأدب من الشعب . ووجد آخرون **منعزلون** أتوا من مختلف الآفاق الفكرية مثل الشاعر **لاوبه** الذي تأثر بالليبرالية الاجتماعية بتأثير السن - سيمونية وبتأثير ليست . كما وجد فريق أتى من **الجامعات** مثل **فينبارغ** وكان استاذاً حراً في جامعة كيل . نشر مجلداً يسمى : هولنـــدا في ١٨٣١ و ١٨٣٢ ، ونشر خاصة في ١٨٢٤ مؤلفاً اسمه « حملات جمالية » أهداه إلى ألمانيا الفتاة ، وعلى اثر ذلك أطلق هذا الاسم على مجموع هذا الفريق الأدبي . وأخيراً وجد بينهم أناس أخرجوا ، بسبب وضعهم العائلي أو أصلهم ، من الأطر العادية في ألمانيا ، مثل بورنه ، وهاين ، وهما من أصل يهودي ، ويعتبران زعيمين لحركة ألمانيا الفتاة وقد عاشا في فرنسا ، وكان برنامجها السياسي برنامج الأحرار العادي ، برنامجاً لم يتقدم ، برنامجاً مطبوعاً بطابع جدلي ونقدي ، وهو أكثر نشاطاً وجرأة في الميادين الأخرى منه في الميدان السياسي .

ونتساءل بعد هذا ما هي قيمة « ألمانيا الفتاة » من وجهة النظر القومية ؟ لقد عرف هذا الفريق بتخليه عن كره فرنسا ورجعته إلى المواطنة العالمية ، بل ومدحه فرنسا ، حتى ان هذا المديح أثار استياء ألمانيا ورد فعل ممن حافظوا على روح ١٨١٣ وبخاصة مانتزل . وكان رجال « ألمانيا الفتاة » يهاجمون مانتزل بحرارة . وقام هذا بحملة مماثلة ضد أولئك وحرض السلطات عليهم .

وكان طبيعياً أن تستاء الحكومات الألمانية من روح « ألمانيا الفتاة » النقدية ومن الاضطراب الذي أثارته في عالم الفكر . وأعطيت الأوامر ضد المسؤولين عن هذه الحركة وهم : هاين ، غوتزكو ، لاوبه ، فينبارغ ، موندت ، ولاحقتهم ، فضعف نشاطهم . وظلت حركة « ألمانيا الفتاة » بالجملة حركة سطحية جداً ، باعتبارها قليلة العدد ، ولا تؤلف مدرسة منظمة جيداً . وقد وجد فيها اتجاهان : اتجاه جذري . واتجاه معتدل . على أن الشيء الذي أضر برجال « ألمانيا الفتاة » هو محبتهم الصريحة لفرنسا ، في وقت كانت تبحث فيه ألمانيا عن الإيمان بنفسها وإيجاد رسالتها وثقتها بذاتها . وكانت نتيجة حركة « ألمانيا الفتاة » إزالة التعصب ، الذي لازم روح ١٨١٣ ، بظواهره المختلفة . ثم ان الحركة الوطنية التي قامت عام ١٨٤٠ انتهت بتشتيت « ألمانيا الفتاة » وقضت عليها نهائياً .

الليبرالية الرينانية . - وكان يوازي حركة « ألمانيا الفتاة » حركة أخرى أغنى بنتائجها وهي **حركة الليبرالية الرينانية** .

لم يبق في ألمانيا بعد تدابير القمع التي اتخذت عام ١٨٣٢ إلا مركزان للمنشورات الليبرالية وهما : **شتوتغارت** وناشرها **كوتا** ؛ **وهامبورغ** وناشرها **كامبه** ، مع المنطقة الرينانية التي تؤلف دوماً ، في مجموع ألمانيا ،

كتلة متميزة على حدة ، لأنها تختلف عن باقي ألمانيا اختلافات محسوسة جداً . فقد ظلت عشرين عاماً منفصلة عن ألمانيا وألفت جزءاً من الامبراطورية الفرنسية وتأثرت إلى حد بعيد بالإدارة والنظم الفرنسية وتشكلت فيها صناعة نشيطة وطبقة بورجوازية غنية ومستنيرة وكانت متعلقة ، بتأثير الأفكار الفرنسية ، بفكرة المساواة وضمانات الحرية الفردية وحرية الصحافة .

في العام ١٨١٥ وثق الرينانيون ببروسيا هاردنبرغ وشتاين حتى ان بنزانبرغ أحد المؤلفين الرينانيين طلب دمج المنطقة الرينانية ببروسيا بموجب دستور حر يمتد على هذه المنطقة . ولكن الرينانيين وجدوا أنفسهم أمام بروسيا جديدة تختلف عن بروسيا التي أعلنت عنها بيانات هاردنبرغ وشتاين ، بروسيا المتعلقة بتقاليدها الشخصية ونظام الضابطة القاسي ، بروسيا التي تحاول الحكومة فيها أن تستعيد امتيازات الطبقة النبيلة واعادة الأطر الإقليمية القديمة التي تعطي كامل السلطة لهذه الطبقة مع السياسة الرجعية وسياسة التمذهب بالبروتستانتية . يضاف الى ذلك الازمة الصناعية التي ترجع خاصة الى منافسة المنتجات الانكليزية التي تدخل عن طريق الراين وهانوفر . ولهذه الاسباب المختلفة كلها ولى الرأي الريناني وجهه بسرعة عن الحكومة البروسية التي دخل في جسمها .

بدأ الرينانيون بمقاومتهم في عدة نقاط : كانوا يطالبون بالحق الريناني الذي أخذوه عن التنظيم الفرنسي ، وبالتنظيم البلدي الذي وضع زمن فرنسا دون ما تمييز بين البلديات المدنية والبلديات الريفية على خلاف النظام البروسي الذي يميز بين المدن والبلديات في الأرياف ، كما أن أوساط الأعمال شايعت بروسيا ولكنها ما لبثت أن أعربت عن استيائها من البوروقراطية البروسية واستبدادها .

وانقلب هذا الاستياء إلى حركة مقاومة ولدت نعرة رينانيـة تقاوم أي حركة صهر وذوبان مع بروسيا . وجدت هذه النعرة تعبيراً لها في مؤلفين : ففي ١٨٣٩ نشر رينـاني في فرنسا يسمى **جاكوب فينيدي** كراساً بعنوان : « بروسيا والبروسية » اتهم فيه بروسيا بعنف وصرح بأن بروسيا الرجعية لا يمكن أن تكون وطن الرينانيين . والكراس الآخر يتعلق بكراس فينيدي ، وقد ظهر في فرنسا أيضاً على يد فرنسي يسمى **فايي** ويحمل هذا العنوان « بروسيا وسيطرتها على ضوء العلاقات السياسية والدينية وخاصة في الأقاليم الجديـدة » وفيـه عرض لنظريات الرينانيين عن ميزة النظم الفرنسية والحق الريناني التي تعارض نظـم بروسيا . ويؤكد المؤلف على وجود ليبرالية خاصة ذات نعرة أمام بروسيا ، ويقول : « توجد سيطرة بروسية ، ولكن لا توجد أمـة بروسية » . حتى ان الرينانيين لا يعتبرون بروسيا دولة ألمانيـة بل دولة سلافيـة ويعارضون هـذا العرق غـير النقي « بالعرق الألماني النقي القديم لضفتي الراين » .

وهذه النعرة الرينانية وإن كانت تشعر بتعاطف مـع فرنسا ، فهي لا تعني بأن الرينانيين لا يشعرون بأنهم ألمان ، حتى ان فينيدي نشر في بدء عام ١٨٤٠ كراساً : « فرنسا وألمانيا الرينانية » وفيـه يؤكد النعرة الرينانية وتعاطفها مع فرنسا ، ويدل مع ذلك على أن الرينانيين يحسون بأنهم ألمان . و تأسست في رينانيا مجلة « الحوليات الرينانية » وغرضها جمع الذكريات والوثائق المتعلقة بالحضارة الرينانية .

وهكذا يرينا تطور الأفكار في ألمانيا استمرار وجود عاطفة قومية وقد حافظت هذه العاطفة عند بعضهم على روح ١٨١٣ — ١٨١٥ ، ولكن هذه الحركة القومية تفوقت عموماً بالعاطفة الليبرالية وبالمطالبة بالحريات ،

حتى ان الليبرالية الألمانية ، في مجموعها ، عادت إلى الافكار الفرنسية . وإن سياسة الحكومات الرجعية ، وبخاصة سياسة بروسيا ، قوت النعرة الاقليميه في الحكومات نفسها وعززتها بالحقد الذي أثارته بروسيا وسياستها ، وبضرورة الحصول على حريات قبل كل شيء : وهذا هو المهم ، لأن المطالبة الليبرالية مرت قبل المطالبة القومية ، وهذه الحريات لا يمكن الحصول عليها إلا في النطاق المحلي . وبالتالي نزعت القومية الالمانية بين ١٨٣٠ و ١٨٤٠ إلى استعادة الشكل القديم لعاطفة ثقافة عامة مشتركة في كل ألمانيا ولا شك ، ولكن دون أن تبغي تحقيق ذاتها بشكل وحدوي على الصعيد السياسي .

٣ – العناصر الجديدة في القومية الألمانية

يرى بعد ١٨٤٠ تشكل عناصر جديدة في العاطفة القومية الألمانية . لقد جرى تطور مماثل لما شهدناه في إيطاليا ، وتغيرت الافكار وتسارعت الحوادث ، ولم توضع القومية في ألمانيا فحسب ، بل أصبحت قضية أوربية وكان الجو المعنوي يتحول واتجاه الآراء يتغير وراء الجمود الظاهر الذي نراه في النظام السياسي .

الأزمة المصرية عام ١٨٤٠ . – إن أول عنصر في هذا التحويل خارجي وهو الأزمة الدبلوماسية التي كادت تضع أوربة عام ١٨٤٠ في حرب بسبب القضية الشرقية ونزاع عزيز مصر محمد علي مع الحكومة العثمانية .

لقد كانت ألمانيا أمام هذه القضية في أول الأمر هادئة تماماً وغير مبالية ولا تضمر عداء أو إرادة سيئة لفرنسا ، وحاولت حكومتا النمسا

وبروسيا الوساطة بين الزعيم بالمرستون والحكومـة الفرنسية ، وأعلمت الحكومة البروسية بأنها لا تريد أن تجر في خلاف ، ووضعت شرطاً لتعاونها مع الحكومة الانكليزية في القضية الشرقية وهو الحياد في السياسة العامة . إلا أن الأزمة الشرقية أشعلت في فرنسا ثورة في الرأي ، وولدت عند الحكومة الفرنسية سياسة جرأة متحذلقـة متكلفة وبلفاً عسكرياً يوجهه تيير ، وعبر بعضهم عن الدفع القومي والحربي بمطالبة فرنسا بالضفة اليسرى لنهر الراين . وكان لمقالات جريدة «القومي» بخاصة مغزاها في هذا الصدد .

أمام هذه الحركة الفرنسية في الرأي ، كان رد الفعل الالماني مباشراً، فقد استيقظت ، بعد فترة الخور والخبال ، روح ١٨١٣ . وشعر ألمانيو الغرب خاصة بالقلق ، لأن ألمانيا الغربية كانت منزوعة السلاح تقريباً ، والحصون الاتحادية غير موجودة ، وألمانيا الجنوبيـة مفتوحة للغزو . وكانت بروسيا وحدها تستطيع أن تتخذ ، وقد اتخذت ، احتياطات عسكرية . وقد أثار هذا القلق حركة رأي عنيفة للغاية وعاد العسكريون مباشرة إلى روح ١٨١٥ . وأكد شارنهورست بأن الحرب حتمية بين فرنسا وألمانيا ، وستؤدي إلى تقسيم فرنسا وقال : « يجب ابادة فرنسا وإلا فلن يكون الله في السماء » . وكان الضابط ، الذي سيتكلم عنه في المستقبل ، وهو الكونت فون مولتكه ، يطالب بالالزاس : « إن كل ما أضافته فرنسا الى حدودها الشرقية منذ القرن الثالث عشر إنما هو نهب من ألمانيا » . واستيقظ أدب يذكر بأغاني حرب ١٨١٣ وأشهر هذه المظاهرات أغنية نيقولا بيكر في « الراين الألماني » التي تليت في مسرح فرنكفورت في ١٥ تشرين الأول ١٨٤٠ وسط حماسة لا توصف ،

وأخذ مائتا مؤلف موسيقي يلحنون شعر بيكر . وهناك أغنية ثانية أصبحت شهيرة وهي « حرس الراين » ألفها شنيكنبورغر ولحنها الموسيقي شارل غليوم وأصبحت أغنية القومية الالمانية عام ١٨٧٠ ، وأخيراً أغنية ثالثة أصبحت في ألمانيا أغنية الحرب عام ١٩١٤ وهي نشيد « ألمانيا فوق الجميع » لمؤلفه هوفمان فون فاللوسلبن . وفي ١٨٣٠ انتهى بناء كاتدرائية كولونيا وكانت مناسبة لعيد كبير لم يكن رينانياً فحسب ، بل وقومياً ، وفيه شرب ملك بروسيا وملك فرتامبرغ الانخاب على شرف « الوطن المشترك .

إن ما يميز بصورة خاصة هذه الرجفـــة الوطنيـة والعودة إلى روح ١٨١٣ - ١٨١٥ هو قيام المظاهرات في بلاد الراين ، أي في هذه البلاد التي تأكد فيها في السنوات السابقة التعاطف مع فرنسا ، ولا ننسى أن بيكر كان رينانياً ومسجلاً في محكمة كولونيا . ونشر ريفوس ، وكيل جامعة بون رسالة بهذا العنوان : « رسالة بروسي رينانّي إلى السيد موغـّن »وكان موغن هذا زعيم يساري فرنسي وأحد الوطنيين الذين يطالبون بضفة الراين اليسرى ، وكتب فيها : « وهل من الممكن أن تعتقدوا بأقل بقية تعلق من قبل سكان الاقليم الريناني بفرنسا ، وبأمنيتهم بالعودة تحت سيطرتها » . وقال : « لقد وجد في المنطقة عطف على فرنسا منذ عشرة أعوام ، ولكن هذا لا يمنع من أن الرينانيين ألمان ويحسون بأنهم ألمان ، وكيف يمكن أن نتعامى عن شرفنا القومي وعن مصالحنا المادية والمعنوية لنرغب في الانفصال عن أمة نشاطرها الذكريات منذ قرون عديدة » .

وهناك شواهد كثيرة عن هذه الحركة في الرأي ضد فرنسا في تقارير حكام كولونيا ودوسلدوف وتريف ، أو في حملات الصحف الرينانية

آنذاك ، ولنذكر أن فينيدي في باريس اضاف الى كراسه السابق كراساً ثانياً يسمى : « فرنسا وألمانيا وحلف الشعوب الأقدس » وفيه يوسع هذه الفكرة وهي أن الأطماع الفرنسية في الراين عقبة في مصالحة الشعوب . ويقول : هذه الاطماع وهمية لأن الأقاليم الرينانية ألمانية باللغة والعادات والأفكار والعواطف .

وهكذا كانت أزمة ١٨٤٠ في المنطقة الرينانية ، نقطة انطلاق لتغيير مفاجيء لصالح بروسيا وبالتالي تغييراً في اتجاه الليبرالية الرينانية .

ولم تدم هذه الشعلة الوطنية الألمانية . ولكنها كانت هامة ، لأن الأزمة أيقظت الوطنية بعد أن كانت تبدو منطفئة ، وبرهنت على وجود حقد على فرنسا يعيش بغموض في الأفكار والقلوب الألمانيـــة . وفي الحقيقة ، ان هذه الوطنية المناوئة للفرنسيين كانت دعامة حقيقية للعاطفة القومية في ألمانيا . وهكذا قتلت أزمة ١٨٤٠ نهائياً المواطنة العالمية في ألمانيا وصفت نهائياً حركة « المانيا الفتاة » .

القومية الاقتصادية . — والعنصر الآخر في تحويل الأفكار هو ظهور شيء جديد تقريباً وهو القومية الاقتصادية . لقد كان هـذا الدور دور نهضة اقتصادية في ألمانيا ، ونهضة المناطق الرينانية خاصة . فقـد بدأت مكننة الصناعة ، وازداد عدد أنوال نسيج القطن وعدد الآلات البخارية في ظل النظام الاقتصادي الجديد . وبدأت الصناعة المعدنية الكبرى تظهر في المنطقة . فقد شيد أول فرن عال على الكوك عـام ١٨٤٠ وشرع باستغلال حوض الرور ، وازداد عدد السكان بشكل سريـع ، وأصبحت القرى في هذه المنطقة مدناً ، والمدن الصغرى مدنـــاً كبرى ، مثل كولونيا ، البروفيلد . واتسع نطاق استخدام الآلة والمواصلات بانشاء

الخطوط الحديدية في مناطق ألمانيا الغربية ، ومع هذا فان حركة تجديد الصناعة والنظام الاقتصادي لم تكن الا في بدايتها . وبصورة خاصة كان النظام المصرفي غير كاف جداً . ولم يقتصر هذا النمو الصناعي على الأقاليم الرينانية ، بل وجد أيضاً في ساكس ، حيث نمت صناعـــة الأقمشة والأجواخ والانسجة القطنية وصنع الآلات الموسيقية . وأصبحت ليبزيغ مستودعاً من مستودعات أوربة الكبرى ، وغدت كمنيتز وزويكاو مدينتين كبيرتين لصناعة النسيج والصناعة المعدنية . وكذا الحال في تورنجه وفي فرانكونيه . وبدأت برلين بنموها الصناعي . ففي ١٨٣٧ أسست المعامل الكبرى للمنشآت الميكانيكية وخاصة القاطرات البخارية « بورسيغ » ، وأنشئت معامل كبرى لصهر المعادن في ضاحية برلين القريبة .

وكان هذا النمو الاقتصادي سبباً في اعتزاز الالمان . واعتـــبروا أنفسهم أنهم أعطوا بذلك مثلا للعالم . وتكلم الوزير البروسي بونسن عن « أكبر اكتشاف في العصر أي عن وجود قومية ألمانية وكونفدراسيون شعوب قائم عليها » ، وشارك جميع الأمراء الصغار بهذا التمجيد . على أن الشيء الذي يلفت النظر مباشرة ، وحتى من وجهة النظر الاقتصادية ، هو أن هذا الاعتزاز عبر عنه برغبة التوسع في الخـــارج وخاصة من جهة بلجيكا .

فريديريك ليست . - كان نظري هذه القومية بشكلها الجديد فريديريك ليست . فقد كان نائباً عام ١٨٢٠ وتعرض مركزه للخطر بسبب حريته . ونفي وعند عودته حكم عليه بالسجن . ثم ذهب إلى أمريكا حيث رافق لافاييت في ١٨٢٥ ومنها عاد إلى ألمانيا عام ١٨٣٢ أي حين تحقق الاتحاد الجمركي (تسولفرلين) الذي امتدحه عام ١٨١٩ ،

ولكنه تحقق بشكل يختلف عما تصوره ، لأن هذا الاتحاد كان ناقصاً ، ولأنه كان اتحاداً جمركياً صنعته بروسيا ضد النمسا ، بينما تصوره منظمة عامة لألمانيا محتوية النمسا ، وكانت تعرفات هذا الاتحاد الجمركي منخفضة وتقدر وسطياً بنسبة ١٠ ٪ ولذا كانت الأوساط الصناعية تطالب لتشجيع نموها ، بالحماية الجمركية . وعندما أريد تجديد الاتحاد الجمركي قامت هذه الأوساط بحملة لصالح تعرفات حامية ، واشترك ليست في هذه الحملة فنشر عام ١٨٤١ مؤلفاً عظيم الأهمية بعنوان : « نظام قومي للاقتصاد السياسي » . وهذا المؤلف ليس مؤلفاً مذهبياً أو فلسفة اقتصادية ، بل هو مؤلف يتوجه إلى السواد الأعظم من الناس وصادر عن نظرات عملية وواقع . وفيه ينطلق المؤلف من هذه الفكرة : ما هي الشروط الضرورية ، من وجهة النظر الاقتصادية ، لبلد ناشىء ، بلد آخذ بتكوين صناعته التي هي شرط عظمة المستقبل ، أمام منافسة دولة تسحقه بفضل تفوق آلاتها وقوتها الاقتصادية ألا وهي انكلترا ؟ لقد انطلق ليست من وجهة النظر هذه وأراد أن يفيد الألمان من التجربة الاقتصادية التي علمتها إياها ملاحظة فرنسا وملاحظة الولايات المتحدة ، وبخاصة هذا الحل الذي تبنته فرنسا والولايات المتحدة لتنمية صناعتها الناشئة ، وهو الحماية الجمركية . وأراد أن تستفيد ألمانيا من التجربة التي رآها في الولايات المتحدة .

انتقد ليست مدرسة الاقتصاديين الاحرار ، لأن هؤلاء لا يرون في العالم الاقتصادي الا شيئين : الأفراد والمصالح الفردية ، في أساس الاقتصاد السياسي الذي يتصور نقطة انطلاقه في غنى الأفراد ورفاههم ، وفي الطرف الآخر ، جماعة الناس ، التي ترى العالم الاقتصادي كلا تسيره الحرية والوحدة الاقتصادية العامة التي تفترض الحرية والسلام . ولكن ليست يرى أن نتيجة الحرية الاقتصادية ليست الا تضحية العالم كله لصالح

بلد يجد نفسه متقدماً اقتصادياً ، واقتصاده فاتحا . ولذا ، كما يقول ليست يجب أن ندخل بين الفرد ومجموع العالم الاقتصادي ، حداً وسطاً وهو الأمة التي صرف الاقتصاديون الاحرار نظرهم عنها ، ومع هذا فان كل إنسان يؤلف جزءاً من أمة ، والرفاه الفردي يتعلق بقوة الأمة السياسية والاقتصادية. وعليه يجعل ليست الأمـــة هدف الاقتصاد السياسي ، لا الفرد أو الرفاه العام كما يريد الاقتصاديون الأحرار . وهو يرى أن الدولة أو الأمـــة ليست تجمعاً سياسياً أو اخلاقياً معنوياً وحده التاريخ ، بل هي أيضاً تجمع اقتصادي ، وهـــذا التجمع الاقتصادي يعطي الدولة درجة قوتها وسياستها .

بيد أن جميع الدول ليست في درجة سياسية واحدة ، ولا تستطيع جميعاً أن تصل الى درجة اقتصادية واحدة . ولذا يرى ليست تسلسلا وتعاقباً في الدرجات الاقتصادية بعضها بعد بعض ، أولاً : « الحالة الهمجية » ، ثم « الحالة الريفية » ثم « الحالة الزراعية » ، ومن بعد « الحالة الزراعية ـ المصنعية » ، وأخيراً في الذروة ، رأس التسلسل الاقتصادي ، نقطة وصول التاريخ الاقتصادي كله « الحالة الزراعية المصنعية التجارية » . ان السياسة الاقتصادية والتجارية لبلد من البلدان يجب أن تخدم المثل الاعلى التاريخي والسياسي ، وأول ضرورة له هي وجود مصانع ، ووجود تنمية صناعية . وان هدف الدول يجب ألا يكون فقط في أعاشة الأفراد الحاليين ، والغنى الحالي لهؤلاء الافراد ، بل يجب أن يتصور المستقبل ويسعى الى تنمية « القوى المنتجة » ، وقد يتطلب هذا تضحيات في الحاضر ، ويجب عند الحاجة ، تضحية مصالح الحاضر لتنمية المستقبل .

ويرى ليست أن القوى المنتجة في بلد من البلدان مختلفة الأصل . ويأتي أولا النظم الحرة المعنوية والسياسية ، ولذا يلحق بنظرياته برنامج

الليبرالية ويدمجه بها . ولكن الى جانب هذه المجموعة من النظم المعنوية الحرة تبقى الصناعة المصنعية شيئاً اساسيا في القوى المنتجة . ولا تقتصر هذه الصناعة على خلق ثروات ، بل يكون لها نتائج معنوية . فالصناعة في الواقع تنمي عند الأفراد الرغبة في زيادة دائمة ، والتنافس بين الناس ، والرغبة في الحرية ، على حين أن الزراعة ، على العكس ، تولد الكسل وتعود الفكر على الخمول ورتابة العيش . وأخيراً الصناعة قوة تخلق الرأسمال والعمل معاً . وفي هذا المعنى المزدوج يجب أن تعمل الأمة ، منمية حرياتها الداخلية والمعنوية والسياسية ، ومنمية صناعتها قبل كل شيء

ولتنمية هذه الحريات والصناعة يرى ليست تبنّي نظام الحماية الجمركية ولكن حماية ليست مطلقة لأن هدف الحماية تربيّة الامة على الصناعة، ويمكن أن تكون أيضاً دفاعاً عن أمة متأخرة ضد منافسة أمة أقوى منها وأكثر تطوراً . وعلى هذا النحو تكون وسيلة دفاع ألمانيا ضد انكلترا . ولكن هذه الحماية يجب ألا تدوم إلا إلى الحين الذي تبلغه التنمية الضرورية للصناعة . وليس هذا من قبيل القول المطلق : فمتى تشكلت الحركة الصناعية وانطلقت يجب أن تكف الحماية . وأخيراً يجب ألا تطبق هذه الحماية على الزراعة وعلى إنتاج السلع الضرورية للحياة .

وتابع ليست حملته لصالح الحماية التي دشنها مذهبه القومي ، ونشر عدة كراريس في السنوات التالية ولا سيا مجلة خاصة أسسها عام ١٨٤٣ وتسمى « صحيفة الاتحاد الجمركي » . ووسعت هذه المنشورات حملة الحماية . وليست التعرفة الجمركية في نظره الا وسيلة تنمية صناعية ، غير أنه يتصور وسيلة أخرى وهي تنمية الخطوط الحديدية .

وهكذا ينسب ليست للدولة دوراً هاماً في الحركة الصناعية . فكما

أن الدولة مكلفة بتحقيق الوحدة السياسية في البلاد والبقاء عليها ، كذلك عليها واجب في خلق وحدتها الاقتصادية والحفاظ عليها . وعلى الدولة أن تسهر على إلحاق المصالح الخاصة الفردية بالصالح العام ، وأن توطد حرية المبادلات الداخلية وأن تنشىء على الصعيد القومي ، شبكة المواصلات ، وأن تسهل أمر انتقال النقد بطريق مصارف الدولة ، وعليها مهمة توحيد التشريع الاقتصادي . ويعطي ليست الدولة ، على عكس الاقتصاديين الأحرار ، سلطة تدخل كبرى في الحياة الاقتصادية ، ويرى أن الدولة قوة قومية حركية نشيطة ، ودورها فاعل في الاقتصاد وغير جامد .

وكان لنظريات ليست هذه تطبيقاتها الخاصة في ألمانيا . فهو يرى أن ألمانيا تضم في الواقع ، وفي أسمى درجة ، عناصر القوة الاقتصادية ، ولكنها ، لتحقيق هذه القوة الاقتصادية ، بحاجة لأن تتوحد وتدافع عن نفسها ضد الأجنبي . وهي تستطيع ، وبالتالي عليها أن توسع نطاقها الاقتصادي . ويقول ليست : « ان لهولندا والدانيمارك وبلجيكا ما يجعلها تربح بتشكيل دولة بحربة واحدة ، وعليها أن تعتبر اندماجها في قومية كبرى أمراً مرغوباً وضرورياً » . فهو يرى المانيا تشمل في نطاق اقتصادي وحيد ، وحتى في دولة وحيدة ، هولندا والدانيمارك وبلجيكا . ولكنه ينظر إلى جهة الشرق أيضاً فيرى أن هونغاريا ضرورية لألمانيا ، لأنها المفتاح الذي يفتح لألمانيا تركيا والشرق ، وعندئذ « تنعش النار الهونغارية برودة المزاج الألماني » . فهو إذن يعطي ألمانيا ، من وجهة النظر الاقتصادية ، رسالة : « إن العناية الإلهية ، بما لا يدع مجالاً للشك ، قد اختارت العرق الجرماني بسبب طبيعته وطبعه ، لحل هذه القضية الكبرى وهي : توجيه شؤون العالم كله وتحضير البلاد الهمجية والبربرية ، واستيطان البلاد التي مازالت خلواً من السكان .

يوجد إذن في نظريات ليست أصالة . فهو يتصور الاقتصاد بمظهر القوة ويريد أن يبني الوحدة الالمانية على اقتصاد صناعي . وهو في هذه النقطة أصيل ، ولكنه يدخل أيضاً في تماس مع المفكرين والفلاسفة والادباء ، أو مع الفصحاء السياسيين ، الذين رأيناهم ، عندما يجد فكرة رسالة مسيطرة تدعو الحكمة الالهية ألمانيا لها . ويبدو ، كما في الوحدة السياسية ان مفهوم الوحدة الاقتصادية في ألمانيا ، في أصله ، امبريالي ، ومن عجب في هذا المضمار ، كما في المضمار السياسي ، أن تخامر الافكار الالمانيـــة الأحلام الواسعة في الوحدة والسيطرة السياسية والاقتصادية على العـالم ، في وقت كان فيه ضعف ألمانيا وعدم وجودهـا سياسياً واقتصادياً حادثـاً واقعيـــاً .

رسالة القومية الالمانية . — إن الرجفة الوطنية التي تملكت الألمان عام ١٨٤٠ ، أدخلت الفكرة القومية ثانية في برنامج الأحرار . غير أن هذه الحركة لم تكن خاصة بالمانيا وحدهـا . فقد نمت العاطفـة القومية في ايطاليا ، وفي دول النمسا . ولم يعد هنالك موضع لبحث في « ألمانيا الفتاة » أو في المواطنة العالمية التي أدخلتها هذه الجمعية ثانيـة في الحزب الليـبرالي . إن الجامعيين هم الذين يتزعمون الحركة الألمانيـة وينطلقون لنشر الرسالة القومية ، ونخص بالذكر المؤرخين والحقوقيين ، وعلى رأسهم أستاذين جامعيين وهما : دالمان وغرفينوس .

دالمان (١٧٨٥ — ١٨٦٠) . أصله من أقليم مكلامبورغ ، وقضى شبابه في الدانيمارك ، وأتم دراسته الثانوية في كوبنهاغن ، ثم عـاد إلى الدانيمارك بعد بضع سنوات قضاها من جديد في ألمانيا أستاذاً في جامعة كيل ، عام ١٨١٢ . وفي عام ١٨١٥ أصبح أميناً لنواب شلزفيغ —

هولشتاين . وفي بضع سنوات ظهرت وطنيته الالمانية بدعاية حقيقية فأثارت الشعب الالماني في الدوقيتين ، وبخاصة هولشتاين ، ضد الحكومة الدانياركية . ثم عين دالمان أستاذاً للتاريخ والعلوم السياسية في جامعة غوتنغن عام ١٨٢٩ ، وصادف وجوده فيها عندما احتج الاساتذة على تعليق الدستور من قبل الملك الجديد ، فعزل من منصبه مع ستة آخرين من زملائه عام ١٨٣٧ ، واستقبلته جامعة بون حيث عين استاذاً للعلوم السياسية أيضاً .

بدأت شهرة دالمان عندما نشر في عام ١٨٢٢ و ١٨٢٣ « أبحاث في مضمار التاريخ الالماني » . وهذا العنوان يعني اتجاهاً خاصاً ، لأن دالمان يحاول فيه أن يبين الامتداد الأرضي لالمانيا التاريخية . ثم فرض دالمان نفسه بمرجع كبير أصبح كلاسيكياً ، في « مصادر تاريخ ألمانيا » في ١٨٣٠ . ويزعم دالمان بأنه يحتقر الأحكام « المسبقة » ولا يعتمد إلا على الحوادث التاريخية ، وعلى الوثائق ، وبالتالي بأنه غير نظري وتجريدي ، وبأنه على العكس واقعي . ونجد في أفكاره التاريخية تقليداً أو إلهاماً من بعض أفكار وطرق أغستن تييري وغيزو في تفوق الطبقات الوسطى .

وكان في الوقت نفسه صاحب مذهب لأنه يعتقد بأهمية النظريات : وعنده شعور سام جداً برسالته ، وقد أوحت إليه هذه العاطفة بتعنت مذهبي وخاصة في السياسة . فهو لا يقبل بالحل الوسط أو التسوية . وقد نشر في ١٨٣٥ مؤلفاً خرج فيه عن التاريخ واسمه « السياسة على أساس الحالات المعطاة وقدرها » . وهذا الكتاب ، كما يرى من عنوانه ، نوع من مذهب سياسة تجريبية ، كما نقول اليوم ، وفيه يرى دالمان أن بروسيا

قد تحولت إلى دولة ليبرالية ، ولذا يجب أن تكون مبدأ لتجمع الدول الألمانية حولها . ومنذ العام ١٨٤٠ اشتغل دالمان بالسياسة والتاريخ معاً ونشر من ١٨٤٠ إلى ١٨٤٣ « تاريخ الدانيمارك » في ثلاثة مجلدات ، وهذا التاريخ مفعم بالروح القومية الألمانية ، ثم أصدر بعد ذلك مؤلفات تبسيط ذات أهمية سياسية مثل : « تاريخ الثورة الإنكليزية » في ١٨٤٤ ، وتاريخ الثورة الفرنسية في ١٨٤٥ .

غورفينوس (١٨٠٥ - ١٨٧١) . - كان غورفينوس هسياً من دارمشتات ، ومن أصل شعبي غير بورجوازي مثل دالمان . اشتغل في البدء مستخدماً تجارياً وأتم دراساته بنفسه ، وانتقل من الدكان إلى الجامعة ودعم أطروحة الدكتوراه عام ١٨٣٠ وأصبح أستاذاً في جامعة هايدلبرغ ثم أستاذاً في جامعة غوتنغن ، وعزل مع دالمان عام ١٨٣٧ . وكانت دروسه في جامعة هايدلبرغ أساساً لعمله الأصلي ودراسته . وقد اقترح على ناشره أن يختار ، كما يريد ، « تاريخ الأدب » أو « تاريخ السياسة » في ألمانيا . وأخيراً غلب الأدب ، ونشر من ١٨٣٥ إلى ١٨٤٢ خمسة مجلدات في « تاريخ الأدب الشعري الألماني » ، وهذا التاريخ قدح حقيقي ، ودراسة سياسية وجدلية تتوجه خاصة إلى الشبيبة الألمانية ، هدفها توجيه الشبيبة نحو الواقع ونحو السياسة . ويقول غورفينوس . لقد انتهى زمن الأدب المحض ، وغرضه من هذا التاريخ الضخم أن يبين أهمية ألمانيا في الحركة الفكرية ، وأن يقيم بأنه يجب أن يكون لألمانيا في العالم السياسي مكانة تتفق مع المكانة التي عرفتها في عالم الفكر . وفي عام ١٨٤٢ نشر مختصراً لهذا التاريخ وجعله في متناول الجمهور ، وبعد ١٨٤٥ أخذ ينشر رسائل سياسية في موضوعات مختلفة .

ينقص غورفينوس الموهبة والشعلة ، ولكنه فكر قوي متين ،

متحذلق عنيد في مفاهيمه أكثر من دالمان ، وأقل اندفاعاً منه ، ولكنه أكثر تعلقاً بالحرية وسيرفض ، أثناء سياسة بسمارك ، أن يضحي بالحرية في سبيل الوحدة ، على أنه يقبل بأن تصنع بروسيا ألمانيا ولكن شريطة أن تكون بروسيا ليبرالية .

لقد كان تأثير هذه الدعاية بالأساتذة وبالتاريخ في ألمانيا أكثر منها في أي بلد آخر ، والألمان يؤخذون بالتاريخ أو على الأقل بالتاريخ المصطنع ، ففي عام ١٨٤٣ نجد المؤرخ في التاريخ القديم درويسن ، الأستاذ في جامعة كيل ، يلقي خطاباً عظيماً بمناسبة الذكرى الألفية لمعاهدة فردن ، وفيه يجري مقارنة محزنة بين عظمة جرمانيا في زمن معاهدة فردن وفي السنوات التالية وبين حالتها الحاضرة : « إن اخوتنا في الألزاس ينكروننا ، إن اخوتنا في بلاد النظام (الرهبنة) التوتوني لا يؤلفون جزءاً من الكونفدراسيون الجرماني ، وإن اخوتنا الألمانيين في الشرق البعيد مهددون في نبتة حياتهم القومية » . ولكنه لم ييأس ، وأهاب بالجهد الضروري من جميع الألمان لصنع ألمانيا الموحدة من جديد .

وكان هؤلاء المفكرون يلحون على القومية الألمانية أكثر مما يلحون على الحرية . وقد التف حول هؤلاء الزعماء الجامعيين الكبار كتاب من مختلف أجزاء ألمانيا ، للعمل معاً ، وجمعهم معاً كرههم للاستبداد وهواهم القومي . وأسس غرفينوس في هايدلبرغ ، في تموز ١٨٤٧ ، جريدة باسم « الجريدة الألمانية » للتعبير عن آراء هذا الحزب . وكان يوجهها مع ثلاثة كتاب آخرين: هوسر ، ماتي ، ميتلماير . وكان الكتاب والجريدة يفضلون في كتاباتهم اتحاداً كونفدرالياً لجميع ألمانيا وفي الوقت نفسه حكماً دستورياً في كل دولة ، وفي ذلك ما يرينا اختلاط الحرية والقومية

وعلى يسار هذه الحركة تشكلت حركة راديكالية ذهبت حتى الاشتراكية وقد خرجت من جناح هيغيل الأيسر ، وكان لسان حالها جريدة تسمى « حوليات هاليه » التي يديرها روغه ، وفي بعض الوقت « الصحيفة الرينانية » التي تأسست لتكون بديلاً لـ « حوليات هاليه » في الشرق وكان لهؤلاء الراديكاليين ناد في برلين ويسمى « نادي الرجال الأحرار » وتعلقوا بفلسفة فرويرباخ وشتراوس ، وكانوا يناوؤون المسيحية . وهم ، على عكس المؤرخين ، نظريون ، متكلمون يريدون إصلاح الدولة والمجتمع طبقاً للنظريات ، ولأفكار هيغيل في التقدم . وكان المحرك لهذه الحركة الراديكالية في خارج ألمانيا أكثر مما في داخلها ، ويضم اللاجئين الألمان في فرنسا . فقد أصدروا في باريس جريدة تسمى « إلى الأمام » وألفوا نوادي مثل « نادي العادلين » عام ١٨٣٦ ، واهتموا قبيل ثورة ١٨٤٨ بتشكيل « عصبة الشيوعيين » وانتظموا حول ثلاثة رجال : فايتلنغ ، وآنغلز الذي نشر عام ١٨٤٠ مؤلفاً يعتبر أساساً في الدراسة العلمية للاشتراكية ، وهو « وضع الطبقات العاملة في انكلترا » ، وأخيراً كارل ماركس ، وكان في ذلك الحين مجهولاً . وكانت باريس وبروكسل نقطتي انطلاق هذه الحركة الراديكالية .

وهؤلاء الرجال وإن أقسموا اليمين على كره فرنسا ، وإن كان حزبهم في أصله يرجع الى الحقد على فرنسا ، فقد كانوا مشبعين بالأفكار الليبرالية والقومية الفرنسية . لقد ترك الدوق أرنست دوساكس كوبورغ مذكرات هامة جداً عن هذا الدور ، وخاصة عن أصول الوحدة الألمانية وسياسة بسمارك ، وكتب في مذكراته : « لا يمكن تكوين فكرة عن النفوذ والسيطرة اللذين كانت تمارسها فرنسا في حياة ألمانيا السياسية قبل ١٨٤٨ . لقد كان لـ لوي بلان جمهور من القراء وربما كان بقدر ما كان له في فرنسا .

وكانت الكتابات الراديكالية أكثر من غيرها تنفذ حتى الطبقات الدنيا في الشعب ، واذكر بوضوح انني دهشت ، في رحلة قمت بها في شبابي ، عندما رأيت كيف يجد الإنسان بوسائل مواصلات ضعيفة ، حتى في القرى النائية ، كتباً وكراريس يقلق وجودها الشرطة » . وقد ساعدت الأزمة الاقتصادية التي بدأت عام ١٨٤٦ هذه الحركة الراديكالية المشربة بالاشتراكية والمدموغة باضراب مدو قام به الحياك في سيليزيا وأظهر قيمة المشكلة الاجتماعية .

ولكن هذه الحركة الفكرية التي تنزع إلى التجديد لم تبق في أوساط المفكرين . فقد نفذت أيضاً إلى أوساط السياسيين ، مع بقائها في هذا الوسط الجديد أكثر خجلاً في خططها مما كانت في أوساط المفكرين . لقد كانت فكرة وبرنامج السياسيين ، في هذا الحزب القومي والليبرالي ، إصلاح الكونفدراسيون الجرماني وإحلال دولة فدرالية محله . وكان زعيمهم نائباً هسياً وهو هنري دوغاغرن وسيصبح رئيساً لبرلمان فرنكفورت ، وأحد زعماء حركة ١٨٤٨ . وكانت فكرة إصلاح الكونفدراسيون في دولة اتحادية أكثر الحلول انتشاراً في الجهاز السياسي في ألمانيا الجنوبية .

ومن جهة أخرى ، وجد في بعض الأوساط المحافظة اتجاه قومي يتمم جملةً مدرسة هالر التقليدية ويعتمد على التعليم التاريخي للأستاذ رانكه من جامعة برلين . وكان هؤلاء المحافظون القوميون يتصورون إمكان توحيد ألمانيا دون تبني العقيدة الثورية ، ودون ليبرالية ، وذلك بالاعتماد على الطبقة النبيلة وعلى الإدارة . وهم بالتالي يخلطون بين الفكرة القومية الألمانية والفكرة القومية البروسية . وهذا التفكير هو بالإجمال تقليد عسكريي بروسيا ونبلائها منذ عهد نابوليون ، ويدخل فيه الإداريون الجدد في الأطر البروسية ، ويريدون من ذلك أن تمتد بروسيا على ألمانيا كلها ،

وأن يجعل من بروسيا ألمانيا بقدر ما يراد إقامة وحدة ألمانية . وكانت هذه الحالة الفكرية الجديدة تتمثل في رسالة رادوفيتز ، وكان كاثوليكياً ومشاوراً حميماً لفريديريك ـ غليوم الرابع وسيكون زعيم حزب كاثوليكي بروسي عـــام ١٨٤٨ . كتب في ٢٠ تشرين الثاني عام ١٨٤٧ إلى الملك : « لقد ترك بين أيدي أعداء النظام أقوى سلاح في الحاضر وهو : القومية . إن جميع النفوس مريضة بالحنين إلى ألمانيا موحدة وقوية ومشرقة في الخارج . وهذه هي الفكرة الأكثر شعبية والأكثر قوة والوحيدة التي تستحوذ على الأحزاب وتناط بها اختلافات المنطقة والسياسة والدين » . ونصح الملك أن يكون على رأس هذه الفكرة القومية ليضم الألمان جميعاً حول بروسيا . وهذا يفترض المصالحة بين الرأي القومي وبروسيا بعد أن تمت القطيعة معها اثر سياستها الرجعية . وقد ساعد على ذلك اعتلاء فريديريك ـ غليوم الرابع عرش بروسيا .

اعتلى فريديريك ـ غليوم الرابع العرش في ٧ حزيران ١٨٤٠ أي في الوقت الذي نشبت فيه الأزمة الحربية . وكان في هذه الأزمة في وحدة أفكار مباشرة مع الروح الألمانية . فهو يكره فرنسا وقد كتب : « لا يوجد في فرنسا دين ولا أخلاق ، إنها دولة فاسدة تماماً ، كدولة روما قبل سقوط الامبراطورية . واعتقد بأن فرنسا ستنهار بالشكل نفسه » . وشارك مباشرة بحركة ١٨٤٠ الحربية ، ومنح بيكر مرتباً شكراً له على أغنيته « الراين الألماني » . وفي العام ١٨٤٢ عندما أقيم الاحتفال لتدشين كاتدرائية كولونيا شرب على « نخب الوطن الألماني » ، وأعرب بجميع الأشكال والصور عن تعلقه بتقاليد العصر الوسيط وفكرة الامبراطورية الجرمانية الرومانية المقدسة . ومن جهة أخرى ، لقد أقام فريديريك طويلاً في المناطق الرينانيـــة وهو وارث العرش ، واتصل

فيها بالمجتمع الجديد . ودلت أعماله الاولى على انفتاح حكم ليبرالي : فقد أنهى النزاع الديني بين الحكومة البروسية وأسقف كولونيا ، وأصدر العفو عن الاحرار الموقوفين أو المحكومين منذ زمن طويل ، وهذا ماساعد الشاعر العجوز آرندت على الخروج من السجن ، وخفف الرقابة ، وفي ايلول ١٨٤١ خول الدياطات الإقليمية حق الإعلان . وبدىء بوضع محضر للمناقشات يبلغ للصحافة ليتعرف الشعب على القضايا المطروحة ويتخذ موقفة منها ويدعم الاحرار بحركة مشايعة . ووعد بدعوة الدياطات دعوة منتظمة للانعقاد كل عامين . ورأى أن يرسل كل عامين مفوضين من هذه الدياطات إلى برلين ليرفعوا للملك أماني الاقاليم وإرشاداتها . وأعطت هذه التدابير الالمانين والبروسيين أملا بسياسة ليبرالية في بروسيا ومتجهة نحو القومية الالمانية .

الليبرالية الرينانية الجديدة . — وتحت تأثير هذا الأمل تألفت ليبرالية رينانية جديدة مع فكرة تقول بأن بروسيا تستطيع ان تكون دولة ليبرالية . وامحت بعد ازمة ١٨٤٠ فكرة النعرة الاقليمية في المنطقة الرينانية . وبعد ان كان الرينانيون يلحون بخاصة على نظمهم الفرنسية أصبح دارجاً على لسانهم اظهار الطباع والصفات الجرمانية في النظم . وبعد أن كانوا يدافعون عن سياتهم الخاصة ويعارضون الدولة البروسية ، اخذوا يحرصون على النمو في نطاق الدولة البروسية . وبعد ان كانوا يعيشون منعزلين ، بدؤوا يعقدون العلاقات الفكرية مع بروسيا ، ويتابعون مناقشات الدياطات في الأقاليم الألمانية الأخرى ، ويقبلون على قراءة كراريس الأحرار التي تصدر في باقي بروسيا وبخاصة كراس اسمه « المشاكل الأربع » نشره عام ١٨٤٢ طبيب من كونيكسبرغ يدعى **جاكوبي** ، وكراس آخر لرئيس دياط بروسيا **شون** واسمه « من اين والى اين ؟ »

نشر ايضاً في العام ١٨٤٢ . وقد لاقت هذه الكراريس نجاحاً عظيماً في بروسيا الشرقية واستقبلت بحماسة في البلاد الرينانية . وكانت تطالب ببرلمان بروسي باسم حقوق الأمة ، وتمجد مستقبل بروسيا الليبرالية . وبدأ الشعور بالتضامن مع باقي الرأي البروسي . وقرئت جرائد بروسيا الشرقية بعد ان كانت تحتقر في السابق ، وبخاصة «صحيفة كونيكسبرغ» . وهكذا نرى ان الرينانيين ، الذين ظلوا حتى الآن انفصاليين ، يدخلون في الدولة ولا يفكرون بالعيش منعزلين في المانيا الغربية

كتب **هانسيان** رئيس غرفة تجارة ايكس ـ لا ـ شابل ، في ١٨٤١ ، « مذكرة الى الملك » لتوجيه الملك الجديد وبين فيها ان الضرورة السياسية والاجتماعية والاقتصادية تقتضي تبني الحرية ، ووضع كل فاعليته كرجل أعمال واداري في خدمة الدولة : في الجمارك ، وفي مفاوضات لعقد معاهدات تجارية مع بلجيكا ، وفي ١٨٤٤ في ، دراسة التعرفات المختلفة التي تشجع الصناعة البروسية أمام الصناعة الخارجية . واراد هانسيان ان يشرك البورجوازية الرأسمالية في الدولة ووسع هذا البرنامج في التعاون بين الأحرار والحكومة في جريدة كبرى ليبرالية ووطنية معاً وهي « صحيفة ايكس ـ لا ـ شابل »

الاهتمام بالقضايا الاجتماعية — . وخرجت مدرسة أخرى من اليسار الهيغيلي والسان سيمونية معاً . وكان زعيم هذه المدرسة ريناني يدعى **ميفيسن** . وكان هذا الفريق ، وبخاصة ميفيسن ، يعلق أهمية خاصة على القضايا الاجتماعية . وكان ميفيسن ، في البدء ، على صلة بكارل ماركس . انشأ « رابطة رفاه الطبقات العاملة » وبشر بالتنظيم النقابي للعمال وبينما كان الأحرار يكرهون تدخل الدولة في الأعمال ، أخذوا الآن

يشايعون هذه الفكرة وينادون بها : وكان ميفيسّن يريد ان تقوم الدولة بتنظيم عام للاقتصاد السياسي . وباختصار كان منشئاً لما نسميه اليوم « **الاقتصاد الموجه** » . واندفع في مكافحة نزعات الاحرار القديمة الخاصة . وكان لسان حزب الاقتصاد الموجه « صحيفة الراين » ، بيد انها كانت لساناً موقوتاً . وكان هؤلاء الاقتصاديون يهتمون بالاخلاق و المثالية ، وهما من طباع الرينانيين ، ويطالبون الدولة ان تحكم في بروسيا العقل والاخلاق كما تقتضيه المصلحة العامة .

الليبرالية القومية البروسية . — وهناك مفهوم مثالي وعملي معاً ظهر في اوساط التجار وأصحاب السفن على الراين . وكان هذا المفهوم ليبرالياً في السياسة وحر المبادلة في الاقتصاد معاً . وقد تجمع انصاره حول **كامفاوزن** رئيس غرفة تجارة كولونيا ، ويمثل مصالح أصحاب السفن وتجار الراين . وكان هؤلاء بحاجة الى حرية المبادلات على الطريق النهري الكبير . كان كامفاوزن يناضل ضد افكار الحماية الجمركية التي قال بها ليست . ولكنه كان يتفق معه في رؤية الأهمية القومية التي يجب اعطاؤها للقضايا الاقتصادية . والفكرة التي تجب متابعتها هي توسع المانيا الاقتصادي والوحدة الداخلية على أساس اقتصادي وكتب بهذا في رسالة الى صديقه **كون** ، وكان مدير وزارة في برلين ، في ٢٦ كانون الأول ١٨٤٦ : « منذ القرن السابع عشر والمانيا ساحة قتال بين الأمم الأوربية . ولا يمكن لهذه الحالة ان تنتهي الا باتحاد البلاد الألمانية ، ولكن بشكل آخر يختلف عن الكونفدراسيون الجرماني بعد أن بدا عاجزاً . ولإعطاء الاتحاد الجمركي وسيلة تحقيق الوحدة الألمانية ، يجب تشجيعه بشكلين : **أولاً** اعطاؤه حدوداً بحرية واسطولاً تجارياً ؛ **ثانياً** توثيق الروابط التي توحد البلاد في داخل الاتحاد الجمركي نفسه . يجب أن تعملوا يا صديقي

العظيم ، يجب أن تقفوا حياتكم ليخفق العلم الالماني فوق جميع البحار ، ولئلا تستطيع انكلترا ولا فرنسا اقامة مزاعمها على قطعة من الأرض الألمانية ، وليكون الاتحاد الجركي صلباً دون انقطاع،ولتأخذ الامبراطورية الالمانية في أوربة المكان اللائق بها وتجابه بربرية الشرق وامبريالية البلاد الغربية النهمة » . ومن هنا نرى أن فكرة القومية الالمانية مرتبطة دوماً بفكرة التوسع الامبريالي . ولم يكن لالمانيا علم بعـد ، ولذا أراد هؤلاء الالمان أن يروا هذا العلم خفاقاً على أوربة كلها ، وارتبطت عندهم دوماً فكرة القومية الالمانية بفكرة عظمة المانيا الخارجية . وأوحت فكرة العظمة هذه بفكرة الوحدة . وكان لسان حال هذه الليبرالية القومية البروسية « صحيفة كولونيا » القديمة التي شايعت هذه الفكرة ابتداءً من ١٨٤٥ .

وهكذا تغير تماماً وضع الرينانيين السياسي . وفي اللاندتاغ الريناني لعام ١٨٤١ لم يكن ليهتم بعد الا بالقضايا الاقليمية . ولكن ، تشكل فيه بالتدريج حزب قومي خارجاً عن الطبقة النبيلة والكاثوليك . وفي ١٨٤٣ حلت قضية البلديات والحق الريناني ، وزالت النعرة الاقليمية المذهبية الدينية . وفي ١٨٤٥ طالب كامفاوزن بدعوة برلمان بروسي وفي ١٨٤٧ كان الرينانيون متهيئين للدخول في الحياة العامة في بروسيا الدستورية إلى جانب الأقاليم الاخرى . وفي «صحيفة كولونيا » كتب بيكيرات ، في شباط ١٨٤٨ « أصبحت العاطفة الوطنية للأمة البروسية حادة حتى ان كل عنصر للاقليمية غدا شائناً . وان جميع الاقاليم تمد يدها بأمل لبلوغ درجة راقية للقومية السياسية » . وهكذا أصبحت الليبرالية الألمانية ، وبخاصة الليبرالية الرينانية ، مستعدة الآن للسير قدماً مع بروسيا لصنع ألمانيا .

ولكن هذا المثل الأعلى اصطدم بسرعة بخيبة أمل . لأن فريديريك - غليوم الرابع لم يكن بالملك الذي يعتمد عليه الرينانيون : فقد كان غامضاً وافكاره دخانية ويعطي الكلمات معنى خاصاً ، حتى ان محدثيه لا يفهمون ما يقول . ولكن هذا لا يسوؤه ، لانه يعتبر ان من علامة التفوق لفكرة الا تفهم . وكان ، من جهة أخرى ، ابداعياً ، كان خطيباً ويحب القاء الخطب وعندما يتكلم يندفع بكلماته إلى أبعد مما يذهب فكره . ويحدث سوء تفاهم بينه وبين الرأي ، ولكنه لا يلبث أن يزول بعد أيام . ولم يكن فريديريك - غليوم ليبرالياً . كان تلميذاً لهالّلر ، ولا يرى الاشياء الا بالتاريخ،ويخشى الدساتير النظرية ولا يريد « انزلاق قصاصة ورق بينه وبين شعبه » كما يقول . وظلت سلطته الملكية مريعة التأثر جداً وحساسة .

وكان في الوقت ذاته مناصراً للقوميات ، ولكن مفهومه خاص عن المانيا ويختلف عن مفهوم الاحرار . لقد أظهر وطنية حارة ، وكان مقتنعاً عن حق بعدم كفاية الكونفدراسيون الجرماني ، ولكن مفهومه عن الريخ يختلف تماماً عن مفهوم الاحرار ويعتمد دوماً على أساس تاريخي . وأراد الاحتفاظ بالنمسا على رأس المانيا ، لأن النمسا ، بموجب الحق التاريخي ، قائد المانيا منذ الأزل . وكان يحترم النمسا احتراماً يمازجه الخوف وهذا ما منعه في ١٨٤٨ و ١٨٥٠ من القيام بمبادهات مناوئة للنمسا . ومن جهة أخرى ، كان يشعر بصعوبة الابتعاد عن الرتابة المألوفة والافكار التقليدية ، ولا يرى في الرايخ ، بالنسبة لبروسيا ، الا مهمة عسكرية ، وأن الحل الممكن في نظره يأتي من اتحاد بروسيا والنمسا الذي يضمن الوحدة الألمانية ويصنع عظمة المانيا . لقد كان متعلقاً بالماضي ولا يريد أن يقوض البناء التاريخي البروسي أو البناء التاريخي النمساوي .

وخيب سلوك الملك آمال الليبراليين الألمان . وظهرت هذه الحقيقة على صعيد السياسة الداخلية ، وستظهر عندما تبدأ الأحداث في العام ١٨٤٨ على الصعيد القومي . والواقع ان الملك أبدى مقاومة عنيفة في إعطاء دستور لشعبه . وقد قال : « يجب أن يكون الملك في بروسيا نقياً في السلام كما هو في الحرب » . وكان يضع باستمرار مشاريع إصلاح قد ترضي الرأي الليبرالي دون أن تؤثر على حقوق الملك . ولكن هذا العمل كان صعب القياد والوصول إلى غايته . وكانت نتيجة كل هذه التحايلات وكل هذه المشاريع التي يبنيها ويهدمها ، ادخال الاضطراب في الادارة البروسية ، وأضعاف الحكومة فيها ، بعد أن ظلت تعمل جيداً حتى ذلك الحين ، وبالطبع ازدياد الاستياء ومطاليب الخصوم . وأخيراً انتهى الملك باصدار براءة ٣ شباط ١٨٤٧ التي انشأت اللاندتاغ المتحد .

اللاندتاغ المتحد . ـ وكان اللاندتاغ المتحد يضم في برلين مجلس جميع الدياطات الاقليمية التي تنعقد وتنظر في القضايا المالية وتنقسم من أجل القضايا الاخرى إلى هيئتين : هيئة الأمراء وهيئة الطبقات الثلاث الدنيا . وفي هذا اللاندتاغ المتحد كما في الدياطات الاقليمية ، كانت الطبقة النبيلة متفوقة : وجد لها (٣٠٠) صوت تمثل عشرة الاف مالك ، على حين أنه لم يكن للطبقات الباقية الأخرى الا (٨١) صوتاً تمثل أربعة ملايين رجل. وكانت سلطات هذا اللاندتاغ ضعيفة ، سلطة التصويت على الضرائب الجديدة وتقديم عرائض . واختص الملك بمشاورة اللاندتاغ في القوانين . وأخيراً لم يكن لهذا اللاندتاغ دورة انعقاد ، وانما لجنة من ثمانية أعضاء، عضو عن كل اقليم ، تنعقد كل عام لسماع التقارير التي تعرضها الحكومة عليها . كان هذا الاصلاح ضعيفاً ووهمياً . وقد أكد الملك في خطاب افتتاح المجلس ، في ١١ نيسان ١٠ ، مفاهيمه الاستبدادية التي يرجع

العهد بها إلى العصر الوسيط ، وحقوق التاج ، وأنكر حقوق الشعب .

أثار الاصلاح البروسي خيبة أمل كبرى . وبدأت في المجلس الجديد المعارضة الليبرالية وغرضها توسيع الامتيازات والتنازلات التي خولها الملك. ومهما يكن من أمر فان انعقاد اللاندتاغ أمام الملك كان قرينة على أن بروسيا الملكية العجوز الارستقراطية والنبيلة ، التي لا تفهم تعاون البلاد مع الحكومة ، كانت ميتة . وكان أخو الملك، الأمير غليوم ، وامبراطور ألمانيا في المستقبل ، يشكو بألم زوال بروسيا القديمة ، بروسيا العجوز .

قضية شلزفيغ - هولشتاين . - وفي الوقت الذي ارتسمت فيه حركة الاصلاح في بروسيا اثيرت في ألمانيا ، في ١٨٤٦ ، قضية الدوقيتين الدانياركيتين أي قضية شلزفيغ وهولشتاين . وكانت هذه القضية معبرة عن طموح الحزب القومي الالماني وطرقه . ان كراهية شعب الدوقيتين وبخاصة شعب الهولشتاين ، للحكومة الدانياركية ، ومطالبة الجماعة الالمانية على يد هذا الشعب ، كان من عمل الجامعيين في كيل بالمبادهة التي قام بها من قبل الاستاذ **دالمان** . وابتداءً من ١٨٤٠ تعززت هذه الدعاية الالمانية بأساتذة آخرين من الجامعة نفسها ، ونخص بالذكر منهم **فالك** و **درويسن** وقد أثار هؤلاء الحقوقيون او المؤرخون الألمان قضية الحق الوراثي: وفي الواقع لم يكن لملك الدانيارك كريستيان الثامن الا نجل واحد، ولم يكن لهذا النجل نفسه وارث . ولذا أثار الألمان قضية الترشيح للوراثة ، وعلى الأقل من أجل الدوقيتين . ورشحوا لها أي للدوقيتين أميراً من أسرة **اوغستانبورغ**

وأمام حركات المطالبة الالمانية فكر ملك الدانيارك باشعال النار . وتحت تأثير حزب داناركي بخاصة ، حزب من الرجال السياسيين ، يسمى حزب**الآيدر** ، والآيدر نهر صغير يفصل الدوقيتين عن باقي الدانيارك، ذكر الملك في رسالة مفتوحة ، في ١٨٤٦ ، حلًا ممكناً : وذلك بأن

ربط بشكل وثيق الشلزفيغ واللاونبورغ بالدانيمارك ، ولكنه صرح بأنه على استعداد للتخلي عن الهولشتاين ، ليجعل منها بالتالي وحدة سياسية المانية أمام باقي الدولة الدانيماركية أصلاً .

ولكن ، أمام هذا الحل ، الذي يقسم الدوقيتين ويتخلى عن الشلزفيغ نهائياً ، كان رد فعل الالمان في هولشتاين وفي الكونفدراسيون الجرماني عنيفاً : احتج أساتذة كيل على الرسالة المفتوحة ، ودعم احتجاجهم برسائل أتت من مختلف الجامعات الالمانية وتناصر الماني الدوقيتين . وطرح دالمان بذلك كراساً ، وكذلك آرندت الشاعر العجوز ، وذكر بأن بحر الشمال والبالطيك ، منذ ثلاثمائة عام ، بحران ألمانيان ، وان الانكليز والبلجيكيين والهولانديين انتزعوا بحر الشمال من الألمان . وإن التخلي عن الهولشتاين يعني المخاطرة بضياع البالطيك أيضاً . ونظمت أغاني شعبية وكانت احدى هذه الاغاني شعبية بخاصة في العام ١٨٤٧ كما كانت أغنية بيكر « الراين الألماني » في العام ١٨٤٠ . وللدلالة على أن ألمانيا كانت تعتبر الدوقيتين قطعتين من ألمانيا ، عقد في لوبيك ، في ١٨٤٧ ، مؤتمر جرامنة وفقهاء لغة ومؤرخين المانيين . وفي هذا المؤتمر طالب الاخوان غريم والأستاذ دالمان بالدوقيتين لألمانيا . وهذه القضية ، التي افتتحت في ١٨٤٦ و ١٨٤٧ ، كانت فاتحة للجامعة الجرمانية التي ستظهر عنيفة في العام ١٨٤٨ في برلمان فرنكفورت .

وهكذا كان اضطراب الأفكار عاماً قبيل ثورة ١٨٤٨ : في بروسيا للحصول على اصلاحات سياسية جوهرية . وفي المانيا لصالح الوحدة الألمانية . وتجمعت الأحزاب المختلفة : عقد الراديكاليون (الجذريون) مجلساً في اوفامبورغ ، في ١٢ ايلول ١٨٤٧ ، وعقد الوحدويون المعتدلون مجلساً آخر في هبنهايم في ١٠ تشرين الأول . ووضع هؤلاء

المعتدلون برنامج مطالبهم في الوحدة . واختلطت المطالب القومية بالمطالب الليبرالية ، وكانت هذه المطالب أكثر تعقيداً مما رأينا في إيطاليا . وتعددت مفاهيم القومية . ووجدت الفكرة القومية مرتبطة أيضاً بعناصر محافظة . كما ظهرت العقائدية القومية الألمانية أكثر لبساً وأكثر تنوعاً من العقائدية القومية في إيطاليا .

وعدا ذلك كانت الحالة الاجتماعية في ألمانيا معقدة جداً . فقد وجد في ألمانيا توضع طبقات اجتماعية لا نجده في إيطاليا . يوجد أولاً في الأسفل : **طبقة الشعب** الجامدة التي لم تشترك في هذا الاضطراب وهذه المطالب كما في شبه الجزيرة الايطالية . وتأتي فوقها **الطبقة البورجوازية**، وهي مستنيرة جداً وتتمتع بثروة اقتصادية هامة وقد بدأت بتصنيع البلاد وبخاصة في الغرب وفي ساكس وفي سيليزيا ، وهذا ما لم يوجد في إيطاليا. ثم تأتي **الطبقة النبيلة** ، وكانت تتمتع بالامتيازات الاقطاعية ، إلا في الغرب ، وعلى أي حال كانت لها ملكية الأطيان في كل مكان . إذن يوجد في ألمانيا ثلاث طبقات متميزة . ولكن يوجد ، بالاضافة ، بين البورجوازية والطبقة النبيلة ، طبقة معترضة لا نجد مثلها في إيطاليا ولا في فرنسا ، وهي **طبقة الالقاب والمناصب** ، وتتألف من كبار الموظفين ، وأساتذة الجامعة ، وكبار القضاة المحليين ، وتدور في فلك الحكومات، وتحصل من هذه الحكومات على الألقاب والمرتبات ، وتريد أن تختلط بالطبقة النبيلة وتشكل عنصر انتقال بين البورجوازية والطبقة النبيلة .

وأخيراً ، تستحكم في ألمانيا **نعرات محلية** نشيطة جداً وحية جداً . ونجدها أولاً في **الحكومات** وفي مجموع جهازها الاداري . وهي لا تريد أن تموت بل ترغب في الحفاظ على اطار الدول المستقلة المنفردة . وتوجد هذه النعرة **أيضاً في الشعب** ، في أحزاب الشعب الألماني الذي يشعر في كل

دولة بوطنيته الاقليمية. وعندما يتكلم عن الوطنية في بروسيا ، انما يراد بذلك عاطفة البروسيين الخاصة ببروسيا ، وكذا الحال في بافاريا ، ولا يُراد وطنية عامة لكل المانيا وإلى جانب هذه النعرات السياسية والحكومية نجد في ألمانيا لا مركزية فكرية لا نجدها مثلا في فرنسا ، وبذلك ينقص المانيا الرأس المنسق ، لأنه لا يوجد فيها هـذا الدماغ الوحيد الذي هو باريس في فرنسا ويمكنه أن يفرض مبادهاته على جميع البلاد .

وأخيراً ، نجد في الصعيد الخلفي لكل هذا التعقيد ، في السياسة وفي الدبلوماسية معاً ، عمل دولتين كبريين أوربيتين ، تمتزجان بألمانيا وهما : النمسا وبروسيا .

وعندما يتاح للالمان المضي في تحقيق هذه الوحدة التي يطالبون بها بحماسة وحرارة ، أي حين ثورة ١٨٤٨ ، نرى انطلاق المصالح والنظريات المتناقضة التي تعمل في اتجاه معاكس ، حتى ان تحقيق الوحدة ، في الوقت نفسه ، وهـذا مـا يلفت النظر ، يفجر جميع القوى التي تفتت المانيا .

الفصل الخامس

الثورة الأوربية

عام ١٨٤٨

لقد انتهى بنا المطاف إلى ختام تحقيقنا الطويل عن تشكل الروح القومية في أوربة، أي إلى ثورة ١٨٤٨ ، وغرضنا الآن ان نرى، في هذه الثورة ، مكان حركة القوميات . ولكن يجب ، قبل كل شيء ، أن نلقي نظرة على الثورة نفسها ، ومن ثم ندرس بخاصة الحركات القومية في ايطاليا ، والنمسا ، والمانيا .

اذا استثنينا اليونان وبلجيكا نجد أن البلاد الاوربية الأخرى في ١٨٤٨ لم تتغير منذ ١٨١٥ . ولكن الانقلاب المعنوي ، الذي حدث في الثلاثين سنة الماضية ، كان عظيماً وفي العام ١٨٤٧ ، يمكن القول ان فوران الأفكار بلغ درجة أصبحت فيها أوربة العجوز بالية ، ولم تعد أكثر من واجهة ، وان التوازن الاوربي بات ضعيفاً للغاية . ونجد الدليل على ذلك في تفاوت النسب بين الأسباب المباشرة لمختلف الثورات، التي كانت على العموم حوادث تافهة ، وبين سعة الانقلاب الذي تمثله هذه الثورات نفسها التي حدثت بتأثير عوامل عميقة .

لقد ضربت جميع الأسس العقائدية للنظام السياسي الذي وضع عام

١٨١٥ ، وغدت الحالة تتضمن تبايناً بين نظام الحكومات القائم وبين القيم الروحية التي تحرك رعاياها . وهذه العقائدية ، كما رأينا ، معقدة ، وهي اجمالاً مزدوجة : فمن جهة ، فكرة الحرية ، ومن جهة أخرى ، فكرة القومية . تقتضي الاولى تغيراً في نظـــام الدول الداخلي ، وتتضمن الثانية تغيراً في أساس هذه الدول نفسه ، وفي توزيعها ، وبالتالي انقلاباً أعظم وأعمق من الأول بكثير . ولكن السبق كان للحرية ، في ١٨٤٧ ، لأن النهوض العام للحركة الفكرية جعل منها ضرورة . وهكذا ظهرت الحرية في كل مكان شرطاً أولياً لتحقيق القومية . ولا بد لنا من أن نذكر أن هنالك اختلافاً عظيمـاً في مفهوم القومية ، وتفاوتاً كبيراً في درجـة المطاليب التي وصل اليها وعي القومية . ولذا يوجد بعض الصعوبة في عزل ما هو حر ليبرالي وما هو قومي في حركة ١٨٤٨ .

١ ـــ بوادر الثورة

لقد نشبت الثورة في بداية ١٨٤٨ ، ولكنها سبقت ، في الواقع ، بسنة اضطراب كاملة ، وفي وقت ضعفت فيه مقـــاومة الحكومات أمام الشعوب ، ولم يبق اتفاق بين الحكومات للحفاظ على الحالة التي وجدت في ١٨١٥ وكانت قاعـدة السنوات الاولى من العهد الرجعي . لم يكن الحلف المقدس الابين حكومات الدول الثلاث : روسيا ، النمسا ، بروسيا ؛ ولكن اعيد انشاؤه في ١٨٣٣ ثم جدد ، وآخر تجديد كان في ١٨٤٨ . وفي الواقع ، ان الحكومات الثلاث لا تتفاهم إلا عندما تقتضي المصلحة العامة هذا الاتحاد ، كما في مشكلة بولونيا . والشخص الوحيد الذي حافظ بحق على مذهب الحلف المقـــدس ، هو قيصر روسيا نيقولا الأول وقـــد ضعف مترنيخ بتأثـــير السن والعجز وهوجم في حكومة

فينا نفسها ، وفي حلقات البلاط ، حتى انه قبل نفسه ببعض التغييرات في نظام الدولة ، وببعض التطلعات في الحركة القومية . اما الثالث ، فريديريك - غليوم الرابع ، فلقد رأينا أنه كان شخصاً رخواً متقلباً لا يستقر على حال ، وفي حالة غنج مع بعض تطلعات العصر ومن الممكن القول ان حكومات الحلف المقدس لا تؤمن بعملها في ذلك العصر . اما الحكومات الاخرى ، كفرنسا وانكلترا ، فقد اضطربت منذ ١٨٤٦ بسبب الزواج الاسباني . ويبدو أن سياسة بالمرستون كانت متجهة نحو ضرب سياسة لوي - فيليب وغيزو ، باعتبارهما محافظين ، لتجعل من نفسها محرضاً في أوربة . ومع ذلك فان اتفاق فرنسا وانكلترا كان ضرورياً لتوجيه الشعوب وتغيير حالها تدريجياً وسلمياً .

الأزمة الاقتصادية . - ان حركة التطلعات الليبرالية والقومية التي حللناها ، قد حلت في الطبقات الفكرية ، وفي البورجوازية وفي الطبقات العليا في المجتمع ، ولم تتغلغل في الجماهير ، حتى في البلاد التي كان تطور هذه الافكار مندفعاً فيها أكثر من غيرها ، مثل فرنسا . ومع هذا فانّ الأزمة الاقتصادية وضعت موقتاً هذه الجماهير تحت تصرف النخبة ، وان ظهور الجماهير على المسرح السياسي ضرب الحكومات بالذهول والعجز .

ولا مجال هنا لتحليل هذه الأزمة الاقتصادية . حسبنا ان نرى لأي درجة وجهت حركات ١٨٤٨ . ان الازمة الاقتصادية التي خيمت آنذاك كانت أزمة من نوع سابق ، وأساسها زراعي . ولم تكن بعد ازمة فيض انتاج كالأزمات التي عرفتها حركة الصناعة الكبرى فيما بعد وأولاها كانت ازمة ١٨٥٧ . لقد كان اصل الازمة الجدب والقحط وفقدان المواد الغذائية ، فهي أزمة زراعية سببها **مرض البطاطا الذي** قضى على محصول ١٨٤٥ كاملاً وبخاصة في ايرلنده وفي الفلاندر والبلاد المنخفضة

والمانيا. وفي السنة التالية ، في ١٨٤٦ كانت النكبة في الحبوب : فقد اباد الجفاف المفاجيء والحرارة الاستثنائيـة المحصول ، في وقت لا توجد فيه الاكداس من العام الفائت . وفي بداية ربيـع ١٨٤٧ ، ظهرت أزمة المواد الغذائية بشكل محسوس ، وكانت خطرة بخاصة في اوربة الشمالية وفي ألمانيا . وكانت نتيجة هذه الأزمة الزراعية الجدب وغـلاء الحياة ، وبالتالي بؤس الطبقات الشعبية في كل اوربة .

وكان المظهر الثاني للأزمة نقدياً ومالياً ، ويرجع إلى مبالغـــة الاستثمارات والمشاريـع التي طرحت في العشر سنوات الاخـيرة . وفي آخر ١٨٤٦ وفي ١٨٤٧ بدأت المشاريـع الاستثمارية بالانهيـار ، فسبب ذلك توقفاً في العمل في كثير من النقاط . فقد انهارت بعض الشركات الكبرى في انـكلترا وفرنسا والمانيا واضطرت أن تقلص اعتمادها ، وفي كل مكان تقريباً ، أصيبت الأشـكال الصناعية الأخرى بالأزمة . وارتفعت الأزمة الصناعية فوق الأزمة النقدية . وكانت حالة الصناعة ضعيفـة ، بسبب الانقلاب الذي احدثه استعمال الآلة في العالم الاقتصادي ، والمرور التدريجي ، الذي بدأ حديثاً ، من الصناعة اليدوية الحرفية إلى الصناعة الرأسمالية . حدث الضيق في المنتجـــات قبل غيره ، وكان التوقف عن العمل نتيجة له ، وبالتالي التسريحات ، والبطالة التي اثرت بخـاصة على البلاد المتصنعة ، بشكل طبيعي ، أي انـكلـــترا وفرنـسا ، وبلجيكا والمانيا . ولقد أصابت هذه الأزمة الصناعية الصناعات الريفية في اعماقها فلكت عموماً في هذه القضية .

وتجلت هذه الازمة بشكل طبيعي باضطرابات اجتماعية ، وهذا ما يهمنا في الموضوع ، وهذه الاضطرابات الاجتماعية كانت على نوعـــين :

حركات معاشية وحركات صناعة عمالية . وكانت سنة ١٨٤٧ مفعمة بالاضطرابات الاجتماعية . أما الحركات التي سببها فقدان الأرزاق ، وحلت في الأرياف ، فقد ظهرت ، في فرنسا ، بما كان يسمى قديماً « هيجانات » أي حركات فلاحين بسبب الحبوب وبسبب الأسواق ، الخ ... وقد جرت خاصة ، في وسط فرنسا وغربها ، وكانت خطيرة خاصة في الفلاندر الفالونية التي لم تنهض من هذه الأزمة ، وفي البلاد الرينانيـــة وفي فرتامبرغ ، وأخيراً في ايطاليا ، في شمال لومبارديا ، وفي جنوة ، و رومانيو ، وتوسكانه . وفي النمسا ، سببت الأزمة في ١٨٤٦ ثورة الفلاحين الغاليسيين الذين قتلوا عدداً من الأمراء والبورجوازيين. وإلى هذه الأسباب الاقتصادية في حدوث الاضطراب يضاف ايضاً الحقد العرقي الذي كان يتملك الفلاحين الروتينيين ضد الملاكين البولونيين ؛ وفي ربيع ١٨٤٧ حدثت حركات مشابهة في فينا .

وإلى جانب اضطرابات الأرزاق قامت حركات عمال الصناعة ، من اضطرابات ومظاهرات مختلفة ، كانت تنقلب قليلا أو كثيراً إلى ثورة . وكانت الحركات في فرنسا بسيطة ومنعزلة ومتفرقة ، بينما كانت حركات العمال خطرة في انكلترا ، وفي المناطق القطنية والمعدنية في الفلاندر ، وفي ألمانيا ، وفي سيليزيا ، وفي براندبورغ ، وفي وستفاليـــا . وفي الواقع لا يوجد بعد في الأزمة الصناعية والعمالية هـذا الدواء التي سينتظم بعد ١٨٤٨ ، وهو الهجرة . لقـد كان الناس ، في أوربة الوسطى ، متعلقين بالـتراب بسبب النظـــام الاقطاعي أو بسبب التشريـع الذي يمنع الهجرة . وباستثناء ايرلنـده ، حيث كان لانكلترا تشريـع حر ، لم تكن الهجرة دواءً للأزمات الصناعية ، كما ستكون عـادة في السّنوات

التالية . ومن الواضح في هذه الظروف ، التي لا يستطيع فيها العمال والفلاحون البائسون أن يهاجروا ، ان تتجلى الحركة بالاضطرابات والثورات. وفي المانيا ، كان للحوادث مغزاها ومعناها : فقد بلغ غلاء السلع في العام ١٨٤٧ ، بالنسبة للسنوات العادية ، نسبة ٨٣٪ ، ونقصت الأجور ، بسبب الأزمة ، بنسبة ١٥٪ . وتشكلت رابطات عمال في كل مكان ، وفي شتاء ١٨٤٧ - ١٨٤٨ كان باستطاعة الأزمة الصناعية ان تضع في خدمة الثورة عشرين ألف عامل تقريباً . ولم تكن الأزمة الاقتصادية سبباً في الثورة ، ولكنها توضح سعتها وعموميتها ، وتساعد على انتشار النظم الهدامة . ولذا وجد الثوريون جميع التسهيلات لتجنيد الجماهير الشعبية ضد الحكومات .

العوامل الدولية . - لقد نشبت الثورة في كل مكان عام ١٨٤٨ وبالاجمال في كل مكان في وقت واحد ، ولم تكن من عمل منظمة دولية . إن وحدة الأسباب ، وتقليد البلد للآخر توضحان لنا تواجد هذه الحركات معاً . كان لكل واحدة منها أسبابها الخاصة ، وكل واحدة منها اتسعت بشكل منعزل عن الأخرى . وفي ذلك الحين أيضاً وجدت منظمة ثورية دولية آخذة بالتشكل ، ولكن لم يكن لها من الوقت ما يجعلها تلعب دوراً ، وكانت من عمل الشيوعيين الالمان : وذلك ان عمالاً ثوريين ألمانيين لجؤوا إلى فرنسا بعد ١٨٣٠ وأنشؤوا في عام ١٨٣٦ جمعية سرية تسمى « عصبة العادلين » ومن الطبيعي أن يكون شكلها شكل المنظمات الثورية المعاصرة . فهي تتألف من جماعات أساسية تسمى « **القومونات** » ، وتتحد هذه فيما بينها في منظمات أوسع تسمى « **الدوائر** » ، وهذه تتحد في منظمة أكبر تسمى « **المؤتمر** » وهو يسمي « **اللجنة القومية** » . وكانت عصبة الألمان العادلين هذه على اتصال بالجمعيات العمالية الالمانية الموجودة

في ألمانيا ، كجمعيات المطالعة (القراءة) ، وهي جمعيات نقاش بسيط ، وتكثر بخاصة في المنطقـــة الرينانية . وكانت أيضاً على صلة بالجماعات الألمانية في سويسرا وبلجيكا ؛ ومن جهة أخرى ، على صلة بالجمعيات السرية الثورية في فرنسا ، والحركة الميثاقية في انكلترا . وكان المحركون لعصبة العادلين عمالاً ألمان مثل **فايتلينغ** ، وكان عاملاً خياطاً ، وكذلك **شابير** و **باور** . وعندما نشبت ثورة ١٨٣٩ في باريس واخفقت وأثارت تحقيقات وتدابير انتقامية ، نقل هؤلاء الرجال مقر حركتهم إلى لنـدن في العام ١٨٤٠ ، وإلى بروكسل ، وكان مذهبهم شيوعية مسالمة وعاطفية. وفي هذه السنة كان عملهم في سبات. الفوا أول جمعية دولية (أممية) في لندن وسموها « الديموقراطيون أصدقاء كل أمة » ، بعد قليل على وصولهم، في ١٨٤٤ ، ولكن نشاطهم كان ضعيفاً جداً .

ثم قامت في هذه الجمعية ثورة داخلية ، على يد مفكرين المان ، مثل **آنغلز و كارل ماركس** ، ولم يشترك بها العمال، وحولت الحركة : وأعدت في ١٨٤٦ خطة منظمة دولية ونظمت لجانها في بلجيكا وفرنسا وألمانيـا وانكلترا في آخر ١٨٤٦ و ١٨٤٧ . وفي صيف ١٨٤٧ انتظمت الحركة نهائياً وأخذت اسم « العصبة الشيوعيـــة » ، وفي ايلول ١٨٤٧ بدأت بنشر مجلة تسمى « المجلة الشيوعية » ، وفي هذه الحركة الجديدة خلع آنغلز وماركس فايتلينغ ، وأخذا على عاتقهما القيام بمهمة تحرير برنامج الجمعية الجديدة . وأقاما ، مقام شيوعية العمال-الألمـان السابقة ، مذهبهم الخاص بهم **أي جماعية وسائل الانتاج** ، والفكرة التي لا يمكن اجتنابها ومن الضروري توطيدهـــا في كل مكان ، بسبب الحركة الصناعية ، الا وهي **نزاع الطبقات** الذي يؤدي إلى شكل جديد للمجتمع . وطالبا بترك

الطرق المتبعة حتى الآن في البحث عن تحسين حالة العمال ، هـذا التحسين الذي لا يمكن أن يكون الا جزئياً ، وقالا : ان الطريقة الجديدة يجب أن تكون في التخلي عن الحركات الثورية المحلية ، للانصراف إلى تهيئة دائمة لثورة شاملة تغير المجتمع كلاً وتم ، دون اعتبار لبلد ، على أساس فصل الطبقات ، وتؤدي إلى دكتاتورية الطبقة الكادحة . وأخـذا على عاتقها تحرير بيان للمجتمع ، ولكن هذا البيان لم يعد إلا في آخر كانون الثاني ١٨٤٨ . وفي الوقت الذي نشبت فيه الثورة في كل مكان كانا في سبيل تجليد الكراس ، ولم يصدر البيان الشيوعي إلا بعد الثورة ، ولذا لم يكن له تأثير ملحوظ في الحركة الثورية . وهذا البيان ينكر ، فيا يهمنا ، وهذا الحادث هام ، المفاهيم القومية وينتهي بالعبـارة الشهيرة . « يا عمال جميع البلاد اتحدوا » .

وهنالك عنصر رابطة دولية بين البلاد ، وبـين الحركات الثورية ، وهو اللاجئون السياسيون ، الذين طردوا من بلادهم ، اثر المؤامرات أو الأعمال الزجرية الحكومية ، واستقروا في فرنسا ، وسويسرا ، وانكلترا ، وبلجيـكا . وكثيرون منهم عادوا إلى وطنهم بعـد أن فتحت حركات ١٨٤٨ الحـدود واشتركوا عندئد بنزاع الأحزاب في داخـل بلادهم . وبعضهم ، وهم أكثر حماسة ، تبنوا صيغاً جمهورية ، وقـاموا بجهود ، في الخـــارج ، لتنشيط ثورة بلدهم ، ليعودوا اليه والسلاح بيدهم ، وليحاولوا استلام السلطة أو تحويـــل الثورة بغزو المهاجرين القدامى . وهكذا تشكلت عصابات مسلحة « جوقات » مختلفة حاولـت خاصة أن تدخل المانيا ، حيث ظلت الحكومات على شكلها القديم ، وكبحت بالتالي جمـاح الثورة . انطلقوا من فرنسا وسويسرا وقاموا بمحـاولات

عديدة مختلفة : قاموا على باجيكا بمحاولتين مزيلتين لم تؤديا إلى شيء : في ٢٥ آذار على **كوينيفون** ، وفي ٢٩ آذار بالقرب ، من **موسكورون** على قرية **ريسكون - تو** . وحركة السافوازيين على شامبري ، من ٣٠ آذار إلى ٤ نيسان ١٨٤٨ . وأخيراً قامت في ألمانيا الغربية والجنوبية، حركة اقترنت بثورة الفلاحين والعمال ، في آخر نيسان ١٨٤٨ . وكان بين هؤلاء اللاجئين من لم يكن لهم وطن ، مثل البولونيين ، وليس لهم بلد يرجعون اليـــه ، ولذا كانوا يشتركون بجميع الثورات . وهكذا نرى البولونيين من جنود ومن قادة في جميـع هذه الجيوش المؤلفة من المتطوعين في ١٨٤٨ و ١٨٤٩ ، .

وبالاجمال ، إذا استثنينا الجو العام والفرص التي تتيحها هذه الثورات بعضها لبعض ، أمكننا القول بانه لايوجد عوامل دولية في أساس ثورات ١٨٤٨ . لقد سبقت الثورة باضطرابات عامة تقريباً في أوربـة الوسطى في ١٨٤٧ اشتبكت فيها الحكومات مع شعوبها وفيما بينها . وكانت هذه الحركات على نوعين : دولية وداخلية .

القضايا الدولية . - كانت المشاكل الدولية مزدوجـــة : الثورة البولونية والحرب الأهلية في سويسرا ، وقد أدت كل من هاتين الحركتين المحليتين إلى أزمات دولية .

الثورة البولونية . — أفاد البولونيون من الليبراليـة التي أقرها في بروسيا فريديريك — غليوم الرابـع لتشكيل مركز ثوري في دوقيـــة بوزن . وحاول هذا المركز أن ينظم ثورة في بولونيا البروسية والروسية والنمساوية . وعندمـــا اندفع تنظيم البولونيين طلبوا زعيماً من الهجرة البولونية في باريس ، وكان هذا الزعيم الذي أتي اليهم به ضابطاً قديماً في حركات الثورة عام ١٨٣٢ ، واسمه ، **ميروسلاوسكي** (١٨١٤ — ١٨٧٨) ،

وكان في الوقت ذاته صحافياً ، نشر في ١٨٣٣ باللغة الفرنسية « تاريخ الثورة البولونية » وترجم هذا الكتاب إلى البولونية في العام ١٨٤٣ . وكان ميروسلاوسكي رجلاً جريئاً ، مفعماً بالايمان ، خطيباً ، وقائد رجال ، ولكن ينقصه روح المتابعة والصلابة والكفاءة العسكرية . وكانت التعبئة العسكرية لهذه الثورة غير كافية وحدد قيام الثورة في ٢٢ شباط ١٨٤٦ ، ولكنها أخفقت بحالة يرثى لها .

في بروسيا ، أعلمت السلطات سلفاً ، واستطاعت ، قبل انفجار الحركة ، أن توقف ميروسلاوسكي وسبعمائة مشبوه ، وأجري تحقيق أدى إلى القبض على مجموع المنظمة . وفي ١٨٤٧ حكم على ميروسلاوسكي وعشرة من شركائه بالموت ، ولكن عفي عنهم وزجوا في السجن . وقد ألقى ميروسلاوسكي للدفاع عن نفسه ، في ٥ آب ١٨٤٧ ، خطاباً ، طبع ووزع كراساً ، وفيه يمجد الفكرة الثورية البولونية ، ويصرح بأن الحركة موجهة في الاساس ضد روسيا واختتم خطابه بقوله : « يوجد مؤامرة دائمة في بولونيا » ، ونشر خطابه في جريدة « الاصلاح » في باريس .

في غاليسيا ، قامت الضابطة النمساوية بتوقيفات وقائية في لامبرغ واوقفت الحركة من أصلها . وكان البولونيون في هذه المحاولة ضحية نظرياتهم الاشتراكية : وذلك أن الفلاحين الروتينيين ، الذين اضطهدهم الملاكون وتألموا من الأزمة الزراعية ، فهموا هذه المذاهب الاشتراكية وألقوا بأنفسهم على ملاكيهم ، وكان يحرضهم في الخفاء ، على ما يبدو ، الضباط النمساويون الذين أعطوا حتى عشرة فلورن على رأس كل ملاك ؛ وهكذا قتل ١٦٢ ملاكاً بولونياً على أيدي فلاحيهم .

ولجأ هؤلاء الثوار البولونيون إلى أرض جمهورية كراكوفيا الصغيرة ، أي

القطعة الوحيدة من بولونيا التي مازالت موجودة، وأطاحوا بالحكومة الديموقراطية. ولذلك قامت الحكومات الثلاث المجاورة برد فعل مباشر، واحتلت الجيوش الروسية والنمساوية والبروسية أرض جمهورية كراكوفيا، كما فعلت ذلك من ١٨٣٦ إلى ١٨٤١ اثر حركة مماثلة. وأكدت الحكومات للدول الأخرى بأنها تريد القيام بعملية ضابطة موقتـــة. وسجل غيزو وبالمرستون هـــذا التعهد الرسمي الصريح باسم معاهـدات ١٨١٥. غير أن الشقاق بين بالمرستون وغيزو كان فرصة بالنسبة إلى مترنيـخ، فانتهزها لتحويل هذا الاحتلال إلى انضمام. وبعد أن تفاهم مع القيصر وسد اطماع بروسيـا ببعض امتيازات اقتصادية، وجـه، في ٦ تشرين الثاني، إلى فرنسا وانكلترا مذكرة تشير إلى أن النمسا ضمت جمهورية كراكوفيا لتوطيد « نظام التملك السابق لعام ١٨٠٩ » وذلك لوضع حد لحالة التآمر الدائم في أرض كراكوفيا. وهكذا زالت آخر قطعة من بولونيا. وكانت قيمة هـذه الأرض رمزية أكثر مما هي حقيقية، ولكن هذا الضم أثار هياجاً عظيمـاً، بالطبـع، لدى الدوائر الليبرالية في اوربه، وخاصة في فرنسـا: حاول غـيزو أن يتباحث مع انكلترا بشأن تدخل للاحتجاج على هذا الضم، ولكن بالمرستون لم يكن متهيئاً لذلك، ولم يكن للمذكرتين، مذكرة انكلترا، في ٢٣ تشرين الثاني، ومذكرة فرنسا، في ٣ كانون الأول، إلا قيمة افلاطونية. وكانت اخفاق هذه الثورة البولونية آخر اخفاق قومي، في أوربة، قبل ثورة ١٨٤٨.

الحرب الاهلية في سويسرا. – أما الحرب الأهلية في سويسرا، فقد نجمت عن حركة معقدة وكانت في آن واحد **خلافاً سياسياً**، بين المحافظين والديموقراطيين المسمين هنا « **الحزب الراديكالي** »، وخلافـــاً

دينياً بين البروتستانت والكاثوليك ، وكان كل من الطرفين مندفعاً في نظرياته ، بعضهم في اتجاه الفكر الحر ، وآخرون في الاتجاه الروماني البابوي الكاثوليكي (حركة ما وراء الجبال) الذي نما منذ بضع سنين. وكانت أيضاً **حركة قومية** . ومما يهمنا هنا في هذا الاتجاه ، هو أنها أعربت عن رغبتها في سويسرا بتعزيز الروابط الاتحادية ، وخلق وحدة سويسرية مما لم يكن سوى جمع من الكانتونات المتحدة ، وبالجملة استعادة تقاليد الوحدة السويسرية التي تمت على يد فرنسا من ١٨٠٣ إلى ١٨١٤ . وقد تجلت هذه الحركة نحو الوحدة بما سمي « حركة التجديد » التي بدأت غداة ثورة ١٨٣٠ ، والتي أصلحت بموجبها تدريجياً دساتير مختلف الكانتونات على أساس العقلانية والمساواة ، والتي بموجبها أيضاً وضع مشروع اصلاح الدستور العام ، الدستور الكونفدرالي وأخفق هذا الاصلاح في ١٨٣٣ ، ولكن الحركة لصالح وحدة سويسرا استمرت على يد جمعية « الاتحاد القومي » وهو اسم معبر وله مغزاه . وكانت حركة الاحرار القوميين السويسريين هذه بالطبع على صلة بجميع الحركات الليبرالية في الدول المجاورة ، وبخاصة بالأحرار الألمان الذين التجؤوا في معظمهم إلى بال وخاصة إلى زوريخ حيث أعطت السلطات الكانتونية كراسي جامعية واوضاعاً ووظائف عامة إلى رجال مثل **بوخو** أو **شتراوس** . ولعلنا نذكر أن جمعية « أوربة الفتاة » التي أسسها ماتزيني في العام ١٨٣٤ كانت في سويسرا ، وان عدة حوادث قامت على يد اللاجئين في سويسرا وضعت الحكومة السويسرية في نزاع مع الحكومات المجاورة ، وقد دعم الراديكاليون السويسريون رفقاءهم الاجانب ، باسم استقلال سويسرا والمبادىء الديموقراطية . هذا فضلاً عن أن تحريض الأفكار

سبب في ١٨٣٣ خلافات محلية عديدة ، بل وبعض ثورات في داخل الكانتونات .

وتجسدت هذه المنازعات أخيراً بنضال لأجل المدرسة ، ولأجل التعليم الابتدائي بين **الراديكاليين** ، أنصار التعليم العلماني ، **والكاثوليك الذين** يريدون أن يعهدوا بالتعليم الابتدائي إلى اليسوعيين . وارتبطت مشكلة المدرسة على هذا النحو بمشكلة الجمعيات الرهبانية ، وولد هذا النزاع ، في هذه المرة ، أحزاباً قومية تجاوزت حدود الكانتونات التي تهم السويسريين جميعاً .

قام المتطوعون الراديكاليون بمحاولتي هجوم على لوسرن في آخر ١٨٤٤ وبداية ١٨٤٥ ، فسببتا تشكل عصبة دفاع مؤلفة من السبع كانتونات السويسرية الكاثوليكية ، وكما يقول بيانها بغية « الدفاع عن حقوق سيادتها وأراضيها » . وأخذت هذه العصبة اسم « **الزوندربوند** » . وكان لها مجلس حربي وتعتمد على ضريبة تسجيل تدفعها الكانتونات السبع . وانتقلت القضية ، على هذا النحو ، إلى الصعيد القومي ، إلى صعيد السلطات العائدة للكانتونات والحكومة الاتحادية . وكان نجاح أحد الحزبين منوطاً بالاكثرية في المجلس الاتحادي : وقد كسب الراديكاليون الكانتونين اللذين يعطيانهم أكثرية اثني عشر كرسياً وهما كانتون جونيف بثورة صغيرة ضد الباتريسيا قامت في ١٨٤٦ ، وكانتون **القديس - غال** بنتيجة انتخابات أيار ١٨٤٧ . وبعد أن حصل الراديكاليون على الأكثرية في المجلس الاتحادي ، اتخذوا ، في تموز ١٨٤٧ ، في الدياط ، قراري مبدأ .

١ - ان الزوندربوند يناهض الوحدة الاتحادية .

٢ - إعادة النظر في الدستور الكونفدرالي .

وفي الدورة التالية ، دورة تشرين الأول ١٨٤٧ قرر الدياط .

٣ - حذف الزوندربوند بالقوة .

أمام هذا التهديد الراديكالي ، وجه الكاثوليك نداء يستنجدون بساردينيا والنمسا وفرنسا . وبينما كانت الدول ، بناء على اقتراح مترنيخ تتناقش فيما بينها على صيغة التدخل ، باسم الحقوق التي تخولها اياها معاهدات ١٨١٥ ، منشئة الكونفدراسيون السويسري ، حاول بالمرستون جهد المستطاع أن يطيل هذه المفاوضات ما أمكن . وقام الراديكاليون السويسريون بعمل قوي وسريع : ألفوا على عجل جيشاً ، وسلموا قيادته إلى الجنرال دوفور ؛ وخذل اللوسرنيون في رتامبرغ ، في ٢٣ تشرين الثاني ١٨٤٧ ؛ وخضعت الكانتونات الأخرى . ودامت الحملة ستة وعشرين يوماً . وهذا النصر الذي أحرزه الجنرال دوفور جعل التدخلات الدبلوماسية الصرفة ، التي قامت بها الدول ، غير مجدية . وارتبطت بهذه الارادة القومية ثورة قامت في كانون الثاني ١٨٤٨ ، في امارة نوشاتيل التابعة لملك بروسيا ، وأطرحت السيادة البروسية ، وانتظمت في كانتون سويسرية . وهكذا انتصر المبدأ القومي في الوحدة والاستقلال في آخر ١٨٤٧ وبداية ١٨٤٨ ولم يبق في هذا الاتجاه الا اصلاح الدستور الكونفدرالي .

الثورات الداخلية في أوربة الوسطى . - أما الثورات الأخرى التي سبقت ثورة ١٨٤٨ ، وكانت من طلائعها ، فقد كانت داخلية ، وقامت في اوربه الوسطى دون ان تتجاوز حدود الدول التي حدثت فيها .

الثورة في المانيا . - لقد اثار دفع الفكرة القومية قضية دوقيتي

شلزفيغ - هولشتاين التي الحنا اليها سابقاً . ولنذكر أن المؤتمرات الجرمانية التي بدأت قبل عامين كانت تطالب بتشكيل برلمان الماني ، وان جريدة المانية انشئت في تموز ١٨٤٧ ، في كولونيا ، واسمها « الصحيفة الالمانية » لمد هذه الحركة القومية ، وان العاطفة العامة ، في ان اصلاح الكونفدراسيون الجرماني ضروري ، كانت واسعة ومنتشرة حتى ان الملك فريديريك - غليوم الرابع اعتقد بضرورة اقتراح هذا الاصلاح ورأى في ذلك وسيلة لتوجيه الأفكار إلى القضايا القومية ، وعلى وجه التفضيل إلى قضايا الاصلاح الدستوري . وفي ٢١ تشرين الثاني ١٨٤٧ ، أرسل إلى مترنيخ مشروعاً باصلاح حكومة الكونفدراسيون يتناول من جديد تنظيم الدياط بشكل تتخذ فيه القرارات بتصويت الاكثرية ، وانشاء محكمة اتحادية ، ووحدة التشريع الاقتصادي ، والاشتراك معاً بانشاء خطوط حديدية ، واصلاح الجيش الاتحادي .

ان ما نراه بخاصة هو ان الأحزاب أخذت تعرف نفسها بشكل اوضح على صعيد الليبرالية . ولقد كان اللاندتاغ المتحد في بروسيا فرصة للأحرار للاعراب عن مطاليبهم البروسية الصرفة :

عقد **الراديكاليون الديموقراطيون** مؤتمراً في اوفنبورغ في ١٢ ايلول ١٨٤٧ ، وعرفوا فيه مطاليبهم وهي : حرية الصحافة والجمعيات ولجنة محلفين في القضايا الجنائية ، والحرس القومي ، والضريبة التصاعدية على الدخل ، ومجلس قومي الماني إلى جانب الدياط .

وبعد بضعة أيام عقد **الوحدويون المعتدلون** مؤتمرهم في هبنهايم ، في ١٠ تشرين الاول ١٨٤٧ ، وعرفوا نفسهم بدورهم : طالبوا ببرلمان للاتحاد الجمركي تسولفراين ، وقرأ **باسرمان** الطلب باسمهم على مجلس كالسروه كما قرأه هنري فون غاغيرن في مجلس دارمشتات.

انطلقت حركة الاضطراب السياسي حتى الثورة في بافاريا : فقد وقع الملك **لويس الاول** تحت تأثير الراقصة الاسبانية ، **لولا مونتز** ، ورأت هذه ان تزج نفسها في معترك المشاكل السياسية ، ويلفت النظر بخاصة تدخلها في تسمية الأساقفة ؛ فرفضت الوزارة البافارية هذا التدخل واستقالت في ١٨٤٧ . ثم دخلت لولا مونتز في نزاع مع الجامعة وتحزب الطلاب لاساتذتهم ضدها وأهانوها في الشوارع ، واشترك الشعب في القضية ودعم الطلاب . وقامت مشادة اضطرت الملك في كانون الثاني ١٨٤٧ إلى طرد الراقصة ، ولكن حياة العزلة بدت له كريهة ، وعند أول حركة للثورة بادر بالتنازل عن العرش لصالح ابنه والسفر إلى الجانب الآخر من جبال الالب . ولم تكن هذه الثورة ، كما نرى ، رصينة ، ولكنها تدل ، لحد ما ، على هياج الافكار في المانيا الجنوبية . واضطر دوق **باد الاكبر** في الوقت نفسه تحت معارضة المجلس أن يستدعي وزارة ديموقراطية . وقامت ثورة في **شتوتغارت** في ١٨٤٧ واضطر الملك أن يأخذ على عاتقه الأمر ويتزعم حركة الضرب على يد هذه الحركة . وفي **ساكس** حرض المدرب الشعبي **روبير باوم** العمال ؛ وفي دريسدن قامت ثورة عمال . وهكذا نرى في كل مكان اضطراباً متطرفاً . وفي المجالس السياسية ، في كل مكان تقريباً تشكل جهاز متحمس للنضال السياسي ومقاومة السلطة ، ومدرب على الحياة البرلمانية . ولقد أصبح الآن على درجة كافية من القوة ليرفع صوته ويطالب بالاصلاحات التي تسمح الثورة بالقيام بها .

الثورة في ايطاليا . — ذهب الاضطراب في ايطاليا إلى أبعد مما في المانيا ، على اثر حادث أهاج ايطاليا وقلبها وهو : انتخاب البابا بيوس التاسع في ١٦ حزيران ١٨٤٦ والأعمال الليبرالية الاولى ، وبخاصة العفو

السياسي العـــام ، التي طبعت تسلمه العرش الحبري . وكان ينظر إلى البابا الجديد إلى أنه البابا المصلح ، كما اخبر بذلك جيوبرتي ، وقد تعلق الناس به تعلقاً عجيباً ، وأخذ يتمتع مباشرة بشعبية عظيمة ، حتى وجد نفسه مكبلاً بهذه الشعبية التي دفعته إلى اصلاحات ليبرالية أكثر مما كان يريد نفسه . وأصبح نشيد بيوس التاسع نشيداً وطنياً ايطالياً في نفس الوقت الذي ألف فيه ماميلي نشيده ، في العام ١٨٤٧ ، مع موسيقى فردي ، بمناسبة أعياد الذكرى المئوية لطرد النمساويين من جنوة . وامتدت حركة الاصلاح الرومانية إلى توسكانا ، حيث وجدت في ١٨٤٦ حركة اضطرابات قام بها أساتذة وطلاب جامعة بيزا ضد الجمعيات الدينية، ومن توسكانا امتدت إلى المملكة البيمونتية - الساردية . وكان هؤلاء الأحرار يطالبون حكوماتهم بحرية الصحافة ، وتشكيل حرس قومي ، وحرس أهلي . وقد ألغى بيوس التاسع الرقابة في شهر آذار ١٨٤٧ ، وفي شهر نيسان ، وعد بمجلس دولة ، وفي شهر تموز ١٨٤٧ ، وافق على تشكيل حرس أهلي . وحذا حذوه دوق توسكانا الاكبر في شهر ايلول . وبعد هذه المطالب ، التي كانت بمثابة مسكنات تقريباً ، طالب الأحرار بشي أخطر وأصرح : وهو دساتير تمثيلية .

أخذت الحركة طابعاً قومياً ومناوئاً للنمسا أمام رد الفعل الذي قامت به حكومة مترنيخ حيال هذه الحركات الليبراليـــة . احتلت الجيوش النمساوية فراره ، بحجة الفوضى ، في شهر آب ١٨٤٧ وفرضت معاهدة حماية حقيقية على دوق مودينا في شهر كانون الأول . وارسلت نجدات إلى ميلانيا ، وهددت الحكومة النمساوية باجتياح دوقيتي بارما وتوسكانا لقمع الحركات الليبرالية فيها . وبلغ التهديد النمساوي ، في شهر ايلول ١٨٤٧ ومرة أخرى في كانون الثاني ١٨٤٨ ، حداً جعل البـابا ودوق

توسكانا يقومان بمفاتحات مع ملك بيمونت - سادينيا لتشكيل عصبة دفاع ضد النمسا . وكتب ماتزيني رسالة مفتوحة إلى البابا يطلب فيها منه ان يتزعم الحركة القومية الايطالية ، وقدم له مساعدة جميع اشياعه.

وفي الدولة اللومباردية - البندقية ، اخذ الاضطراب شكل ثورة : فقد قامت مظاهرات وحدثت اصطدامات مع الجيوش بمناسبة الذكرى السنوية لوفـــاة الزعيم الميلاني ، كونفالونييري في كانون الأول ١٨٤٨ ، ثم أثناء اعياد تنصيب مطران ميلانو الجديد الذي كان في هذه المرة ميلانياً لا نمساوياً كما في ايلول ١٨٤٧ . ولما زادت الحكومة الرسوم على الاستهلاك وخاصة على التبغ قرر الميلانيون مقاطعة التبغ ابتداء من أول كانون الثاني ١٨٤٨ . وفي ٢ كانون الثاني قامت حركات بلغت حد الثورة ، وتسمى هذه الثورة : « ثورة التبغ » (السيغار) وهاجم الثوار الضباط النمساويين الذين يدخنون في الشارع جهاراً ؛ ودامت المناوشات يومين ، من ٢ كانون الثاني إلى ٤ منه ، وقع خلالها ٥٩ قتيلاً .

وفي البندقية ،أثار الاضطراب رجلان ، المحامي مانين والكاتب توماززيو الدلماسي الأصل . وكان سخط العسكريين النمساويين عظيماً حيال هذه الحركات الثورية . فقد اعلن راديتسكي ، قائد الجيوش ، الاحكام العرفية في ميلانو في ١١ شباط وطلب النجدات لاخماد الاضطراب بالقوة . وتفاقمت الحالة بالأزمة الاقتصادية التي عمت البؤس وتجلت في كل مكان في ايطاليا بثورات شعبية تشكو الجوع وبخاصة في ليفورنه وجنوة وفلورانسا .

وأخيراً ، في صقلية نشبت ثورة ذات نعرة خاصة . فقد قامت أول محاولة للثورة في ايلول ١٨٤٧ في مسينا ، ولكنها اخفقت . وفي ١٢

كانون الثاني ١٨٤٨ ثارت بالرمو بدورها . وفي ثمانية أيام قتالاً ، طرد الصقليون الحاميات النابولية ؛ وفي ٢٧ كانون الثاني اقلعت الجيوش ؛ ولم تحتفظ الحكومة الا بقلعة مسينا وحدها . واقيمت حكومة موقتة في بالرمو ونادت بوضع دستور ١٨١٢ موضع التنفيذ . ولم يكن في هذه الثورة الصقلية بالطبع شيء قومي لأنها كانت ، على العكس ، ثورة انفصالية ذات نعرة خاصة اقليمية ؛ ولكن كان من نتيجتها أن سببت ، بالعدوى ، انتصار الحركات الليبرالية في ايطاليا الأصلية (غير شبه الجزيرة) . وهنا نرى أول مثل لما سنراه في حركات ١٨٤٨ نفسها ، وهو التنافس بين الثورات .

وقامت ثورة في نابولي واجبرت الملك فرديناند الثاني على منح دستور لشعبه في ٢٩ كانون الثاني . وأثار الاحرار في تورينو وفي جنوة مظاهرات واضطرابات اجبرت الملك في ٨ شباط على أن يقطع وعداً بدستور. وفي فلورنسا ، أجبر الدوق الاكبر في ١١ شباط على اعطاء وعد بدستور واذاعة هذا الدستور في ١٧ منه . وفي روما ، كانت المطالبة بالدستور حارة . ولكن البابا بيوس التاسع ظل متردداً . وهذه الدساتير التي اضطر الملوك ، في نابولي ، وبيمونت ، وتوسكانا ، إلى اعلانها أو الوعد بها ، لم تكن الا تقليداً للميثاق الفرنسي ، ميثاق لوي — فيليب، ولم يكن لها تلك الصفة الديموقراطية التي ستكون لها في عام ١٨٤٨ .

وهكذا نرى أن الثورة الليبرالية الأصلية بدأت قبل الثورة الفرنسية نفسها ، في ٢٤ شباط ١٨٤٨ ، وان المشكلة القومية ، خارجاً عن هذه الثورات الليبرالية ، وضعت في الصعيد الاول بالنسبة للسياسة الايطالية، وما ذلك الا بسبب الحقد على النمسا ، الذي أخذ يشتعل في جميع الجهات.

٢ — ثورة ١٨٤٨

لقد كانت الحركات الثورية عام ١٨٤٨ أوسع بكثير من هذه الحركات الغامضة والناقصة التي أتينا على ذكرها. والحادث الحاسم فيها كان في ثورة باريس في ٢٤ شباط ١٨٤٨ التي كان من نتيجتها تقوية الحركات التي بدأت من قبل في إيطاليا ، وبخاصة في ألمانيا ، ويأتي بعد ذلك يوم ١٣ آذار ١٨٤٨ في فينا ، الذي اسقط مترنيخ ، وذلك الجهاز الذي أمسك بأوربة الرجعية ، اوربة الوسطى ، في السلاسل والأغلال . وكانت الحركة عامة ، وكانت الثورات في آن واحد ليبرالية وقومية معاً . وايقظت مشاكل دولية قامت في وثبة الايمان ، وأحياناً في جو الحب الغض الندي ، جو « ربيع الشعوب » كما أطلق عليه . ومن الطبيعي ان كل شيء فيها لم يكن ليهم حركة القوميات ، ولكن من المفيد أن نأخذ عنها لمحة عامة ونسجل ارتباط هذه الثورات فيما بينها ، ومن ثم نستطيع أن نعود ، في هذا الاطار العام ، إلى دراسة الحركات القومية الأصلية .

الحركة السياسية . ـ هناك عدة مراحل يجب تمييزها . لقد كان اضطراب الأفكار بالغاً أشده حتى ان نبأ ثورة ٢٤ شباط ١٨٤٨ في باريس دفع الحركات التي بدأت من قبل دفعة واسعة . وكان رد فعل الحكومات بالطبع الوقوف على الدفاع : فقد خافت بلجيكا مباشرة من أن تضمها فرنسا اليها ، وأخذت تبحث عن مساعدة لها من الخارج وحاولت حكومات الشرق عقد تألب على الثورة ، ولكن هذا التألب أخفق اثر رفض انكلترا ، وبسبب لباقة مارتين الذي حالت تصريحاته المطمئنة دون تشكل هذه العصبة .

أما من جهة الشعوب ، فعلى العكس ، كان من رد الفعل الذي أثارته الثورة أن عجل الحركات التي بدأت بخاصة في إيطاليا : ففي ٥ آذار أذاع شارل ـ البير « النظام الأساسي » وهو اسم الدستور البيمونتي ؛ وفي ١١ آذار شكل بيوس التاسع وزارة علمانية ووعد بدستور . وفي النمسا أعربت الحركات القومية عن مطاليبها : مثل دياط بوسبورغ والدياط الهونغاري تحت تأثير كوسوط ، والبوهيميون في اجتماع عام كبير في براغ ، في ١١ آذار . وفي ألمانيا اتسعت الحركة في عدة اتجاهات : أولاً ، في دول الجنوب ـ الغربي ، حيث وجدت من قبل مجالس ، اجبرت مطالبات المجالس الحكومات على منح حريات جديدة ، ووزارات مسؤولة أمام المجالس ، وتشكيل حرس قومي ، في دوقية باد ، وفي الثلاث هسّات ، وفي فرانكفورت ، وفي فورتامبرغ . وتحولت هذه الدول الدستورية الصغيرة إلى دول ديموقراطية . وكذا الحال في الشمال ، في المدن الحرة مثل لوبك وهامبورغ ولم تتجاوز الحركة في بروسيا الرينانية والوستفالية حركة عرائض لدى السلطات المحلية، ولم تؤد إلى شيء .

الحركة الاجتماعية ـ . وإلى جانب هذه الحركة السياسية في الدول الدستورية ، نرى ظهور حركة اجتماعية خرجت من البؤس الناجم عن الأزمة الاقتصادية. فقد نشبت ثورة زراعية في وادي نيكار في ٤ آذار وامتدت تدريجياً إلى بريسغاو ، وإلى كريشغاو في اودنفالد ، وفي الغابة السوداء، حتى بحيرة كونستانس : : هوجمت القصور ، والملكيات الخاصة ، وهوجم اليهود في المدن الصغرى . ثم هدأت هذه الحركة بتأثير الجيوش البادية والفرتامبرغية ، وبالغاء النظام الاقطاعي الذي صوت عليه في المجالس.

حملة اصلاح دستور الكونفدراسيون الجرماني . ـ وقامت حملة لاصلاح دستور الكونفدراسيون الجرماني . فقد نوقش الاصلاح بناء على

اقتراح بروسيا ، في ٢٨ شباط ، وملك بافاريا ، بين الأمراء. وفي ٢٧ شباط نظمت الحكومات الثلاث : باد ، هس ، ناسو ، بناء على اقتراح هنري غاغيرن نوعاً من مهمة وعهد بها إلى رجلين سياسيين للانتقال ، من عاصمة إلى عاصمة ، ودراسة مشاريع اصلاح الكونفدراسيون . وسمح الدياط نفسه بالغاء الرقابة في الدول . والحق به سبعة عشر رجلاً كانوا مواضع ثقته لدراسة الاصلاحات الممكنة في الكونفدراسيون . وفي الوقت نفسه ، اجتمع سبعة زعماء أحرار في هايدلبرغ وقرروا دعوة كل من أسهم في مجالس ألمانيا السياسية إلى الاجتماع في « **برلمان تحضيري** » لدراسة امكان انعقاد مجلس قومي .

وهذه الحركات ، التي كانت انعكاساً مباشراً لثورة باريس كانت متواضعة في ألمانيا الغربية وفي إيطاليا الوسطى ؛ وتناولت مطاليب سياسية دون ثورة بالمعنى الأصلي للثورة ؛ الا أنها أثارت قضية الاصلاح الكونفدرالي في ألمانيا ووضعت القضية القومية في النمسا ، وهذه النتائج التي حصلت عليها هامة حقاً .

ثورة فينا (١٣ آذار ١٨٤٨) . ـ والحادث الأخطر أيضاً والذي كانت له نتائج عميقة جداً ، هو ثورة فينا ، اثر المظاهرات الشعبية التي سببت الاصطدام مع الجيوش ، في اليوم الذي انعقد فيه دياط النمسا ، في ١٣ آذار ١٨٤٨ . فقد اضطر مترنيخ إلى الفرار ، وفي يوم ١٥ منه منح الامبراطور حرية الصحافة ، وتشكيل الحرس القومي ، ووعد بدستور ونظم الهيئة الوزارية . إن انهيار الحكومة الرجعية في النمسا عمم الحركة الثورية وفجر الثورة في كل مكان ، تولى فيه المفكرون قيادة الشعب . ولقد أخذت الحركة بالحال طابعاً متطرفاً ، سواء في شكلها السياسي أم في شكلها القومي . وقد أجرت الثورة في هذه المرة تحويلاً تاماً في أوروبة

في أجزائهـا وفي نظامها العـام . وكانت الثورات تجري على شكل شلال ، وتثير الواحدة الأخرى ، بتنافس حقيقي بين البلاد .

في **النمسا** ، كانت حكومة الامبراطورية تتحول ، عنـدما ظهرت القوميات . فقد تحولت حكومة الامبراطورية ، في ٢٥ نيسان ، بدستور منحه الامبراطور ، ولكن عدم كفايته ، في نظر الشعب ، كان سبباً في قيام ثورة جـديدة في ١٥ أيار ؛ واضطر الامبراطور إلى الاعتراف بأن المجلس التأسيسي هو الذي يسن الدستـور النمساوي . وطلبت القوميات الاعتراف باستقلالها الذاتي . واضطرت الحكومة إلى التنازل وأعلنت في ٨ نيسان ، **ميثاق بوهيميا** ، وفي ١١ نيسان ، **نظام هونغاريا** . وإلى جانب هاتين القوميتين ، اللتين فرضتا الاعتراف بحق حياتها ، وجدت القوميات الأخرى ، التي ظلت حتى الآن فكرية صرفاً ، فأثارت مطالب سياسية : فمن ذلك ان **الكرواتيين** ثاروا تحت قيادة الجـنرال **يلاشيش** وهـو شاعر من التخوم العسكرية سمي **بان** كرواتيا في ١٤ نيسان ، وانعقد الدياط الكرواتي في ٥ حزيران ؛ وحركة **الصربيين** المماثلة على التخوم العسكرية التي عقـدت مجلساً قومياً في كارلوفيتز في ١٣ أيار ؛ وعقد الرومانيون في ترنسلفانيا مؤتمرهم في بلاج في ١٥ أيار . وطالبت هذه الحركات الثلاث بالاعتراف بمساواتها مع قوميات الامبراطورية الأخرى .

وصل نبأ يوم ١٥ آذار في فينا إلى برلين في ١٦ منه . وفي الـ ١٧ بـدأ الاضطراب . وفي ١٨ انفجرت الثورة ، كما في باريس وفينا ، اثر صدام بين الجيش والمتظاهرين . حتى ان فريديريك ـ غليوم الرابع نفسه ، بعد أن عرته الثورة من سلاحه ، ودفعتـه المظاهرات البورجوازية والشعبية ، بعد أن حاول أن يحول الأفكار نحو مطالب

قومية ألمانية ، اضطر إلى تنازلات متتابعة انتهت بالتصويت في اللاندتاغ المتحد على القانون الانتخابي لانعقـاد مجلس تأسيسي . وفي بحر آذار وبداية نيسان انتصرت الحركة الدستورية في كل ألمانيا الوسطى ، وخاصة في ساكس وفي بافاريا .

الثورة القومية في المانيا - وإلى جانب هذه الثورات السياسية الداخلية تحققت الثورة القومية في ألمانيا كافة وانعقد **البرلمان التحضيري** في ٣١ آذار ؛ وسن قانوناً انتخابياً وعين لجنة دائمـة من خمسين عضواً وسمى « رجال الثقة » السبعة عشر الذين سيمثلون الشعب لدى الدياط . ودرست هذه الهيئات الثلاث ، كل من جانبها ، خطط الحكومة لكل ألمانيا. وفي ١٨ أيار ١٨٤٨ انعقد في فرنكفورت أول برلمان ألماني .

وأخيراً ارتسمت حركة ثالثة ، حركة متطرفة ؛ جمهورية تشكلت في غربي ألمانيا وأدت إلى ثورة نظمت مع غزو اللاجئين القادمين من سويسرا وفرنسا ، في ١٢ نيسان . ولكن هذه الثورة وهـذا الغزو المسلح فتته جيوش باد وهس وفرتامبرغ التي قاتلت الثوريين في كفاح **كاندرن** في ٢١ نيسان . واستمرت الحركة ، بعض الوقت أيضاً ، بثورات في البلاتينا ، في هايدلبرغ وفي مانهايم . ولم يكن لهذه الثورات من نتيجة سوى أنها أخافت الأفكار ، وأثارت بالتالي رد فعل محـافظ وأخيراً قامت ، على التخوم الخارجية من ألمانيا حركات قومية في الدوقيتين ، وفي بولونيا . فقد انفجرت ثورة انفصالية في هولشتاين ، في ٢٣ آذار ، وساندها الدياط والحكومة البروسية ؛ وفي بولونيا البروسيـة ، قامت حركة تمرد في ٢٨ آذار وساندتها السلطـات البروسيـة في البـدء .

وفي كل مكان ، قضت الثورة ، في بضعة أسابيـع ، على النظـام

الاقطاعي ونظام السلطة المطلقة ؛ وفي كل مكان انتصرت معاً قضية الحرية وقضية القومية . ولم يبق في آخر ربيع ١٨٤٨ الا تنظيم الحكومات الجديدة وتسييرها بعد أن وضعت المبادىء وتم العمل الاساسي في إزالة العقبات .

مصير الثورات . - وبعد أن قامت هذه الثورات معاً أخذت تتطور منفصلة عن بعضها ، ما عدا الارتباط المباشر الموجود ، بالطبع ، بين النمسا وايطاليا الشمالية ، لأن النمسا تملك فيها المملكة اللومباردية - البندقية ،وما عدا التأثير العام الذي كان يجري في كل أوربة ، كالحوادث الطارئة في الوضع النمساوي على ألمانيا . وفي هذا الدور الجديد ، حافظت حوادث النمسا دوماً على قيمة دولية ، وكانت حاسمة على مصير الثورات الأخرى أكثر من سياسة الدول الأجنبية ، مثل سياسة فرنسا وانكلترا أو روسيا .

في ايطاليا . - كان مصير هذه الثورات منافياً بسرعة . وقد سوي مصير الثورة في ايطاليا قبل مصير غيرها : لقد وجدت فيها قضيتان : قضية التحرير القومي من النير النمساوي من جهة ، والتحويل الداخلي في الدول ، من جهة أخرى . في البدء كان الدفع القومي في ايطاليا ، ضد النمسا ، عاماً وحاراً . ولكنه جف بسرعة بسبب سياسة بيمونت الأنانية ، التي لم تتصور الافادة من هذه الحركة القومية إلا من وجهة نظر مصالحها الخاصة ، ودلت على عدم كفاءة عسكرية اعقبت نتائج خطيرة. وقد خيبت هذه السياسة الانانية بسرعة القوميين الايطاليين ، مثل ماتزيني ، الذي جاء ، مع غاريبلدي ، ليتزعم متطوعي ايطاليا الشمالية ، وادرك ان سياسة بيمونت تحرف الحركة القومية . وان ما كانت تبحث عنه البيمونت ونجحت فيه بمكايدها ، هو أنها استطاعت عن طريق التصويت

ان تضم اللومبارديا والبندقية إلى بيمونت في مملكة ايطاليا العليا ، وأن ملك بيمونت رفض في الوقت نفسه مفاتحات العصبة العسكرية التي تقدم بها البابا ودوق توسكانا الاكبر، وطرح المساعدة التي اقترحها عليه لامارتين ، حتى انه لم يتهيأ أو انه لم يتهيأ الا بتردد للوساطة الفرنسية - الانكليزية ، مع أن الشروط التي كانت النمسا مستعدة للتنازل عنها كانت ملائمة جداً ومفيدة

قلقت الحكومات بسرعه من سياسة بيمونت . ولم يستطع البابا بوصفه اميراً دينياً وزعيماً للكنيسة ان يوافق على حرب بين الكاثوليك ، ولذلك شجب مبدأ الحرب في منشور ٢٩ نيسان . وقلق ملك نابولي من المكايد التي كانت تحاك في صقلية لإعطاء التاج الصقلي إلى ابن شارل - البير ، ملك البيمونت ، واستدعى جنوده من جيش المتطوعين الذين التفوا حول الجيش البيمونتي بعد أن اتوا من مختلف انحاء ايطاليا وضخموا جيش بيمونت حتى بلغ ٨٠،٠٠٠ رجل ، ولكنهم ظهروا ضعافاً : من ذلك ان عدداً منهم غادروا صفوف القتال ، ولم يعرفوا كيف ينازعون الجيوش النمساوية على مدن منطقة البندقية القارية .

وتحولت الحالة العسكرية في الوقت نفسه بسرعة . فقد طرد **راديتسكي** من ميلانو ، واحتفظ بجيشه سليماً في منطقة الشكل الرباعي وانتظر النجدات ولم يقبل باي حل الا الحل العسكري . وبانتظار هذه النجدات استعاد **فيسانس** في ١٠ حزيران ، ومدن السهل البندقي الواحدة بعد الاخرى . وعندما أتته النجدات المنتظرة قام بالهجوم في ٢٣ تموز . وسحق البيمونتيون في **كوستوزا** في ٢٥ تموز ، وسلمت ميلانو في ٥ آب ، ووقع شارل - آلبير الهدنة في ٩ آب ، وقبل بالجلاء عن البندقية ولومبارديا والدوقيات ؛ واحتلت الجيوش النمساوية **فراره** في ١٤ تموز . وبهذه الهزيمة أصبح تحرير ايطاليا العسكري من النير النمساوي مستحيلاً . وبقيت البندقية وحدها منعزلة في مقاومة ضارية تحيط بها جيوش النمسا .

ومن جهة أخرى ، كانت الحياة السياسية في مجالس مختلف الدول غارقة في المنازعات بين الاحرار والديموقراطيين ، وزادت هذه المنازعات حدة بالجدل الذي اثير حول القضية القومية . واشتبكت دعاية الجمهوريين الوحدويين بزعامة ماتزيني ، ودعاية الاتحاديين برئاسة جيوبرتي . وجرت مفاوضات دامت طوال السنة لاقامة اتحاد في ايطاليا الوسطى ، لعدم توفر اتحاد عام ، واقتصرت هذه المشاريع أخيراً على توحيد الدول الحبرية والدول التوسكانية معاً . وفي كل مكان من ايطاليا ، كانت المنازعات السياسية في الدول الايطالية سبباً في سقوط الوزارات . ولم يكن الأحرار قادرين على تنظيم تجديد رصين في الدولة . وفي روما ، تحطمت جهود وزارة ماميانى التي حاولت القيام باصلاحات اجتماعية ، أمام عداء الكرادلة . وأفادت عناصر النظام القديم في كل مكان تقريباً من هذه المنازعات الداخلية ، لمشايعة الرأي لهم . وهكذا كان الاحرار غير قادرين على التوصل لتأليف نظام حقيقي مرضي ، وظهروا كمناسبات الفوضى والعجز الحكومي .

وفي طرفي ايطاليا عاد النظام القديم حيث كان بسرعة : في المملكة اللومباردية - البندقية القديمة بواسطة دكتاتورية راديتسكي ؛ وفي ايطاليا الجنوبية ، في مملكة نابولي ، تخلص الملك من المجلس الأول في ١٥ أيار ؛ وأجل الثاني إلى بداية ايلول ، وأخمد الثورة ، وأمسك بيده الجيش والادارة ، وفي شهر آذار ١٨٤٩ اقال برلمانه نهائياً . وفي غضون ذلك استمرت الثورة الصقلية دون أن تهتم بباقي المملكة أو بباقي ايطاليا ولكن دون أن تستطيع تنظيم نفسها بشكل قطعي ، باحثة عن ملك ، وعن توطيد ادارة ودستور . وحصل النابوليون على قاعدة للعمليات بأخذهم مسينا ، في ٦ ايلول ١٨٤٨ . وفي آخر شباط ١٩٤٩ ، أرسل

ملك نابولي انذاراً إلى الصقليين ، وفي بداية نيسان ، بدأ الهجوم على الجزيرة . وفي ١١ أيار اضطـــر الصقليون الى التسليم . والّف جنوب ايطاليا عصبة جانبية منعزلة ، الا عندما أسهم بارسال المتطوعين في الحرب القومية ، وولى ظهره بسرعه عن باقي ايطاليا واعاد توطيد النظام القديم . ولم تدم الليبرالية ، في الجنوب ، الا بضعة أشهر .

لقد كانت من نتيجة الاخفاق في الحقل القومي وفي حقل السياسة الداخلية ان بالغت في التطور السياسي في بعض النقاط . وبالاجمال ، لم يعمل شيء للشعب ، أو لتخفيف آثار الأزمة الاقتصادية التي شكت منها الجماهير الشعبية . وسبب هذا الاخفاق المزدوج ، في آخر ١٨٤٨ وفي بداية ١٨٤٩ ، رعشة في العناصر الديموقراطية التي يساندها الشعب ، وفي بداية كانون الأول توصلت إلى السلطة في بيمونت بتشكيل وزارة يرأسها جيوبرتي . وفي روما ، قلبت ثورة حكومة البابا الليبرالية وقتلت رئيس مجلس الوزراء ، روسي : ففي ١٥ تشرين الثاني استولى الجمهوريون على السلطة ، وفر البابا من رروما والتجأ في غايِتْ ، وامتدت الحركة إلى فلورنسا فطردت الدوق الأكبر وانتظمت في جمهورية .

وهذه الحركة المتطرفة والقومية جرت الملك شارك - آلبير إلى خرق الهدنة التي وقعها ، وفي ١٢ آذار استأنف البيمونتيون النضال ؛ ولكنهم سحقوا في نوفارو ، في ٢٤ منه ، ولم تنج البيمونت من سحق كلي الا بتدخل السفير الفرنسي ، الذي حصل على ايقاف الجيوش النمساوية وتوقيع الهدنة في ٢٦ آذار . وتنازل شارل - آلبير عن العرش لصالح ابنه فيكتور - عمانوئيل الثاني . وابتداء من هذا الحين ، غرقت البيمونت في منازعات برلمانية عنيفة دون أن تؤثر أكثر من ذلك على ايطاليا .

وهكذا أصبحت روما وفلورنسا مركزاً وملجأً لجميع الثوريين الايطاليين ، الجمهوريين أو القوميين ، المتجمعين تحت نفوذ ما تزيني . وبدأت تصفية هذه الحركات المختلفة بعد نوفارو ، وتمت في بحر سنة ١٨٤٩ . واستطاع النمساويون بنجدتهم لدوق توسكانا الاكبر ، ليوبولد ، ان يرجعوه إلى فلورنسا بعد حملة قصيرة من ٥ نيسان إلى ٢٥ أيار . وفي روما ، جرى نقاش ، لارجاع السلطة الحبرية بحلول مختلفة : من قبل السفراء حول البابا أو من قبل الحكومات فيما بينها ؛ وتصورت عدة حلول في حال عدم وجود الحل الذي يفضله البابا ، أي الرجوع بواسطة النمسا وحدها . وفي آخر شباط ، تدخل النمساويون في فراره ، ويبدو أنهم أرادوا التدخل ، بناء على طلب البابا ، في الدول الحبرية . ولكن الحكومة الفرنسية استبقت الحوادث وقررت أن تتدخل بنفسها في ١٦ نيسان : نزلت حملة فرنسية في سيفيتا - فيكشيا ولكنها لم تستطع الهجوم على روما في ٣٠ نيسان ؛ ولذا وجب استئناف العمليات مع التعزيزات . واستولت جيوش الجنرال اودينو على روما في أول تموز ، بينما احتلت النمسا القصادات الرسولية . وأخيراً حوصرت البندقية وحميت بشكل قوي خلال فترة من الزمن ، ببعض السفن الفرنسية ، حتى معركة نوفارو ، ولكن الجيوش النمساوية هاجمتها في ١٣ حزيران واخذتها نهائياً في ١٢ آب . وهكذا كان قمع الحركة الديموقراطية فرصة لتصفية الحركة القومية والحركة الليبرالية معاً في ايطاليا .

في النمسا . - لقد كان نجاح الثورة مديناً لذعر الحكومة وعدم قدرتها أكثر منه لقوة الثوريين نفسها . ولكن الثورة تركت الجيش سليماً لم يمس ، هذا الجيش الذي تكمن فيه فكرة الدولة وتقاليد

الملكية في النمسا . ومن جهة أخرى ، رفعت الثورة على الصعيد السياسي مختلف القوميات ، وادخلت بالتالي في الامبراطورية عناصر تفرقة . غير أن هذه القوميات كانت متفاوتة في درجة نموها ، ولم تكن كلها معادية لمبدأ الامبراطورية . لقد كانت تفصلها المنازعات ؛ ولم يكن بين قوميات النمسا ائتلاف أو أي تفاهم . ولذا فان القوتين ، الجيش واختلاف القوميات ، تساعدان على تنظيم الدولة . وقد بدأ هذا التنظيم في صيف ١٨٤٨. ولم يتضمن ، في الأصل ، حذف الحرية ولا القومية ؛ بل كان يبحث عن حل جديد ، وقد تهيأ هذا الحل في آخر سنة ١٨٤٨ .

وتجدر الاشارة إلى أن الثورة منذ البدء ولدت عند السلافيين وعياً واضحاً بفرديتهم وتضامنهم ، وخاصة عند سلاف الشمال . وفي الواقع ، انكر البوهيميون فكرة الامبراطورية الرومانية الجرمانية القديمة ، حيث كان البوهيميون ملتصقين بالمانيا ، ورفضوا ، في شهر نيسان ، أن يرسلوا ممثلين عنهم إلى برلمان فرنكفورت ؛ ورأوا ، على العكس ، ان نموهم القومي منوط ببقائهم جزءاً من الامبراطورية النمساوية ، وان نمو قوميتهم مرتبط بوجود النمسا ، لأنه يساعدهم على النمو الثقافي والقومي الذي يفقدونه إذا ما امتزجوا بالمانيا : ولقد قال الزعيم بالاتسكي ملخصاً : « إذا لم توجد النمسا فيجب اختراعها » . ونظراً لاختلاف السلاف عن الألمان ، كانوا يشعرون بحاجة إلى معارضة الكتلة الجرمانية بالكتلة السلافية : ففي أول أيار ١٨٤٨ ، دعا التشيكيون إلى مؤتمر عام للسلاف ، وافتتح هذا المؤتمر في براغ في ٢ حزيران . ولسوء الحظ قام ، أثناء انعقاد المؤتمر ، خلاف بين الجنود والحرس القومي في ١٢ حزيران ، وأدى إلى استرجاع المدينة بواسطة الجيش النمساوي ، وفي هذه الحوادث تأجل المؤتمر في ٢٨ حزيران دون أن يعمل شيئاً . ولم تكن هذه القضية في هذا المؤتمر الجامع للسلافيين

إلا مقدمة في تاريخ الثورة النمساوية ، ولم تؤثر في شيء على نظـــام الامبراطورية النمساوية .

أخذ تنظيم الامبراطورية النمساوية من جديد عدة أشكال متتابعة . وأدت التنازلات ، الــتي اجريت غداة الثورة للبوهيميين والصرب والكروات ، إلى توجيه الملكية نحو تنظيم فدرالي يتفق مع الحقوق التاريخية ؛ ويعتبر هذا التنظيم بالتالي قطيعة مع تقاليد النمسا القديمة . ومع ذلك ، فقد حاولت الحكومة النمساوية ، قبل أن تتخلى عن هذه التقاليد ، وللمرة الأخيرة ، أن تجرب حلا ثنائياً أي التفاهم مع هونغاريا: ففي شهر حزيران ١٨٤٨ صرحت الحكومة النمساوية بسلامة تاج القديس – ايتين وخولت **الارشيدوق البالاتاني** ، حاكم هونغاريا ، تفويضاً بسلطات الحكومة . ولكن هذا الحل اخفق بتعنت الهونغاريين وتملق كوسوط . وانعقد البرلمان الهونغاري في ٤ تموز ، وحاول على العكس أن يظهر الاختلاف وفردية الهونغاريين واستقلال هونغاريا الذاتي حيال فينّا ، وفي الوقت نفسه سيطرة المجر على القوميات الأخرى التابعة لتاج القديس – ايتين . ولما اخفقت هذه المحاولة الأخيرة في الحل الثنائي تخلت النمسا عن الحقوق التاريخية ، ودفعتها الحوادث في اتجاه مغاير للحل التقليدي .

لقد أعاد الجيش السلطة حيث كانت . وكما ارجع الجيش، الذي كان في إيطاليا تحت قيادة راديتسكي ، السلطة النمساوية ، فقد أعاد الماريشال **فيند شغراتز** السلطة النمساوية في بوهيميا ، اثر واقعة بين الجنود والحرس القومي ، في براغ ، في ١٢ حزيران : فقـد استولى الماريشال على المدينة في ٢٧ حزيران ، وبعثر اللجنة القومية في بوهيميا . ودخلت هذه الأخيرة في نطاق الدولة النمساوية العـادي ، دون صعوبة ، لأن

ولاء البوهيميين لتاج فينا ظل سلبيا . ثم قامت ثورة ثانية في فينا ، في ٦ تشرين الأول ، وأدت إلى مقتل وزير الحربية ، وكان هذا الحادث فرصة لاستلام الجيش المدينة : فوض فيندشغرانتز بسلطات استثنائية ، واستولى على فينا في ٣١ تشرين الأول وأخذ يعاقب الزعماء الثوريين . وكان بينهم مندوب برلمان فرنكفورت الألماني روبيرت بلوم ، وأعدم اطلاقاً بالرصاص في ٩ تشرين الثاني . وتشكلت تحت حماية الجيش ، في ٢١ تشرين الثاني ، وزارة يوجهها الأمير فليكس شفارتزانبرغ ، مع وزيرين آخرين من قيمته ، باخ وزيراً للعدلية وشتاديون وزيراً للداخلية . ولتستطيع هذه الوزارة تجديد النمسا وحكمها ، فرضت على الامبراطور فرديناند المريض التنازل لصالح ابن أخيه الشاب ، فرنسوا - جوزيف .

والعنصر الثاني في بناء الامبراطورية من جديد ، خارجاً عن عمل الجيش ، كان في اللعبة التي لعبتها الحكومة النمساوية ، ضد الهونغاريين ، بالاتفاق مع القوميات الأخرى : فقد قطع الهونغاريون والكرواتيون العلاقات فيما بينهم نهائياً منذ شهر تموز . وفي ٤ ايلول قلد يلاشيش سلطات الحكومة في كرواسيا . وشكلت الحكومة من جديد مختلف الدياطات السلافية . ولم يكن الهونغاريون على استعداد لأي تسوية : لذا حاولت حكومة فينا ان تتفاوض مع العناصر الهونغارية المعتدلة ، وارسلت الكونت لامبيرت حاكماً ، وهو ينتسب إلى فريق الماغنات المعتدلين ، ولكن الجمهور قتله في ٢٨ ايلول ١٨٤٨ . وأصبحت القضية بين الهونغاريين وباقي الامبراطورية قضية قوة .

وعبر الارشيدوق جان ، باسم الامبراطور ، عن مفاهيم حكومة فينا في إعادة تنظيم الدولة ، عندما افتتح البرلمان النمساوي ، في ٢٢ تموز ، ومن ثم رئيس مجلس الوزراء الجديد ، شفارتزانبرغ ، في ٢٧

تشرين الثاني ، في البرلمان نفسه : وكان المراد صنع النمسا على أساس دستوري . وقبلت الحكومة الجديدة بذلك وطلبت من المجلس في ٧ ايلول ان يصوت على التحويل الاجتماعي العميق بالغاءالنظام الاقطاعي . وهذه النمسا الدستورية تصبح مؤلفة من جميع القوميات على قدم مساواة واحدة، وبالتالي تشكل كل من القوميات المختلفة اقليما وبنفس الصفة ،شأن كرواسيا في ذلك شأن ترانسلفانيا ، والتخوم ، وهونغاريا وبوهيميا. وكان يراد بذلك توطيد وحدة الامبراطورية بتأسيسها على المبدأ المزدوج في الحرية الدستورية والقومية ، وهذا المفهوم الجديد يوفق بين وحدة الدولة وارضاء المطلوب المزدوج الليبرالي والقومي الدارج . وبدأ عمل تنظيم النمسا على هذا الأساس في برلمان فينا ثم في كويمزير ، وهي بلدة صغيرة في مورافيا عندما انتقل البرلمان اليها في شهر تشرين الأول ، ثم أخذت الوزارة ، وحدها عمل التنظيم على عاتقها دون الاستعانة بالبرلمان .

كان يجب فرض هذا التنظيم الجديد على هونغاريا . ولكن هونغاريا ، في الحقيقة ، كانت تنساق شيئاً فشيئاً نحو التطرف : انعزل الماغنات المحافظون عن الحياة السياسية ؛ وثبط عزم المعتدلين مثل : دياك ، أوتفوس ، زيشيني ، بعد أن رأوا انحراف هونغاريا بسبب ممالأة كوسوط . فقد نظم الهونغاريون أنفسهم في البدء دون أن يقيموا أقل اعتبار لعالم فينا والقوميات الأخرى . وحتى مقتل لامبيرت ، في ٢٨ ايلول ، الذي يسجل القطيعة النهائية بين هونغاريا وباقي المملكة ، كان كوسوط يوجه هذا العمل باعتباره رئيساً للجنة الدفاع الهونغارية . وفي المرحلة الثانية من النضال ، ذهب الهونغاريون حتى الانفصال : ففي ١٤ نيسان ١٨٤٩ أعلن سقوط آل هابسبورغ واستقلال هونغاريا . وعندما قلد فيلد شغرانتز القيادة العليا ، في ١٢ تشرين الثاني ، أخذ على عاتقه الهجوم على هونغاريا،

في ١٥ كانون الأول ، منطلقاً من الشمال والشمال الغربي ، بينما كان يلاشيش يهاجم من الغرب ، والروس ينفذون إلى ترانسلفانيا . وأخذت بودابست في ٥ كانون الثاني ١٨٤٩ . ودحرت لجنة الدفاع ، التي تمثل الحكومة الهونغارية ، إلى الجنوب واستقرت في **دوبرتشن** .

وشجع هذا الانتصار على هونغاريا شفارتزانبرغ وغير أفكاره ، لا على أساس تنظيم النمسا ، بل على اشتراك الشعب في الحكم : ففي ٧ آذار ١٨٤٩ ، أعلن شفارتزانبرغ حل البرلمان ونشر دستوراً مؤرخاً في ٤ آذار ١٨٤٩ . وهذا الدستور يعلن « وحدة المملكة التي لا تنقسم » وتضم « بلاد التــاج » وكلها متساوية ولكل واحد منها سلطات ادارية فقط ؛ وللحكومة المركزية صلاحية سياسية عامة ، وشكل دستوري ، ودياط منتخب بالتصويت الضريبي ، ووزارة مسؤولة أمــام الدياط . الا أن تمديد النضال ضد الهونغاريين أجل تنفيذ دستور ٤ آذار ١٨٤٩ . ثم إن الأحكام العرفية ، التي اقتضتها الحرب في بوهيميا وفي فينا ، مددت الى الأقاليم الأخرى في الامبراطورية . وفي آخر آذار ١٨٤٩ ، تمكن الهونغاريون من استعادة تشكيل جيشهم وعاودا القتال : هزم فيندشغرائتز في **غوديلو** في ٧ نيسان ١٨٤٩ ؛ واستعاد الهونغاريون بودابست ؛ وفي آخر نيسان ١٨٤٩ تحررت الأرض الهونغارية باجمعها .

أمام هذا التطرف استنجد شفارتزانبرغ بالقيصر الروسي : عبر جيش روسي بقيادة **باسكيفيتس** جبال الكاربات ونزل نهر **تيسزا** ، بينما نزل الجيش الامبراطوري بقيادة الجنرال **هاغناو** نهر الدانوب ، الذي يهاجمه يلاشيش من الجنوب ويهاجمه جيش نمساوي - روسي من ترانسلفانيا . وانهار الهونغاريون تحت هذا الهجوم المركز : اخذت دوبرتشن وبودابست في آخر تموز ، واضطر كوسوط أن يضع سلطاته بين يدي الجنرال

قائد الجيش ، جورجي ، وفر إلى تركيا . واستسلم الهونغاريون بين يدي القائد الرومي ، في ١٠ آب ١٨٤٩ .

لقد أدى اخفاق هونغاريا إلى إخفاق القوميات وإخفاق الدستور . وفي بجر سنة ١٨٥٠ أعطت حكومة فينا الأنظمة الاقليمية التي نص عليها الدستور ، ولكنها ردتها إلى سلطات ادارية صرفة . وظل الحكم المركزي الدستوري معلقاً . وفي ٢٠ نيسان ١٨٥١ ألغى شفارتزانبرغ مسؤولية الوزراء أمام المجلس ، وفي ٣١ كانون الأول ١٨٥٥ علق الدستور . وهكذا سادت الأفكار الجديدة حكومة فينا وسيتم ارجاع النظام المركزي والجرمن في السنوات التالية .

الفصل السادس

قومياتِ جنوب شرقي اوربه

إذا قارنا بين خارطات اوربة عام ١٨١٥ وخارطاتها عـام ١٩٢٠ ، مثلا ، لأن الخارطة السياسية في هـذه الآونة تنطبق أساساً على خارطة القوميات ، لوجدنا أن القسم الجنوبي - الشرقي من أوربة أكثر تحولاً. ففي١٨١٥ ، كان جنوب - شرقي أوربة يتشكل من كتلتين كبيرتين : الامبراطورية النمساوية والامبراطورية العثمانية ، وهما امبرطوريتان تاريخيتان، دون شخصية جغرافية أو دينية . كان شكل هـاتين الدولتين شكل سيطرة عرق أو ارستقراطية على جماهير بقيت في القنانة ، وفلاحين ليس لهم حياة خاصة من وجهة النظر السياسية أو الادارية ويختلف عرقهم عن عرق سادتهم . وقد ثبتت الحدود بين هاتين الدولتين بمعاهـداتي بلغراد ١٧٣٩ وسيستوفا ١٧٩١ ؛ وهي تجتاز منطقتين عرقيتين ، المنطقة المأهولة بالصرب والمنطقة المأهولة بالرومان . وهما تقومان على نظامين سياسيين ، ومن الممكن أن نقول على حضارتين مختلفتين . وكانت الحكومتان ، العثمانية والنمساوية تشعران باختلاف الشعوب التي تسيطران عليها وتفيدان من هذا الاختلاف لصالح سلطتها . وقد قال الامبراطور فرانسوا يوماً إلى سفير فرنسا : « إن شعوبي اجنبي بعضها عن بعض . حسن جداً . ولذا لا تصيبهم أمراض واحدة في وقت واحد! ففي فرنسا ، عندما تأتيكم الحمى

تصيبكم جميعاً في وقت واحد . اضع هونغاريين في إيطاليا ، وايطاليين في هونغاريا : كل واحد يحرس جاره ، ولا يتفاهمون . ويكرهون بعضهم : ومن كراهيتهم ينشأ النظام ، ومن كرههم المتقابل ، السلام العام ». أما الأتراك ، فهم يمتازون بسياسة التفريق بين الأجناس . ومن السهل أن نفهم ، في هذه الظروف ، بأن هاتين الامبراطوريتين كانت تهاجمها حركة مزدوجة متأتيه ، في شكلها السياسي ، عن أفكار ليبرالية ، وفي وجود الدولة نفسه ، عن حركة وحدوية ، حركة قومية . ولكن لتصل الحركة الليبرالية والحركة القومية إلى تفتيت هاتين الدولتين ، لا بد من مرور زمن : وفي التاريخ الذي نحن فيه ١٨١٥ ، قامت الحركة الصربية وحصلت على استقلال ذاتي لباشوية بلغراد ، والحركة التي أدت إلى الاستقلال الذاتي للأفلاق (فالاشيا) والبغدان (مولدافيا) في الاقليمين الدانوبيين ، غير أن هذه الحركات كانت بمثابة رد فعل ضد فساد الحكم التركي ولم تكن بعد حركات قومية . ومن جهة أخرى ، قامت الحركة الاغريقية التي بدأت في آخر القرن الثامن عشر ونمت كما رأينا وحققت أخيراً استقلال اليونان .

وكان نظام الضغط في باقي هاتين الامبراطوريتين يحول ، منذ زمن طويل ، دون نشوء الأفكار الليبرالية الفرنسية والدعاية لها . وقد عرفت أوربة ، من هذه الأمم المنتشرة في شرقي اوربة ، البولونيين والهونغاريين. أما مجموعة السلافيين في الامبراطورية النمساوية ، فكانت تلتبس على الرأي الأوربي ، وتختلط في مفهوم غير معين وفي تسمية غامضة ، وكان يدل باسم « اسكلافون كاسم عام لجميع هؤلاء السلافيين المجهولين تقريباً .

١ ـ أصل الحركات القومية

لم تخرج الحركات القومية في جنوب ـ شرقي اوربة، كالحركة الاغريقية، من دفع عفوي وشعبي، بل كانت على العكس، ابداعاً فكرياً. ولذا كانت عمل نخبة وأقلية صغيرة. لقد خرجت من حركة علمية نهجت نهج ثورة تاريخية، وكان العمل العلمي والتفقه به في أساس هذه الحركات القومية، ثم تعلقت بـه حركة رواج ادبي خرجت عن الابداعية، واوجدت عندئذ في هـذه البلاد، وفي شعوبها، روحاً قومية. وعندما لعب هذان العاملان دورهما تعمقت العاطفة القوميـة واتسعت في الجماهير. ولذا لم تكن النظريات الفرنسية في التحرير في أساس هذه الحركات، ولتستطيع أن تؤثر أو تعمل عملهـا، يجب وجود وعي واضح قليلاً أو كثيراً الروح القوميـة وحاجاتها. لذا جاءت الأفكار الفرنسية في التحرير رديفاً ونجدة وتعزيزاً، وأعطت برنامج المطاليب وبررته، أي انها أعطت نظام الوحدة القومية ورضى الشعوب بأن تؤلف جزءاً من هذه الوحدة وتبني سيادتها القومية.

اثر الجامعات في الحركات الفكرية. ـ ان الأساس الأول لهذه الحركات كان نظريات هردر والدراسات التي حركتها هذه النظريات في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر والسنوات الاولى من القرن التاسع عشر.

كانت الجامعات مراكز تشكل هذه الحركات الفكرية. ولقد كانت شبكة الجامعات في هـذا الجزء من اوربة اكثف منها في أوربة الغربية. ويرجع بعضها إلى العصر الوسيط المسيحي في شكلها الاكليركي كما هي حال جامعات هذا العصر، وفيما بعد إلى حركة الاستبداد المستنير.

ونظراً للتغيرات التي جرت في أوربة في زمن الثورة الفرنسية والامبراطورية زالت ست عشر جامعة منها في عشرين سنة ، ولكن بعضها أعيد انشاؤه في ١٨١٥ ، كما وجدت انشاءات جامعية جديدة . وكانت الجامعات في الامبراطورية النمساوية ، على درجـــات عديدة ،و لغتها الألمانية أو اللاتينية . ونجد فيها ست جامعات كاملة تضم جميع الكليات : **فينا** ، **براغ** ، **كراكوفيا انزبروك**، **غراتز** ، **بودابست** ووجدت أربع جامعات لا تضم إلا ثلاث كليات **اغرام**، **لامـــبرغ** ، **شيرنوفيتش** ، **وكولوسفار**.

وخارجاً عن هذه العشر جامعات توجد **أكاديميات** ، مدارس الحقوق أو اللاهوت . وهي اكاديميات ملكية ، وعددها خمس : ثلاث في هونغاريا : في **برسبورغ** ، **غيور** ،**كاسا** ، واثنان في ترانسلفانيا : في **ناجيفاراد** وفي **ناجيفزيبن** . وإلى جانب الاكاديميات الملكية ، وجد اكاديميان اسقفيان وخمس اكاديميات كالفنية . ويجب أن نضيف اليهـــا كليتين للاهوت الكاثوليكي ، في سالزبورغ وفي **اولمتز** . وهكذا نجد في الامبراطورية أربعاً وعشرين جامعة .

تشكل هذه الجامعات مراكز الحياة الفكرية التي ستبشر بالعاطفة القومية ، ولكن عندما تتشكل هذه العاطفة بشكل نهائي ، لأن النظام كان ثقيلا جداً على هذه الجامعات ،وظـــل يمنعها زمناً من أن تلعب دورها الموقظ للأفكار الجديدة . ولقد توجه الامبراطور فرنسوا ، في خطاب له ، إلى أساتذة ليباخ ، في ١٨٢١ ، أثناء انعقاد المؤتمر ، في جلسة معهم بقوله : « سادتي ، لقد استحق طلاب الكارنيول الثناء دوماً ، حاولوا أن تحافظوا على هذه الشهرة . ابقوا دوماً مخلصين لكل ماهو قديم ؛ القديم صالح ، ولقد كان أجدادنا صالحين ، فلماذا لا نكون كذلك. ومن جهة أخرى، أرى الاهتمام منصرفاً إلى أفكار جديدة لا احبذها

ولن أحبذها : إياكم وهذه الأفكار ، ولا تحرصوا إلا على ما هو إيجابي ووضعي . لست بحاجة إلى علماء ، ولا أريد الا مواطنين مخلصين وشرفاء وعليكم أن تشكلوهم . ان من يخدمني عليه أن يعلم حسب أوامري . وان من يشعر بنفسه غير قادر على ذلك ويشارك في الأفكار الجديدة ليحسن صنعاً إذا ابتعد أو أبعده بنفسي » . وفي هذه الجامعات كان استعمال الكتب المقررة رسمياً اجبارياً ، والتعليم مراقباً من مصلحة الرقابة . وكذلك من قبل الاكليروس : وفي الجامعات النمساوية كان على الطلاب أن يعترفوا قبل أن يجتازوا الامتحان ، وانشئت في كل جامعة بورصة أوراق اعتراف للبيع ويتراوح سعر هذه الاوراق حسب صفات المرشحين الذين يتقدمون للامتحانات . ومع ذلك فان الطلاب الانجيليين التابعين لتاج القديس ـ ايتين ، أي لمملكة هونغاريا ، كانوا يمتازون بارتيادهم الجامعات الألمانية التي يستطيع ارتيادها الطلاب النمساويون الأصليون ، لأن النمسا بلد ألماني ويرتبط بالكونفدراسيون الجرماني ، ومن هذه الجهة تعتبر الجامعات الألمانية مربية للنمساويين ، فبواسطتها انتشرت نظريات هردر ، وهي نظريات تعتمد ، كما رأينا ، على عبقرية الشعوب وعلى الأمة التي تعبر عن نفسها باللغة والأخلاق والعادات والتقاليد الشعبية . من هذه الجامعات الألمانية ينهل مفكرو النمسا المعرفة وتبرير وجودهم القومي ، لينقلوه فيما بعد إلى بلادهم وينشروه بواسطة التعليم والأدب . وعن طريق المانيا اسهمت شعوب النمسا في حركة الفكر الغربي . ولنذكر أن الليبرالية التجأت إلى الجامعات الألمانية بعد ١٨١٥ . وفي الوقت الذي كانوا يتعلمون في هذه الجامعات صفات قوميتهم كانوا يتعرفون بالليبرالية الغربية

لننظر إلى سلافيي النمسا في الجامعات الألمانية . لقد سادت ، في

هذه الجامعات ، نظريات هردر وفيخته . ولعلنا نذكر أن هردر ، في هـــذه الأفكار عن فلسفة تاريخ البشرية ، يخصص فصلاً كبيراً إلى السلافيين ويتنبأ بوصولهم إلى الحرية وعظمتهم . لقد تعلم سلافيو النمسا في هذه الجامعات بأنه يوجد قوميات ، وما يمكن أن تكون هذه القوميات ، وما أضافت اليها الابداعية فيا بعد من حب للماضي وعودة إلى التقاليـد القومية . ولقد وجدت بعض المراكز النشيطة خاصة التي يرتادها هؤلاء النمساويون ، والتي بالتالي ، علمتهم أن ينظروا في ماضيهم : ففي جامعة **ايينا** خاصة كان يعلم المؤرخ **هاينريك لودن** تلميذ هردر وفيخته . ولقد كان هذا الأستاذ في جامعة ايينا في أصل تشكيل برشنشافت الطلاب . وكان يرتاد ايينا أناس نجدهم في أصل الحركة السلافية مثل **كولار** ، **شافاريك** ، **بالاتسكي** ، وهم سلوفاكيون ، وكرواسي يدعى **تشيلاكوفسكي** . وعن تعليم لودن عرف كولار طرق التفسير التي طبقها على العتيق السلافي . وقد قال شافاريك فيا بعـد بأنه مدين الى **يان** **ولودن** بتقويـة العاطفة القومية عند أبناء وطنه . أما بالاتسكي فيعتبر أنه أخذ الأساسي من نظرياته ومعرفته في التاريخ القومي عن المؤرخين الألمان . وقـد اشترك هؤلاء الأجانب الشباب في حركات الشبيبه الألمانية : شوهد كولار وطالبـان آخران في اللاهوت من جامعة ايينا وهما **هوزنيك** **وفيرينتسك** التشيكيان مثله يشاركون في أعياد فارتبورغ مع رفقائهم الألمان ، وقد سجل لودن نداء هذه الأعيـاد ، ووصف **كولار** باللغة التشيكية لمواطنيـه وصفـاً حماسياً هذه الأعياد التي اقيمت في فارتبورغ ، وبجد فيها امتزاج الدين والوطنية ، هاتين العاطفتين اللتين نقلها إلى بلاده عندما أنهى دراساته .

وإلى جانب **ايينا** توجد جامعة **براغ** الألمانية حيث كان يعلم فيها حتى ١٨٤٧ **ماينر** تلميـذ هردر المباشر ، وإلى جانبـه كان الأب الكاثوليكي

التشيكي **دوبروفسكي** وكان مربياً لدى العائلات الارستقراطية في في براغ ، وكان يعرف تقريباً اللغات السلافية ، وتخصص بخاصة في دراسة السلافونية أي لغة الكنيسة . وكان دوبرفسكي خلال أسفاره ، يكتشف المكتبات ويبحث عن المخطوطات . وفي العام ١٨٠٦ أسس جريدة ، كانت مركزاً للدراسات السلافية ، وهي جريدة « **السلافان** » ، وهي صحيفة أدبية وفلسفية . وهناك مركز دراسات آخر وهو: **غوتنغن** ويضم الاستاذ الفقيه باللغة **شلوزر** ، تلميـــذ هردر أيضاً ، وكانت حلقته مركزاً للدراسات السلافية ، وألف نفسه كتاباً في نحو الشعوب السلافية . ونجد أيضاً جامعتي برلين وهاليه وكان يرتادهما بخاصة البولونيون والترانسلفانيون. وفيها تكون أحد الفقهاء الذين كانوا في أصـــل الحركة الزومانية وهو **كوغالنيسيانو** .

ووجدت لهذه المراكز الكبرى فروع : **فينا** ، **ليبزيغ** ، **غراتز** . وهي مراكز فرعية وتشكل على طريق الشرق مراحل : ففي فينـا ، مثلاً ، يعمل **كوبيتار** ، وقد تثقف في ايينا ثم جاء إلى فينا وأخـذ يعلم ويوعي سلافيين آخرين توعية قوميـة ، وبخاصـة محرك الصربيين . **فوك قوه - جيش** . وكانت ليبزيغ المكان الذي استقر فيه كولار اولاً بعد مجيئه من ايينا وقبل أن يعود إلى براغ . وفيها كون كرواتيـاً آخر يسمى **غاج** .

وخارجاً عن هذه المراكز الجامعية ، لا نجد، في البلاد غير الالمانية، الا هنـــا وهنـاك بعض علمـاء منعزلين ومـأخوذين بحب الدراسات السلافية : في ١٨٠٤ ، قام طالبان روسيان تلميذان لشلوزر غوتنغن ، وهما الكسيس **تورغونيف** و**كايرازوف** برحلة استكشافية نحو الشرق

والجنوب الشرقي ، واكتشفا في البدء **لوزاس** ، وهي بلاد الصربيين الذين انتقلوا إلى ألمانيا وفقدوا فيها قوميتهم ، وفيها ، في **غوردليتز** ، وجدا الدكتور **انطون** وقد نظم مكتبة تضم كتباً سلافية، وكان يكره الألمان . ووجدا أيضاً في براغ ، حلقة أدبية يديرها رجل يدعى **جان نيجيدلي** ينشر باللغة التشيكية لا الألمانية . وفي بودابست ، وخاصة في بودا ، وجدا مطبعة تستعمل الحروف السلافية وعمرها يرجع إلى ١٧٩٦ ؛ وفي هونغاريا ، في كارلوفيتز ، الفقيه **ستارا تينيروفيش** وكان على اتصال بشلوزر غوتنغن وقد دهش هذان الروسيان عندما وجدا ، في بعض النقاط ، هنا وهناك ، اناساً يشتغلون أو يجمعون وثائق أو ذكريات عن حياة السلافيين القديمة .

ومن جهة أخرى ، نشر بعض العاملين عدداً من المؤلفات : ففي ١٧٩٤ نشر كاهن صربي يدعى **راجيتش** « تاريخ الصرب » في أربعة مجلدات وتعهـــد بشرائه ٦١٢ شخصاً . وفي ١٧٩١ ، كانت اللغة الكرواتية تعلم في بعض المدارس الابتدائية في كرواسيا . وعندما كان الماريشال **مارمون** الفرنسي يدير الأقاليم الايلليرية، شجع تعليم الكرواتية، أي اللغة المحلية ، في المدارس . وانصرف الفقيه اللغوي والراهب الأرثوذكسي **اوبرانوفيتش** خلال ثلاثين عاماً لدراسة اللغات الصربية والكرواتية ،وكان أول من أشار إلى التشابه بين الصربيين والكرواتيين . ومات في العام ١٨١١ . وفي بلغاريا وجد الراهب **بايزي** ، وقد تثقف في جبل آتوس وجمع من مكتبات الأديرة ما وجـــده عن تاريخ البلغاريين . والف به « تاريخ البلغار » في ١٧٦٢ ، ولكن هذا المؤلف ظل مخطوطة ، وقد كتبه بلغة الفلاحين ، ولم يعرف هذا التاريخ إلا من بعض نسخ كانت تتداولها الايـدي ولم يطبع إلا في ١٨٤٤ . وكذلك كان الاسقف **سوفروني** الارثوذكسي المنعزل في بوخارست منذ عام ١٧٩٧ ، يدرس البلغاريين .

ولكن لم يكن بين هؤلاء العاملين أي رابطة تربطهم . كانوا منعزلين عن بعضهم ، وضاعت دراساتهم . أما الأجيال الآتية فستعقد الروابط فيما بينها وبين الالمان .

وباتجاه معاكس ، توطد التضامن بين السلافيين والالمان : فمن ذلك ان رانكه مؤرخ برلين جذبته دراسة السلافيين بالاشعار التي نشرها **فوك قره-جيش** ، وعلى اثر قراءة هذه الاشعار الشعبية أراد أن يؤلف « تاريخ الصرب » ، ولهذا الغرض ذهب إلى فينا ليطلع على وثائق محفوظاتها ، وعن طريق كوبيتار ، قيم المكتبة ، اتصل بفوك قره - جيش فدله على المعنى التاريخي والسياسي لثورة الصرب ، وعلى اثر ذلك كتب رانكه « ثورة الصرب » ودل في هذه الحركة على تقاليد الصرب الحماسية وعلى معطيات الحالة الحاضرة لنزاع الصرب ضد الاتراك . واضاف إلى العناصر التي جهزه بها فوك نظريته الشخصية في تبعية الامم الاوربية واختلاط مصير الصرب بالسياسة العامة .

ومن تعليم الالمان انتقلت حركة الفكر الفلسفي واللغوي إلى حركة سياسية . وعندما تنتقل هذه الحركة العلمية إلى الصعيد السياسي ، تأتي الأفكار الفرنسية ، النظريات الليبرالية الفرنسية ، وتعطي هذه الحركة برنامج المطالبة .

البعث القومي – ان الشكل الذي أخذته هذه الحركات يختلف عما رأيناه حتى الآن مع الشعوب الأخرى كالاغريق أو البلجيكيين ، وحتى الايطاليين والألمان . ففي الأصل كانت هذه الحركات حركات فكرية ، علمية وأدبية ، أي غير سياسية . والأساس فيها حب الاطلاع وحب التاريخ لماض مضى ، حتى ان موقظي هذه الشعوب لم يفكروا بأن من الممكن أن يكون لهذه الشعوب مستقبل جديد . إلا أنه بعد ١٨٣٠ ، وخاصة بعد ١٨٤٠ ، أصبح يؤمل شرعاً بأن يرى ظهور هذه القوميات .

وكانوا يذكرون ، من جهة أخرى ، « الحق التاريخي » أو امتيازات عرقهم القديمة ، لا الحق الطبيعي ، حسب مفهوم القرن الثامن عشر . وكانت تقاليدهم ، في الأصل ، تختلف عن تقاليد الثورة الفرنسية . فقد كانوا يعتمدون على وحدة الصفات العرقية ، ووحدة اللغة ، وحتى عندما تبدو هذه اللغة وهذه الصفات ملغاة منذ قرون . إلا أنه في المرحلة الثانية ، أي عندما تتشكل هذه الحركات نهائياً تستعمل النظرية الفرنسية في حق الناس والشعوب الدائم في فرض احترام حرياتها وارادتها القومية .

هذا ولما كانت هذه الحركات من أصل تاريخي ، فمن الممكن أن نفكر بأنها تختلف وتتفاوت في نموها ، وتتفصل بمنافسات تبعث حية كما وجدت قديماً في التاريخ . ولهذا تجلت الحركة بشكل يختلف حسب البلاد : ففي القوميات الموجودة من قبل والدائمة ، والتي توجد منذ زمن طويل ، لم يكن من الحركة ، التي تمت بعد ١٨١٥ ، إلا تجديد وتعميق وتحويل الحركة القديمة : وهذه حال **بولونيا** ، لأن الحركة الفكرية الابداعية فيها لم تأت الا لتنوب عن حركة « الأنوار » القديمة وتعطيها شكلاً سياسياً . لقد قام **جان بوتوكي** بعدة دراسات ونشر وثائق عن السلافيين ، ووضع **ليند** معجماً بولونياً ؛ ودرس **تشارنوسكي** لهجات **فولينيا** واوكرانيا . وفي لامبرغ ، جمع **اوسولانسكي** مكتبة ومخطوطات بولونية ابتداء من ١٨١٧ . وبعد هذه الحركة العلمية ، دخل الشعراء والمؤلفون الدراميون المسرح : فقد نشر **نيموفيتش** ، في ١٨١٦ ، « أغاني البطولة » ، وقاتل من قبل مع **كوسيوسكو** ، وأخيراً تأتي الحركة الابداعية الأصلية التي قام بها **برودزينسكي** و**ميكيفيتش** . وقد انتهت هذه الحركة العلمية والفكرية باعطاء الحركة البولونية طابعها المثالي

وهو الشكل الوحيد الممكن ، لأن البولونيين ، منذ ثورة ١٨٣٠ ، أصبحوا عاجزين ؛ ولأن بولونيا لم تكن إلا روحاً واسطورة تخيم على مجموع اوربة ، مجردة كلياً من كل أرض .

أما هونغاريا ، فقد اكتسبت بالحركة الأدبية والعلمية ما كان ينقصها حتى ذلك الحين ، وهو العقائدية القومية ، وبها دعمت الحركة الفكرية وبررت المعارضة السياسية التي أخذت تنبعث من جديد .

وخارجاً عن هاتين القوميتين القديمتين اللتين اعطتهما الحركة الفكرية التجسيد والوعي ، بعثت الحركة نفسها من جديد قوميات زائلة في البلاد السلافية التابعة للامبراطورية النمساوية : لقد كان هذا العالم السلافي في النمسا يشكل منطقة تجهلها اوربة : وعندما انشأ فيكتور كوزن ، في العام ١٨٤٠ ، للشاعر البولوني اللاجىء في باريس ميكيفيتش ، كرسياً للتاريخ والحضارة السلافيين في كلية فرنسا ، وذكر في عرضه الأسباب الداعية لذلك ، كان يظن بأن الناس في بوهيميا يتكلمون بالصربية . ولم يكن عند أوائل العاملين ، الذين تخصصوا بهذه الدراسات ، فكرة بأن هذه الشعوب التي يدرسونها يمكن أن تعيش أيضاً وتكتب لها الحياة : لقد كانوا يدرسون لغتهم كما تدرس اللغات الميتة ، ويدرسون علم الآثار وليس عندهم أي فكرة بأن هذه الشعوب ما زالت تعيش دوماً ويمكن أن تحيا من جديد . وكان دوبروفسكي في براغ ، وكوبيتار في فينا ، واوبرانوفيتش في كارلوفيتز يعملون منعزلين ولم يفكروا بحاضر دراساتهم .

قامت النهضة في فريق الشمال ، عند التشيكيين والسلوفاكيين ، الذين يضافون كذلك كما هم كشعوب سلافية إلى البولونيين ؛ وفي فريق

الجنوب ، عند الصرب والكرواتيين الذين بعثوا أحياء كالترانسلفانيين أي اللاتين الرومانيين .

ومن هذه القوميات المبعوثة وجدت قوميتان على حدود النمسا وتركيا وهما : باشوية بلغراد والاقليمان الدانوبيان : الافلاق والبغدان . وقد حلت حركة البعث القومي فيها محل المعارضة السياسية والدينية التي يبديها المسيحيون ضد السيطرة العثمانية . وستؤدي الحركتان في الآجل البعيد : حركة البعث القومي عند الصرب وعند ترانسلفانيي النمسا ، والحركة السياسية التي قامت في الامبراطورية العثمانية في الاقاليم الدانوبية وفي صربيا إلى تشكل دولة صربيا ودولة رومانيا . ونظراً للتعقيد الذي يلازم هاتين الحركتين وما يشعر به من تدخل دولي ، فان هاتين الحركتين تدخلان في الدبلوماسية الدولية وتخرجان عن كونهما قضيتين سياسيتين داخليتين تهمان بخاصة الامبراطورية العثمانية والامبراطورية النمساوية .

ومع هذا فان هذه القوميات ، التي ستنفجر ، أفادت لحد ما من تسامح الحكومة النمساوية ومن بعض نظم الامبراطورية النمساوية . وفي الواقع ، ان أطر الامبراطورية النمساوية كانت بقايا من دول قديمة تاريخية داخلة في النمسا ، ويميز فيها :

١ ــ مملكة القديس وانسيسلاس أي مملكة بوهيميا ومورافيا وسيليزيا .

٢ ــ مملكة القديس ايتين ، أي هونغاريا القديمة .

٣ ــ مملكه غاليسيا ولودوميريا التي كانت تؤلف بولونيا القديمة وضمتها النمسا اليها مع هاتين المملكتين السابقتين .

وكان لكل من هذه القطع التاريخية ، في داخل حكومة فينا المركزية ادارة خاصة : وزارة لكل من بوهيميا وغاليسيا وايلليريا ؛ ومجلس

خاص لكل من هونغاريا وترانسلفانيا . ووجد لكل اقليم دياط خاص: دياط هونغاريا ، ودياط أغرام وهما موجودان منذ القديم ، ودياط بوهيميا الذي أعيد بعد ١٨١٥ ، ودياط التيرول الذي انشيء عام ١٨١٥ ودياط غاليسيا في ١٨١٧ ، ودياط كارنيول في ١٨١٨ ودياط سالزبورغ في ١٨٢٦ ، ودياط ترانسلفانيا في ١٨٣٤ . وهكذا تقدم الدولة النمساوية بنفسها امكانات الاطار القومي لهذه الشعوب .

ولم تكن سياسة الحكومة معادية تماماً لهذه القوميات . لان مايشغل حكومة فينا انما هو المعارضة للحكم المطلق السياسي وللارستقراطية لا القومية . وإذا استثنينا الهونغاريين الذين كانوا في نزاع قديم مع الحكومة فان الحكومة النمساوية لم تكن معادية للقوميات . لقد تخلى الامبراطور فرانسوا تماماً عن سياسة الجرمنة التي سلكها جوزيف الثاني ، وكان يحترم الأجناس ، وحكومته تقلده ، وحتى رئيس الضابطة ليلدنيتزكي . وكانوا يعبرون إلى دوبروفسكي وكوبيتار عن رضاهم عن الدراسات التي يقومان بها . وأبدى الامبراطور اهتماماً إلى غاج مصلح اللغة الصربية - الكرواتية ، وقدم له هدايا ، وسمح بتأسيس جرائد باللغة العامية ، باللغة القومية . وكان مترنيخ شخصياً يناصر اللامركزية ويدفع رسم اشتراكه في الجمعيات التشيكية . ولا شك في أن فكرة الحكومة النمساوية ، بتشجيعها القوميات في امبراطوريتها ، كانت ترمي إلى تحويل هذه القوميات عن روسيا ومعارضة ما بدىء بتسميته « الجامعة السلافية » بارتباط السلافيين بالنمسا ، وهذه السياسة تسمى « **النمسلافية** » . وفي المجتمع النمساوي نفسه كان بعض أعضاء الطبقة الارستقراطية ، يشجعون هذه الحركات القومية : كان الارشيدوق جان يشجع اليقظة الأدبية عند مختلف الجماعات ، وقد أسس ، في ١٨١١ ، مدرسة

تعلم فيها اللغة التشيكية . وكانت الطبقة النبيلة الألمانية في بوهيميا تشجع بعث التشيكيين ونخص بالذكر الكونت شتاينبرغ وكونتي تون . ونشر البارون النمساوي آندريان ، الذي كان يعارض الحكومة معارضة سياسية وليبرالية ، كراساً في ١٨٤٢ اسمه « النمسا ومستقبلها » وفيه يسجل نتيجه الحركات القومية برضى وارتياح .

وفي الواقع ، لم تتصور الحكومة النمساوية أو القوميات ، في الأصل ، ان الحركة القومية يمكن أن تؤدي إلى تفتيت الامبراطورية النمساوية .

وهكذا نرى ان هـــذه الحركات معقدة بنفسها . وزادها تعقيداً اختلاطها بالمشاكل الاجتماعية ، وذلك لأن النظام الاقطاعي مازال حياً في جنوب شرقي أوربة . ومن جهة أخرى ، لقد توصلت هـذه الشعوب المختلفة إلى درجة متفاوتة في النمو المادي والمعنوي ، حتى انه من الممكن أن يرى في العام ١٨٤٨ ، أثناء الثورة العامة ، جهـــد عام لتشكل قوميات النمسا ، ولكن في الوقت نفسه اخفاق هـذه الحركة بسبب تنافس هذه الشعوب المختلفة .

٢ ــ الحركة القومية الهونغارية

لقد ترك دور الثورة والامبراطورية والعهد الرجعي عام ١٨١٥ هونغاريا على حالها ، ولم يغـير شيئاً في نظمها أو في بنائها الاجتماعي . وسبب النزاع ضد فرنسا ، الذي دام قرابة خمس وعشرين عاماً ، اغفاءة لمطالب الهونغاريين السياسية . ودعمت الارستقراطية الهونغارية النمسا في نزاعها ضد الثورة ونابوليون ؛ وامتزجت بالارستقراطية الألمانيـة ، حتى انه لم يبق في مؤتمر فينا اختلاف بين كبار العائلات النمساوية والهونغارية . وزالت ، بالنسبة لأوربة ، فكرة وجود ثنائيـــة يمكن أن يلعب

بها بين النمساويين والهونغاريين . كانت سياسة فينا سبباً في الحفاظ على هذا الوضع الراهن : لم تعد فينا تدعو الدياط الهونغاري ، منذ ١٨١١ ، لأن هذا الدياط ، في ذلك التاريخ ، احتج على افلاس الدولة النمساوية . وقام خلاف دام عدة أشهر بين الحكومة والادارات المحليـة « الكوميتات » التي أضربت واوقفت بعض الوقت أعمال الادارة والعدل . ومن جهـة أخرى ، اوقفت التدابير البوليسية كل حركة هونغارية يمكن أن تبـدأ بخاصة عقب مؤامرة ١٧٩٤ . ثم ان انشاء امبراطورية النمسا ، في ١١ آب ١٨٠٤ ، ألبس لقب « ملك هونغاريا » ، الذي يحمله الارشيـدوق ، بلقب أعلى ويبدو أن انتصار الحكم المطلق كان يمثل في ، الوقت نفسه ، زوال هونغاريا .

وبين ١٨١٥ و ١٨٣٠ نرى في هونغاريا ، نشوء حركة مزدوجة ، يقظة فكرية ، من جهة ، ونزاعاً سياسيـاً حاراً وحامياً جداً ، من جهة أخرى .

اليقظة الفكرية . — خرجت اليقظة الفكرية في هونغاريا في آن واحد من حركة الفقه اللغوي ومن الابداعية التي نشرتها ألمانيا في هونغاريا . وفي الأصل ، نجـد دراسات شاب نبيل اسمـه كازينسكي سجن على اثر اشتراكه في مؤامرة ١٧٩٤ وظل في السجن حتى ١٨٠١ . وفيعزلة السجن أخذ كازينسكي يدرس النحو الهونغاري ويعمل على تطهير اللغة الهونغارية العامية من خشونتها ومن بربريتها ، ثم شرع يترجم بهذه اللغـة الكتاب الألمان : كلوبستوك ، غوته ، فيلانـد ، شيللر ، هردر . وحتى الآن كان الأدب ، الوحيد الموجود في هونغاريا ، أدباً بالألمانية واللاتينيـة .

وظهرت نقطة الانطلاق الاخرى في الاهتمام السياسي الذي ولده استعمال اللغة المجرية في الدياط ، وقد وضعت هذه القضية لاول مرة في ١٨٢٥،

لأن استعمال اللغة المجرية كلغة نقاش سياسي في الدياط يتطلب مرونة هذه اللغة وتطهيرها لتحويلها إلى لغة خطابة وسياسة . وللقيام بهذا العمل على اللغة ، انشئت في ١٨٢٥ ، الاكاديميا الهونغارية ، وقدم الماغنات الأموال وبخاصة ماغنا شاب اسمه زيشيني ، وقد أعطى دخله خلال سنة كاملة لتأسيس هذا المجمع (الاكاديميا) .

بدأ الأدب الهونغاري ، في هذه السنة ١٨٢٥ ، بنشر ملحمة خاصة ببطل مؤسس للسلالة الهونغارية ، آرباد ، للشاعر فوروسمارتي، وقد الف هذا الشاعر ، عدا هذه الملحمة ، نشيداً قومياً هونغارياً . وبعد قليل نشأ الشعر الغنائي والمسرح على يد الأخوين كيسفالودي ، ونشأت القصة على يد الكاتبين جوزيكا وكيميني . وفي التاريخ نفسه صور الكاتب الخصيب جداً زيغليجيتي،في دراماته وفي ملاهيه (كوميديات)، الأخلاق القومية ، والف مجموعة مسرحية غذت مسارح هونغاريا كلها في في العاصمة وفي الأقاليم خلال سنوات . وفي ١٨٣٧ أسس في بودابست المسرح القومي الهونغاري .

ثم اتجهت هذه الآداب نحو المشاغل السياسية بتأثير الثقافة الفرنسية التي تمثل الليبرالية السياسية ، واعجب الهونغاريون بالثورة الفرنسية ، وبالأدب الفرنسي المعاصر وبخاصة بأدبالشاعرين فيكتور هوغو وبيرانجيه ، واشتهر اسمان أساسيان في السياسة وفي الأدب وهما :

١ - الشاعر بيتوفي (١٨٢١ - ١٨٤٩) وهو من أصل شعبي ، اهتم في أشعاره بوصف الطبيعة . والبوزتا ، والدانوب ، والتيسزا ، وانهار بلاده وسهولها ، وصور من جهة أخرى الفقراء ، والأشقياء الشعبيين ، وألف نوعاً من ملحمة « جاكبونوم » هونغارية تطالب بتحرير

الافنان . وقتل بيتوفي في ١٨٤٩ في النزاع بين الهونغاريين والروس .

٢ - والثاني قصاص وكان تأثيره أعظم من بيتوفي ، وهو النبيل **اوتفوس** وكان ماغنا وثقافته جامعية ، ساح أرجاء أوربة وأتى من أسفاره بتربية سياسية وبؤلف نشره عند عودته إلى هونغاريا في ١٨٣٨ ، في اصلاح السجون ثم ألقى بنفسه في الحياة السياسية وفي الصحافة ، وفي الوقت نفسه في الادارة المحلية في كوميتاه . وفي الأدب : نشر ثلاث قصص : « قصر البطاقات » ١٨٣٨ ، و « كاتب عدل القرية » في ١٨٤٦ وهو رائعته ويعتبر أثراً من الآثار الأساسية في الأدب الهونغاري ، و « هونغاريا في ١٥١٤ » في ١٨٤٧ . وفي هذه القصص يصور المجتمع المعاصر وبخاصة الحياة المحلية ، من مدن وقرى تثقلها سيطرة الاقطاعيين ، كما يصور البلاد في آخر العصر الوسيط .

تأتي أهمية هذا الأدب الهونغاري من الوجهة السياسية أكثر من الوجهة الأدبية : لقد أعطى إلى اللغة المجرية ، في الوقت الذي يطالب فيه باستعمالها في الادارة ، آدابها النبيلة وحقوقها ، وعمم المطالب القومية وجعلها ديموقراطية . ونظراً لاستعمال اللاتينية والألمانية لغة سياسية ، كانت الحياة السياسية تتركز بخاصة في الطبقات العليا ، وكانت متجهة نحو فينا أو نحو الخارج . وهذا الاتجاه السياسي في الحركة الأدبية شبيه بالاتجاه الذي رأيناه في إيطاليا : كان بيتوفي ثورياً وقد شارك في حركة ١٨٤٩ . كما كان اوتفوس أحد زعماء المعارضة السياسية في حركة النضال الهونغارية .

الحركة السياسية - كانت الحركة السياسية أوسع من الحركة الأدبية ومباشرة ، لأن الحركة السياسية في هونغاريا كانت موجودة منذ زمن بعيد . وعلى خلاف ما يجري في ألمانيا ، وبالطبع ما يجري للقوميات

السلافية ، كان للحركة السياسية في هونغاريا اطرآ وأجهزة . والجديد فيها الآن هو المعارضة لحكومة فينا : فحتى هذا الحين كانت حركة اقطاعية يدافع فيها الأفراد عن امتيازاتهم ضد سياسة الحكومة التسلطية ، أما الآن فقد أصبحت معارضة قومية تشعر بقيمتها . ونجد فيها تركيباً من القومية التاريخية ، التي تطالب بحقوق البلاد التاريخية وتقاليدها ، ومن الليبرالية الغربية التي تريد تحويل المجتمع بالغاء الاقطاعية ، والحكم ، بحذف الحكم المطلق . ان ما يعقد الحركة السياسية الهونغارية هو أن هذه العناصر لا تتواجد دوماً. وهكذا نرى معارضة عنيفة من الكوميتات ، أي الادارات المحلية ، حيث تسود الطبقة النبيلة الصغيرة التي تدافع بقوة عن امتيازاتها . ونرى من جهة أخرى ، في الطبقة النبيلة العليا ، عناصر محافظة وليبرالية : محافظة اجتماعياً ، وليبرالية سياسياً . وقد تداخلت الحركات الاجتماعية والسياسية على هذا النحو وجعلت الحركة أكثر تعقيداً من معارضة سياسية بسيطة أو من معارضة قومية بسيطة .

وحتى ١٨٣٠ كانت هذه المعارضة ضعيفة ومحدودة الغرض . ولم تنفذ الحكومة الدستور الهونغاري في ١٨١٥ ، بل، بالعكس، حاول الامبراطور الحصول على إعانات مالية وجنود ، وتوجه مباشرة إلى الكوميتات ، لا إلى الدياط ، الذي لم يجمعه . فرفضت الكوميتات تقديم المال والرجال مذكرة بحقوق الدياط الذي يستطيع وحده أن يسمح بذلك ، وأمرت الموظفين أن يرفضوا تقديم الجنود والضريبة للحكومة، فكسر الامبراطور قرار الكوميتات ، ولكن العرائض أخذت تتفجر من كل جهة وعندما جمع الملك نفسه مجلس الكوميتا في بست في ١٨٢٠ وأمر بفرض الضريبة والجنود ، رفضت الكوميتا وطلبت دعوة الدياط . فلم يأخذ الامبراطور الملك بذلك ، وعندئذ عارضت الادارة بمقاومة سلبية: أعطت الكوميتات

الموظفين الامر باخفاء السجلات واختام الدولة . ووجدت الحكومة غير قادرة على فرض الضريبة كما ترغب ، ورأت نفسها مشلولة تماماً بسبب مقاومة الادارة ، واضطرت إلى دعوة الدياط في برسبورغ ١٨٢٥ . طالب الدياط بأن تكون دعوة الانعقاد منتظمة وبتخفيض الضريبة وتحديد سلطات الحكومة على الموظفين ، وتعلق بحرفية الدستور ، فقابله الملك « بحقوق جلالته » .

وإلى جانب هذه المعارضة، التي أدت إلى بعث الدياط ، وضعت مشكلة اقتصادية : ان هونغاريا ما زالت بلداً زراعياً والثروة الوحيدة فيه هي ملكية الأراضي ، وهذه الملكية بكاملها في يد النبلاء . ولكن هونغاريا الزراعية كانت تشكو من تأخر التطور العام في البلاد ، وبخاصة تأخر المواصلات الذي يحول دون توزيع أو تصدير انتاج المحصول الجيد ، حتى ان وفرة المحصول أصبحت شيئاً غير مفيد . وكان النظام الجمركي المفروض على هونغاريا مثل نظام المستعمرات في **الميثاق الاستعماري** القديم الخاص : فقد عمل ليحجز السوق الهونغارية للمنتجات المصنوعة في النمسا ولتقديم المواد الخامية بكل بساطة للصناعة النمساوية . وحددت حكومة فينا الجمارك اعتباطاً ، وكان الموظفون يراقبون خط الجمارك مراقبة شديدة . ولوضع حد لهذه الحال كان من الضروري اصلاح الدستور ، ولتستطيع هونغاريا أن تلعب في المملكة النمساوية دوراً سياسياً جديداً كان من اللازم أن تنهض اقتصادياً . وقد طلب دياط ١٨٢٥ الحكومة بفتح مفاوضات لفرض الجمارك الداخلية ، فرفضت الحكومة . وفهمت بعض العقول المفتوحة الارتباط بين القضية الاقتصادية والقضية السياسية ، ونخص بالذكر منهم ماغنا شاباً من أغنى الماغنات وهو الكونت ايتين زيشيني .

زيشيني . - كان زيشيني ضابطاً من ١٨٠٩ إلى ١٨١٥ في دور الحروب النابوليونية ، ثم ساح في أوربة الغربية وخاصة في انكلترا حيث أعجب كل الاعجاب بالدور الذكي الذي تلعبه الارستقراطية الانكليزية . واستخلص من ذلك وجوب محاولة انقاذ هونغاريا من حالة الركود والعزلة. وأكب على العمل منذ أن عاد إلى البلاد . ولتحقيق ذلك كان من اللازم ادخال الطرق الجديدة في الزراعة ، واستقدام الفنيين الأجانب ، واعطاء الفلاحين الاعتماد الزراعي ؛ ومن جهة أخرى تجب تنمية التجارة والصناعة وانشاء محاكم تجارية ، ومدارس الخ .. ولإذاعة هذه الأفكار ، نشر كتباً بالهونغارية ، وهذا هو الجديد ، : « **الاعتماد** » في ١٨٣٠ ، « **النور** » في ١٨٣١ ، « **المرحلة** » في ١٨٣٣ الخ ... واشتغل في الوقت ذاته بتحقيقات عملية : أسس في ١٨٣٠ شركات ، مثلاً، لبناء جسر على الدانوب بين **بودا** و **بست** ، وشركة لانشاء الملاحة البخارية على الدانوب ، وشركة للقيام باعمال تنظيم مياهه عند منعطف **ابواب الحديد** لتخفيض حدة الشلالات في تلك المنطقة . ولكن برنامج زيشيني كان يتضمن اصلاحاً فكرياً ، ولذا تعلق بنمو المجمع الهونغاري ايضاً . وهو أول من وضع في دياط ١٨٢٥ قضية استعمال المجرية عوضاً عن اللاتينية في الدياط . ورأى أيضاً ان القضية الاقتصادية ترتبط بقضية الاصلاح الاجتماعي والسياسي: فاذا أغنت التنمية الاقتصادية المدن ، وبالتالي ، نمت البورجوازية فيجب أن تجد هذه البورجوازية مكاناً في الدياط ، ويجب ادخالها في التسلسل الاجتماعي ، الذي ظل حتى الآن يحتفظ بطبقتين تعتمد احداهما على الأخرى، وهما : جماهير الفلاحين الأقنان والطبقة النبيلة التي تسيطر عليها . وفكر بأن التقدم الزراعي غير ممكن ما لم يوجه اهتمام الفلاحين إلى هذا التقدم

ولذا يجب تحرير الفلاحين من القنانة . وأخيراً عرف بأنه لا يمكن الحصول على حذف الجمارك مالم تقدم إلى الحكومة ضريبة معوضة لها لتقوم مقام فقدان واردات هذه الجمارك . وهـذه الضريبة ، هـذا التعويض المالي ، لا يمكن وجودها إلا بإجبار النبلاء على دفع الضريبة وحـــذف الحصانة الضريبية التي تتمتع بها الطبقة النبيلة .

وبرنامج زيشيني واسع وعـاقل ، وهو لا ينطلق من نظريات وليس له أي طابع ثوري . ومن الممكن القول إن هـذا البرنامج يمثـل وجهة نظر رجل حكم يريد أن يحققه عن طريق الحكومـة لا الثورة . وقـد فاوض مترنيخ بشأنه وعرضه عليه ، وحاول أن تقبل الحكومة به .

وهكذا يمكن القول انه تم الحصول على نتيجتين في العام ١٨٣٠ وهما : تنفيذ الدستور ووضع قضية الاصلاحات .

وبعد ١٨٣٠ بدأ بحق تشكل الأحزاب السياسية مع انعقاد الدياطات. وفي الوقت الذي وضعت هـــذه القضايا أمام الرأي ، نشبت ثورة تموز وكانت ضربة سوط اطلقت الحياة السياسيـة في هونغاريا . ولم يكن دياط ١٨٣٢ جلسة سريعـة بل ، على العكس ، نوعاً من « برلمان طويل » دام أربعين شهراً وعقد ٤٧٠ جلسة، وامتد حتى عام ١٨٣٦ . وكانت المنازعات السياسية عنيفة جداً في هذه الدورة : ووضع الدياط برنامج مطاليب قومية خاصة بالاطار التقليدي ، واتفق جميع الأعضاء عليه : كان يطالب بحكومة هونغارية صرفة ، واقامـة الملك مراراً في بودابست ، وبدورة للدياط في بودابست ، لا في برسبورغ ، في قلب البلاد لا في مدينة على الحدود . وطالب باستعمال اللغة المجرية عوضاً عن اللاتينية كلغة للنقاش ، وبمساواة الديانتين الكاثوليكية والبروتستانتية ،

والسماح بالزواج المختلط بين الكاثوليك والبروتستانت . وتنازلت الحكومة في هاتين النقطتين الاخيرتين . فقد سمحت باستعمال اللغة المجرية في دياط ١٨٣٣ ، ثم في تحرير (تسجيل) القوانين في عام ١٨٣٦ . ولكنها رفضت كل اصلاح سياسي ، وأثارت قضية تحسين مصير الفلاحين ، والقت بذور الشقاق في طبقة النبلاء فأضعفت معارضتهم السياسية .

وخارجاً عن هذا البرنامج التقليدي بخاصة ، الذي لا نرى فيه تجديداً ، نجدنا أمام برنامج جديد وضعه الأحرار ويدل على نفوذ الأفكار الغربية في هونغاريا وعلى تأثير أفكار زيشيني .

قدم اوتفوس هذا البرنامج في عام ١٨٣٤ ، وهو يتضمن سلطات برلمانية خاصة بالدياط الذي لم يعد ، حسب هذا البرنامج ، مجلسا اقليمياً بل مجلساً برلمانياً . وتوسيع حق التصويت بحيث يشمل المهن الحرة والمهن الاقتصادية أي حذف الامتياز السياسي للنبلاء ، وحرية الصحافة ، والغاء الحقوق (الرسوم) الأميرية والحصانة الضريبية .

واخفق هذا البرنامج أمام معارضة كبار الأمراء . فقد أوقف **مجلس الماغنات** كل اصلاح لأنه يعتبر نفسه مجلساً أعلى ويريد الحفاظ على سلطاته وعلى مبدأ التصويت القديم الذي « يزن » الأصوات عوضاً عن أن « يعدها » ، والاصلاح الوحيد الذي تركه هو تكليف النبلاء بدفع رسوم عبور جسر بودابست الجديد شأنهم في ذلك شأن سائر الناس العاديين . وتكررت هذه المنازعات من جديد في دياط ١٨٣٩ ، ومع ذلك حصل من الحكومة في عام ١٨٤٠ على العفو العام واستعمال اللغة المجرية في الادارة . وكذلك الدياط الذي دام عامين ، من ١٨٤٢ — ١٨٤٤ ، حصل على فائدة مزدوجة : من جهة قبول مبدأ عمومية الضريبة ، ولكن لم

يتفق على شروط تطبيق هذا المبدأ ، ولم يخرج شيء في الواقع ؛ ومن جهة أخرى،استعمال اللغة المجرية في أعمال الحكومة وفي التعليم عام١٨٤٤.

وهذه المنازعات في الدياط تمثل جهداً لتحويل الدياط القديم التاريخي إلى هيئة تمثيلية دستورية . وقد حصلت على نتائج في ميدان التعريف القومي للنظام .

وإذا تم الحصول على هذه النتائج ، فذلك لأنه تألف في تلك الفترة ، عن هذه المنازعات رأي عام ، بفضل الحركة الأدبية التي نمت واستمرت في نموها ، وبفضل انشاء الصحافة السياسية . وكانت هذه من عمل نبيل شاب فقير يسمى لوي كوسوط .

لوي كوسوط . - ولد لوي كوسوط في ١٨٠٢ ، كان أبوه محامياً . وكان هو محامياً أيضاً ، أولاً في البلد الذي ولد فيه ، ومن ثم في بست في ١٨٣١ . لقد تخيل كوسوط ، أثناء دياط ١٨٣٢ - ١٨٣٦ ان يذيع التعرف بهذا المجلس بنشر الضبوط والتحليل في صحيفة مطبوعة على الحجر ، وغير مطبوعة طبعاً عادياً ، خشية أن تقع تحت نظر الرقابة ، وذلك لتعطي تقريراً عن مناقشات الدياط ابتداء من تطبيق استعمال اللغة المجرية ، في ١٨٣٣ ، مع تفسيرات نقدية من كوسوط . وما انتهت الدورة إلا واوقفت الحكومة كوسوط وسجنته وبقي في السجن أربع سنوات ، ثم أطلق سراحه بالعفو العام في ١٨٤٠ ، وفي السنة التالية ، ١٨٤١ ، أسس « **بست هيرلاب** » أي « جريدة بست » وبسرعة ضمنت أربعة آلاف ، ثم سبعة آلاف مشترك ، واغنت كوسوط . ودافع كوسوط في هذه الجريدة عن برنامج الأحرار ودستور هونغاريا التقليدي ، وقام بدفاعه بعبقرية كبرى ، وتكشف عن صحافي من الدرجة الأولى . وكان

مولعاً بالجدل ويندفع به بشدة الى بعيد. وكانت الجريدة نشيطة مثل كوسوط وتعبر عن حقد الطبقـــة النبيلة الصغرى على الماغنات ، وتطالب بمساواة النبلاء ، دون تمييز تسلسلي . وأخيراً وسعت الصحيفة برنامجاً يلفت النظر في الاستقلال الذاتي الاقتصادي مستوحى من أفـكار ليست . وأسس كوسوط « اتحاد الحماية الهونغارية » وتعهد فيه المشتركون بالا يشتروا إلا المنتجات الهونغارية ، وبعد سنوات قطع كوسوط صلته بمحرره الذي لم يشأ زيادة راتبه ، رغم نجاح الجريدة . واهتم عندئذ بالأعمال والتثمير المالي ابتداء من ١٨٤٤ ؛ وأنشأ فيما أنشأ ، « الشركة القوميـة للمساعدة المتبادلة » ، وكانت نسبة الربح فيها ٥٪ من الوارد ، وانتشرت هذه الشركة في جميع أنحاء البلاد ، وكونت له ، خارجاً عن موهبته الصحافية ، شعبية كبرى .

وهذا النمو في الرأي العام ينطبق مع تراخي الادارة بسبب زوال الامبراطور فرنسوا وقيام ابنه فرديناند مقامه عام ١٨٣٥ . وكان فرديناند رجلاً مسكيناً ؛ ومن جهة أخرى شاخ مترنيخ ، ولم تسؤه المنازعات الجدلية بين زيشيني وكوسوط . ويضاف إلى هذا دخول المؤلفات الغربية سراً ، والمؤلفات الألمانية ، كتباً أو مجلات ، التي أخذت الضابطة تهمل أمرها وتدعها تدخل . والنتيجة هي ان استعمال اللغة العامية في الحياة السياسية نشر التربية السياسية في مجموع الأمة . وهكذا وضعت الآن القضية القومية والسياسية أمام روح عامة تستطيـــع أن تقوم برد فعل وتفهم .

قضية الادارة المحلية . - وأخيراً قامت ، في هذا الدور ، قضية جديدة وهي قضية الادارة المحلية : كانت الكوميتات دوميناً خاصاً بالطبقة النبيلة الصغيرة ، وكانت هذه الطبقة معادية لكل اصلاح يمكن أن يلغي امتيازاتها .

وهذه القضية هي قضية مصلحة صرفة للطبقة التي تسيرها . وكان أكثر هؤلاء النبلاء الصغار ذكاءً يعتبرون ان خراب امتيازاتهم سيكون خراباً للبناء التقليدي ، وان خراب البناء التقليدي معناه الباب المفتوح للحكم المطلق والجرمنة ، وبتعبير آخر تجريد القوميـــة من هونغاريا . وبينما كانوا يدافعون بشدة عن امتيازاتهم كنبلاء ، كانوا يطالبون ، بالعكس ، بحدة بالمساواة مع الماغنات . وفي الكوميتات ، أبعدت الطبقة النبيلة الوسطى تدريجياً من قبل الطبقة النبيلة الصغرى التي تسمى « طبقـــة نبلاء الصنادل » وتمارس سيطرتها في الكوميتات بمختلف طرق العنف والإرهاب ، ولقد قال الكونت آبوني في ذلك : ان هذا الحكم هو « حكم العصا » . وكانت المنازعات والعنف في مجالس الكوميتات على درجة جعلت دياك ، الرجل السياسي ، في ١٨٤٠ ، يرفض تمثيل كوميتاه في الدياط الذي عينه ، بسبب سوء نظام المجلس وعنفه .

وكانت نتيجة هذا النظام في الكوميتات إن قسماً من الأحرار اعتنق فكرة الاصلاح الاداري : وتوصل أكثر الأحرار استنارة وثقافة إلى أن تجديد هونغاريا لا يمكن ما لم يقم ، مقام هـــذا النوع من الاتحادية الفوضوية التي هي ادارة الكوميتات ، حكم قوي مركزي مسؤول وقومي. والف هـذا الفريق الحزب « المركزيون » وكان اوتفوس و دياك بينهم زعيمين هامين . واتفق ضد المركزيين بالطبـع ، من جهة المحافظون ، ومن جهة أخرى ، الديموقراطيون . وفي مجالس الكوميتات هذه كانت المنازعات بين مختلف فئات الأحزاب عنيفة متزايدة العنف .

كان تعقيد الوضع السياسي عظيماً ، وانخرط الحزب الحر الليبرالي في انحرافات في معارضته القومية : وتوصل فيها إلى متابعة تحويل الدستور

التاريخي وفي الوقت نفسه تحويل الدياط إلى برلمان وتحويل الادارة المحلية إلى ادارة حديثة ومركزية .

وبعد ١٨٤٥ ، تسارع التطور وتعقد أيضاً . ونرى ، في المطالبة بالدولة القومية في هونغاريا ، ظهور مفاهيم مختلفة :

اولاً : مفاهيم **المحافظين** ، وبصورة أساسية الماغنات الذين يريدون الحفاظ على دستور هونغاريا التاريخي في أجزائه ، وعلى هونغاريا معززة بحقوقها ، وفرض نفسهم على حكومة فينا .

ثانياً : مدرسة زيشيني الاقتصادية ، وقد ثبتت فكرة الاصلاح الاجتماعي وأجلت فكرة الاصلاح السياسي.

ثالثاً : الطبقة النبيلة الصغيرة ، وتطالب بالاصلاح السياسي وتمثيل جميع النبلاء في السلطات السياسية في الدياط ، ولكنها طرحت الاصلاح الاجتماعي والاصلاح الاداري .

رابعاً : الأحرار ، وكان برنامجهم السياسي تحويل الدياط إلى مؤسسة تمثيلية (مجلس تمثيلي) ، وهذا يؤدي إلى اصلاح اجتماعي ، وحذف امتيازات الطبقة النبيلة .

خامساً : **المركزيون** ، ويريدون ، كما رأينا ، تحويلاً كاملا في الادارة المحلية .

وعلى هذا نرى خمسة حلول مختلفة في نطاق الدولة القومية الهونغارية التي تريد أن تفرض نفسها على حكومة فينّا .

الحزب التقدمي . ـ غداة دياط ١٨٤٢ — ١٨٤٤ تعقدت الحالة بنشوء حزبين آخرين : الأول ، حزب « التقدميين » وهم محافظون اصلاحيون ، ماغنات أذكياء ، مخلصون للملكية ولهونغاريا واناس متفتحون ، مثقفون ، وعلى اتصال بالبلاد الغربية والطبقات العليا الانكليزية

والفرنسية ، ولهم أيضاً ارتباطات ببلاط فينا وحكومتها . لقد كانوا مخلصين للحكومة ولبلادهم الهونغارية ، ولكنهم يرون ضرورة الاصلاح لعظمة هونغاريا ولتجنيب الثورة ، ووجوب معالجة حالة لا يمكن احتمالها ، وهذا لا يكون ممكناً إلا إذا جعلت الحكومة من نفسها عامل تقدم ، واستلمت زمام المبادرة بالاصلاحات وجعلت الدياط يتبنى هذه الاصلاحات. وكان الموحي والمؤسس لحزب التقدميين ماغنا شاب وهو اوريل ديسوفي ، ولكنه مات بسرعة ، وأتم عمله أخوه وعدة بارونات وبخاصة الكونت جورج آبوني ، وهـو ماغنا ، ولد عام ١٨٠٨ ، وكانت له علاقات أوربية ، واتفق مع مترنيخ للعمل معاً ، وكان هذا قلقاً من الوضع العام ، ورأى أن لا مندوحة من الاصلاح للحيلولة دون تفجر الثورة في البلاد . وسمى مترنيخ آبوني أميناً لسر الوزارة الهونغارية في عام ١٨٤٥ ، وفي ١٨٤٧ انشأ له وظيفة رئيس وزارة هونغاريا .

لقد تعلق آبوني والتقدميون باصلاح الكوميتات وجعلها أداة الحكم ، ولذا أرادوا أن يستعيضوا عن« الكونت الاعلى » ، الذي تنتخبه الكوميتات حتى الآن ويمثل الكوميتا ، بموظف ، وأن يجعلوا من الكونت الأعلى موظفاً وعامل حكومة ، بينما لم يكن حتى الآن الا صاحب منصب بسيط . أما موظفو الكونتات الذين رفضوا قبول هـذا التحويل فقد استعيض عنهم بمفوضي الحكومة الذين يسمون « مديرين » وهم دائمون ، بينما كان الكونتات مضطرين إلى مغادرة البلاد ليأخذوا مقاعدهم في الدياط كسائر مندوبي الكوميتات ؛ وقد انيط بهؤلاء المديرين سلطات قضائية ، وأخذوا يعملون ، بوسائل الجاذبية أو الرشوة التي تحت تصرفهم لاحداث أكثرية لهم في مجلس الكوميتا ليسودوا فيها فكرة الحكومة . ومن غير المفيد أن نقول ان الكوميتات قامت بنضال فظيع ضد المديرين،

اتحد فيه جميع القوميين والأحرار والمركزيون والمحافظون والديموقراطيون. وفي كوميتا بست ، اشترك اوتفوس وكوسوط بالنضال معاً ، وفي كوميتا زالا ، كان دياك على رأس المعارضة . وبدا للهونغاريين أن اصلاح الكوميتات عودة الى سياسة جوزيف الثاني المركزية والجرمنة .

الحزب الديموقراطي . - وإلى جانب هذا الحزب التقدمي تشكل في التاريخ نفسه حزب ديمقراطي وسار وراء كوسوط . وكان تطور هذا الزعيم سريعاً في الواقع : لقد اعتمد في البدء ، من أجل الاصلاح السياسي في هونغاريا ، على الطبقة التي ينتسب اليها أي على طبقة النبلاء الوسطى والصغرى . ورأى على ضوء التجربة ان هذه الطبقة النبيلة الصغرى لا عمل إلا أن تدافع عن امتيازاتها الخاصة ، ولم يكن عندها أي إحساس بالمصلحة القومية . وهذه الخيبة التي مني بها كانت في أساس تطوره ، ولذا يجب أن نضيف دوماً مزاجه المطلق الذي يدفع تدريجياً أفكاره نحو التطرف الذي يجهل العقبات وينطلق إلى الأمام دون أن يهتم بالواقع . ولذا تخلى عن وجهة نظر الدفاع عن طبقته واتجه نحو اصلاح أكثر جذرية ، لصالح المعدمين : طالب بالمساواة الديموقراطية التي تحقق وحدة هونغاريا أمام الحكومة ، وبتحرير الفلاحين ، وحذف السخرات . ونظراً لموهبته وعمله الشخصي أصبح ، في بضع سنين ، معبود الشبيبة الهونغارية واستطاع كوسوط على هذا النحو ان يضع الآن برنامج تحويل ثوري للدولة والمجتمع .

لقد كانت انتخابات الدياط في ١٨٤٧ حملة حقيقية سياسية على طراز الغرب . وبين الكراريس التي صدرت في تلك الحملة وجد كراس للبارون ادريان الذي تكلمنا عنه ، وفيه يقبل الآن كضرورة بوجود ونمو القوميات في الامبراطورية . واتحدت المعارضة ، في هذه الحملة ،

وراء برنامج حرره دياك . ويؤكد هـذا البرنامج اخلاص الهونغاريين للبراغماتيك سانكسيون ، ولوحدة الملكية وأمنها ؛ ولكن هونغاريا لا تريد التخلي عن أي حق من حقوقها التقليدية ، ولا تقبل بان تصفي مصالحها في سبيل وحدة الملكية ، وان تلحق مصالحها القومية بمصالح الدول الوراثية ؛ وان الوحدة الملكية ليست هذه الوحدة الادارية التي تريد الحكومة أن تفرضها . وسيوسع الأحرار هذا البرنامج في دياط ١٨٤٧ ، وكذلك كوسوط . ولكن كوسوط تكشف في الدياط عن خطيب قوي ، ومندفع بمزاجه ، ونسي بسرعة مداراة الائتلاف الليبرالي والحقوقيين مثل دياك ، ليعرض برنامجه الراديكالي بصورة تدريجية .

حيال المعارضة ، حرر زيتشن برنامج الحكوميين وقد أبدوا فيه تعلقهم بقوة متساوية بقطبي النظم السياسية : من جهة قوميتنا واستقلالنا الدستوري والاداري ، ومن جهة أخرى ، الملكية ، « الاتحاد مع الملكية العامة الذي هيأته القرون وقوته » . وان حل القضية السياسية لا يمكن أن يوجد إلا في الثقة المتبادلة وتعاون الملكية والامة .

وظل البرنامجان ، برنامج المعارضة ، وبرنامج الحكومة ، غامضين . دون وضوح ، واقتصرا على العموميات ؛ ولا يمكن أن يستخلص منها عرضاً لاصلاحات أو إجراءات دقيقة . وعقب الانتخابات تعادل الحزبان تقريباً في المجلس الأدنى ، ولكن المحافظين كانت لهم الأغلبية في المجلس الأعلى وكانوا سادته . ودعت الحكومة الدياط في آخر سنة ١٨٤٧ ، في تشرين الثاني ، وكما سنرى ، كان الدياط في جلسة عندما نشبت ثورة ٢٤ شباط ١٨٤٨ في فرنسا وأثارت نتائج مباشرة في هونغاريا كما في النمسا .

وهكذا طرحت قضية علاقات هونغاريا والملكية في وضح النهار . وكان من المستحيل ابقاء الثنائية في شكلها التاريخي، لأن التناقض موجود الآن بين النمسا ذات الحكم المطلق، وبين هونغاريا التي أصبحت أو تريد أن تكون دستورية . ويبدو انه يجب أحد أمرين : اما ان يفرض الحكم المطلق نفسه على هونغاريا بحذف دستورها التاريخي ، واما ، على العكس ، ان هونغاريا الدستورية المنتصرة في هـــذه النقطة تفرض مثلها وقانونها على النمسا .

لقد شعرت الآن جميع الأحزاب الهونغارية شعوراً حياً وواضحاً بقوميتها ، وفهمتها بأشكال سياسية مختلفة ، ولكنها كانت تشعر أيضاً بعاطفة حية تجاه فينا . ويجب أن نلاحظ أننا لا نجد حزباً من هـــذه الأحزاب كان انفصالياً : لقد فهمت جميعاً هونغاريا القوميــة ، ولكنها فهمتها في إطار الامبراطورية النمساوية . ولم تفكر بعد بالانفصال عن فينا . ولا يوجد بعـــد برنامج استقلال حتى في صفوف الراديكاليين . وأخيراً لا نجد أي حزب من هذه الأحزاب يفكر ويتصور بأنه يوجد في هونغاريا أجانب لهم حقوق تعادل الحقوق التي يطالب بها الهونغاريون حيال فينا ، وبأنه يوجد في هونغاريا قوميات أخرى غير قومية الهونغاريين. ووصل الأمر في ١٨٤٧ ، إلى حالة أزمة ، ولا بد لها من حل . ولكن ، في الواقع ، لم تكن هونغاريا ١٨٤٧ الدولة القومية الهونغارية التاريخية ، أو ما كانت عليه في ١٨١٥ . لأن الحركة الفكرية والسياسية التي غـذت في هونغاريا الوجدان القومي ، قـد أيقظت في هونغاريا قوميات كانت تجهل نفسها ، وهذه الحركة ميزت مملكة القديس ـ ايتين عن غـيرها كما ميزت الامبراطورية النمساوية عنها . وفي الحقيقة لقد استيقظت القوميات السلافية في هونغاريا ، كما في النمسا .

٣ ـــ يقظة الأمم السلافية

لقد كانت الأمم السلافية حادثاً جديداً كبيراً في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، لأن هذه الأمم السلافية ، اما انها فقدت وجودها السياسي تماماً ، وهذه حالة التشيك و بوهيميا ، واما أنه لم يكن لها شيء من ذلك في الماضي ، وهذه حال الأمم السلافية الأخرى في الامبراطورية النمساوية .

وعلى خلاف هونغاريا ، يجب أن نشير هنا إلى أن الثنائية الاجتماعية بين الارستقراطية وجماهير الفلاحين ، والثنائية القومية تتوضعان فوق بعض . لقد وجدت الجماهير السلافية في الواقع تحت كبار ملاكي الأطيان ومن هؤلاء من كانوا المانا في بعض أقسام النمسا ، أو هونغاريين ، في هونغاريا ، ولكن أحياناً أيضاً تحت ارستقراطية سلافية أخرى : وهذه حال فلاحي غاليسيا حيال الملاكين البولونيين . ولذا يجب هنا تحرير مزدوج : تحرير اجتماعي حيال الارستقراطية ، وفي الوقت نفسه تحرير قومي . وهذا يوضح لنا التأخر الذي تجلت فيه حركة القوميات في المضمار السياسي . ولذا يجب ، لبناء الدول، أن تتشكل طبقة وسطى اهل لتقديم النخبة السياسية والضرورية لتوجيه الدولة ، وهذا يتطلب تحويلاً اقتصادياً، ومثل هذا التحويل لم يتم إلا بعد ١٨٥٠ .

قامت هاتان الحركتان على الصعيد السياسي من الخارج ، اما لأنهما قامتا بمعارضة الحكومة ووجدت هذه المعارضة في فكرة القومية اداة وحجة ؟ واما ، على العكس ، ان الحكومة استخدمت هاتين الحركتين ضد المعارضة التي قامت ضدها على الصعيد السياسي . وهكذا انزلقت القومية بفضل النضال بين الارستقراطية والحكومة الامبراطورية .

يقظة سلافيي الشمال . ـ لقد كان تصاعد الحركة متفاوتاً جداً ، ويجب أن نميز بلاد الشمال وبلاد الجنوب . وكان لسلاف الجنوب الأولية في هذه الحركة السياسية ، لأنهم أقرب إلى المانيا ، ولأن تربيتهم السياسية بدأت مبكرة . واليوم يميز في مجموع الشعوب السلافية الشمالية ، التشيكيون والسلوفاكيون . اما في ذلك العصر فلم يكن هنالك ذكر للسلوفاكيين ، وكان هؤلاء فلاحين وجبليين ، وأقناناً عند كبار الملاكين الهونغاريين ، ولا يميز السلوفاكيون من التشيكيين . وأفضل دليل على ذلك ، هو أن أحد موقظي القومية التشيكية ، بل وحتى الكثيرين منهم ، كانوا سلوفاكيين كما سنرى .

في الأصل ، كانت الحركة التشيكية حركة لغوية وآثارية ، أو ولعاً أدبياً بالنظريات الابداعية . وكان طليعة المبشرين الأوائل الأب دوبروفسكي ، وكان مربياً لدى كبار العائلات ، وفي ١٨٠٦ فتح مركز دراسات وبحوث حول المجلة التي أسسها . ثم وسع ابن مثقف لاحد الاقنان ، ويدعى **يونغمان** (١٧٧٣ — ١٨٤٧) هـذا التعليم بدراساته الشخصية ، وخاصة باللغات الأجنبية : نقل آثاراً أدبية أجنبية إلى لغته وبخاصة « اتالا » لشاتوبريان و « الفردوس المفقود » لملتون . ونشر معجماً تشيكياً — ألمانياً في خمسة مجلدات ، وفي ١٨٢٥ ، « تاريخ الأدب التشيكي » وشجع الشبان الذين يهتمون بهذه القضايا . وكان مقتنعاً بأن اللغة التشيكية لغة ميتة . وأعلن ذلك صراحة في ١٨٢٨ .

وبهذه الحركة الآثارية يتعلق انشاء الكونسرفاتوار التشيكي في براغ ، في ١٨١٠ ؛ وفي ١٨١٨ ، تأسيس المتحف القومي ، في براغ أيضاً ، الذي كان في آن واحد مكتبة وجمعية دراسات . ونجد في هـذه الحركات ما يذكرنا بهردر وعمله . لقد كان هذا العمل عمل بحث ، كاللغات الشعبية

التي تجمع من الأرياف ، أو الأغاني ، أو المخطوطات القديمة ، التي يبحث عنها وتكتشف في مكتبات الأديرة . وهذا الولع بالمخطوطات القديمة كان يقوم به مزورون ، لا هنا فحسب ، بل في مناطق أخرى من أوربة. وعلى طراز اوسيان زعم تشيكي يدعى هانكا بأنه اكتشف ، في ١٨١٧ ، في أحد الأديرة ، قصائد من القرن الثالث عشر كتبت باللغة التشيكية ، ثماني قصائد حماسية ، وست قصائد غنائية . وقبلت هذه المنشورات على انها حقيقية من جميع الناس ، الا الأب دوبروفسكي الذي خامره الشك في حقيقة هذه القصائد . وعلى العكس ، في كل مكان ، أثار اكتشاف القصائد القديمة، التي تكشف عن أدب العصر الوسيط والحضارة التشيكية ، كبير حماسة ، حتى عند غير التشيكيين ، مثل غوته ، في ألمانيا . غير أن هذا الغش اكتشف أخيراً ، مثل غش اوسيان . وفي ١٨٢٢ نشرت مجموعة فولكلورية تدعى « الوردة ذات المائة ورقة » ومؤلفها سيلاكوفسكي .

وفي هذا العمل الآثاري واللغوي بدأ من سيكونون في الآجل القريب أبطال القومية التشيكية ، وهم ثلاثة : بالاتسكي ، شافاريك ، وكولار ، وقد تثقفوا جميعاً في برسبورغ . وكانوا متعاصرين ، ويمكننا التأكد من تواريخ ميلادهم .

بالاتسكي (١٧٩٨ - ١٨٧٦) . - كان ابناً لمعلم بافاري ، وتربى في المدرسة الثانوية (ليسيه) في برسبورغ ، وتعلم فيها اللغات الأجنبية وأصبح مربياً عند عائلة نبيلة المانية في فينا ، وكسب فيها علاقات وحماة سهلوا له عمله . بدأ أولاً بأثر شاعر وجمالي ، ونشره من ١٨١٧ إلى ١٨٢٣ ثم أقام في براغ ، في ١٨٢٣ ، حيث وجد له حماته وظيفة في المتحف القومي ، وأدار خلال عشر سنوات ، من ١٨٢٧ إلى ١٨٣٧ ، المجلة التي ينشرها هذا المتحف . وهذه الصدفة في العمل وجهته نحو

التاريخ وفي ١٨٢٩ عينه دياط بوهيميا مؤرخاً قومياً وخلف الأب دوبروفسكي في اكاديمية العلوم . وانصرف فيها إلى القيام بدراسات متنوعة في تاريخ بوهيميا ، ونشر في ١٨٣١ ، « تاريخ فالانشتاين » ، وأخذ بمهنة المؤرخ التي جمعته الصدفة بها ، وشرع يوثق نفسه بجد في هذه النقطة .

شافاريك (١٧٩٥ - ١٨٦١) . - أصله من أصل بالاتسكي ، وقد حصل دراساته في المدرسة الثانوية (جمناز) في برسبورغ ، ثم في جامعة اينا . وقام فيها بدراسات رصينة في فقه اللغة ، ونشر عام ١٨٢٦ ، « تاريخ اللغة والأدب السلافيين في جميع اللهجات » وبين القربى الموجودة بين اللغات السلافية التسع . وأصبح استاذ فقه اللغة في براغ عام ١٨٣٣ . وهذه المؤلفات التي وضعها بالاتسكي وشافاريك نشرت بالألمانية لا التشيكية .

كولار . - وعلى عكس ذلك كتب كولار (١٧٩٤ - ١٨٦٢) باللغة التشيكية ، وكان سلوفاكيا وتربى أيضاً في المدرسة الثانوية الألمانية في برسبورغ ، وأتم دراساته في جامعة اينا . وفي اينا حبب إليه استاذه لودن الطرق الألمانية، فأخذ بها، وأدرك بسرعة قوميته التشيكية . ولم يكن في ذلك العصر تميز بين الجنسين التشيكي والسلوفاكي . ولم يكن اثره الأول اثراً أدبياً ، بل قصة باللغة التشيكية لمظاهر قصر فارتبورغ التي شهدها في ١٨١٧ . ثم أصبح راعياً لوثرياً في بودابست حيث كان شاهداً وضحية لاحتقار المجر للسلافيين . غير أنه عاد أخيراً إلى فينا استاذاً للعتيقات السلافية في الجامعة . وفي ١٨٢١ نشر قصائده الاولى باللغة التشيكية . وفي ١٨٢٤ ، نشر مجموعة تتألف من سبعين سوناته وسماها « بنت سلافيا » . وخصص هذه القصائد لتاريخ شهادة السلافيين الذين سحقهم الألمان والهونغاريون . ولاقت هذه

المجموعة نجاحاً عظيما : واعيد طبعها ثانية في ١٨٣٢ وزيدت بعـــدة قصائد أخرى على نمط « الكوميديا الآلهية » لدانتي ، وفيها وضع الشاعر في جهنم جميع أعداء جنسه ، وفي الجنة ، على العكس ، جميع الابطال القوميين . ويجب أن ننتبه هنا إلى مهنة كولار كراع لوثري ، لأننا نرى فيـــه روح يوحنا هوس القديمة ، وفيه تظهر لأول مرة فكرة المعارضة الأساسية ، المعارضة القومية بين التشيكيين والألمان .

ومن هذه الحركة نجمت على الصعيد القومي ، بعد ١٨٣٠ ، حركة أوسع وأدق ، لأسباب عدة : أولاً بسبب الدفع العام لليبرالية التي أثارها في أوربة نجـاح ثورة تموز في باريس ، ثم الظروف السياسية الخاصة التي اوجدها في النمسا موت الامبراطور فرنسوا ، ومن بعـده جلوس فرديناند على العرش في ١٨٣٥ . كان الامبراطور فرديناند مريضاً وغير قادر على الحكم ؛ وقد ضعفت الادرة والحكم في عهده فشجعا مطاليب المعارضة . ونشأت الارستقراطية في بوهيميا من انصهار الطبقة النبيلة الالمانية والطبقة النبيلة التشيكية اللتين اندمجتا وذابتا معاً، وخاصة منذ سياسة ماريا تيريزا في القرن الثامن عشر ؛ وكانت ارستقراطية غنية ومتغطرسة ، وترغب ، عندما يكون الحكم ضعيفاً ، في أن تلعب دوراً سياسياً ، ولهذا ، ان تضع موضع التنفيذ حقوق الدياط التاريخية ، ولهذا السبب شجعت حركة النهضة وقدمت لها المساعدات بايجاد وظائف للمفكرين التشيكيين . وشيئاً فشيئاً وضعت التعاملات والأعراف القومية موضع الشرف : ففي ١٨٤٠ ، مثلاً ، ولأول مرة ، اقامت حفلاً راقصاً في صالة مزينة بأعلام بوهيميا القديمة : وظهر الناس باللباس القومي ، وكتبت قائمة طعام العشاء باللغة التشيكية . وفي ١٨٤٢ ، طلب هؤلاء النبلاء من بالاتسكي ان يعطيهم محاضرة عن دستور بوهيميا القديم . ومن هؤلاء النبلاء الألمان الذين شجعوا

الحركة التشيكية نذكر الأخوين الكاثوليكيين ، الكونتين تون ، ولنا عليهما عودة . وجاءت مشجعات أخرى من المانيا . فقد كانت ليبزيغ مركز لجوء للنمساويين الأحرار ، ومن ليبزيغ انطلقت دعاية ، في النمسا ، لصالح الأفكار الحرة والقومية ، بواسطة كتب ومجلات دخلت إلى النمسا رغم الرقابة .

وتوسعت الحركة التشيكية ، وفي ١٨٣١ ، تأسست دار للنشر « لاماتيكا » أي « الخلية » لنشر كتب عن الحركة البوهيمية حتى انها نشرت بعد ١٨٤٠ ، كتباً بالتشيكية . وفي ١٠ آذار ١٨٣٤ بدأت بنشر مجلة « الأزهار التشيكية » . ووجدت الحركة جنوداً في الشباب ، وهذه الشبيبة الفكرية هي التي حاولت فيما بعد أن يعمل الشعب لصالح الحركة القومية . وبالرغم من الرقابة انتشرت الكراريس والمجلات شيئاً فشيئاً في المجتمع . وطالب كبار الزعماء بحقوق الأمة بوضوح ، حتى ان آثارهم ، التي كانت حتى ذلك الحين ادبية أو لغوية محضة ، أصبحت آثاراً للدعاية السياسية .

فقد نشر شافاريك ، في ١٨٣٧ ، « العتيقات السلافية » باللغة التشيكية ، في هذه المرة ، لا بالألمانية : وهي مديح للجنس السلافي ، ليعطي التبرير والاجلال للفصل الشهير الذي ألفه هردر عن السلافيين . وأعطى لوحة مثالية للمجتمعات السلافية البدائية . وفي ١٨٤٢ ، نشر « الاثنوغرافيا السلافية » وعدد فيها جميع الشعوب السلافية في أوربة : وجد ٧٨ مليوناً ، منهم ١٦ مليوناً في النمسا خاصة . وكان لهذا الكتاب نجاح عظيم . فقد ترجم وانتشر في روسيا وفي بولونيا .

ونشر بالاتسكي ، بأعمال تاريخية أخرى ، في العام ١٨٣٣ ، دراسة عن دوبروفسكي ، وفي ١٨٣٦ ، بدأ بنشر « تاريخ بوهيميا » وأخرج منه ستة مجلدات ، وتوقف عند السنة ١٨٢٦ . وقد طبعت هذه المجموعة

باللغة الألمانية ، وترجم تاريخ بالاتسكي ، في ١٨٤٨ ، إلى اللغــة التشيكية . وتعاون بالاتسكي وشافاريك في العام ١٨٤٠ على نشر « أقدم اوابد اللغة البوهيمية » .

وانخرط كولار في الحركة ولا سيما بكراس نشره بالألمانية ليعطيه أكبر انتشار ممكن ، في ١٨٣٧ ، ويسمى « العلاقات الأدبية بين جماعات الأمة السلافية ولهجاتها المختلفة » . وأكد ، في هذا الكراس ، وحدة ما يسميه « الأمة السلافية » ، وما يمكن أن يسمى الجنس السلافي وضرورة خروج السلافيين من النقص الذي ظلوا فيـه حتى الآن ؛ ولذا يجب ، كما يقول ، على السلافيين ان يتعلموا اللغات الأربع الأساسية ، أي التشيكية والاالليرية والبولونية والروسية ، ويجب نشـــر وتبادل المؤلفات الأدبية ، وعمل مجموعات للاغاني الشعبية ، وانشاء كراسي في الجامعات ، وتطهير اللغة لتنتقل من مرحلة اللهجـة إلى اللغـة الأدبية . وهذا ما يسميه « تقابل » السلافيين . وهذه المقابلة الأدبيـة تعتبر شكلاً أولياً لما سيسمى فيما بعـد الجامعة السلافية ، ولكنها لما تزل بعد أدبيـة وغير سياسية .

وصحب هذا البعث للامة ، قبيل١٨٤٨ ، وضع برنامج سياسي بأشكال مختلفة . وجهت الطبقة النبيلة ، في١٨٤٥ ، إلىالامبراطور ملتمساً طالبت فيه تحويل الدياط الىمجلس (لاندتاغ) تمثيلي ؛ وطالبت بذلك « بموجب العقد الأساسي » . وفي السنـة نفسها نشر الكونت **ماتياس دوتسون** كراساً طالب فيه بحقوق الأمة التشيكية وشجب المحاولات التي يراد منها فرض الثقافة الألمانية على التشيكيين . وطالب البوهيميون بأن يكون التعليم

باللغة التشيكية في المدارس الابتدائية . وانشئت صحافة سياسية قومية كرد فعل ضد السلافية الغامضة والأدب العاطفي الذي ساد حتى الآن . وقام بهذا العمل صحافي يدعى **هافليتشيك** (١٨٢١-١٨٥٦) (وتاريخ ولادته هذا يدل على أننا الآن أمام جيل آخر) . كان هافليتشيك رجل عمل ، ولم يكن مفكراً محضاً كأسلافه : وقد قال : « انني مقتنع بأن الموت في سبيل الوطن أسهل وأبهج من قراءة هذه الكثرة المملة للكتابات الوطنية » . وفي ١٨٤٥ ، انشأ « صحيفة براغ » ووسع فيها برنامج مطالب سياسية وديموقراطية وقومية ولما لم يكن باستطاعته نشر مثل هذا البرنامج ، بالطبع ، في وضح النهار ، في جميع تفاصيله ، فقد اتخذ قناعاً لذلك سرد تاريخ ايرلنده ، وإعطاء أخبار عنها . ومن السهل في هذه اللوحة التي أعطاها عن القوميـة الايرلندية ، التي يضطهدها الانكليز ، ان يفهم أن القصد هو التشيكيون حيال النمساويين .

ثم اتسعت هذه الحركة ، وانتقلت إلى صعيد المطالب السياسية ، وتنوعت في الوقت ذاته . وان من مميزات حركة القوميات هو أنها تفجر في كل يوم قوميات جديدة في داخل القديمـة ، وذلك ببعث الفرديات التاريخية التي وجدت في الماضي خلال فترة من الزمن . وعلى هذا النحو تشكلت الحركة السلوفاكية بدورها وتميزت عن التشيكية ودافعت عن اللهجة السلوفاكية ضد اللغة التشيكية . وكان الاكليروس الكاثوليكي يدعم هذه الحركة في آن واحد ضد مجيرة السكان أو جرمنتهم بل وتشيكتهم . وفي ١٨٣٤ ، نشر الشاعر **توماسشيك** نشيداً أصبح نوعاً من نشيد وطني ويدعى « وقوفاً ، أيها السلوفاكي ! » . وفي ١٨٤٣ نشر كاتب آخر اسمه **شتور** (١٨١٥ - ١٨٥٦) برنامجاً لبعث الأمة السلوفاكية . وفي ١٨٤٥ أسست « الصحيفة السلوفاكية » . وبنفس الشكل تميزت في غاليسيا ،

حركة روتينية ضد البولونيين ، وبخاصة كبار الملاكين البولونيين . بدأت هذه الحركة في جامعة لامبرغ ، واعتباراً من ١٨٣٢ ، وجدت تعبيرها في الكاتب ساشكيفيتش ، وقد نشر في ١٨٤٣ مجموعة أغاني شعبية اكرانية.

إن الطابع المميز لكل هذه الحركة التشيكية يبقى ، بصورة أساسية وسط جميع الحركات القومية الأخرى في النمسا ، في استغلال فكرة التضامن بين السلافيين . وهي لا تتصور هذا التضامن تحت زاوية سياسية ، ولا تراه الا تحت زاوية أدبية وجنسية . ولن يصبح هذا التضامن دليلاً سياسياً الا عندما تتخذه الحكومة الروسية وسيلة دبلوماسية ، أو ، على العكس ، إلا عندما يشهره الألمان « بعبعاً » : ففي ١٨٤٦ يقوم في دبياط باد ، ولأول مرة ، النائب هيكر ويصرح علناً بأن الجامعة السلافية خطرة على القوميه الألمانية .

يقظة سلافيي الجنوب . - وفي الوقت نفسه ، ولكن مع كثير من البطء والتأخير بالنسبة إلى سلافيي الشمال ، استيقظ سلافيو الجنوب أيضاً للحياة القومية . ونلاحظ في هذه الجماعة السلافية وحدة الجنس أكثر من غيرها : وفي الواقع ان الصرب والبوشناقيين والكروات والسلوفيين كلهم من جنس واحد ، ولكننا نجد فيهم اختلافاً سياسياً كبيراً : كان سلافيو الجنوب كتلاً كثيرة : مثل الكتلة التركية وهي أكثر من غيرها ، وفي هذه الكتلة أيضاً نجد أن القسم الشمالي ، باشوية بلغراد ، كان له وضع خاص به ، فقد بقيت فيه آثار من الاحتلال النمساوي في القرن السابع عشر . وفي النمسا الأصلية ، توجد جماعة سلوفية في اقليم كارنيول ، والدالماسيين. وفي مملكة القديس - ايتين ، أي هونغاريا ، توجد ما تسمى مملكة كرواسيا الاسكلافونية ، ومن جهة أخرى ، التخوم العسكرية ، أي منطقة الجنوب الملامسة لتركيا . وكان لهذه التخوم العسكرية نظام

اداري خاص . وكانت الهجرات الصربية الآتية من تركيا تغذي السكان الصرب في هـذه المنطقة التي حافظت على كنيستها الأرثوذكسية وتتألف من بطريركية وتسع اسقفيات . وكان لها نظام عسكري خاص ، باعتبارها ثغراً أمام الترك ، وفي الامبراطورية النمساوية ، أعطيت نوعاً من استقلال اداري مع كونغرس ، أي نوع من دياط و « كنيزات » أي شيوخ الضيع (عمد القرى) . وكان نظام الثغور على صلات فكرية متطورة مع روماني بانات تيميسفار وترانسلفانيا ، فقد كانت المبادلات بين الاقليمين جارية بصورة عادية . ويتضح هذا التفتت في الكتلة السلافية الجنوبيـة بالظروف التاريخية التي أحاطت بها : إن عامة سلافيي الجنوب تؤلف في الواقع نقطة اتصال حضارتين أتت احداهما من الشرق ، من بيزنطة ثم من الترك ؛ والأخرى ، من الغرب وهكذا تعارضت ، في الجنس الواحـد ، حضارة ارثوذكسية تستعمل الابجــدية الاغريقة والحروف السيريلية أي الحروف السلافيـة التي تنسب إلى القـديس سيريل حواري السلافيين (المتوفى في ٨٦٩) ولكن أصلها مازال موضع جـــدل ، وحضارة كاثوليكية تستعمل الأحرف اللاتينية وعلى صلة بالغرب . وتتضح الاختلافات الدينية والاختلافات الفكرية بهذا الانقسام السيـاسي . أما عاطفة الوحدة فلم تنطفىء مع ذلك ، أو أنها ظلت منتعشة بسبب بعض الظروف كالتقاليد التاريخية ، وبخاصة ، ذكرى جمهورية راغوز ، التي كانت ، في العصر الوسيط ، مركزاً لتجارة وحضارة حقيقية مـع مدرسة فكرية . وهنالك ظرف آخر ايقظ عاطفة التضامن ، بين هـذه الأجناس ، وهـو وجود الفرنسيين ، أثناء دور الأقاليم الايلليرية ، في عهـد الامبراطورية الفرنسية . ومن جهة أخرى ، تقاربت هـذه الأجنـاس بواجب مشترك وهو النضال ضد مضطهديها من الترك ، بالنسبة لسلافيي الجنوب ، وضـد

النمساويين والهونغاريين ، بالنسبة لسلافيي الشمال . وهـذا النضال ، مع النفي والفرار ، انتج تمازجاً بين شعوب الحدود النمساوية ـ العثمانية . الا أن الوضـــع الاجتماعي لم يتهيأ للوعي القومي : فقد كان السكان يتألفون من فلاحين يعيشون عيشة الاقنان ، ولا توجد الارستقراطيـة إلا في كرواسيا ، ويعمهون بالجهل التـام بكل مـا يحدث في الخارج وظلوا عدة سنوات يجهلون قيـام ثورة ١٨٣٠ ؛ ولا يعرفون التحويـل الصناعي الذي جرى في أوربة الغربية كلها ؛ وعرفوا وجـــود الخطوط الحديدية صدفة من منديل اشتري في معرض موسمي رسمت عليه صورة قاطرة . ولا يوجد مركز فكري يمكن أن يساعدهم على النهوض ؛ وكل ما وجد ، في البلاد ، مدرستان ثانويتان يشرف عليها اليسوعيون في كرواسيا وتعلم فيها اللاتينيـة والألمانية دون السلافية ، وابتـــداءً من ١٨٣٧ ، الهونغارية .

ان استحكام أو نهضة هذه الفكرة في الوحدة ستجد مثـلًا له مغزاه في حياة وكتابات دوزيته اوبرا دوفيتش : وهـــو راهب ارثوذكسي ولد في بانات وعاش بين الرومانيين ، مربياً ، في فوكساني ، لابني أخ المتروبوليت ، ثم ذهب للدراسة والاقامة في ليبزيغ ، وعاد منها ليصبح مربياً لأولاد قره ـ جورج ، بطل الثورة الصربية ، وشارك بنفسه في ثورة الصرب . وقضى حياة متحركة متموجـة في مختلف الأقاليم التي يعيش فيها اليوغوسلافيون ، ووقف ثلاثين عاماً من حياته على دراسة اللغات السلافية كلها ، واعترف بتشابهها . وقال إن الانقسامات الموجودة ليست إلا نتاج التعصب الديني . غير ان الاكليروس الارثوذكسي الأعلى أنكر هذا الراهب الغريب الأفكار . ومات عام ١٨١١ . ولكنه عاش نبياً منعزلاً للفكرة اليوغوسلافية .

تمت يقظة هؤلاء السلافيين في مكانين ، على طرفي الجماهير ، في الشمال والجنوب : في الشمال ، في كارنيول ، وهو اسم الاقليم الذي يسمى اليوم سلوفينيا ، في الامبراطورية النمساوية وهو القسم الأقرب من أوربة الغربية أي القسم الذي يمكن أن تظهر فيه الأفكار السائدة في الغرب . وهو ، من جهة أخرى ، مكان ارتياد للألمان الذين يأتون ومعهم أحدث الأفكار. وبين هؤلاء الألمان من وجد عنده بعض الولع لصالح الأجانب من غير أبناء البلاد ، وكان أكبر مثال على ذلك الارشيدوق جان الذي أسس ، في ١٨١١ ، متحفاً - مكتبة عرف باسم « يوهانيوم » حيث تجمع مجموعات المؤلفات الشعبية والذكريات المحلية . ثم حصل الارشيدوق جان ، فيما بعد ، من مترنيخ على السماح لجمعية ليباخ الزراعية باصدار نشرة اسبوعية باللغة السلوفينية ، وهي نشرة ، في الأصل ، فنية صرفاً ، ولكنها أصبحت بالتدريج على يد أمين سر الجمعية **بلايفايس** مجلة أدبية سلوفينية . ولقد أفاد دور السيطرة الفرنسية في خدمة اليقظة السلوفينية : فمن ذلك ان الماريشال **مارمون** ، حاكم الجزر الايلليرية في عهد الامبراطورية ، سمح بتعليم اللغة السلوفينية ، في المدارس الابتدائية ؛ والفت ، لهذا التعليم ، كتب ابتدائية ، مثل المجموعة التي كان يوجهها الأب فودنيك .

كوبيتار . - اما العالم الرئيسي الأول الذي عمل في خدمة السلوفينية فهو كوبيتار (١٧٨٠ - ١٨٤٤) . فقد تثقف ، ككل هؤلاء التشيكيين الذين رأيناهم ، في جامعة ايينا . وعاد إلى الامبرطورية وأصبح قيما للمكتبة الامبراطورية في فينا ، وهذا ما ساعده على تأمين حياته وامكان حماية أبناء وطنه السلوفيين ، وبصورة عامة ، السلاف المثقفين . نشر في ١٨٠٨ ، باللغة الألمانية ، كتابه في « نحو اللغة السلافية في كارنيول وكارانثيا وستيريا » . وكان على صلة مستمرة بالأب

دوبروفسكي ، حتى عام ١٨٢٨ ، ويتبادل واياه الاخبار والأعمال الأدبية . وتشكل حول كوبيتار مركز توثيق لجميع أنصار السلافيه في الامبراطورية النمساوية . وكان كوبيتار يفكر في وحدة اللغة ، ويرى لاظهار هذه الوحدة ضرورة توحيد أبجدية مختلف اللهجات وكتابتها .

وكان يعاصر كوبيتار العالم شاعر شعبي يسمى **بشرن**، وقد لفتت آثاره انتباه الالمان في فينا وترجمت إلى اللغة الالمانية . ويجب أن نلاحظ أن أن الحركة السلوفينية لم تولد أي اتجاه سياسي ، بل ظلت فكرية وأدبية صرفاً .

فوك قره – جيتش (١٨٧٧ - ١٨٢٤) . – واستيقظت قومية سلافيي الجنوب في صربيا والتخوم العسكرية على يد كاتب هام يدعى : فوك قره – جيتش، وهو من أصل ريفي ، ولد بالقرب من **نوفيزاد** (أو نويزاتز بالألمانية) على نهر الدراف . درس دراسة شخصية وأصبح فقيهاً باللغة عظيماً . وكان على صلة بكوبيتار الذي عرفه بفقهاء اللغة الألمان ، بالأخوين غريم والمؤرخ رانكه . وهذه العلاقات الألمانية توضح انتشار اسم قره-جيتش وآثاره فيأوروبةالوسطى . وقد انتخب فوك قره جيتش ، من بين مختلف اللهجات الصربية ، اللهجة التي برهنت على قوتها الأدبية فيالقديم، والتي تستطيع بالتالي ان تولد من جديد آثاراً قيمة ، وهي لغة **راغوز** ومدرستها الأدبية القديمة . وفي ١٨١٤ نشر كتاباً في النحو الصربي، وأول مجموعة للاغاني الحماسية الملحمية التيكان يغنيها الصربيون في السهرات وتسمى « **البسمة** » . ثم نشر مجموعة ثانية في ١٨٢٣ . وفي ١٨١٨ نشر معجماً صربياً ـ المانياً ثبت فيه الكتابة وأصوات الأسماء الصربية . وفي ١٨٢٦ أسس في بودابست داراً للنشر باسم « ماتيكا » (الحلية) ثم قلدت فيما بعد ، كما رأينا ، في براغ . ونشر خلال عدة

سنوات تقوياً شعبياً باللغة الصربيـة . ولكن الاكليروس الارثوذكسي قام عليه وآخذه على تخليه عن لغة الكنيسة ، السلافونية ، وأخذه لغة راغوز ، كما آخذه على ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العامية . وكان من الخطر عليـه أيضاً ان يذهب أو أن يبقى في أمارة ميلوش أو برينوفيتش الصربية ، فاضطر إلى اللجوء إلى هونغاريا ، وانتشرت أفكاره وآثاره بخاصة عند الصرب في هونغاريا، واستخلص من منشوراته ودراساته اللغوية وجود قرابة الهام ، وقرابة لغة بـين الآثار الشعبية في صربيا وكرواسيا ودالماسيا وسلوفينيا . وهكذا كان فوك قره - جيتش أول من أيقظ القومية اليوغوسلافية .

ثم اتسعت الحركة بعـده . أما الآن فيبـدو أن كل هـذا بقي نظرياً تماماً ، ودراسة بذخ ، دون امتـداد سياسي أو شعبي . وأدت الحركة ، بعد ١٨٣٠ ، إلى نتيجة عمليـة وانعشت كرواتيا التي تعتبر جزءاً أساسياً من البلاد اليوغوسلافية وقد بذلت بعض جهود ، ولكن غير مثمرة ، لصالح اللغة الكرواتية من قبل بعض كهان البلاد ، في ١٨٢٥ . وكذلك أخفقت المحاولة التي قام بها **سبودير** ، تلميذ كوبيتار ، في ١٨١٨ ، لانشاء جريدة بعد أن حصل على السماح من مترنيـخ ، ولم يستطع أن ينفذ مشروعه .

لويس غاي (١٨٠٩ - ١٨٧١) . - ثم تناول هـذا العمل **لويس غاي** واندفع به . نشأ غاي في كرواتيا ، وكانت أمه مثقفة وقوية ، فتحت عينيه على حب الوطن والوطنية الكرواتية . وفي ثقافته نجد دوماً العناصر نفسها : ارتياد المدارس الثانوية (**جمناز**) الألمانية في غراتز وفينـا ثم الجامعات الألمانية . وكان طالباً في ليبزيـغ ، ثم عـاد إلى بست حيث تعرف بكولار وتأثر به ، وأصبح غاي نظيراً لكولار من أجل جهوده

لسلاف الشمال . وقف نفسه للعمل في توطيد وحـــدة أبناء قومه . وكان يفكر في أن يصل إلى التفاهم المتبـادل والذوبان الروحي لمختلف عناصر سلاف الشمال . ولم يكن هذا منه وجهة نظر فكرية ، بل وجهة نظر رجل عمل ، وكان يدعمه في محاولته نبيل وهو الكونت جان دراسكوفيتش الذي كفله ودعا لأفكاره في أوساط المجتمع الراقية .

استقر غاي في أغرام ولم يتخذ لدعايته اللغة الكرواتية ، التي ستكون لغة البلاد ، بل لغة راغوز التي بدأ فوك قره ـ جيتش يبعثها ، وسماها اللغة الايلليرية . وأدرك أن أداة اليوم هي الجريدة . وأن الجريدة واسطة للعمل ؛ ولكن السلطات الكرواتية رفضت الترخيص الضروري لذلك فتوجه عندئذ ، في ١٨٣٤ ، مباشرة إلى فينا ، وقبل مترنيخ وجهة نظره وهيأ له مقابلة مع الامبراطور فرنسوا . وحصل على ترخيص يخوله انشاء جريدة . وقد ظهرت الجريدة في ١٨٣٥ تحت اسم « الجريدة الكرواتية » وأخذت في السنة التالية ١٨٣٦ الاسم الذي بقي لها « الجريدة القومية الايلليرية » . بدأت هذه الصحيفة تبث وتنشر استعمال اللغة الايلليرية ، كما يقول غاي ، أي لغة راغوز ، لغة اليوغوسلافيين الأدبية . وبعـــد قليل ، أضاف إلى جريدته ملحقاً أدبياً اسمه « دانيكا » أي « نجم الصبح » ، وأنشأ مطبعة قومية . وفي رأيه أن ايلليرية واسعة جداً ، وتمتد من بلغاريا حتى كارانثيا . ونشر مصورات لكل ما تصوره في ذهنـــه بأن سيكون دولة الصرب . وكانت زبائنـــه من الشباب والاكليروس الأدنى . وكان المجتمع الراقي في البدء مقاوماً له ، ولم يستسلم الاكليروس الأعلى والطبقة النبيلة الا تدريجياً . وكانت نتيجة دعايته تشكيل مراكز أدبية صغيرة ، في اغرام ، نوفيزاد ، ليباخ ، راغوز ، بلغراد . ونشأ

أدب درامي تاريخي ، وشعر ملاحم وشعر غنائي . بيد أن كل هذا ظل في دائرة ضيقة ولم ينفذ إلى جماهير الشعب .

ولكن هذه الحركة الايلليرية وضعت مشكلة سياسية . والواقع ، ان المعارضة التي أبداها الهونغاريون أعطت هذه الحركة مظهرها السياسي . وذلك لأن الهونغاريين يحتقرون بشدة كل ما ليس من جنسهم . وهناك أمثال هونغارية لها معناها في هذه النقطة مثل : « لا يوجد شيء خارج هونغاريا » ، أو « ليس السلافي رجلاً » . وبينا كان المجر يدافعون بشدة عن قوميتهم ضد الألمان ، كانوا يرفضون حقوق الوجدان القومي نفسها للشعوب التي كانت تحت سيطرتهم . فقد وضعوا جميع الصعوبات الممكنة أمام كولار واللوثريين الذين يطالبون باستقلالهم الذاتي المعنوي . كتب مفتش الكنائس اللوثرية السلوفاكية ، الكونت زاي في بلاغ له « ان مجيرة السلافيين أقدس واجب على كل وطني هونغاري حق ، وعلى كل بطل من أبطال الحرية والعقل » . وكان الرعاة اللوثريون السلافيون مضطهدين، حتى ان كولار اضطر أخيراً أن يغادر بودابست بعد أن تقدم مائتا زميل هونغاري له إلى الملك بعريضة لطرده .

تفجر الخلاف بين المجر والسلافيين على استعمال اللغة في دياط بوسبورغ، عندما حصل الهونغاريون على استعمال اللغة المجرية في الدياط وأرادوا أن يفرضوها لغة وحيدة . ولكن ممثلي كرواتيا في الدياط لم يشاؤوا الكلام باللغة المجرية ، وزعموا أن لهم الحق في الاستمرار بالكلام باللغة اللاتينية . وكذلك انفجر الخلاف في دياط أغرام عندما سمحت الحكومة النمساوية ، في ١٨٤٤ ، باستعمال اللغة اللاتينية في الدياط إلى جانب اللغة الهونغارية ، وعندما طالب الكرواتيون بحق استعمال اللغة الكرواتية دون الهونغارية واللاتينية . واعتبرت الحركة الكرواتية حركة ثورية في

في الكوميتات الهونغارية عام ١٨٤٢ ، في الوقت الذي كان فيه بك البوسنة يشكو إلى امبراطور النمسا من الدعاية التي كانت تقوم بين الصرب في اقليمه ، حتى ان الحكومة النمساوية في ١٨٤٣ اتخذت قراراً منعت فيه التكلم بـ « الإيليرية » وفرضت عبثاً على القوميات المختلفة في الامبراطورية ، الاحترام المتبادل . وكان الهونغاريون ، الذين وقفوا موقف التفاهم حيال الصرب وحيال الكرواتيين أو سلاف الجنوب، بشكل عام ، نادرين جداً . وكان زيشيني متسامحاً : نشر في ١٨٣١ و ١٨٣٣ مذكرات قبل فيها أن يكون ، للشعوب السلافية في المملكة ، الحق في الحياة القومية ، ووسع وجهة النظر هذه في خطاب له في ١٨٤٢ . وبالمقابل ، كان كوسوط مناوئاً للسلافيين بشكل عنيف ، ويشاركه هذا الرأي أكثرية المجر تقريباً . وربما كان هنالك شيء حقيقي في اتهام المجر الكرواتيين بالخيانة : ويبدو أن غاي قام ببعض المحاولات لدعم الروس له : ففي ١٨٣٨ وجه إلى القيصر مذكرة ضد المجر وأراد أن يظهر فيها للقيصر الفائدة التي تحصل عليها روسيا بتماسها مع كرواتيا بالحاق البوسنة والهرسك وصربيا بالروسيا . ثم تناول الاغراض نفسها في مذكرة أخرى، في ١٨٤٠ ، ونشر مصوراً جغرافياً ذهب فيه بما نسميه اليوم يوغوسلافيا من كلرانشيا حتى بلغاريا . ولكن القيصر أبعد هذه الفكرة ، ويبدو أنه ، على العكس ، حذر فينا من غاي . ووجه غاي تهديدات إلى الهونغاريين ، وكتب : « لن يكون المجر يوماً ما الا جزيرة عائمة في المحيط السلافي العظيم . ولم أخلق هذا المحيط ، ولا هذه الامواج ، ولكن على المجر أن يحذروا من اثارة هذا المحيط لئلا يطغي الموج فوق رؤوسهم وتنغمر الجزيرة ! » . وفي ذلك نرى أصل العداء بين القومية السلافية والقومية الهونغارية ، وسيظهر هذا العداء في ثورة ١٨٤٨ .

ورغم هـــذا النشاط الفكري الحي ، الذي نجده عند يوغوسلافيي امبراطورية النمسا ، لم تتفجر نواة الدولة الصربية في النمسا ، بل في تركيا .

إن المكان الذي تألفت فيه هذه الدولة الصربية هو القسم الشمالي من الاقاليم التركية ، باشوية بلغراد ، أي المنطقة التي كانت في السابق تحت السيطرة النمساوية، حتى١٧٣٩ . وقد بقيت في هذه البلاد ذكريات ادارة منظمة ، مسيحية . وكان العسكريون الذين انخرطوا في جسم الجيش النمساوي قد تشكلوا في البلاد . وكانت الشروط الجغرافية ، من جهة ثانية ملائمة لحركة ثورة : كانت شومادیا ، الاقليم الواقع في شرق بلغراد ، تتألف من جبال مغطاة بالغابات ، مع بعض السهول الصغيرة المستغلة المزروعة بالذرة ، مع بعض البساتين والكروم، حيث تربى الخنازير وتوجد كتلة فلاحين ملاكين يشكلون مجتمعاً ديموقراطياً . وكان لهم اكليروسهم الأرثوذكسي ، و « كنيز » القرى ، أي بلدياتهم ، وتقاليدهم الادبية ، والاغاني الملحمية (بسمة) التي تغنى في السهرات . وكان بين التخوم النمساوية وباشاوية بلغراد حركة هجرة متبادلة ، وكما كان الكلفت في اليونان ، كان الخارجون عن القانون ، الاشقياء الذين يعتصمون في الجبال، ينضمون إلى الحركة ، ويسمون هنا « هايدوك » ولكن لا يوجد هنا أي نوع للحياة الفكرية . وكان الرهبان والكهان الارثوذوكس جاهلين تماماً وضعافاً . الا أنه كان يوجد في فينا وبودابست ، أو في البانات ، عناصر فكرية .

نشبت الثورة في الاقليم عام ١٨٠٤ ، على يد قره ــ جورج ، ضد اعتداءات الانكشارية المقيمين في البلاد ، الذين يسمون « الداهي » ، وطردهم الصرب الثائرون ، وانتزعوا منهم بالتدريج الحصون ، بعد أن قاتلوهم في ميشار في ١٨٠٦ ، دون أن يفكر هؤلاء الثائرون باطراح

السيادة التركية حتى ولا سلطة الباشا . وكانت ثورتهم موجهة فقط ضد الانكشارية الذين يضطهدونهم . وكان قره - جورج ، الذي يقود النضال ، ضابط صف قديم في الجيش النمساوي ، وبهذا الشكل ثقف المهنة العسكرية ، وكان يساعده مجلس الكنيز ، عمداء القرى . وحاول هؤلاء الثائرون أن يتصلوا بسان - بطرسبورغ وفينا ، ولكن الأتراك استرجعوا قوتهم واخضعوهم بعض الوقت ، وظلوا كذلك إلى أن أفادوا من الحرب الروسية - التركية من ١٨٠٦ إلى ١٨١٢ التي انفجرت دون أن يكون لها أي علاقة مع الصرب ؛ وقد أفادتهم هذه الحرب لأن الأتراك اضطروا أن يواجهوا الروس ويتخلوا عنهم . ولكن الروس ، عندما بدأت حملة نابوليون على روسيا ، تخلوا عن الصرب وعقدوا الصلح مع الأتراك في ١٨١٢ . ووعد الأتراك ببساطة في معاهدة بخارست « بمعاملة الصرب معاملة رحيمة وكريمة » وبفرض ضريبة « معتدلة » وبالعفو العام . وعاودوا سيطرتهم على البلاد كلها . واضطر الزعماء إلى الفرار بعد أن قاموا بتدابير انتقامية فظيعة ، ويدل على ذلك برج الجماجم في نيش في ١٨٠٩ . ولا يوجد في هذه الثورة الصربية من ١٨٠٤ إلى ١٨١٢ أي نوع لطابع قومي : بل كانت حركة صربية ، حركة فلاحين أخذوا نماذجهم من تقاليدهم الشعبية القديمة في المنازعات بين **ماركو كرانيوفيتش** ضد الاتراك ، ولم يكن لديهم أي فكرة يمكن أن تتشكل بموجبها دولة صربية .

ميلوش اوبرينوفيتش . - قهرت الحركة للمرة الاولى ، ولكنها عادت وتحولت في عام ١٨١٥ ، وانفجرت الثورة في ٢٥ نيسان على اثر الفظاعات التركية ، وكان على رأسها كنيز من البلاد ، وهو ملاك ومربي خنازير ، اسمه ميلوش اوبرينوفيتش ، ولد عام ١٧٨٠ . وكانت منطقة بلغراد

مقر الحركة ، وقد تخلصت تدريجياً من الأتراك ، باستثناء الحصون ، وسمى الثائرون ميلوش «اوبور كنيز» أي العمدة الأعلى في فاليفو . وتتلخص مطاليب الصرب في عدم بقاء الأتراك خارج حصن بلغراد ، وعدم وجود حامية تركية الا في بلغراد ، وان تجمع الضرائب التي تدفع للسلطان في مبلغ عام على ان يجمعه الصرب بأنفسهم . وفاوض ميلوش الأتراك بمهارة وظهر هؤلاء معتدلين وخافوا من تدخل الروس لصالح الصرب الثائرين . وحصل الصرب على ما يريدون من الأتراك : فقد اقيمت ادارة مسيحية تمثل الأمة الصربيه لدى الباشا ، وأقر على هذا النحو نوع من تسوية بين الصرب والأتراك في القرى : فمن جهة وجد الكنيز الذي يوجه الشعب الصربي ، ومن جهة أخرى ، يمثل الباشا ، « المتسلم » الذي تدفع اليه ضريبة القرية . وتمت هذه التسوية في كانون الأول ١٨١٦ . وبعد موت قره جورج، الذي عاد إلى البلاد وتخلص منه ميلوش في ٢٤ حزيران ، وتنحية رئيس الدائرة الصربية، وموت الأسقف نيبيتش المفاجيء الذي كان يعارض سلطة ميلوش ، اعترف السلطان بميلوش كنيزاً اعلى في ٦ تشرين الثاني ١٨١٧ . وهكذا أعطي لأول مرة الاستقلال الذاتي لباشوية بلغراد، وهو نظام ممتاز في الامبراطورية العثمانية .

وسعت سياسة ميلوش هذا الامتياز الأول الذي تنازل به الأتراك . وحاول ميلوش أن يؤمن سلطته الشخصيـــة على مختلف الكنيزات وعلى الطبقة المسيطرة التي ظلت حتى ذلك الحين محاربة عنـد الحاجة ، وذلك بالضرب بشدة على يد كل ثورة ، وباظهار سلطته بفظاعة . واتجه صراحة إلى جانب الأتراك ، ودفع الضريبة المحددة بانتظام ، وضريبة الخراج ، ضريبة الأراضي ، واغدق على الباشا الهدايا . وعندما ثار الاغريق على تركيا ، وقف ميلوش والصرب موقفاً متحفظاً جداً ، وموقفاً حيادياً أثناء

الحرب الروسية ـ التركية من ١٨٢٧ إلى ١٨٢٩ . وبفضل هذه المفاوضات وهذا الموقف حصل ميلوش على فوائد : ففي ١٨٢٠ ، أخذ لقب « أمير صرب باشوية بلغراد » . وفي ١٨٢٦ ، نص اتفاق آكرمان ، الذي سوى الحالة في الأقاليم الدانوبية بين القيصر والسلطان ، على اعطاء الصرب الحرية الدينية ، والاستقلال الاداري، وعلى ضريبة وحيدة ، والسماح بأن تكون لهم مدارس ومستشفيات ، وبالانتقال والتجارة في الامبراطورية ؛ وحرمت على الأتراك الاقامة في خارج حصن بلغراد ، وصفوا أملاكهم في البلاد . وأخيراً وعد الصرب بتصحيح حدود الباشوية لصالحهم . وفي ١٨٢٩ ، ايدت امتيازات اتفاق آكرمان بمعاهدة أدرنه . وفي ٥ شباط ١٨٣٠ استطاع ميلوش أن يعقد مجلساً قومياً للكنيزات، سكوبتشينا، لاعلان الامتيازات التي حصل عليها من السلطان ، وما كان من المجلس المعترف بالجميل الا أن انتخبه أميراً وراثياً للصرب في باشوية بلغراد . واستطاع ميلوش الحصول على موافقة السلطان على هذا الانتخاب ، بعد أن وزع الهدايا على الديوان السلطاني وحصل على الموافقة على لقب أمير وراثي في ٣٠ ايلول ١٨٣٠ .

بقيت مشكلة الحدود : لم يقرر الأتراك الوفاء بوعدهم في تعديل الحدود ، غير أن ميلوش ، في الواقع ، احتل مناطق الجنوب الست التي كان يطمع بها ، وبنفس الطريقة اشترى الديوان بالهدايا ، فتخلى له عنها في ١٨٣٣ . وفي هذا التاريخ وجدت الدولة الصربية على صعيد أقل رقعة مما كان عليه الجنس الصربي ، ولا شك ، وتحت السيادة التركية ، ولكنها كانت ، على الأقل ، دولة تتمتع بالاستقلال الذاتي ، أول دولة صربية .

وهذه الدولة الممتازة ، التي لم تخرج من حركة وعي قومي أصلي ،

بل من أناس يبحثون عن دفاع وعن ضمانات ضد طغيان الادارة التركية ، وجهت أنظار الصرب اليهـــا من مختلف أنحاء الامبراطورية ، فتوافدت عليها حركة الهجرة من البوسنة وبلغاريا وخاصة من منطقة بيروت ونيش ، واحدثت في باشوية بلغراد مركزية سلافية حقيقية آخذة بالنمو . ورغم أن ميلوش كان أميراً أمياً تماماً ، وان الصرب كانوا فلاحين فظاظاً فقد تمت لصالحهم حركة التفاف من جميع العالم اليوغوسلافي . فحتى الآن ، في الواقع ، كانت المراكز الفكرية في خارج صربيا ، في النمسا : ففي نوفيزاد وجدت مطبعة صربيـــة ، وفي بودابست كانت تنشر جريدة «الأخبار الصربية» ، وفي بودابست أيضاً كانت تطبع مجلتان صربيتان . وتنشر فيها القصص الشعبية وبخاصـة قصص فيداكوفيتش الصربي . وقد انتشر عمل فوك قره - جيتش كله ، كما رأينا ، في الارض النمساوية . وشيئاً فشيئاً انتظمت الحركة الفكرية الصربية في الباشوية نفسها : انشئت مدرستان ثانويتان (جمناز) احداهما في كراغوجيفاتش في ١٨٣٢ (لأن كراغوجيفاتش ظلت حتى ذلك الحين عاصمة الأمارة لا بلغراد التي ظلت مدينة تركيـة ؛ وفي ١٨٣٨ ، انشئت الاخرى في بلغراد . وأسست في بلغراد ، في ١٨٤١ ، حلقة دراسة مع مطبعـة يديرها برغمان ، ثم جمعية أدبية ومسرح في ١٨٤٢ . ومع نمو الصرب الفكري ظهرت مطالب عامة وضعت ، أمام سلطة ميلوش أوبرينوفيتش الاستبدادية ، برنامجاً ليبرالياً ، واضطر ميلوش ، في العام ١٨٣٥ ، أن يلجأ إلى التفـاهم والتسوية .

وهذه الدولة الصربية الصغيرة التي لم تنل استقلالها التام بعد ، وظلت تحت سيادة السلطان والاتراك ، مازالت غير معرفة بنصوص حقوقية . لقد كانت موجودة في الواقع ، ولكن لم يكن لهـــا دستور كسائر دول الغرب ، لقد كانت منظمة تسير معتمدة على التسامح المتبـادل بين

الأتراك والصرب . وكان الصرب أول من حققوا لأنفسهم ترتيباً سياسياً قبل أن يكون لهم وعي قومي محدد . وهذا عكس ما شهدناه عند الاغريق الذين كان لهم وجدان قومي واضح جداً قبل أن يستطيعوا تحقيقه بشكل سياسي .

وهكذا نجد درجات مختلفة للوجدان القومي عند الشعوب السلافية في امبراطورية النمسا ، وخاصة في الجنوب ، حيث كانت العناصر على درجات متفاوتة من النمو . ولكن حتى ١٨٤٨ ، باستثناء رد فعل الهونغاريين ضد الكرواتيين ، لا يوجد عداء بين هذه القوميات المختلفة في امبراطورية النمسا ، بل ، على العكس ، كانت تدعم بعضها بعضاً ، وبينها مجاملات متبادلة في داخل الامبراطورية النمساوية ، وفي خارجها عندما تفيد من مجاملات الخارج . وكان الألمان والايطاليون والسلافيون والهونغاريون يتابعون بعطف تقدم ورقي كل منهم ، ويتعاونون من وجهة النظر العقائدية والواقعية أيضاً . غير أننا نراهم ، في ثورة ١٨٤٨ ، متنازعين متخاصمين .

٤ — رومانيو ترانسلفانيا والإمارات الدانوبية

وأخيراً ، لا بد لنا ، في جنوب شرقي أوروبة ، من دراسة حركة روماني ترانسلفانيا والأمارات الدانوبية . وكانت ظروف هؤلاء مختلفة من حيث الأصل والنمو . فجنسهم لاتيني وغير سلافي ، ويظهر هذا الجنس باللغة المشتركة ، وكانوا منعزلين ومنفصلين عن أوروبة بالكتلة التركية وبكتلة الامبراطورية النمساوية ، ولم يفيدوا من هذا التضامن الذي أوجدته وحدة السلافيين بين الآخرين . ومن جهة أخرى ، وضعت بشأنهم قضية

ديلوماسية منذ منتصف القرن الثامن عشر ، منذ توسع روسيا نحو الجنوب؛ وأصبحت قضية الأقاليم الدانوبية عنصراً من عناصر السياسة التوسعية لروسيا على حساب الامبراطورية العثمانية . وحسب الأحوال ، كان الرومانيون يلقون التشجيع أو يلقون الصعاب في السياسة الروسية . وتم في هذه المجموعة نوع من فصل بين تحرير البلاد السياسي والوعي القومي . ولم يكن بالتالي لحركة التحرير الرومانية نفس الخط البسيط الذي شهدناه عند الشعوب الأخرى : فقد سبق النظام السياسي صحوة الوعي القومي ، وأظهرت الحركة القومية الرومانية صفة خاصة وهي ان الرومانيين حصلوا على الحريات السياسية قبل أن يشعروا بأنهم قومية ، في قسم فقط من هذا الجنس ، لأنهم كانوا منقسمين بين امبراطورية النمسا والامبراطورية العثمانية .

في الامبراطورية النمساوية . ـ كان القسم الروماني هو ما يسمى امارة ترانسلفانيا التي تؤلف جزءاً من تاج القديس ـ ايتين . وكان الرومانيون شعباً قروياً قناً . وان التعبير « افلاقي » يعني « القن » . واقامت فوقهم « أقوام » شكلت ثلاث جماعات :

١ ـ **الغزاة** ، الذين ردوا الشعب الروماني إلى القنانة ؛ وكانوا من كبار الملاكين **المجريين النبلاء** .

٢ ـ **المعمرون** ، وهم من اصل هونغاري أيضاً ، ومن أصل عسكري ، ويشكلون طبقة من صغار المالكين الذين يسمون **الزكلو** .

٣ ـ **الالمان** البروتستانت الذين أقاموا في وسط البلاد ، ويدل عليهم بالاسم « الساكسونيون » .

وهذه الأقوام الثلاثة ، المجر ، الزكلر ، الساكسونيون ، لها وحدها حقوق سياسية ، وكان لها دياط بموجب دستور ١٦٩١ ، ولم تعقده حكومة النمسا ، في هذا العصر الذي نتكلم عنه ، منذ ١٨٠٩ .

في الامبراطورية العثمانية . - كانت المنطقة الرومانية تتألف من الأمارتين الدانوبيتين : مولدفيا (البغدان) والأفلاق (فالاشيا) . ولم يحتلها الاتراك اثناء الفتح العثماني ، بل كانتا تابعتين للامبراطورية العثمانية . وبقيتا بلدين مسيحيين ارثوذكسيين يضمان ارستقراطية من كبار المالكين النبلاء الذين يؤلفون الأطر الاجتماعية وأصحاب المناصب ويسمون « **البويارد** » ويعيشون في بعض المدن : ياسي وبخارست ، وتتألف نفوس هذه المدينة من مائة الف نسمة ، وموانئ نهر الدانوب . وكان هؤلاء البويارد يتكلمون على العموم الفرنسية ويأخذون نماذج حياتهم وبذخهم من باريس . ونجد تحتهم كتلة **الفلاحين** في القنانة ، تعيش عيشة بائسة . وكانت الجيوش الروسية والتركية تنهبها بشكل دوري اثناء مرورها . وفي ١٨٣٥ ، مرّ بها الكونت **مولتكه** في طريقه الى تركيا ليكون مدرباً للجيش العثماني الجديد ، فوصف ، في رحلته ، البلاد والحياة البائسة التي يحياها هؤلاء الفلاحون في اكواخ حقيرة متجمعة في قرى ، وليس عندهم اثاث أو ادوات للطبخ او اسلحة . وكانت حكومة الاقليمين تدار من قبل هوسبودارين (اميرين) يسميها السلطان ، وكانا غريبين عن البلاد ، لاجتناب علاقات خطرة مع الروس . ومنذ ١٧١٦ أخذ السلاطين يعينون الاميرين من اغريق حي الفنار في القسطنطينية ويبقونهم قليلاً من الوقت ليحولوا دون تأصلهم في البلاد . ومن ١٧١٦ إلى ١٨٢١ وجد سبع وثلاثون هوسبوداراً في الأفلاق وثلاث وثلاثون هوسبوداراً في البغدان . وكانوا يأتون الى البلاد ومعهم عمال الادارة من الاغريق ايضاً الذين يقومون بفرض الضريبة . وكان الرؤساء يستغلون الوضع ليثروا على حساب غيرهم ، وكان العمال يرتشون ، ولكن لم يكن هنالك اضطهاد خاص من قبل الاتراك للسكان . وكان هذا الوسط

يختلف اجتماعياً وسياسياً عن اوربة . ولكن الدفع الروسي ، منذ كاترينا الثانية ، أخذ يظهر في هذا الاتجاه ويشجع بالتالي اطماع الهوسبودارين اللذين يريدان زحزحة سلطة حكومتها لينشآ لانفسهما امارتين شخصيتين . وبعد قليل وصل المهاجرون الفرنسيون الذين أتوا معهم بأفكار القرن الثامن عشر الفلسفية ، وبعدها بأفكار الثورة الليبرالية : ففي عهد حكومة الديركتوار (حكومة الادارة) قامت دعاية ليبرالية في البلاد بواسطة القنصل الفرنسي او العمال الذين ارسلهم الديركتوار . وكان الاقليمان الدانوبيان موضع مخاطرة الحروب الروسية - التركية ، ومراقبة السياسة النمساوية التي لاتريد ان تترك روسيا تستولي على هذين الاقليمين

لقد اثيرت الحرب الروسية - التركية عندما استبدل الباب العالي الهوسبودارين ، قسطنطين يبسلانتي ومورروسي بمرشحين فرنسيين ، بناء على طلب الجنرال سيباستياني . وبسبب الحرب احتل الروس الاقليمين ، ثم اضطروا الى التخلي عنها عندما دعتها التعقيدات الاوربية مع نابليون الى توقيع صلح بخارست مع الأتراك : الا انهم حصلوا ، في هذه المعاهدة ، على قطعـــة من مولدافيا (البغدان) عندما نقلت الحدود الى نهر البروت وأصبحت بسارابيا روسية . واتخذ الروس وضع الحماة والضامنين للحريات في الاقليمين الدانوبيين . وفي الواقع كانت هذه الحماية وسيلة للتغلغل والنفوذ في الامبراطورية العثمانية التي اعترفت للروس في عام ١٧٧٤ ، بمعاهدة كوشوك قينارجي ، بحق حماية الاكليروس الارثوذكسي في تركيا .

وعندما قامت ثورة الاغريق في العام ١٨٢١ على يد الجمعية السرية ، الهيتيري، وجد تشكل الهيتيري بعض المشايعين في الطبقة النبيلة في الامارتين الدانوبيتين، مثل آل يبسلانتي ، وآل ستوردزا، وبعض اعضاء الاكليروس

في الأفلاق . وفي التاريخ نفسه انفجرت ، مع ثورة الهيتيري ، ثورة الفلاحين في البغدان ، في وادي الآلوتا في اولتينيا ، في كانون الثاني ١٨٢١ ، وكان يتزعم الحركة تيؤدور فلاديميريسكو . ولم تتصل هذه الحركة بثورة الهيتيري ، بل كانت معادية لها . وكانت نتيجة هذه الحركة المزدوجة ايقاف تنفيذ البنود الاقتصادية لمعاهدة بخارست ، وهذا ماأثار استياء الروس الذين قطعوا العلاقات الدبلوماسية مع السلطان ، والوساطة الفرنسية لتهدئة الخلاف التي أدت الى اتفاق آكرمان ، في ٢٦ تشرين الأول ١٨٢٦ والزم السلطان بموجبها الى التباحث مع الروس عند تسمية الهوسبودارين .

غير ان هاتين الثورتين عادتا بالفائدة على الرومانيين : من ذلك ان الباب العالي ، في حزيران ١٨٢٢ ، بعد ان حذر من اغريق حي الفنار الذين ينتخب من بينهم الهوسبودارين ، سمى هوسبودارين من ابناء البلاد من الرومانيين : غريغوار جيخا في الأفلاق . وجان ستوردزا في البغدان . وابتداء من الآن أصبح الهوسبوداران رومانيين في الاقليمين الدانوبيين ثم ان الحرب الروسية التركية من ١٨٢٧ الى ١٨٢٩ التي انتهت بمعاهدة ادرنة ، في ١٤ ايلول ١٨٢٩ ، خولت الأمارتين فوائد جديدة : وهي ان الهوسبودارين أصبحا يسميان مدى الحياة ، لا لسبع سنوات . وحصل الأقليان على الاستقلال الذاتي في ادارتها الداخلية ، وتعهد السلطان بالموافقه على النظام العضوي (الأساسي) الذي سيدرسه الروس . وبقيت الجيوش الروسية في البلاد حتى ١٨٣٤ . وحكم الاقليان ، في الواقع ، من قبل الجنرال كيسيليف الحر الذي طلب من مجلس البويارد الموافقة على النظام الأساسي لعام ١٨٣١ . وهذا النظام الذي هو نوع من دستور ، يؤيد امتيازات البويارد على الفلاحين ، وسلطانهم الاقطاعية ، وحصاناتهم ،

واملاكهم الأرضية ، وينشىء في كل امارة ، في البغدان وفي الافلاق مجلساً يصوت على الضريبة والقوانين ، وينتخب الهوسبودارين . وفي الواقع ، ظل الروس والاتراك متفاهمين على تسمية الهوسبودارين دون تدخل الانتخاب ، وعلى مراقبتها مـــن قبل القناصل الروس .

وتوطد في الاقليمين الدانوبيين نظام ارستقراطي ، ولكنه ، مع ذلك ، مصبوغ بالصبغة القومية لأن الرومانيين انفسهم كانوا يؤلفون هذه الادارة .

ولم تكن السياسة الروسية ، التي ادت الى هذه النتائج ، في هذين الاقليمين الدانوبيين مستوحاة من وجهـــات نظر رومانية ، بل من المصلحة الروسية وحدها . ومع ذلك فإن هذا التدخل خول الرومانيين توسع امتيازاتهم : فقد شكلوا اقليمين يتمتعان بوضع خاص مفيد وسيكون هذان الاقليمان اطاراً للدولة القومية في المستقبل .

نشوء القومية الرومانية - ولكن ليس في كل ذلك شيء قومي . لقد كان الهوسبوذاران وادارتها قبـل ١٨٢٢ من حي الفنار ممن ليس لهـم مفاهيم رومانية . وكان هـدف طمعهم تشكيل دولة تشمل الاغريـق والرومان (من رومانيا) تحت السيادة التركية دون التفكير بأي دولة قومية رومانية . وكانت البطريركية والاساقفة الارثوذكس معادين للحركة الرومانية . أما البويارد فقد تهللنوا أو تغربوا ، وفقدوا سيماءهم الرومانية ، ولم تكن بينهم وبين الشعب روابط روحية . وهكذا بقي الشعب لامبالياً تماماً أثناء ثورة ١٨٢١ . وكان الفلاحون الرومانيون في منطقـة اولتينيا يناوؤون حركة يبسلانتي ؛ وصرح فلاديـــيريسكو : « لست مستعداً مطلقاً لاهراق دم الرومانيين في سبيل اغريقية » . وقال في نداء آخر : « ماذا يمكن أن يكون عند الداسين والهيلانيين من شيء مشترك ؟ » .

ان مايبين لنا تعارض الحركتين هو ان يبسلانتي قبض على فلاديميريسكو وأعدمه . ولذا يجب لتشكل القومية الرومانية أن يتحرر الرومانيون معنوياً من هذه الهلينة بقدر تحررهم السياسي من ربقة الترك .

ونلاحظ في نداء فلاديميريسكو كلمة « الداسيين » التي استعملها للدلالة على هذا الشعب معارضاً بذلك « الهيلانيين » . لقد نشأت الحركة القومية ، في الواقع ، في ترانسلفانيا ، وكانت في أصلها آثارية ، ولم تخرج من الطبقة الارستقراطية . ويجب ألا نخدع في الواقع من معارضة ترانسلفانيا ، أو ، على الأقل ، من المعارضة التي ارتسمت في ترانسلفانيا ضد الحكومة ، تحت غطاء إرجاع حقوق الترانسلفانيين التاريخية ، اذ لا يوجد في هذا حركة قومية رومانية ، بل نزاع نفوذ بين الطبقتين الارستقراطيتين ، الساكسونية والمجرية ، في ترانسلفانيا . لقد كان الساكسونيون ، وهم ألمان ، موالين لحكومة فينا ويدعمون سياسة تسلط الحكومة ، وكانوا يناصرون انفصال ترانسلفانيا عن هونغاريا لالحاقها مباشرة بفينا . أما المجر ، على العكس ، فقد كانوا يعادون الحكومة لأنها لاتقيم اعتباراً لحقوقهم التاريخية . وسلكوا سياسة إرجاع الحريات التاريخية لترانسلفانيا وربطها بشكل وثيق ببودابست . واستطاعوا ان يفرضوا على الحكومة انعقاد دياط ترانسلفانيا في ١٨٣٤ ، الذي وجه اللوم الى « الغوبيرنيوم » أي الادارة ، لأنها لم تنتخب بل كانت من تعيين فينا ، واراد أن يشكل سلطة مستقلة مسؤولة أمام الناخبين . وطبع ضبوط الجلسات ووزعها ، كما فعل كوسوط فيما بعد في الدياط الهونغاري . وكان من الطبيعي أن تحل حكومة فينا هذا الدياط بسرعة . ولانجد في هذه المعارضة السياسية التي استيقظت ، في ترانسلفانيا ، شيئاً قومياً ، حتى ولا ليبرالياً ؛

أنها معارضة ارستقراطية نبلاء ألمان ومجر ضد فينا ، وليست حركة رومانية ، ولذا لم يعلق الشعب الروماني أي فائدة على هذا النزاع .

لم يكن أصل الحركة في معارضة النبلاء ، بل ان أصلها ديني : ففي ١٧٠٠ تألفت في ترانسلفانيا الكنيسة « الموحدة » أي ان قسماً من الكنيسة انفصل عن الارثوذكسية ، عن بطريركية القسطنطينية والتحق من جديد بروما ، وبالتالي ، دخل في الكاثوليكية ، وألف الرومانيين الكاثوليك المتحدين مع روما . وهذا مايوضح لنا كيف أنهم ارسلوا من ترانسلفانيا بعض خريجي المدارس الاسقفية الى روما ليتموا ثقافتهم الدينية والملكية ويعودوا كهاناً . وقد اطلع هؤلاء الخريجون في روما على الحضارة الغربية واكتشفوا بأن أصل الرومانيين من روما ، وانهم متحدرون من انسال الداسيين ، جنود تراجان ، وأخذتهم عظمة ماضيهم قبل أن يغمرهم الترك ، وعندما عادوا الى بلادهم ألفوا تدريجياً في بلاي « المدرسة الترانسلفانية » حيث يدرس ماضي داسيا والعلاقات اللغوية بين الرومانيين واللاتينيين .

وفي آخر القرن الثامن عشر ، انشأت هذه الحركة كتاباً نخص بالذكر منهم **صاموئيل كلاين** ، فقد نشر في ١٧٨٠ كتاباً في النحو الروماني ؛ وفي التاريخ نفسه ، أعطى **جورج سينكاي** مجموعة مصادر تاريخ ترانسلفانيا القديم ، ونشر **بيير ماجور** « تاريخ أصل الداسيين في ترانسلفانيا » . وفي بانات تيميسفار كان هؤلاء الرومانيون على صلة بالصرب . وتشكلت على هذا النحو مدرسة ادبية مشتركة ؛ وبدأ الأدب الروماني بترجمة الكتب الصربية : نشر الكاتب الخرافي الروماني ، **تسيشينديال** قصصاً خرافية باللغة الصربية . وكان المؤلفون الرومانيون يأخذون في الغالب أسماء

صربية ، مثل النحوي بوروغوفيسكي . وظلت معظم مؤلفات التاريخ وفقه اللغة الرومانيـــة مخطوطات ، ولكن الشعب كان يتداول منها بعض المقطوعات . ونجد هنا منطقة أدبية صغيرة تبدو منعزلة ، ولكنها نشيطة . وهذه المدرسة الصغيرة الرومانية في ترانسلفانيا وبانات ستؤثر على الاقليمين الدانوبيين وتوقظ فيها الفكرة القومية . لقد كانت العلاقات صعبة بين ترانسلفانيا والاقليمين الدانوبيين : كانت الطرق قليلة ، وكانت الحدود مغلقة بالمحاجر الصحية لتجنب انتشار الأوبئة الوافدة من تركيا ، ومع ذلك فان الأفكار كانت تمر عبر الجبال لتدخل في الاقليمين الدانوبيين ، ولا أدل على ذلك من قول فلاديميريسكو عن أبناء وطنه انهم « داسيون » .

كان المباده الاسامي استاذ من سيبيو (وهو الاسم الروماني للمدينة الترانسلفانيـة هرمانشتات) وهو جورج لازار (١٧٧٩ - ١٨٢٣) . ينتمي هذا الاستاذ الى اسرة فقيرة من ترانسلفانيا ، وقام بدراسات تامة جداً . وفي ١٨١٦ وصل الى بخارست ، حيث فتح ، بناء على طلب البويارد ، مدرسة هندسة لتشكيل مساحين ، لأن كبار الملاكين كانوا بحاجة الى عدد منهم على أراضيهم . وكانت هـذه المدرسة نقطة انطلاق لتعليم أوسع وأشمل كالتاريخ والفلسفة والسياسة . وكان في هـذا العمل رسالةرومانية كاثوليكيةوجدتتعبيرها الأسامي فيمدرسة دير القديس سابا . وقامت حركة مماثلة في ياسي حيث فتح الاستاذ آزاشي مدرسة للتعليم باللغة الرومانية ، وتبعه آخرون . وحصل في الاقليمين الدانوبيين ، في المجتمع الراقي ، رواج حقيقي للأساتـــذة الترانسلفانيين . وكان هؤلاء يتخذون مربين في الأسر النبيلة على حين أنهم ، حتى ذلك الحين ، كانوا يؤخذون عادة من الاساتذة الاغريق . وعلى هذا النحو حلت بالتدريج الحضارة

الرومانية اللاتينية محل الحضارة الهلنية ـ البيزنطية التي ظلت حتى الآن تحتل مكانة الشرف .

لقد كانت ميزة هـذه الحضارة الرومانية ، إذا أريد القول ، هـذه الحركة الرومانية ، الاستلهام من فرنسا . فقـد كانت علاقات الطبقة النبيلة في الاقليمين الدانوبيين مع فرنسا قديمة ، وكانت اللغـة الفرنسية فيها شائعة ، واستعمالها جـار ، والشباب الرومانيون يذهبون الى باريس للدراسة . فقد وجـــد فيها ، في ١٨٤٥ ، تشكل لفيف من الطلاب الرومانيين ، تحت ادارة **روزيتي وكوغالنيسيانو والاخوين براسيانو** . وبالمقابل كان الاساتذة الفرنسيون يذهبون الى الاقليمين الدانوبيين ، في رومانيا ، ويقيمون فيها ، وكانوا من أصل متنوع جداً : ونذكر على سبيل المثال عضو المؤتمر الوطني القديم **كاد** ، أو ، بالعكس ، مهاجر وهو الاستاذ **فايان** الذي أدار كليـة القديس - سابا ونشر بالفرنسية ، في ١٨٤٤ ، كتاباً يسمى « رومانيا » لتعريف ابناء وطنه بها . وكان الجيل الروماني الناشيء يتلقى عن طريق هـذه التربية الفرنسية الشغف بالحرية والعظمة القومية .

وفي رومانيا ، كما في المانيـا وايطاليا ، كانت الليبرالية والقوميـة مترابطتين . وكان أهم تلاميذجورج لازار وناشر أفكاره **هليادرادوليسكو** . أسس ، في ١٨٢٩ ، جريدة « البريد الروماني » في الافلاق ، وبعد قليـل ، أسس آزاشي ، في البغدان ، جريـــدة مماثلة وهي « النحلة الرومانية » . وقبل ذلـك ، في ١٨٢٢ ، قام رومانيون بتكييف « اعلان حقـوق الانسان والمواطن » في تعاملهم . وبعد ١٨٤٠ كان نهوض الحركة عاماً . وتم بشكل متواز في ترانسلفانيا ورومانيا : ففي

كرونشتات أسس الاستاذ جورج باريت ، في ١٨٣٧، مجلة التعليم العام وكانت تعالج موضوعات علمية واخلاقية باسلوب سهل يفهمه الجميع وباللغة الشعبية . وفي المعهد الديني المتحد في بلاي تربى أحد أبناء الافنان ، بارنوت ، وأصبح مؤرخاً وخطيباً . وشجع الاكليروس الأعلى الحركة وبخاصة الكنسي ساغونا ، الذي أصبح أسقفاً ثم رسم رئيساً للأساقفة في كانون الثاني ١٨٤٨ . وأخذت الحركة في رومانيا شكل حركة أدبية قومية : فقد كان كوغالينسيانو مؤرخاً ، تثقف في لونيفيل وفي برلين ، وكان حواري « رومانيا الكبرى » وإتجاهاته مناصرة للروس . وإلى جانبه وجد شاعران كبيران : الشاعر غريغوار الكسندر يسكو الذي تغنى بماضي رومانيا القومي ، والشاعر الغنائي اليساندري . وهكذا توصل الرومانيون في وقت واحد الىفكرتين عميقتين : الوعي القومي ، ووحدة قوميتهم في الاقليمين الدانوبين وفي النمسا معاً .

هذه هي نتيجة حركة الأفكار في جنوب ـ شرقي اوربة قبيل ١٨٤٨ لقد زالت فكرة التضامن الداخلي في الامبراطورية النمساوية تماماً . وعقدت روابط روحية غير سياسية خارجاً عن نطاق الدول الموجودة ، اما بين بعض أقاليم تاج القديس — ايتين وأقاليم النمسا الأصلية ، واما بين أقاليم الامبراطورية العثمانية وأقاليم امبراطورية النمسا . ومن عجب أن تطور الأفكار الحديثة قد استطاع أن يمحو العمل السياسي الذي أوجدته الأزمنة الحديثة ، ويبعث ، عوضاً عن الامبراطوريتين الكبريين، امبراطورية النمسا والامبراطورية العثمانية ، توزيعاً للدول شبيهاً بتوزيع القرن الخامس عشر ، حتى وكأن الاتجاه الحديث في هذه البلاد ينزع نحو محو ثلاثة قرون من التاريخ . ولكن يجب الا يظن بأن النتائج

السياسية لحركة القوميات في جنوب - شرقي أوربة قد شوهدت بعد : لأن كل شيء مازال على الصعيد الفكري ، ولا مجال للقول بأن وجود هذه القوميات التي وعت نفسها كان خاصاً بوجود امبراطورية تشملها في منظمة اتحادية . ومن المؤكد ان وجود هذه القوميات لم يعد يتلاءم مع شكل رد الفعل الذي اتخذته امبراطورية النمسا في عهد فرنسوا الأول وحكومة مترنيخ . ويبدو ، أن الادارة النمساوية القديمة ، التي كانت في السابق قوية وناجعة ، قد منيت بالعجز ؛ فقد بدت متهدمة ، وآخذة بالتفتت ، ويكفي ثورة ١٨٤٨ ان توبتها ربتة خفيفة على كتفها حتى تنهار ، وتنشأ ، عندئذ ، على الصعيد السياسي ، حركة القوميات التي رأينا تشكلها على الصعيد الفكري .

الثورة الالمانية . - يشاهد في الثورات الألمانية تشابك ثلاثة أحداث يؤثر بعضها في بعض ويجب تمييزها : الحركة السياسية الداخلية في مختلف الدول ، والحركة الاجتماعية العمالية ، التي تحاول أن تنظم نفسها ، وأخيراً الحركة القومية في سبيل الوحدة .

الحركة السياسية . - لقد استحكمت الأزمة الاقتصادية بعد الثورة وتفاقمت بها ، وانهارت هيئة (التسليف) كلها عقب أيام الثورة . وقد عبر عن هذه الأزمة ، كما رأينا في البدء ، بانتفاضات اجتماعية . وغذت الأزمة تشكل أحزاب ثورية ، متطرفة ، جمهورية ، واشتراكية اوضحت عن نفسها في برلمان فرنكفورت وفي اندية العمال في المدن الكبرى ، في برلين ، مثلاً ، تحت ادارة العامل **دورن** ، في **بريسلاو** ، في المنطقة الرينانية ، حيث يلاحظ تأثير الشيوعيين أعظم مما في غيرها ، وخاصة في كولونيا ، حيث أسست ، في أول حزيران « **جريدة الراين الجديدة** » وفي فرنكفورت .

وعبرت الأزمة عن نفسها أيضاً بحركات ثورية عديدة ، ومشادات ، في برلين في ١٥ حزيران ، وفي شفايدنيتز في ٣١ تموز . وقامت في المنطقة الرينانية في شهر ايلول ، حركة اضطراب واسع وخطير ظهر في ثورة فرنكفورت في ١٨ منه : واضطرت الجيوش البروسية أن توطد النظام ، ووقع مائتا ضحية . وقد رافق هذا الاضطراب غزو اللاجئين الذين أتوا من سويسرا ووضعوا أنفسهم تحت قيادة جمهوري الماني يدعى شتروف . وكان برنامجهم يتضمن تقسيم المانيا إلى ثلاث وعشرين جمهورية متحدة ونادوا بـ « الجمهورية الاجتماعية الألمانية » . وأخضعت الجيوش البادوية والفورتامبرجوازية جيش شتروف . وفي ٣١ تشرين الأول أيضاً نشبت ثورة جديدة في برلين ، واقيمت فيها المتاريس كما رفع العلم الأحمر . وفي نيسان ١٨٤٩ بدأت حركة اخطر أيضاً في بروسيا الرينانية ، وفي بداية أيار ، في ساكس ، وفي بالاتينا ، وفي دوقية باد الكبرى . وجرت في هذا الشهر أيضاً محاولة حقيقية لثورة جديدة مع تشكيل حكومة مؤقتة ودامت الحركة شهرين ونصف ، وقمعتها الجيوش البروسية بشدة . ولم يكن هذا الارتباط بين القضية العمالية والحركات الثورية حادثاً خاصاً بالمانيا ، بل كانت هذه حال فرنسا أيضاً . وفي ألمانيا ، كما في فرنسا ، كان للحركة الثورية نفس النتيجة وهي تشجيع رد الفعل المحافظ وتبريره .

تنظيم الطبقات . — وخارجاً عن هذا الشكل ، وهذا التعبير الثوري للحركة العمالية ، قامت ، في المانيا بخاصة ، محاولة تنظيم الطبقات ، وتمت هذه الحركة خارجاً عن الشيوعيين ، وكان برنامجها يهدف مع ذلك إلى تنظيم الطبقة العاملة . وانخرط الشيوعيون في الأصل ، خلال بعض الوقت ، في صفوف الثوريين . ومن الطبيعي أن تحويل الصناعة الألمانية في ذلك

العهد كان في بدايته ؛ وسينمو في السنوات التالية . وفي الواقع ، وجد ، في ذلك الحين ، عالم مزدوج للعمال ، وأخذ كل واحد منها ينظم نفسه ليدافع بعضهم ضد أرباب العمل ، والآخرون ضد النظام الاقتصادي الجديد الذي يحرجهم ، فمن جهة وجد الحرفيون ، ومن جهة أخرى وجد عمال المصانع . ووجدت محاولة التنظيم عند الفريقين معاً .

حركة الحرفيين . – أرسل المندوبون عن الأصناف العمالية في ساكس إلى رفقائهم في ليبزيغ ، في ٢٢ نيسان ١٨٤٨ ، نداءً للتجمع ضد المبدأ : « آت من فرنسا » أي مبدأ حرية المشروع . وانعقد مؤتمر تحضيري في هامبورغ ، من ٢ إلى ٦ حزيران ، يماثل ، في هذا المضمار ، المؤتمر التحضيري السياسي (الفور بارلمان) وكانت مهمته تسمية لجنة لتقوم بتحضير نظام لأصحاب الحرف . وهو النظام الذي طولب به في برلمان فرنكفورت ، وفي الوقت نفسه ، طالب بشجب مبدأ حرية المشروع . وعندما انتهى هذا العمل التحضيري ، انعقد في فرنكفورت « البرلمان الاجتماعي » ودام من ١٥ تموز إلى ١٥ آب وحرر « الميثاق الحرفي » وطالب فيه بتنظيم المهن على أساس الأصناف المهنية الاجبارية ، وتحديد عدد المعلمين والعمال ، وحذف المشاغل (الورشات) العامة ، وتدابير أخرى هدفها تعزيز التنظيم النقابي . وعرض البرلمان الاجتماعي هذا « الميثاق الحرفي » على برلمان فرنكفورت .

حركة عمال المصانع . – وفي الوقت نفسه نظم عمال المصانع أنفسهم : ففي ١٩ نيسان انعقدت « اللجنة المركزية للعمال » في برلين ، حيث تأسست جريدة للعمال تدعى « الجريدة الاجتماعية السياسية » ؛ ونظمت « برلمان العمال » الذي انعقد في برلين من ٢٣ آب إلى ٣ ايلول . وهيأ هذا البرلمان العمالي هيئة وبرنامجاً . وتتألف الهيئة من فرق بعضها فوق

بعض على درجات ، وعلى رأسها لجنة مركزية ومجلس سنوي ؛ ويتضمن البرنامج عدة مطاليب اجتماعية : يوم العمل عشر ساعات ، ضمان الاجور ، الغاء عمل الأولاد في المعـــامل ، التعليم الشعبي ، إعادة تنظيم المشاغل (الورشات) الخ وكما فعل الحرفيون ، عقد عمال المصـانع مؤتمراً في فرنكفورت ، في شهر آب وفي شهر ايلول ، ووجد في هـذا المؤتمر ، إلى جانب الألمان ، فينوازيون (من فينا) ، وهونغاريون ، وبوهيميون ، وغيرهم . وجهد فريق الحرفيين وفريق عمال المصانع ، أثناء دورة برلمان فرنكفورت ، في دفـــع المجلس على التصويت لصالح كل منهما على اصلاحات اجتماعية .

وهكذا نرى أن عالم العمال ، الذي وجد نفسه مبعداً عن التمثيل السياسي بسبب شروط التصويت وبسبب التركيب البورجوازي للمجلس ، قد وجد بنفسه شكلًا للتمثيل الخاص ، دون أن يتوصل ، في الواقع ، إلى نتائج جدية .

الثورات المحلية . وإلى جانب هذه الحركة العمالية قامت حركة الثورات المحلية ، والتحول الليبرالي في كل دولة المانية . ولم يتفق تطور الدول دوماً مع تطور القضية الاجتماعية . وإذا أردنا الوقوف على هـذه الثورة في مختلف الدول الألمانية ؛ فلا نخرج منها . غير أن الجدير بالملاحظة في مختلف برلمانات المانيا هو تشكل كل أنواع الأحزاب التي نجـدها في جميع مجالس العصر السياسية ، والنزاع العادي بين الأحزاب . ومع ذلك كان الانقسام السياسي في المانيا يتعقد أحياناً بأوضاع خاصة حيال القضية القومية ، وذلك لأن النعرات المحلية ما زالت ، في الواقع ،حية ونشيطة جداً في المانيا ، حتى ان الحكومات المحلية ، في الغالب كانت تلعب بهذه النعرات لتعارض تجاوزات حكومة فرنكفورت . وبصورة عامة ،

كانت مرتبطة بعناصر يمينية ، ولكن ليس دائماً ؛ وكان لها ، في أكثر الوقت ، جذور عميقة جداً في الجماهير الشعبية . كتب الدوق ارنست دوساكس - كوبورغ في مذكراته : « حقاً لقد كانت فكرة الوحدة أقوى في الدوائر الحكومية منها في كتلة الشعب الكبرى » . والمراد من الدوائر الحكومية هنا ، هو الجهاز السياسي . ولنذكر على سبيل المثال أن نعرة الشعب البروسي كانت بخاصة أكثر حذراً وخوفاً من نعرة الملك نفسه ، وقد وجد اليمين السياسي في هذه النقطة بالذات قوة عظيمة . وكان على معظم الحكومات أن تقبل بتقسيم السلطة مع المجالس ، ولم تستطع التخلص من رقابة الرأي وضغطه على الأقل قبل أن تظفر حكومة النمسا ، من جانبها ، على دولها وتقوي رد الفعل العام في المانيا .

الحركة الليبرالية في بروسيا . - وفي بروسيا ، وهي الدولة الكبرى والوحيدة التي يمكن أن نتكلم عنها ، كانت الليبرالية في البدء أنشط فيها وأطغى من أي بلد آخر في المانيا ، ولكن الحكومة اخمدتها وحذفتها بسرعة . إن المجلس التأسيسي البروسي ، الذي منحه الملك ، افتتح في برلين في ٢٢ أيار ؛ وكان يتألف بخاصة من أناس من الطبقة الوسطى ؛ وسرعان ما سيطرت عليه عناصر اليسار والوسط الأيسر ، وكان برنامجه يتضمن سيادة الشعب ومجلساً وحيداً ، وحكومة برلمانية . وانطلق هذا المجلس البروسي في مناقشات حادة سياسية ، بينما كانت لجانه الخاصة تحضر الدستور لعرضه على المجلس . وقد رافقت هذه المناقشات الحادة ، كما رأينا قبل قليل ، اضطرابات ثورية في الخارج ، وكانت نتيجتها ضعف الوزارات الليبرالية التي سميت عقب الثورة : من ذلك ان البرلمان حذف وزارتين متواليتين ، أو اضطرتا إلى مغادرة السلطة أمام معارضته . وعندما بدأت مناقشة الدستور ، اعتباراً من ١٢ تشرين الأول ١٨٤٨ ، أخذ المجلس

يصوت على قرارات مبدأ من شأنها تهديم نظام بروسيا التقليدي القديم ، وبخاصة الجيش ، وأراد تطهيره ، وحذف حق الملك الالـٓهي ، والغى ألقاب النبل ، وباختصار ، كسر كل ما كان يؤلف أساس بروسيا القديمة . ومن غير المفيد أن نقول انه أثار بذلك معارضة العناصر التقليدية اليمينية والملك نفسه .

رد الفعل الرجعي . – ومنذ شهر أيار بدأت تتشكل قوى اليمين وقوى رد الفعل الرجعية . وتتألف من نبـــلاء الأرياف الذين يعتمدون على الفلاحين وعلى المـدن الصغيرة . وكانوا ماهرين في تقليـد المنظمات الليبرالية وتشكيل جمعيات محلية ، والاعتماد على الأرياف بصراحة تاركين المدن . وكانت لهم جرائدهم ، وبخاصة « جريدة الصليب » وهي جريدة لوثرية . أرادوا ارجاع تقليد الدولة البروسية ، واستطاعوا أن يستولوا على الملك ، الذي أقام في بوتسـدام ولم يرجع إلى برلين إلا نادراً . وحصلوا منه ، في بادىء الأمر ، على تسمية الجنرال **فرانجل** قائداً أعلى للجيوش ، وكان يقود الجيوش في الدوقيـات الدانيماركية ، ثم حصلوا على تشكيل وزارة محافظة معتدلة يوجهها الجنرال **فون بفول** ، في ١٣ ايلول . ثم حل محل هذه الوزارة ، في ٢ تشرين الثاني ، وزارة يمينية بصراحـة ، يوجهها عم الملك ، الجنرال **فون براندبورغ** ، وهو رجل قوي الشكيمة . وكان من نتيجة الاضطرابات الاجتماعية أيضاً أن عطفت البورجوازية نحو صفوف اليمين : وهكذا ، بعد مشادة ٣١ تشرين الأول ١٨٤٨ ، نقل براندبورغ المجلس الوطني إلى مدينة براندبورغ ولما لم يشأ النواب ، أو على الأقل ، قسم منهم الخضوع إلى هـذا النقل ، فرقهم بقوة الجيش ، في ١٥ تشرين الثاني .

موقف الملك الرجعي . - ولما رأى الملك نفسه مدعوماً باليمين وبهذه الوزارة القوية قام بانقلاب ، في ٥ كانون الأول ١٨٤٨ ، وأعلن حل المجلس وأذاع دستوراً منحه بنفسه ، وكان هذا الدستور تقليداً للدستور البلجيكي الذي كان ، في ذلك الحين ، أكثر الدساتير الملكية حرية في اوربة . ويعترف هذا الدستور للبروسيين بكل الحريات السياسية العادية : حرية الصحافة ، العبادة ، الاجتماع ، الخ . ويقر التصويت العام ، ويخول البرلمان مبادهة القوانين ، وينظمه بمجلسين : المجلس الأعلى ويتألف ثلثه من أعضاء يسميهم الملك ، والثلثان الآخران يسميان بالتصويت العام الضريبي . والسلطة الملكية مطبوعة بأصل الدستور نفسه الذي كان في جوهره ملكياً وغير صادر عن الشعب ، وبحق الرفض الذي خص الملك نفسه به ، باعتبار أنه يستطيع اصدار براءات أثناء العطل البرلمانية ، وأخيراً بالمبدأ الذي أعلن فيه عن دوام الضريبة ، الذي يبعد ، بالتالي ، موارد الدولة عن التقلبات البرلمانية .

وكان دستور ٥ كانون الأول حلا مقبولاً .. فقد خول البروسيين قطعاً جميع الحريات التي طالبوا بها في البدء . وفي الواقع ، قبلت المعارضة الليبرالية هذا الدستور ، بالرغم من أصله الملكي ، لأنها لم تحتج مطلقاً على تطبيقه واشتركت بالانتخابات . وقد جرت الانتخابات بهدوء ، في كانون الثاني ١٨٤٩ . واستطاعت الحكومة بمهارة أن تجرد المعارضة الراديكالية من سلاحها ، وأن تنهي قرارات الاصلاحات الاجتماعية في وستفاليا وسيليزيا ، وأسفر الانتخاب عن ١٨٤ محافظاً مقابل ١٦٠ معارضاً ليبرالياً . أما ثلثا المجلس الأعلى اللذان يجب تسميتها بالانتخاب ، فكانا يتألفان من موظفين وأصحاب أطيان مصممين على الدفاع عن مصالح الزراعة وكبار الملاكين . وهكذا انقلب الاتجاه السياسي في البرلمان

البروسي . وهذا ما أعطاه طابعه في التباين الذي أبدته حكمة العالم السياسي البروسي مع الثورات الديموقراطية التي ظفرت ، في الوقت نفسه ، في ايطاليا وهونغاريا ، ومع النكسة الثورية التي وقعت في فينا ، ومع تجربة الثورة الديموقراطية والاجتماعيه في المانيا الغربية . أما بروسيا ، على العكس ، فقد اتجهت نحو حلول معتدلة ومحافظة .

ولكن الملك تشجع أيضاً في موقفه الرجعي ، موقف رد الفعل . وفي الواقع ، كان فريديريك - غليوم الرابع متأثراً بعقائديته الخاصة ، ومحيطه ، وهو بطانة الضباط النبلاء والاقطاعيين ، ومن الوضع السياسي الذي اتخذه ، ووضعه اليميني وقناعته وفلسفته السياسية ، وهذا ما ذهب به إلى تجنب الفرصة التي أتيحت له ، في شهر آذار ١٨٤٩ ، وهي لبس التاج الامبراطوري الذي قدمه اليه برلمان فرنكفورت ، وأيضاً إلى التسبب بانهيار الحل القومي ، وافادة النمسا دون أن يريد

لقد بدا ملك بروسيا وسيلة تستطيع ، في الواقع ، تخليص المانيا من الثورة الاجتماعية . وقد تبرر موقفه عندما بين أن الراديكالية خطر ، لأن هذه الراديكالية سببت ثورات خطيرة في المانيا الغربية ؛ وهذا ما شجعه على اتخاذ تأمينات ضد يقظة الرأي الليبرالي في بروسيا . وفي الوقت الذي كانت الثورة الاجتماعية تتوطد فيه على الراين ، في شهر أيار ١٨٤٩ ، اتخذ تأمينات جديدة ضد شعبه ؛ فمن ذلك أن القرار ٢٧ نيسان يصحح التصويت العام باقامة نظام الطبقات الثلاث . وبموجبه وزع الناخبون إلى ثلاث فئات تدفع جملةً رقماً متساوياً من الضرائب وبشكل يكون فيه في الطبقة الاولى ، حيث يصطف كبار المكلفين ، أقل عدد ممكن من الناخبين ؛ وفي الطبقة الثانية ، عدد من الناخبين أكثر مما في الاولى ، ولكنه أعلى بقليل مما في الثالثة ؛ وأخيراً في الثالثة ، كل

صغار المكلفين من كتلة الناخبين . وكل فئة من هذه الفئات الثلاث تسمي عدداً واحداً من النواب ؛ وهكذا كان هذا الترتيب العائق يحافظ على التصويت العام وفي الوقت نفسه يشجع العناصر الغنية في الشعب .

وانعقد المجلس الثالث ، الذي انتخب بالتصويت العام المصحح ، في ٦ آب ١٨٤٩ . وكانت الأكثرية فيه محافظة ولينة وتساعد الملك في الواقع على ممارسة الحكم الذي يريده ويرتأيه . وقد أفاد من ذلك ليصحح بنفسه دستوره الخاص ، وليقرر بعث « الماجورات » أو بتعبير آخر إعادة صنع نوع من اقطاعية ، ليختص بحق التشريع ببراءة ملكية ، عندما تقتضي الضرورة ، وليمنع البرلمان من رفض الضريبة ، وأخيراً ليحول المجلس الأعلى إلى مجلس وراثي . وقد وافق المجلس على هذه التغييرات في آخر ١٨٤٩ ، ونشرت على اعتبار أنها نوع من دستور جديد ، في شهر كانون الثاني ١٨٥٠ .

إن القوة التي وجدها الملك في تنظيمه الداخلي حثه على أن يحاول حل القضية القومية لصالحه ، بواسطة الأمراء ، دون البرلمان ، وهذه المحاولة هي محاولة « الاتحاد الضيق » ، التي كانت موجهة برضى الدستوريين الألمان ودستوريي بروسيا ، ولكن ، بالعكس ، بمعارضة أحزاب اليمين ، وستخفق هذه المحاولة كما سنرى ذلك . وهكذا أصبحت بروسيا ، بواقع الثورة ، دولة دستورية ، ولكنها أنكرت الديموقراطية ، النظام البرلماني ، وولدت نوعاً من نظام هجين ، متوسط بين سلطه الملك الشخصية والتمثيل الوطني .

محاولة الوحدة . — أما الحركة الثالثة ، التنظيم القومي لألمانيا بواسطة برلمان فرنكفورت ، فهي بحاجة إلى دراسة كاملة ، وسنقوم بها فيما بعد .

وكل ما نريده الآن هو أن نضع الأحداث الكبرى لهذا التطور القومي في توقيت الثورة .

لا شك في أن تشكل الوحدة الألمانية مر ببضع مراحل كبرى تجدر ملاحظتها . فقد انعقد البرلمان في ١٧ أيار : وأفاد في البادىء من اقليم ملائم استثنائي . وقد اذهلت الثورة الحكومات وما من أحد ينازع سلطات برلمان فرنكفورت . وكانت حركة الرأي ، لصالح الفكرة القومية في صيف ١٨٤٨ ، قوية جداً في المانيا . وفي الوقت نفسه ، شلت الثورات الداخلية الحكومة النمساوية والحكومة البروسية . وكان بامكان برلمان فرنكفورت ان يحقق الوحدة الألمانية لو اشتغل بسرعة وافاد من الظروف الملائمة الا ان البرلمان لم يستطع الا في ٢٠ حزيران تسمية نائب الامبراطور ، أي رئيس حكومة كل المانيا ، ولم تنظم الوزارة الا في آخر تموز . وعوضاً عن ان يعمل برلمان فرنكفورت بسرعة على على تشكيل الوحدة الألمانية ، ضاع في مشاريع لاتتناسب مع قواه ، امّا خارجية في سياسة نسميها جامعة جرمانية ، واما داخلية ، في عادة تشريع آلت الى ابعاد الحكومات الداخلية في المانيا عنه .

ولم يستطع البرلمان الا في ١٩ تشرين الأول ١٨٤٨ النقاش في الدستور الذي يجب اعطاؤه لألمانيا ، أي بعد خمسة أشهر على انعقاده ، في الجلسة المائة من جلساته . وبدأ بمناقشة الحقوق الأساسية التي انتهت واذيعت في ٢٨ كانون الأول ١٨٤٨ . وفي كانون الثاني ١٨٤٩ كان عليه ان يواجه تنظيم السلطات ، هذه القضية الخطيرة ، لأن كل شيء يتعلق بتنظيم الحكومة المركزية وتعريف المانيا التي يراد صنعها ، سواء من الوجهة الأرضية ، أم من الوجهة السياسية . يضاف الى ذلك ان الدور ، الذي ناقش فيه برلمان فرنكفورت الدستور الألماني وحاول فيه تنظيم المانيا ،

كان بالضبط الدور الذي تماسكت فيه بروسيا والنمسا واستعادتا سلطتهما الداخلية وحذفتا ثوراتهما الخاصة .

كانت أزمة البرلمان الكبرى ، وبالتالي ، ازمة الوحدة الألمانية ، في شهري آذار — نيسان ١٨٤٩ ، عندما اراد البرلمان تقديم تاج الامبراطور الى فريد يريك — غليوم الرابع . ولكن فريد يريك — غليوم الرابع في هذا الوقت نظم دوله نهائياً ، وكانت فيه النمسا مشلولة خلال بضعة أشهر ، بسبب الثورة الهونغارية ؛ وان رفض التاج الامبراطوري ، في آخر نيسان ، من قبل ملك بروسيا ، يعني في الواقع ، موت برلمان فرنكفورت . وابتداءً من رفض ملك بروسيا للتاج ، لم يكن عمل البرلمان سوى اطالة حياة في حالة نزاع ، وستنتهي أخيراً ببعثرته ، في شتوتغارت ، في ١٨ حزيران ١٨٤٩ . وفي الحقيقة لم يكن لبرلمان فرنكفورت سوى قوة معنوية ، لأن السلطة التنفيذية ظلت في يد مختلف الحكومات . وكان يتوجب عليه بسرعة ، في الأيام الاولى من الثورة ، تنظيم المانيا وتشكيل حكومة قوية ، غير ان الثورة في هذا البرلمان كما في مجموع المانيا ، كانت فرصة لبعث انواع من المنافع والمفاهيم المختلفة المتناحرة . وكان هؤلاء السياسيون الألمان مفكرين وغير أهل للعمل . ولذا افسد برلمان فرنكفورت بنفسه قضيته وخسر الصفقة القومية .

اما المحاولة البروسية في الاتحاد الضيق الذي تابعته في ١٨٤٩ ، وفي بداية ١٨٥٠ ، فبالرغم من ان قسماً من القوميين الالمان دعموها ، فلم يكن لها في الحقيقة الا قيمة مكيدة ، ولم تنجح الا جزئياً ومؤقتاً ، لأن النمسا لم تتخلص بعد من الثورة الهونغارية ولم تكن قوية بصورة كافية لتملي من جديد قانونها على المانيا . وهكذا أفلست في المانيا الفكرة القومية في نطاق اكبر بكثير من النطاق الذي أفلست فيه الفكرة الليبرالية .

٥ — فرنسا والثورة الاوربية

في هذه اللوحة التي أتينا فيها على مجموع ثورة ١٨٤٨ ، نرى عدم ظهور السياسة الفرنسية . وقد يبدو ذلك غريباً ، لأن السياسة الفرنسية أمام ثورة ١٨٤٨ ، كانت قضية موضوعة وهي ان أصل الثورة كان في الأفكار الفرنسية ، وان فرصة هذه الثورة كانت ثورة فرنسية ، ومن الممكن القول ان قضية السلام الأوربي تعتمد على الموقف الذي تتخذه فرنسا حيال الثورات الأوربية . ولقد وضعت هذه القضية من قبل في ١٨٣٠ ، والأحرى ان توضع في ١٨٤٨ ، عندما انفجرت الثورة في كل مكان وأصبحت أعمق مما كانت عليه في ١٨٣٠ ، حيث ظلت قاصرة على بعض الدول . ففي ١٨٣٠ حقق موقف فرنسا استقلال بلجيكا واغريقية ، ويبدو بالتالي أساسياً بالنسبة للسياسة الفرنسية ان تختار موقفها في اوربه في ١٨٤٨ ، فضلاً عن ان المعارضة الجمهورية كلها ومعارضة اليسار قد أخذتا على لوي - فيليب انه لم يعرف كيف يتزعم الحركة الليبرالية في اوربة ، وان الرجال السياسيين في هذه المعارضة بالضبط هم الذين أخذوا على لوي-فيليب هذا الخجل ، وهم الذين صعدوا الى السلطة بفضل ثورة ٢٤ شباط ١٨٤٨ .

مبادىء السياسة الفرنسية . — يوجد اذن في فرنسا ، غداة الثورة ، دفع عام نحو سياسة ثورة اوربية ، إن في الأوساط الحكومية ، أو في خارجها : وقد تفوقت الصوفية الثورية ، مثلاً ، عند **لودرو رولن** و**لوي بلان** عضوي الحكومة ، وعند **كوسيدير** ، صاحب الشرطة او عند رجل مثل **باربس** ، **بلانكي** ، **راسپاي** . وكان هذا العالم كله يبشر بكفاح الشعوب ضد الملوك ، و بـ « اخاء الشعوب » . وكانت جميع الاندية تطالب فرنسا بأن تتزعم الثورة الأوربية . وقد كتبت جريدة

« القومي »، وهي أكثر الجرائد نفوذاً ، في ٢١ آذار معبرة عن أملها بتحقيق قريب للجمهورية الأوربية : « لقد مضى زمن الملوك وحان زمن الديموقراطيات » ؛ « وجريدة المناقشات » التي كانت بورجوازية ومحافظة ، شايعت ، هي ايضاً ، في ٢٨ آذار ، فكرة الثورة الأوربية . وكان جميع الزعماء السياسيين في ١٨٤٨ مقتنعين بضرورة دور فرنسا العام ، ويعبرون عن ذلك ، وبسذاجة أحياناً ، في الأسباب الموجبة ، في حيثيات قراراتهم : من ذلك ان القرار المؤرخ في ٢٥ شباط ، الذي يلغي عقوبة الموت لأسباب سياسية ، قد سبق بتصريح مبدأ . « ان كل ثورة يقوم بها الشعب الفرنسي تؤدي للعالم تكريس حقيقة فلسفية ايضاً » . وفي القرار ٨ نيسان الذي يعترف ، في فرنسا ، للعمال الأجانب بحقوق مماثلة لحقوق العمال الفرنسيين ، نقرأ هذا : « بالنظر الى ان المبدأ الذي دشنته الثورة الظافرة هو مبدأ الاخاء ، فقد كافحنا وغلبنا باسم الانسانية كلها ولحسابها » . وانخرط فرنسيون في مختلف الجوقات الأجنبية في اوربة ، وبخاصة في جوقة هورفيغ الألمانية .

والى جانب هذه العقيدة وهذا الكفاح للأحزاب الحكومية الفرنسية ، نرى ، في الاتجاه نفسه ، ضغط اللاجئين السياسيين الذين اخذوا يؤلفون مباشرة ، غداة الثورة ، نوادي . مثل نادي المهاجرين الايطاليين » ، «نادي الهجرة البولونية » ، « جمعية غروتلي السويسرية » ، « الجمعية الديموقراطية الألمانية في باريس » ، وكانت اعظم الجمعيات ، وقد انتهت رسالتها في ٦ آذار بهذا الصوت : « لتحيى الجمهورية الأوربية » . وأمام التظاهرة التي قاموا بها أمام كريميو وزير العدل ، أجاب « بأن جميع الأمم شقيقات » . ونظم هؤلاء اللاجئون ، لدى الحكومة ، عرائض ، ومظاهرات ،

ومواكب ، واستقبلت الحكومة بالتوالي : البولونيين ، الايرلنديين ، الايطاليين ، الهونغاريين وحتى النورفيجيين . واستقبلهم لامارتين ، عضو الحكومة المؤقتة ووزير الشؤون الخارجية عام ١٨٤٨ ، وهدأ من روعهم في خطاباته ، دون تعهد واضح . وفي الوقت نفسه بذل هؤلاء اللاجئون جهداً للعمل في بلادهم الخاصة ، مستفيدين من الحرية التي تركها النظام الفرنسي لهم .

وهكذا اتبعت ثورة ٢٤ شباط بانفجار روح ١٧٩٢ - ١٧٩٣ الذي أصبح قريب التحقيق .

كان لامارتين في الحكومة المؤقتة ، مكلفاً بخاصة بالشؤون الخارجية . وكان موقفه في عهد ملكية تموز مسالماً صراحة : ففي العام ١٨٤٠ ، كان وحده يطالب بالسلام اثناء التحريض على الحرب ، ويعارض الأشعار الوطنية « بارسييزالسلام » ، ومع ايمانه بالسلام كان يعطف على قضية الشعوب وحقوق الشعوب ، حتى انه هاجم قبيل الثورة ، من وجهة النظر هذه ، سياسة غيزو الخارجية في خطاب مؤرخ في ٢٨ تشرين الأول ١٨٤٧ لصالح ايطاليا او في مناقشة الرسالة الموجهة الى الملك ، في ٢٥ كانون الثاني ١٨٤٨ . ثم اتخذ لامارتين ، في الحال ، باسم الحكومة الفرنسية موقفاً واضحاً جداً ، في المبادىء وفي الوقائع . وأعلم السفراء ، في ٢٧ شباط ، تسلم الحكومة الجديدة السلطة ببلاغ قال فيه : « ان الشكل الجمهوري للحكومة الجديدة لايغير مكانة فرنسا في اوروبة ، ولا استعداداتها الصادقة والمخلصة في ابقاء علاقاتها في انسجام طيب مع الدول التي تريد ، مثلها ، استقلال الأمم وسلام العالم . ومن دواعي سعادتي أن أبادر بجميع الوسائل التي هي في سلطتي ، الى اتفاق الشعوب على كرامتها المتبادلة ، وان

أذكر اوربة بأن مبدأ السلام ومبدأ الحرية قد ولدا في يوم واحد في فرنسا ». وبعد بضعة أيام، ألقى ببلاغ الى سفراء فرنسا في الخارج، في ٤ آذار، ونشر في ٥ منه، بياناً عرض فيه السياسة الخارجية للجمهورية، وكان هذا البيان يطالب عالياً بحقوق الحكومة الجديدة، دون ان تكون هذه الحقوق بحاجة الى اعتراف الدول الأخرى بها: « ان فرنسا جمهورية، وان الجمهورية الفرنسية ليست بحاجة الى الاعتراف بها لتكون موجودة، انها من حق طبيعي، انها من حق قومي، انها ارادة شعب عظيم لايطلب لقبه الا من نفسه ». وهكذا رمح بمبدأ الحق العام القديم وهو ان الحكومة لاتكون شرعية الا اذا اعترفت بها الدول الأخرى كافة.

لقد جعل لامارتين السلام هدف سياسة الحكومة الجديدة وقدم الجمهورية دولة منظمة، لا حادثاً مخلًا بالنظام الاوربي. ولذا فان الجمهورية الفرنسية لاتعارض مبدئياً الأنظمة الاخرى. وقد قال: « ليست الجمهورية والملكية مبادىء مطلقة وخاصة، بل هما واقعان يختلفان ويمكن ان يعيشا وجهاً لوجه متفاهمين محترمين ». ان فرنسا لاتفكر اذن بتهديم الشكل السياسي للحكومات الاخرى. وان حاجات الشعب الفرنسي، الشعب الذي صنع الثورة، هي العمل، التعليم، الرخاء، الحضارة بكلمة واحدة. وقال لامارتين: « الشعب والسلام كلمة واحدة، و لن تحارب فرنسا أحداً ».

ولكن فرنسا كانت أمام أوربة المبنية على مبادىء تغاير مبادئها. فكيف يجب أن يكون سلوكها؟ ان « معاهدات ١٨١٥ » لاتوجد حقاً في نظر الجمهورية الفرنسية. وهذا يعني انكار الأثر الذي خلقه مؤتمر فينا؛ ولكن لامارتين يضيف: « ومع ذلك، فان التقسيمات الأرضية لهذه المعاهدات واقع تقبله الجمهورية كأساس وكنقطة انطلاق في علاقاتها مع الأمم الأخرى. ». ويعتبر، مع ذلك، ان هذا النظام غير قطعي:

انه واقع يمكن تغييره باتفـــاق مشترك . وان فرنسا لن تقبل بنفسها اوربة ، بل تقبلها كما هي ، واذا توجب حدوث تغييرات ، فلن يتم ذلك الا باتفاقات دبلوماسية .

وإذا قبلت فرنسا باوربة كما هي فيوجد بعض نقاط تجـد مصلحتها بخاصة محشورة فيها ، وعند مقتضى الحال ، تستطيع أن تخرج من سياسة السلام . ومن الطبيعي أن تحارب في الحالة التي تهددها الدول الأخرى . وأشار لامارتين إلى بعض نقاط خاصة : سويسرا ، دول إيطاليا المستقلة . وبين ان فرنسا ستذهب للدفاع عنها في حالة غزو أو اذا « توزعت بقوة السلاح على حقها بالتحالف فيما بينها لتقوية الوطن الايطالي » ؛ وفي هذه الحالة « تعتقـد الجمهورية ان من حقها أن تسلح نفسها لحماية الحركات الشرعية في نمو الشعوب وقوميتها » .

وفي هذا البيان الذي اتينا على تحليله يوجد قسمان ، مبدآن : من جهة ، مبادىء الحق العام الجديد المعتمد على حرية الشعوب : « إن فرنسا تعلن انها حليفة فكرية ومعنوية للأمم التي تريد أن تعيش بنفس المبدأ الذي تعيش به فرنسا» . ومن جهة اخرى ، إلى جانب التصريح بهذا المبدأ ، وجد برنامج عملي : وهو أن سياسة الجمهورية هي سياسة سلام ومؤسسة على مبدأ عدم التدخل ؛ وتعين مع ذلك المناطق الأكثر حساسية للمصلحة الفرنسية والتي تستطيـع أن تعمل بها . ونرى في هذه النقطة أن الموقف الذي اتخذه لامارتين لا يختلف تماماً عن موقف لوي ـ فيليب غـــداة ثورة ١٨٣٠ .

يضاف إلى ذلك ان الظروف الدبلوماسية لا تختلف تماماً عن الظروف التي لاقتها في تموز ١٨٣٠ : كما في ١٨٣٠ ، حاولت الحكومات الأوربية

أن تعقد تآلباً ، ولكنه ما لبث أن زال بسرعة . غير أن الشيء الذي يلفت النظر هو أن لامارتين لا يفهم أسس السياسة الفرنسية بشكل يختلف تماماً عن الشكل الذي يفهمها به غيزو : ان سياسة لامارتين في السلام تفترض ، كسياسة غيزو ، تعاوناً مع انكلترا ؛ وان أساس السلام الاوربي هو ، بالنسبة للامارتين ، « التفاهم الودي » . وقد أكد ذلك منذ البدء إلى السفير ، **اللورد نورماني** ، وكانت بينهما صلات مجاملة . وفي ٨ أيار ، قال إلى السفير اثناء المحادثة : « اذا كانت انكلترا تعبر بسرعة ، وبشكل يمكن أن يكون عاماً ، عن عواطفها التي تنطق بها اليوم ، فسننقذ هنا جميعاً ونطرح أسس حلف دائم وفريد بين أمتين يجب أن تكونا دوماً صديقتين » . ولم تكن هذه الفكرة فكرة لامارتين وحده ، بل كان يشاركه فيها الأمين العام لوزارة الشؤون الخارجية ، باستيد ، الذي خلفه وزيراً للشؤون الخارجية أثناء تشكيل اللجنة التنفيذية عوضاً عن الحكومة المؤقتة ؛ وقد كتب ، في ٢٤ آب ١٨٤٨ ، إلى السفير الفرنسي في انكلترا ، **بومون** : « إن الدولتين الاوليين اللتين ستتحدان وستصرحان عالياً بأن الهدف الوحيد لتحالفهما هو المحافظة على السلام الضروري للجميع ، ستصنعان قانون أوربه ، وستخدمانها خدمة واسعة . فلتشأ انكلترا ذلك مثلنا ، والنجاح مؤمن » . وأجابت الحكومة الفرنسية الايرلنديين ، الذين جاؤوا يطلبون مساندتها ، في ٣ نيسان ، جواباً مثبطاً لهم ، وصرحت بأنها لن تتدخل ، بأي حال من الأحوال ، في شؤون انكلترا الداخلية . وفي الواقع ، حاول لامارتين ، ومن بعده باستيد ، ان تشترك سياسة فرنسا مع سياسة انكلترا ، اما لانهما يحاولان الحصول على مساندة انكلترا لسياسة فرنسا ، واما لوضع هذه السياسة في دعم سياسة ما وراء المانش : في قضية الدوقيتين الدانياركيتين وقضية

ايطاليا الشمالية ، وقضية صقلية ، وقضية الامارتين الدانوبيتين . ومع ذلك فقد حافظت الحكومة الفرنسية على شيء من حرية العمل ، وعلى حق العمل الشخصي ، وظهر اثر ذلك عند الحاجة : فلم تخش أن تتخذ ، في اغريقية ، موقفاً مستقلاً عن السياسة الانكليزية داعمة الاغريق ضد بالمرستون ؛ وكذلك ، في اسبانيا ، في حزيران ١٨٤٨ ، مثلاً عندما خافت الحكومة الاسبانية من الضجة التي مرت بأن انكلترا قد تقوم بعمل ممكن في الآنتيل أو في جزر الباليئار ، فاجاب لامارتين السفير بأن فرنسا لن تبقى لا مبالية اذا وقع مشروع انكليزي ، وبخاصة ضد الباليئار ، وستساعد اسبانيا في الحفاظ على حقوقها .

هذه هي مبادىء السياسة الفرنسية كما عرفها لامارتين وباستيد . وفضل هذه السياسة هو انها أمنت السلام في اوربة ، لأن فرنسا مذ عدلت عن تبني سياسة التوسع في أوربة ، لم يعد السلام في خطر ؛ وحيثما وجدت حروب محلية في اوربة ، كانت الحكومة الفرنسية تسعى لتهدئتها .

سياسة التدخل الفرنسية . - وفي اطار هذه السياسة التي عرفناها وجدت منطقتان قامت فرنسا فيها بمحاولات تدخل خجلى وغير ملحة ، ولكنها كانت تتوقف مباشرة عندما يظهر خطر أي تعقيد ، كما جرى في بولونيا وفي ايطاليا .

التدخل في بولونيا . - لم يذكر لامارتين بولونيا ، في بيان ٥ آذار ، كمنطقة من المناطق التي تنوي السياسة الفرنسية ان تعمل فيها ، لأنه يرى ان هذا بديهي ويعتبر القضية البولونية قضية فرنسية . وفي ١٩ آذار أجاب في هذا المعنى وفداً من بولونيا ، وترك أعضاءه يؤملون بمساندة فرنسا، مع الدلالة على أن فرنسا تحتفظ بالعمل في الساعة التي تراها ، وفي الشكل الذي تتطلبه مصلحتها . ولم يعمل لامارتين شيئاً لصالح بولونيا النمساوية

وبولونيا الروسية . ولكنه سيعمل من أجل بولونيا البروسية فقط . وبالاجمال وقف على صعيد المبادىء . وفي بداية آذار ، أرسل بلاغاً إلى العمال الفرنسيين لدى البلاطات الثلاثة : البروسي والنمساوي والروسي صرح فيه : « ان الشرط الأول للسلام هو بعث بولونيا » . ودون تعمير بولونيا « يبقى كل شيء قلقاً ، وخاطئاً ، وكريهاً ، ومزروعاً بالعقبات والحروب والفخاخ » . ولم يقبل ، لحل القضية البولونية ، الا بتسوية سلمية ، بالطريق الدبلوماسي . وفي التعليمات التي أرسلها إلى القائم بالأعمال الفرنسي في فرنكفورت ، **دوساليناك - فينيلون** ، في ١٥ آذار ، اكد ارادة فرنسا في السلام في القضية البولونية . وأضاف في ١٩ آذار بأن فرنسا « لن تسمح بأي عمل عدوان وعنف ضد الدول الجرمانية » ويعتبر بأن لاسلام حقيقياً في أوربه ما لم تعمر بولونيا ؛ ولكنه لا يقبل أيضاً بتسوية ثورية للقضية البولونية ، ولا يرى الا حلًا واحداً بطريق العلاقات الدبلوماسية ، الحل السلمي .

وعندما قامت الثورة في بولونيا ابدت بروسيا ، في الاصل ، ارادة طيبة ، وافاد لامارتين من هذه النقطة وحاول العمل . وتشكلت لجان بولونية في برلين وفي المدن الألمانية الهامة . واطلقت الحكومة البروسية سراح **ميير** و **سلاوسكي** واستقبل استقبال الظافرين في برلين في ٢٠ آذار . وكان جميع المفكرين الألمان لصالح بولونيا ، وصرح البرلمان التحضيري (الفور بارلمان) بأن تقسيم بولونيا ظلم يجب اصلاحه . وحاول لامارتين أن يفيد من هذه الاستعدادات الطيبة للحصول على فوائد للبولونيين في القسم البروسي ، على الأقل ، وأرسل إلى برلين **آدولف دوسيركور** واتصل هذا بوزير الشؤون الخارجية ، **فون آرنيم** ، فصرح له بأن القضية البولونية مبدأ عادل ، وانها مبدأ الحكومة البروسية ؛ حتى ان فون

ارنيم تصور ترتيباً سياسياً عظيما ، حلفاً فرنسياً - بروسياً يمكن أن يحارب روسيا ، ومن هذه الحرب يخرج في آن واحد استقلال بولونيا والوحدة الألمانية . ورفضت الحكومة الفرنسية هذا العرض ، ولكنها دفعت بروسيا في سياسة العطف على البولونيين . وفي بداية نيسان ، أرسلت الحكومة البروسية حاكماً لدوقية بوزن ، الجنرال **فيلليزن** ، وكان في صالح البولونيين وتفاهم مع زعمائهم على تشكيل فرق مغيرين وسمح لهذه الفرق ، في ٩ نيسان ،باتخاذ الشعار القومي .

ويبدو أن القضية بدأت بالتنفيذ ، ولكن الشحناء القومية ظهرت من جديد بسرعة بين البولونيين والالمان . فقد قامت اللجان البولونية في المدن الألمانية بنشر بيانات كشف فيها عن استعباد الحكومة البروسيه البولونيين في **بوسنانيا** . وللجواب على هذه اللجان البولونية تشكلت لجان المانية في هذه المنطقة ؛ وفي ٥ نيسان طالبت دانتزيغ بادخالها في الكونفدراسيون الجرماني . وكان حاكم مدينة بوزن ، الجنرال **كولومب** ، يكره البولونيين وتفاهم مباشرة مع الدوائر الرجعية في برلين ومع الملك ، من فوق رأس الحاكم فيلليزن . وفي ٢٦ نيسان ، اتخذ فريديريك - غليوم الرابع قراراً ، بحجة تعمير بولونيا ، فصل فيه الدوائر الألمانية عن دوقية بوزن لادخالها في باقي المملكة ؛ وصنع مما تبقى « دوقية بولونية كبرى » وجعل عاصمتها **غنيزن** وكانت تضم ٣٠٠,٠٠٠ نسمة . ومنح هذه الدوقية البولونية الكبرى الاستقلال الذاتي ، والحق في ان تكون لها مدارسها وموظفوها ، وعلمها ؛ ولكن اعادة بولونيا بـ ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ضلال مبين . ومع دلك ، لم تطبق هذه البراءة الملكية . فقد استدعي الجنرال فلليزن إلى برلين وأرسل مكانه الجنرال فون **بفول** مفوضاً بصلاحيات واسعة . وفي بداية أيار وطد هـــذا الجنرال السلطة البروسية تماماً .

وستدخل بوسنانيا بكاملها ، في الآجل القريب ،في الكونفدراسيون الجرماني .

وعلى هذا لم تؤد نصائح لامارتين إلى شيء ، فضلاً عن أن سير كور لم يخدمه إلا قليلاً لأنه لا يحب البولونيين وامرأته روسية . وكانت ثورة ١٨٤٨ ، في الواقع ، فرصة جديدة لجرمنة بولونيا ، وفرصة لتقدم جديد للجرمانية في بولونيا ، لأن بوسنانيا دخلت قطعاً في الكونفدراسيون الجرماني . وحاول لامارتين ، بعد أن اوقف ميروسلاوسكي من جديد ، ان يحصل على اطلاق سراحه وارساله إلى فرنسا وفي ٩ حزيران ، احتج باستيد على لسان **ايمانوئيل آراغو** ضد ما أسماه « تقسيم بولونيا الرابع » أي دمج الدوائر الألمانية دوقية بوزن في جسم الكونفدراسيون الجرماني. و تقدم بهذا الاحتجاج ، وهذا يلفت النظر ، باسم معاهدة فينا ، التي جعلت من بولونيا موضوعاً لقرار متخذ من كافة الدول الأوربية . و دام النقاش في هذه النقطة بين الحكومة الفرنسية والحكومة البروسية عدة أشهر : تقدم باستيد بشكواه ضد القومية الألمانية ، ولكنه ظل حذراً في احتجاجاته ، خشية أن يثير تهديدات روسيا . وفي ٢٣ تشرين الأول ، صوت المجلس البروسي ، الذي كانت تحركه أفكار اليسار ، على قرار يمنح البوسنانيين ضمانات لحقوقهم . وبدا عندئذ أن كان للبولونيين ضمان لحرياتهم الداخلية ؛ ولكن البراءة المحت ، بعد الانقلاب الملكي ، ودخلت بوسنانيا بكاملها في الكونفدراسيون الجرماني . وهكذا ظلت الارادة الفرنسية الطيبة ، كما رأينا ، في حدود حذرة جداً ، وافلاطونية صرفاً .

التدخل الفرنسي في ايطاليا . ـ لقد جعل لامارتين لايطاليا مكاناً خاصاً في بيانه . وكانت ايطاليا قضية عزيزة على قلوب الفرنسيين ، وخاصة على قلب لامارتين : فقد أجاب وفد اللاجئين الإيطاليين في

باريس ، في ٢٧ آذار : « إن قضيتكم قضيتنا وليعت فرنسا وإيطاليا إلا إسماً واحداً في عواطفنا المشتركة لتجديد ايطاليا الليبرالي ، اذهبوا وقولوا لها بأن لها ابناء ايضاً في هذه الجهة من جبال الألب ، اذهبوا وقولوا لها ، بانها اذا هوجمت على ترابها أو في روحها ، في حدودها ، أو في حرياتها ، ولم تكف سواعدكم للدفاع عنها ، فلن نقدم اليها الأماني فحسب ، بل اننا نقدم اليها سيف فرنسا ليصونها من كل غزو » . وعندما أعلن الملك شارل ـ البير الحرب على النمسا ، طلب لامارتين من الحكومة أن تقرر، في ٢٩ آذار ، تشكيل « جيش الألب » من ٦٠٠٠٠ رجل وجعله على أتم الاستعداد ، في شهر نيسان ، لنجدة ايطاليا .

ولكن البيمونت أبعدت هذه النجدة الفرنسية ، كما ردت الهجوم المفاجىء الذي قام به اللاجئون الايطاليون على شامبيري من ٣٠ آذار إلى ٤ نيسان . لقد كانت البيمونت تكره الجمهورية والأفكار الجمهورية ، واندفعت بتأثير انكلترا التي كانت تخشى أن ترى فرنسا والنفوذ الفرنسي يعظمان في ايطاليا الشمالية . وأخيراً كان الايطاليون مقتنعين بتفوق قواهم على قوى النمساويين ، ولم تقبل كبرياؤهم بالنجدة . وفي ١٠ آذار سجل شارل ـ آلبير « بسرور عظيم تعاليم الحكومة الفرنسية السلمية ، ورغبتها في عدم القيام بدعاية ، وتركها النمو المعنوي والفكري لنظم الشعوب المجاورة يعمل عمله تدريجياً » . وهذا يعني القول بأنه يتمسك حرفياً بتصريحات فرنسا في عدم التدخل . وفي النداء الذي ألقاه على شعب بيمونت لاعلان الحرب على النمسا ، حمد الله «أن جعل ايطاليا في حالة تعمل وحدها » . وفي ٢٨ آذار أوضح وزيره في باريس إلى لامارتين عن قلقه من زيارة الاسطول الفرنسي لجنوه ؛ وبعد ثلاثة أيام ، في ٣١ آذار ، كشف

العامل الفرنسي في تورينو ، بيكسيو ، في رسالة لوزيره ، عن الحذر الذي تثيره الأفكار الجمهورية في بيمونت ، وأضاف ، متكلماً عن وزير الشؤون الخارجية في حكومة تورينو : « إن جيش راديتسكي يخيفه أقل من وجود جيوش الجمهورية على نهر الفار الذي اعلنت عنه الصحف » . وفي ٧ نيسان ، طالبت البيمونت بعبارات تكاد تكون مهذبة ، بابعاد الجيش . وفي ٢٠ نيسان ، كتب بيكسيو : « إن الايطاليين لا يريدون نجدة » ، ولا يريدونها حتى في وقت فيه يسحقون » . وقال : « إن كل تدخل يثير ضد فرنسا كرهاً لا يهدأ ، كره ايطاليا » . وإذا دخلت الجيوش الفرنسية بيمونت ، حتى ولو لنجدتها ، فان حصون الألب ستطلق النار ضدها ، ولن يتأمن تموين الجيوش .

وتعاظم تحمس البيمونتيين بانتصارات الحملة في البدء . وفي ٢٢ أيار ارسل الميلانيون ، الذين تحرروا ، إلى لامارتين رسالة يطالبون فيها بايقاف انخراط المتطوعين الفرنسيين في الجيش لصالحهم لأنهم لا يريدون أن يتهموا بأنهم طلبوا النجدة من الأجنبي . ودام هذا الموقف الى النهاية ، وبعد أن استأنف راديتسكي الحرب ، حتى منتصف تموز . وهكذا لم تقبل بيمونت بأي حركة من فرنسا لصالحها ، تدعمها في موقفها هذا انكلترا . وكانت معادية لكل تدخل فرنسي ، وأبعدت إرادة فرنسا الطيبة . وفي المضمار الوحيد الذي كانت السياسة الفرنسية فيه مستعدة للعمل ، وجدت نفسها مكتوفة الأيدي برفض محميها أنفسهم .

ومن الطبيعي أن يتغير هذا الموقف بعد **كوستوزا** ، في ٢٥ تموز . ففي ٢٨ استنجد اللومبارديون بفرنسا ، وفي ٢٩ منه ، البيمونتيون ، وأودع طلب النجدة رسمياً في باريس في ٣ و ٤ آب . وجرت محاولة لجر فرنسا إلى الحرب ، بعد أن أبعدت نجدتها حتى الآن . وفي ٢٢

تموز ، طلبت حكومة بيمونت من الحكومة الفرنسية أن تبعث اليها بجنرال ، وطلبت بخاصة الجنرال بوجو ، وحاولت ، بشكل عام ، أن تزج الفرنسيين في القضية لتضطرهم إلى التدخل . ولكن الحكومة الفرنسية كانت على علم بعواطف الايطاليين الحقيقية وباطماع البيمونتيين الذين لا يريدون الوحدة الايطالية ، بل يريدون توسع بيمونت في ايطاليا الشمالية . ومن جهة أخرى ، أرادت الحكومة الفرنسية أن تبقى في السياسة السلمية ، واقترحت على انكلترا ، في بداية آب ، وساطة مشتركة بين النمسا وبيمونت مستفيدة من أن النمسا ، قبل النصر ، قدمت بنفسها عروضاً مصالحة وفي الحقيقة ، ان النمسا ، في ٢٣ و ٢٤ أيار ، عرضت أن تتخلى عن لومبارديا ، وتجعل منها دولة منفردة ، حتى انها قبلت أن تتنازل عنها إلى بيمونت ، لتشكل مع البندقية دولة مستقلة ذاتياً ولها نظام مماثل لنظام هونغاريا وعلى هـذه الأسس ، باستئناف المقترحات النمساوية السابقة ، اقترحت فرنسا وانكلترا ، في ٨ آب ، وساطتها . ولكنها جاءتا متأخرتين قليلاً ، لأن البيمونت وقعت ، في ٩ منه ، مع النمساويين هدنة أكثر خسارة من أسس المقترحات الفرنسية - الانكليزية .

وهذه الوساطة ، التي قبلت مبدئياً من المتحاربين ، اصطدمت بصعوبات مختلفة : من جهة ، بسياسة النمسا المتهربة ، التي رأت نفسها منتصرة فحاولت أن تكسب الوقت بعد أن عرفت أن الزمن يعمل لصالحها ، وفي أثناء ذلك أخذت تعزز قواها ؛ ومن جهة أخرى اصطدمت بسياسة البيمونتيين المستاءة والطائشة ؛ لأن البيمونتيين ، وإن غلبوا ، كانوا يرون أن الوساطة لا يمكن أن تؤدي إلا إلى استقلال اقليمي لومبارديا والبندقية . وتحمس الرأي البيموني شيئاً فشيئاً لمعاودة الحرب ، ولم يقبل بالهدنة إلا

كهدنة موقتة . هذا فضلاً عن أن شارل آلبير ، من جانبه ، ظل مستمراً في شكوكه التي لا يمكن التغلب عليها بالسياسة الفرنسية . ولم تثمر الوساطة حتى في الوقت الذي استأنف فيه البيمونتيون أنفسهم العمليات العسكرية .

وهنا أيضاً ، ظلت الحكومة الفرنسية أمينة على سياستها السلمية ، ولكنها جعلت مكاناً خاصاً لايطاليا . وفي الواقع ، منعت عداء النمسا ضد البندقية ، وعارضت دبلوماسياً العمليات ضد المدينة ، وأرسلت سفينتين حربيتين إلى البحر الادرياتيك لتمنع النمساويين من حصار البندقية. وهددت النمسا تهديدات جريئة إذا ما جاءت وتجاوزت خط نهر الآدا : وقالت إن فرنسا تتدخل عند الحاجة بالسلاح ، لدعم بيمونت المهاجمة على أرضها (٢٩ آب) . حتى ان باستيد تكلم باثارة دعاية أكثر تملقاً إذا كان ذلك ضرورياً (٤ ايلول) . وكانت الحكومة الفرنسية ، مع تصريحاتها هذه إلى النمسا ، تعدد نصائحها إلى البيمونت بالحذر . ولم تضل في ذلك كثيراً ، لأن برقيات (رسائل) باستيد وبرقيات القائمين بالأعمال في ايطاليا تدل على مدى أطماح بيمونت الخطرة ، وضعف حكومتها . فمن ذلك أن بيكسيو دل في برقية على أن استدعاء المتطوعين لم يثر كبير حماسة ، وحتى في بيمونت ، وذلك لأنه لم يكن ، في تورينو ، إلا أربع وأربعون متطوعاً ، وفي جنوة ثلاث وعشرون . ولذلك تمسكت فرنسا بالشروط التي تصورتها ، وهي اعطاء لومبارديا والبندقية دستوراً حراً ، وان البيمونت تستطيع أن تعوض خسارتها ، عند مقتضى الحال ، وإذا كان ضرورياً ، على حساب دوقيتي بارما ومودينا .

وكما قلنا لقد استأنفت البيمونت بجنون العمليات العسكرية ، ولكن

هذه العمليات كانت شؤماً عليها ، وكذلك معركة نوفارو التي دمغت البيمونت بهزيمة قطعية . وتدخل السفير الفرنسي لدى النمساويين ، وحصل على ايقاف العمليات مباشرة دون أن تجتاح النمسا أراضي البيمونت ، مقابل احتلال حصن الاسكندرية وغرامة تحدد فيا بعد وتدفعها البيمونت .

ولم تكن سياسة الأمير - الرئيس لوي نابوليون ، عندما خلفت حكومته اللجنة التنفيذية في فرنسا ، لتختلف عن سياسة لامارتين وباستيد ، أي أنها كانت مطبوعة بمجاملة خاصة لايطاليا ، وقد ثبط البيمونتيون أنفسهم همة هذه المجاملة . ونرى في هذا المضمار ، الذي هو أقصى ماحاولته فرنسا ، أن التدخل الفرنسي لم يكن بعيداً .

سياسة فرنسا العامة - . وفي السياسة العامة ، خارجاً عن هذين البلدين ، بولونيا وايطاليا ، بقيت فرنسا متحفظة ، وحاولت في جميع الميادين ، ألا تعمل وحدها ، بل أن تشرك سياستها مع السياسة الانكليزية ، وعندما لا تريد السياسة الانكليزية أن تعمل ، لا تعمل شيئاً ، كما هي الحالة في جنوب - شرقي أوربة ، حيث لا نرى أي عمل للحكومة الفرنسية حيال النمسا والحركات القومية التي تفجرت في النمسا ، وبخاصة في هونغاريا . لقد بقيت معادية للنمسا ذاتها ، ولحكومتها الرجعية ، ولكنها لم تعمل شيئاً لصالح القوميات التي ثارت عليها ، وظلت متمسكة بسياسة الجمود هذه ، آخذة بعين الاعتبار انكلترا وروسيا اللتين كانت سياستها ملائمة للنمسا ولم تشأ فرنسا أن تستاء منهما . لقد حاولت أن تنساق في سياسة من شأنها دعم الامبراطورية العثمانية واسداء النصح لها ، وفي صالح روماني الأفلاق والبغدان ؛ وأرادت أن ينصح السلطان بسياسة الاصلاحات لصالح المسيحيين ، لاجتناب تدخل روسيا ، ولكن بالمرستون ،

في هذه النقطة ، كان حذراً جداً ولم يخاطر بالحرب أو بتعقيدات مع الروسيا . وبالرغم من أن الثوريين الذين حاولوا القيام بعمل في الأفلاق قد أتوا من باريس ، فان الحكومة الفرنسية لم تعمل شيئاً في هذه الأمارة، كما لم تعمل في النمسا .

العمل الفرنسي في الدوقيتين الدانيماركيتين . ـ وفي قضية الدوقيتين اشترك العمل الفرنسي والانكليزي : لقد اندفع البروسيون مباشرة لنجدة هولشتاين عندما اعلنت تشكلها دولة منفردة ، ودخل الجيش البروسي هولشتاين ، تحت قيادة الجنرال فرانجـل ، في ٤ نيسان ، عندما ادخل الدياط الألماني شلزفيغ في الكونفدراسيون الجرماني . وقهرت الجيوش البروسية الدانيماركيين ، وفي أول أيار ، بدأت الجيوش البروسية باجتياح **جوتلاند** . وباتجاه معاكس ، قهر الاسطول الدانيماركي السفن البروسية . احتجت فرنسا مباشرة في فرنكفورت ، في ٨ حزيران ، باسم الحق العام لصالح الدانيمارك ، وفي برلين في ٢٩ حزيران . وذكرت الحكومة الفرنسية في احتجاجها ضد التدخل الألماني في الدوقيتين ، في ٨ حزيران، بشرعية حقوق الدانيمارك وقالت : « إن الشلزفيك اقليم دانيماركي ، هذا أمر لا نزاع فيه » ، وارتفع احتجاجها لصالح « الحق والعدل الجريحين ». وقالت ان العاطفة التي تحمل المانيا على تشكل ذاتها على مبدأ الوحدة القومية كان ولا شك مشروعاً ، ولكن يجب الا يدفع هذا الاتجاه حتى الاغتصاب، وأشارت الحكومة الفرنسية في احتجاجها ، في ٢٩ حزيران ، إلى أن البروسيين يجازفون بإثارة تدخل روسي ، ولامت الحكومة البروسية ، التي كانت تتجه في ذلك الحين نحو الليبرالية والديموقراطية ، على دعمها الارستقراطية المتعصبة لحزبيتها في هولشتاين ضد ملك الدانيمارك ، الذي يعتبر من أكثر ملوك أوربة ليبرالية .

وتذاكرت الحكومة الفرنسية ، في الوقت نفسه ، مع انكلترا ، لنجدة الدانيمارك ؛ وانضمت إلى انكلترا والسويد للقيام بمساع تؤدي إلى هدنة بين البروسيين والدانيماركيين في ٢ تموز ، ثم انضمت إلى انكلترا وروسيا للقيام ، في برلين ، بمساع تضطر البروسيين إلى قبول هدنة مالمو نهائياً في ٢٦ آب . وحتى النهاية ، أي حتى تسوية ١٨٥٢ ، حافظت الحكومة الفرنسية على سياسة الاشتراك مع انكلترا وروسيا لحماية الدانيمارك من الأطماع البروسية والألمانية . وهكذا دافعت عن حقوق الدانيمارك ضد المطالب الألمانية ، بالرغم من أن هذه المطالب تستند على حقوق القومية ، أي على مبدأ من مبادىء الحكومة الفرنسية .

الموقف الفرنسي حيال ألمانيا . ـ وأخيراً ما هو الموقف الذي اتخذته الحكومة الفرنسية حيال الثورة الالمانية ؟ لم يبق شيء في العواطف الفرنسية من الانفعال الذي كان يلاحظ في أزمة ١٨٤٠ : لقد زالت عواطف المرارة ضد المانيا ، وكانت فرنسا ، منذ الأصل ، تؤكد بعدها عن المنفعة . وفي بلاغ ٥ آذار ، أعربت عن نواياها السلمية وانكارها لأي مشاركة مع اللاجئين الألمان المنخرطين في جوقة هرفيغ ، واتخذت ، بعد اخفاق هذه المحاولة ، احتياطاتها دون عودتها : وبعثرت على الأرض الفرنسية اللاجئين الألمان ، أو اعادتهم إلى أوطانهم في المانيا . وأكدت بانها تنظر نظرة طيبة إلى تحويل المانيا ، وان عامليها في المانيا ينظرون نظرتها الطيبة إلى هذا التحويل نحو الوحدة ، وبخاصه ايمانوئيل آراغو ، الذي كان يمثل فرنسا في برلين : حتى انه كان يود آراغو أن يوعد البروسيون ، عند الحاجة ، بمساندة فرنسا ضد الروس . وفي ٨ حزيران ، كانت الحكومة الفرنسية تتصور ايضاً ان مبدأ « تحالف وثيق بين فرنسا

وانكلترا » شيء أساسي . وهذا ما كتبه باستيد إلى سافوي العامل الفرنسي في فرنكفورت .

ولكن الحكومة الفرنسية ، فيما عدا قضية الدوقيتين والخيبة التي منيت بها في القضية البولونية ، في صيف ١٨٤٨ ، أصبحت حيال المانيا ، أكثر كتماناً ومواربة ، عندما رأت موقف برلمان فرنكفورت وسياسة القومية والجامعة الجرمانية . وفي ٣١ تموز ، أوضح باستيد ، في رسالة إلى السفير ، عن قلقه من هذا الشكل الذي تأخذه المانيا ، وخوفه من أن يرى تشكل دولة المانية مخيفة لجيرانها أكثر بما كانت المانيا في السابق؛ وخاف من أن يرى تشكل « دولة من أربعين مليون نسمة ». ولم يقبل في ٢٤ آب أن يستقبل كشخص رسمي رسول الارشيدوق جان ، نائب الامبراطورية ، ممثلاً لألمانيا ، خارجاً عن تمثيل مختلف الدول الألمانية الموجودة من قبل . ودعم بروسيا في معارضتها لبرلمان فرنكفورت ، وفي الوقت نفسه ، في معارضتها للنمسا . وكتب باستيد في ٧ تشرين الأول ١٨٤٨ : « إن حليفنا الطبيعي في المانيا ، هو بروسيا » لأن بروسيا ، في ذلك العصر ، كانت تعارض توحيد ألمانيا . وهكذا فان السياسة الفرنسية التي كانت في الأصل ، محبذة ، اتخذت بسرعة موقفاً متحفظاً حذراً .

ووقف لوي - نابوليون الموقف نفسه ، ولم يشجع المشاريع البروسية ، وابعد عرض التحالف الذي قدمته الحكومة البروسية على لسان الوزير رادوفيتز ، في ١٢ تشرين الأول ١٨٥٠ . ولكنها لم تدعم النمسا ايضاً ، بل احتجت عندما اراد شفارتزانبرغ ان يدخل النمسا كلها في كونفدراسيون المانيا ، في صيف ١٨٥٠ ، ومن ثم من جديد ، في آذار ١٨٥١ ، وطلب من روسيا ان تضغط على النمسا لتتخلى عن هذا القصد . وهكذا تراجعت فرنسا أمام النتائج التي قد يجرها تطبيق مبدأ القوميات ، الذي

تعلقت به ، ونرى بشكل عام ، ان فرنسا ، في ١٨٤٨ والسنة التالية ، لم تتدخل لدعم الحركة القومية في اوربة كلها ، الا في بعض الحالات الاستثنائية جداً .

تفسير التناقض الفرنسي – كيف يوضح هذا التناقض ؟ لاشك ، ان السياسة الفرنسية ، منذ أيام حزيران ، أصبحت أكثر محافظة . ان العائق الثوري الذي كان يثقل عليها قد رفع ابتداء من ذلك العهد ، كذلك جنب دفع الأجانب للحكومة الفرنسية . ولكن السياسة الفرنسية ، في الخارج ، لم تكن مقيدة بعناصر من هذا النوع ، باعتبارات المحافظة ، لأن الجهاز ظل على حالة كما في البداية ، وظل يعطف دوماً على مبدأ القوميات وحق الشعوب في ان تحكم نفسها بنفسها . وهذه القناعة كانت نفسها موجودة عند الامارتين ، وعند باستيد ، وعند توكوفيل ، الذي كان اول وزير للشؤون الخارجية في عهد رئاسة لوي – نابوليون ، وعند لوي – نابوليون نفسه . ولم يكن هؤلاء الاشخاص افكاراً خجلى ، واذا لم يتدخلوا لصالح القوميات الأوربية ، فلم يكن ذلك منهم بدافع روح المحافظة .

ولم يكن عدم تدخلهم بسائق عجز مادي : فقد كان الجو خالياً أمام فرنسا لسلوك سياسة تدخل في اوربة ؛ وحتى صيف ١٨٤٨ ، لم تلق أي خصم ممكن في حكومات اوربة الوسطى ، لأن النمسا لم تبدأ باسترجاع قوتها الا في صيف ١٨٤٨ . ومن ثم لم تجد السياسة الفرنسية أمامها أي خصم جدي : لأن اوربة الوسطى ، ظلت ، في الواقع ، مفتتة زمناً طويلاً ، وعزلاء من السلاح تماماً . ولم يكن في اوربة غير روسيا يمكن ان تؤلف قوة . وعلى هذا فان العوائق المادية لاتوضح حذر الحكومة الفرنسية أو جمودها . ، وفي الواقع ، ان التفسير الحقيقي لهذا الجمود وهذا الحذر ، هو ان فرنسا لاحظت انها لاتفهم مبدأ القوميات بالشكل الذي تفهمه

اوربة . لقد ظهرت القومية ، في ايطاليا ، وفرنسا وهونغاريا ، ارادة قوة ؛ وفهمت على انها قومية جنس ، وحقاً أسمى في ان تشمل في بلد واحد جميع اخوة اللغة والجنس .. غير ان الحكومات الفرنسية ردت نظرية القومية المبنية على الجنس ، ولم تقبل بأن تهدم الحقوق المشروعة كما عرفها التاريخ ، كحق الدانيمارك الشرعي في دوقيتها ، أو حق بولونيا في اجزاء دوقية بوزن المأهولة بالألمان ، حتى ان الحكومة الفرنسية قالت : « يجب الا يدفع حق القومية حتى الاغتصاب . وان جميع البلاد ، التي يوجد فيها شعب من جنس الماني ، غير تابعة ، بهذا وحده ، الى المانيـــا » . واضافت : ان هــذا مبــدأ خطر ، ويمكن ان ينقلب على المانيا نفسها : « ان هذه الروح في القومية الجرمانية ، بظهورها على هذا النحو بمظهر الاجتياح ، لن يكون منها ، في قلب المانيا بالذات ، الا تمجيد وتعزيز عاطفة القوميات الأخرى ، وقد تنزع الى تقسيم المانيا عوضاً عن توحيدها » . وذكرت ، على سبيل المثال ، حال بوهيميا ، وانتهت في بلاغ ٨ حزيران ١٨٤٨ بقولها : ان كل هذا يبرهن على عدم وجوب المبالغة في شيء ، وان الواجب يقتضي ان نكون عادلين قبل كل شيء » .

ونجد في ١٦ حزيران ، في رسالة من باستيد الى السفير الفرنسي في فرنكفورت ، تعبيراً آخر بنفس الفكرة : « ليس عندنا ، اكرر ذلك ، الا عواطف ودية لألمانيا . اننا نود مخلصين من كل قلبنا ان نرى اتحاداً وثيقاً يتوطد بينها وبين فرنسا . ولكن فرنسا لاتعتبر الا ألمانيا وحدها ؛ وان سياستها يجب الا تكون جرمانية بخاصة ، فضلاً عن ان المانيا ، تبدو لنا ، في هذا الحين ، انها تستسلم لأهواء خطرة عليها » . وكتب ، في ٢٧ حزيران ، الى ايما نوئيل آراغو : « لايسعنا ، من وجهة النظر القومية ،

ان نقول ان الشلزفيغ المانية ، لأن اللغة الألمانية دخلت اليها ، ولأنه يوجد فيها على وجه التقريب ١٢٥٠٠٠ نسمة ، من ٣٥٠٠٠٠ نسمة مجموع السكان ، يتكلمون هذه اللغة في القسم الجنوبي من الدوقية وكذلك يتكلم باللغة الالمانية في الالزاس ، واللورين ، وفي سويسرا ، وفي كورلاند وفي ليفونيا : فهل هذا سيكون سبباً في ان تشاء المانيا دمج الالزاس واللورين والكانتونات الالمانية في سويسرا ، والكورلاند ، وليفونيا في جسمها ؟ ان مثل هذا المبدأ يؤدي بكل بساطة الى اللامعقول » .

وهكذا نرى ان ما حاولته فرنسا ، عندما تدخلت لصالح الحركات القومية في اوربة ، هو الا تفصلها الى بلاد مستقلة ، بل ان تسعى لمنحها الاستقلال الذاتي والحريات وضمان هذه الحريات : هذا ما حاولته في سبيل البولونيين واللومبارديين والبنادقة والرومانيين والصقليين . وان ماتراه الحكومة الفرنسية أساسياً هو حرية الشعوب ورخاؤها وليس التحديد بحدود . ان ماتريده هو ان يعطى لهذه الشعوب استقلال ذاتي قومي جوهري يحترم حقها في الثقافة ، وشخصيتها المعنوية ، لاان تقسم الى بلاد حسب هذا الزعم العرقي او ذاك . انها تلح على النظم الحرة اكثر مما تلح على التبعية للدولة . وتعتبر ان المهم هو النظام السياسي للدول اكثر من تعريف الدول . ان القومية تبقى ، بالنسبة لفرنسا ، حقاً في استقلال الحياة الروحية ، وحقاً في ممارسة الحريات السياسية . وان فرنسا تجد نفسها غريبة وخائفة أمام المفهوم الجنسي للقومية الذي ظهر في اوربة الوسطى . انها لاتعرف في ذلك فلسفتها . ولا تشجع هذا المفهوم . هذا هو السبب العميق لتراجع فرنسا أمام النتائج التي ولدتها الثورة في كل مكان تقريباً ، ولسياستها في التخلي عن كل كفاح في صالح القوميات .

هذه هي التجربة الاولى التي يمكن بها ان تنفصل القومية والحرية عن بعضهابعد تلاحم، ويمكن بها ان تكون الواحدة خصماً للأخرى . وهنا يكمن تفسير موقف فرنسا . وفي هذا المعنى تبدو لنا تجربة ثورة ١٨٤٨ كتصفية لعقائدية لم توضع حتى الآن موضع نقاش ، وضرورة لمعاودة البحث في قضية القوميات على أساس آخر . وهذا ما سيجري في وقائع اوربة بعد١٨٤٨ .



الفصل السابع

الحركة القومية في إيطاليا وفي الامبراطورية النمساوية

تختلف الحركات القومية الايطالية ، و السلافية و الهونغارية بعضها عن بعض،ولتاريخها نتيجة وهي إظهار فردياتها واختلافاتها . ومع هذا يجب جمعها ، لأن معظم هذه الحركات قامت في بلاد كانت تحت سيطرة النمسا، ولأن سير هذه الحركات كان تابعاً للثورة التي قامت في فينا وللتطورات الليبرالية التي حدثت فيها . ولقد رأينا الارتباط الموجود بينها ، و نريد الآن أن ندرس كلًا منها دراسة خاصة على حدة .

١ ـــ جهود ايطاليا نحو الوحدة

تضامن الثورات . ـ إن الحركة التي بدأت عام ١٨٤٧ وانطلقت في بداية ١٨٤٨ كانت موجهة نحو الحرية السياسية لا نحو القومية . ولكن وحدة الثورات اوجدت تضامناً فيما بينها : لقد نشبت الحركة ، كما رأينا ، في آن واحد : في إيطاليا الوسطى ، وروما ، وتوسكانا ، والمملكة اللومباردية ـ البندقية ، والبيمونت . وأصبحت الحركة الليبرالية قومية باعتبارها كانت مناوئة للنمسا . وان قساوة القمع الذي قام به النمساويون في ميلانو ، وبخاصة مذابح ٢ و ٣ كانون الثاني ، والاعتقالات التي جرت

في البندقية ؛ ومن جهة أخرى ، ان احتلال الجيوش النمساوية فراره في ١٣ آب ١٨٤٧ ، والجلاء الذي حصلت عليه فرنسا في ٢٣ كانون الأول ، كان لها في كل مكان نتيجة مزدوجة وهي : ان حوادث ميلانو أحدثت رعشة في إيطاليا كلها . وان الاصلاحات الليبرالية التي أجراها البابا بيوس التاسع ، والهجوم على دول البابا في فراره ، إن كل هذا بلور حوله تطلعات ايطاليا وظهر آنئذ بطل الحرية الايطالية ضد النمسا ، وحتى في لومبارديا . ولقد وجه ماتزيني زعيم الحركة الوحدوية الجمهورية ، إلى البابا بيوس التاسع ، في ٨ كانون الأول ١٨٤٧ ، رسالة مؤثرة وقال فيها : « وحدوا إيطاليا ، وطنكم ، واجمعوا حولكم أفضل ممثلي الحزب القومي . ولا تشحذوا تحالف الامراء ، وتعلقوا بكسب تحالف شعبكم ... الوحدة الايطالية شيء إلهي ، وستكون بكم أو بدونكم »، وقدم للبابا مساندة الحزب الجمهوري الايطالي كله . وأعطى للجمعيات السرية كلمة الأمر في الانضمام علناً للبابا ودفعه في الطريق الليبرالية والقومية ، وأراد أن يجعل من البابا زعيم حملة الكفاح ضد النمسا . وفي الخريف ، أخذت المظاهرات لصالح الوحدة أهمية متزايدة ، وحتى في روما . وكانت كلمات الأمر التي تسري في الشعب الصراخ القديم في العصر الوسيط : « اخرجوا أيها الألمان ! » أو « ليحيي الاستقلال » . وانشد نشيد مارسييز ايطالي ، الف حديثاً . ورفعت الألوان الثلاثة : الأخضر ، والابيض ، والأحمر ، في شهر شباط . وفي البيمونت نشر دازيليو رسالة في « مصائب لومبارديا » . واضطر الملك أمام الاضطراب ، ان يبدل الوزارة ويعطي رئاسة مجلس الوزراء إلى بالبو . وفي المنطقة اللومباردية ـ البندقية ، بالرغم من حالة الأحكام العرفية ، بدأ الناس

يتهيؤون علناً للثورة . وفي البندقية ، وضع جانباً المال المخصص لعيد المساخر ليصرف لضحايا ميلانو . وفي ميلانو ، كان الشعب جزعاً ، حتى ان الزعماء البورجوازيين في المدينة اعلموا تورينو بانهم عاجزون وليس باستطاعتهم أن يمنعوا المناداة بالجمهورية . وكانت الجيوش النمساوية في ايطاليا الشمالية موضــع شك . لأنها كانت تضم على وجه التقريب نصف جنودها من الايطاليّن . وتظاهر طلاب بادوا وبافيا ، ولكن الشرطة ارهقتهم ونكلت بهم . واستطاع ماتزيني أن يكتب إلى غــيزو بأن المعتدلين لا يوجدون في ايطاليا : « لا يوجد إلا حزب واحد في ايطاليا، الحزب القومي » وهكذا اجبرت الحركة الملوك على توسيع اصلاحاتهم ، وفي الوقت نفسه ، أخذ التنظيم العام يرتسم .

وفي الواقع ، افتتحت مفاوضات لتشكيل عصبة ايطاليا الوسطى ضد النمسا ، بناء على اقتراح البابا ، بعد ضربة القوة على قصادة فراره ، وأرسل البابا دبلوماسياً إلى تورينو وإلى فلورنسه ليقترح اتحـاداً جمركياً ، ارضاءً للحزب القومي ، وفي ذلك ما يعطي الدول قوة لمقاومة النمسا . فقبلت فلورنسا ، وترددت تورينو وبدت مقاومة . وكانت الأوساط الاقتصادية معادية للذوبان الجمركي مع ايطاليا الوسطى . ورأى شارل آلبير أن الحالة أخذت تتغير فرأى أن يخلف النمسا في ايطاليا الشمالية ، واقترح ، في جوابه ، تحويل مشروع الاتحاد الجمركي إلى عصبة دفاعية ، ضـد النمسا وضد الدفع الليبرالي معاً . ووضع بعض الشروط لقبـوله . وكان على العصبة أن تعين الامتيازات التي يجب تخويلها ، وان تبادر للنجدة بشكل متبادل دون طلب من الخارج ، للحفاظ على الهدوء العام . وحالت هذه الاعتراضات التي أبدتها البيمونت دون تحقيق المشروع ، ولم يتوصل الا

إلى تشكيل اتفاقية جمركية بين روما ، وتوسكانا والبيمونت ، في ٣ تشرين الثاني ١٨٤٧ ، وانضم إلى هذه الاتفاقية دوق مودينا الأكبر ، في ١٥ كانون الأول . ومن السهل أن نرى ، حالياً على الأقل ، منذ بداية هذا التنظيم الايطالي ، بأنه يوجد سوء تفاهم بين البابا وملك البيمونت من جهة ، وبين البابا الحركة القومية من جهة اخرى . وقد قال بيوس التاسع إلى وصيف له : « لا أريد أن أفعل ما يريده ماتزيني ، ولا أريد أن أفعل ما يريده جيوبرتي » .

حركة ميلانو . ـ زاد تأثير ثورة باريس الاضطراب في كل مكان تقريباً . وسجل ظفر الفكرة الدستورية في نابولي ، وروما ، وفلورنسا والبيمونت . وعبر عنه في بادىء الأمر ، عند عدم القدرة عن عن التعبير عنه بشكل آخر ، بحركة عامة ضد اليسوعيين الذين اعتبروا أدوات للنفوذ النمساوي والرجعي في إيطاليا كلها . وأثارت أخبار ثورة ١٣ آذار في فينا حركة الاستقلال في المملكة اللومباردية ـ البندقية . واعلنت الامتيازات التي تنازل عنها الامبراطور لشعوبه ، في ميلانو ، في ١٨ آذار صباحاً ، وقد علم الخبر بها في ١٧ منه مساء . وتذاكر المعارضون في الليل . وصحب المتظاهرون القاضي الأول ، **كازاتي** ، إلى القصر البلدي وطلبوا من الحاكم تشكيل حرس أهلي . ولكن الشعب ثار ، على صوت محامي الشعب **كاتانيو** ، وهاجم الجيوش النمساوية في المدينة بالآجر والحجارة وبأنواع القذائف ؛ ونظمت المتاريس وتسلح الشعب جهد استطاعته ، ووقف في بداية الخمسة أيام الأولى من القتال أمام ٢٠٠٠٠ رجل من رجال راديتسكي ، الذي أخذت تنضب قواه بسبب نقص التموين . وثارت أعصاب جنوده من اجراس المدينة المجلجلة دون

توقف ، فاستسلمت ؛ وانسحب راد يتسكي من ميلانو في ٢٢ آذار بعد أن ضرب المدينة بالقنابل . ويجدر بنا أن نسجل ميزات هذه الحركة بقولنا : انها حركة شعبية رفضت كل تسوية مع النمساويين ، وكل هدنة طلبها راديتسكي في ٢٠ آذار . وقد امتدت الحركة إلى المدن المجاورة : فقد شوهد أثناء القتال ، أن الجيران كانوا يتوافدون من مونتزا ، وكومو ، وبرغام . ومنذ بداية الثورة ، ارسلت البعوث إلى تورينو لاعلام شارل - البير ، رغماً عن رغبة الديموقراطيين وكاتانيو ، وهذا يدل على وجود حزبين في الشعب. ويجب أن نشير الى ان جيوش راديتسكي ظلت منظمة أمام هذه الحركة الايطالية ، وان الكرواتيين والبوهيميين والموارفيين ، في هذه الجيوش ، كانوا يحاربون ، بحماسة كالنمساويين ، ضد ثورة الشعب الميلاني .

حركة البندقية . - وكانت حوادث البندقية مشابهة تقريباً ، وأقل عنفاً ودماً : خلص الشعب مانين وتومازيو من سجنهما في ١٧ منه ، عندما انتشر خبر حوادث فينا . وأراد مانين أن يلهب الشعب مستنجداً بالتقاليد القديمة المعروفة في الجمهورية البندقية ، وأعلن عودة جمهورية القديس - مرقس . وكان الحادث الحاسم ، عندما رفع مانين صوته ، تخلى العمال والجنود الايطاليين في ترسانة البندقية ومخازن الاسطول . ولم يحارب النمساويون هنا كما في ميلانو بل انهم تفاوضوا مع الثوار وانصرفوا . وكانت جماهير الشعب تطرد النمساويين من الأراضي البندقية أو أن الجنود الايطاليين كانوا يتخلون عن الجيش النمساوي في جنوة واودين ، وتريفيز ، عدا مدينتين حافظتا على حاميتيهما وهما فيرونه وفنيانو

حركة لومبارديا - وفي لومبارديا حدثت حركة مشابهة وانتشرت بسرعة ، واضطرت الحاميات النمساوية في كومو ومونتزا وبرغام إلى الاستسلام ؛ وتآخى الجنود الايطاليون مع الثائرين في كريمون وبريشيا . وأخيراً شكا الجبليون

السلاح في جميع الاجزاء الجبلية من البلاد ، من كادوره حتى فالتيلين . ولم يحتفظ رادبتسكي قطعاً الا بمانتو، وفيرونه و بكشيرا وليغنانو أي الحصون الاربعة الموجودة في منطقة الشكل الرباعي الحصينة ، وترانت في وادي نهر الآديج .

امتداد الحركة في ايطاليا . — وخارجاً عن المنطقة اللومباردية — البندقية ، امتدت الحركة في ايطاليا كلها : اجبر شعب بارما الدوق على مشايعة العصبة الايطالية ، ثم طرده . وفي بليزانس ومودينا ، اضطرت الحاميات النمساوية الى الفرار وذهب الدوقان معها ؛ وفي فلورنسا ، ذهب ٦٠٠٠ متطوع بسرعة الى الشمال وانساق الدوق الاكبر بالحركة ، وصرح قائلاً : « لقد دقت ساعة بعث ايطاليا » وفي القصادات الحبرية ، في بولونيا ، فر متطوعون وانخرطوا في الجيش ، لتشكيل جيوش ، مع الفارين النمساويين ، تحت قيادة الزعيم الليبرالي ، زوكشي . وكذلك وصل متطوعون من اومبريا ووديان الآبنين . وبلغ المجموع كله ١٢٠٠٠ رجل تقريباً . وكذلك زحف متطوعون من نابولي واتجهوا نحو الشمال .

موقف بيمونت . — ولكن الموقف الأساسي كان موقف البيمونت : لأن نجاح الحركة كله منوط بها فماذا تفعل ؟ في البيمونت تابع الشعب الحركة حالاً : ففي ١٩ كانت الطرق المؤدية للومبارديا مليئة بالمتطوعين الذين ذهبوا للقتال مع اللومبارديين . وفي المدن طلب البورجوازيون الانخراط في الجيش ؛ وفي تورينو ، قامت المظاهرات المدنية والعسكرية . ونادى كافور في جريدته « البعث » بالحرب بقوله : « الحرب ، الحرب دون تأخير ! » ولو ان شارل البير زحف سريعاً على ميلانو لاستطاع فتح المدينة فجأة دون صعوبة : ولكنه تردد . كان يخشى الجمهورية في ميلانو ، ومن ميلانو ، دعايتها نحو دوله . وانتظر ان يناديه بورجوازيو ميلانو ، وان يكون مطمئناً من عدم المناداة بالجمهورية ، ليقرر .

وفي ٢٢ منه اطمأن ، عندما انتهى القتال . غير ان حركة الرأي في دولته كانت عامة وكان من الصعب عليه ان يقاوم : وقال : « ان الشعب كله لا يمكن ان يرغب شيئاً سيئاً » . وأخيراً ، حزم أمره : ففي ٢٣ أي بعد يومين على انتصار الميلانيين ، وأمام اندفاع الجمهور ، الذي جاء متظاهراً ، للخبر الظافر عن نجاح الميلانيين ، ظهر في الشرفة ، ودون أن يقول كلمة ، حرك منديلاً مثلث الألوان . وفي اليوم التالي ، في ٢٤ ، ألقى بنداء الى اللومبارديين : وعدهم بدعمه الدعم الذي ينتظره الأخ من أخيه والصديق من صديقه » ، ووعد بهذا الدعم « باسم الله والبابا » . ولكنه ، من وراء ستار، اعلم النمسا وانكلترا ، بأنه تدخل، ليمنع الحركة الجمهورية في اللومبارديا. وفي ٢٥ ، عبرت الجيوش البيمونتية نهر التيسان ، الحد الفاصل بين اللومبارديا والبيمونت . ومن هنا نرى ، في الأصل ، وجود ورائية فكرية في تدخل شارل البير .

ان المهم في هذه الحركة القومية الايطالية ، في اصلها ، هو انها اجماعية حقاً : لقد وجد في هذه الحركة اناس، من جميع طبقات الشعب ، اتحدوا جميعاً، وبخاصة البورجوازية والشعب بالطبع : وجد طلاب وعمال، وحتى اطفال انخرطوا فيها متطوعين ؛ حتى ان المبتدئين في المدارس الكهنوتية أخذوا يمارسون تداول الأسلحة . وأهاب الكهان بالاغنياء الى الاكتتاب ، فاعطوا، في كل مكان تقريباً ، ذهبهم وجواهرهم : ففي بولونيا ، تحمست فتاة لخطاب خوري فقدمت شعرها للقضية القومية وكان الاخلاقيون ينبهون الشعب الايطالي الى لزوم انتفاضة قوة واخلاق بغية تجديد ايطاليا، حتى ان راديتسكي نفسه شده من سعة الحركة وقال: حقاً لقد تحول المزاج الايطالي بمعجزة .

وهكذا اشتعلت ايطاليا كلها بلهيب العاطفة القومية بشكل اوسع

وأعمق مما يتصور . وكانت الحركة غريزية دون ان يتضح هدفها السياسي ويصبح واعياً . بيد أن هذه الحركة الجميلة ماعتمت ان انحرفت بعد أن تحولت الحالة بسرعة بحادث مزدوج عسكري وسياسي .

الحادث العسكري . - وهو عدم القدرة التي ابداها الايطاليون ، بالرغم من الوضع الملائم بشكل غريب ، لأن جيش راديتسكي الذي فر من ميلانو كان منهوك القوى ، وامتد على الطرق بشكل شريط طوله سبعة وعشرون كيلو متراً ، وكان من السهل الامساك به وقطعه ، بل الوصول الى مانتو قبل جيش راديتسكي ومنعه من التجمع ولكن الميلانيين ، الذين برهنوا على هذه الشجاعة خلال الأيام الاولى من القتال في المدينة ، بدا انهم لم يهتموا بمتابعة الحوادث ، ولا بملاحقة راديتسكي ؛ وانطلق بضع مئات من المتطوعين فقط في ملاحقة النمساويين . وربما كان زعماء الحركة الميلانية يخشون من عنف الجمهوريين في المدينة وفي جوارها ، او ربما كانوا يفكرون ببساطة ان على البيمونت الآن ان تتدخل ، ومن الممكن القاء المسؤولية على عاتقها . أما شارل - البير فقد بدا غير كفؤ وبطيئاً : فقد قضت الجيوش البيمونتية تسعة أيام في الذهاب من التيسان الى كريمون ، وخمسة أيام ايضاً لبلوغ نهر المينسيو . وفي ٨ نيسان ، وصلت الجيوش النهر ولم تلق خصوماً بعد . وأخذت مدينة كواتو ، وبذا أصبح عبور النهر ممكناً ؛ ولكن الجيش لم يمر بتمامه الى الضفة اليسرى لنهر المينسيو الا في ١١ نيسان . وكان شارل - البير يقود الجيش بنفسه ، وأخذ الهامه عن راهبة ملهمة على مآيدو . وكان زعماء الجيش البيمونتي ضعافاً . ولم يكن لدى الجيش مصلحة لوازم ولا مصلحة صحة . وفي هذه الاثناء ، جمع راديتسكي حوله جنوده المنهكين ، وركن في الحصون الأربعة ، وامسك بخط نهر الآديج وبه كان يتصل مع فينا بواسطة الجنرال فيلدن . وانتهى بأن جمع حوله

٦٠٠٠٠ رجل من جميع قوميات الامبراطورية ، ولكنهم كانوا مقيدين بنظام حازم ، ولم يفلت منهم أحد . وهاجم شارل ـ البير فيرونه ، في ٦ أيار ، دون جدوى . اما المتطوعون ، الذين اقبلوا من باقي ايطاليا ، فكانوا على غاية من الاختلاف في المهنة والعمر ، وبالتالي ، كانوا قليلي النفع من الوجهة العسكرية . وكان جيش الألب ، أي جيش الجبليين والمتطوعين الذين يقبضون على الجبل ، يتألف من ٤٠٠٠ رجل تقريباً ، أتوا من ميلانو وجنوه وبارما ، ووصلوا حتى بحيرة غاردْ . ولكن الجنرال فيلدن ردهم على اعقابهم في ٢٠ نيسان . ولم يتأثر شارل ـ البير لاخفاق هؤلاء الجمهوريين ، وأمرهم أن ينسحبوا الى بريشيا لينخرطوا في القطعات اللومباردية التي ستشكل . وفي الجنوب ، امام مانتو ، وقف ١٢٠٠٠ متطوع من توسكانا ، ونابولي ، ومودينا . وفي البندقية تجمع ٣٠٠٠٠ روماني وبندقي ونمساويين هاربين ، وتجمدت هذه الجنود المتطوعة في مكانها ، وفقدت نشاطها بسرعة ، وكان اخفاق البيمونتيين في فيرونه اول عنصر في فقد المعنويات وتثبيط الهمم .

الحادث السياسي . ـ أما الحادث الثاني ، السياسي ، فكان في تخلي الحكومات تدريجياً عن الحركة . وبسرعة ظهرت الاعتبارات السياسية واستيقظت الاطماع : أطماع نابولي في انقونة ، أطماع روما في روفيغو ، اطماع توسكانا في لونيغليانا . وكانت مفاهيم الوطنيين مختلفة جداً ومتشابكة : فمنهم **الماتزنيون** أي الوحدويون الجمهوريون في بعض المدن ؛ **وانصار وحدة ايطاليا الملكية**، أما في ظل دوق توسكانا الاكبر ، واما في ظل ملك البيمونت . ولكن هؤلاء الوحدويين ، بالاجمال ، من جمهوريين او ملكيين ، كانوا اقلية . ومع ذلك فقد وجد اناس يعملون لتشكيل مملكة ايطاليا الكبرى في الشمال على الأقل ، ويسمون **الالبرتيين** ، أي انصار شارل ـ البير ، وكانوا نشيطين في دوقية مودينا ودوقية بارما ، وكانت كل منها دون أمير ،

لأن الدوقين ذهبا مع الحاميات النمساوية . وكان الألبيرتيون يعملون في بلاد أخرى : فمن ذلك ان برشيه كان يعمل في فلورنسا ، ومامياني في روما ، وسبافانتا في نابولي . ولا يعلم كثيراً لأي حد كان هؤلاء المبعوثون على اتفاق مع شارل البير ، ولكن حركتهم ، على أي حال ، ايقظت حذر سادة هذه الدول الايطالية . وانفصـــل سيدان من هؤلاء السادة عن القضية القومية ، وهما البابا وملك نابولي .

بيوس التاسع . — كان بيوس التاسع مرتبكاً : ولا شك في انه كان اميراً ، وبهذه الصفة ، كان يشارك في تطلعـــات سائر البلاد ، ولكنه كان حبراً ايضاً ، أي أباً لجميع المسيحيين ، نمساويين وايطاليين ، وملزماً بالطبع بالدعوة الى السلام ، ولذا حاول حلاً سلمياً . ففي ٢٨ آذار ، القى بنداء دعا فيه جميع سادة ايطاليا الى الاجتماع في مؤتمر يعقد في رومـا لدراسة نظام ممكن لايطاليا ، وأخرج مشروعه في العصبة الايطالية الذي عرضه في السنة السابقة . ولكن هذه المبادهة اصطدت بعقبة مزدوجة : فقد تنحى عنه رجاله الخاصون ، وعلى رأسهم الجنرال دوراندو ، قائد الجيوش المحتشدة في قصادات الشمال ، ووقف مباشرة موقفاً قومياً جداً . وجه ، في ٩ نيسان ، نداء الى جنوده ، وقال لهم فيه : لقد بارك بيوس التاسع سيوفكم المنضمة الى سيوف شارل ـ البير . وهذه الحرب ، حرب الحضارة ضد البربرية ، ليست ابداً حرباً قومية ، بل حرباً مسيحية » . وفي اليوم التالي انكر بيوس التاسع على الجنرال قوله . وبالرغم من اوامر البابا ، عبر دوراندو وجنوده الحدود ودخلوا منطقة البندقية . اما مشروع العصبة ، فقد أخفق ، بخطأ بيمونت ، رغم مشايعة نابولي وتوسكانا : فقد زعم ملك البيمونت ، في البـــدء ، بأن لاشيء ممكن دون ملك نابولي ، وعندما اعطى ملك نابولي موافقته ، وجد أسباباً أخرى وقال : بما ان

الحرب بدأت فان القضية العسكرية تفوق كل شيء ، واقترح ، عوضاً عن العصبة العسكرية ، تشكيل حلف هجومي بين الدول الايطالية ضد النمسا . وهذا يستحيل على البابا ، لأنه لا يستطيع ، بالبداهة ، ان يتزعم حركة حربية وأخيراً رفض شارل - البير نهائياً العصبة في ١٨أيار . وفي الدور نفسه كان من طبيعة نمو الحركة الثورية في روما ان تقلق البابا . ولهذه الأسباب ، نرى ان بيوس التاسع ، في خطاب القاه على الكرادلة ، واعطاه اسم مرسوم ، في ٢٩ نيسان ١٨٤٨ ، شجب الحرب والثورة معاً ؟ واحتج على « كل من يريدون ان يرأس الحبر الروماني تشكيل جمهورية جديدة من جميع شعوب ايطاليا » . وبعد بضعة أيام ، في ٣ أيار ، كتب رسالة الى امبراطور النمسا وطلب منه ان يتخلى طوعاً وكرماً عن ايطاليا الشمالية . وكان لمرسوم البابا وقع صاعق : فقد سقطت شعبيته دفعة واحدة . وفي الواقع كان الوضع، الذي اتخذه البابا، خطيراً بالنسبة للمستقبل ، لأن الحركة القومية ، اذا استمرت ، تعتبر بسبب شجب البابا لها ، داخلة في طرق ثورية مناوئة لروما .

حركة نابولي . – وفي الوقت نفسه ، بدأ ، في نابولي ، رد الفعل السياسي . وكانت الحركة القومية ضعيفة في مملكة نابولي ، وعدماً مطلقاً في صقلية ، التي كانت تتابع ثورتها الانفصالية ونعرتها الاقليمية دون أي عاطفة قومية . وقد اجبر انعقاد البرلمان النابولي الملك على التنازل عن امتيازات . وأعربت وزارة تورويا ، التي تشكلت في اول أيار ، عن الاسهام بالحرب ضد النمسا ، وارسلت ١٦٠٠٠ جندياً نظامياً تحت قيادة الجنرال غليوم بيبيه ، وهو زعيم سابق لثورة ١٨٢٠ ، للالتحاق بجيوش بيمونت. ولكن هذه التنازلات كانت موقتة : فقد كان الملك ينتظر الفرصة لايقاف الثورة . حتى انه فزع ، والبرجوازية معه ، من حركة ريفية ثورية

وشيوعية نشبت في جنوب ايطاليا : فقد طالب الفلاحون بتقسيم الأراضي ، وشرعوا في اجراء هذا التقسيم ، ومن ذلك ان كاهناً في سالرنو بشر بالشيوعية وهو على كرسيه . واغتنم الملك فرصة ثورة دون أهمية كبرى ، قامت في نابولي ، في ١٥ أيار ، يوم انعقاد البرلمان ، للقيام بقمع دموي ، وارسل ، في ٢٢ منه ، أمره باستدعاء الجيوش التي ذهبت نحو الشمال ؛ وبلغ الرسول ، الذي يحمل هذا الأمر ، الجنرال بيبيه في الوقت الذي وصل فيه الى بولونيا . واراد الجنرال ان يتجاوز الامر ، ولكن لم يتبعه سوى ٢٠٠٠ من رجاله عندما عبر نهر البو . ومنذ الآن فصاعداً نحت نابولي نحواً خاصاً ، وبالتالي لم تعد لتهتم بايطاليا القومية ، واذا ماتشكلت ايطاليا القومية فلن تنضم مملكة نابولي اليها .

أن السبب الاكبر في اخفاق الحركة القومية ، هو ، في الحقيقة ، طموح البيمونت . وفي آخر الربيع نرى ان رقعة الحركة القومية قد تقلصت بشكل فريد ، مع أن جميع الخطوط مازالت مواتية لانتصارها في الحرب القومية ضد النمسا .

خسران الحرب القومية . — ان تخلي البابا وملك نابولي عن القضية القومية كان ، من بعض الوجوه ، حادثاً سعيداً بالنسبة للبيمونت ، لأنه لم يبق ، في هذه الظروف ، الا حلان ممكنان : اما الجمهورية التي لم يكن لها الا قليل من الحظ ، واما الالبيرتية .

كان **الجمهوريون** اقلية صغيرة من المفكرين والعمال ، الذين يقبلون بالتأكيد بمشايعة الوحدة الايطالية اذا حققتها البيمونت . وربما كان شارل - البير لايتصور باخلاص القضية الايطالية ، ولكنه ، على كل حال ، قصر بسرعة جداً فعل الحرب القومية على اطماعه الشخصية الخاصة . كان فردياً دوماً : رفض نجدة المتطوعين السويسريين الذين قدموا أنفسهم له ، وقطع

العلاقات التي فتحها الميلانيون مع الثوار المونغاريين ؛ وكما رأينا ابعد بعناد ارادة فرنسا الطيبة . لقد كان يريد ان يجعل من ايطاليا الشمالية مملكة كبرى ، وسعى لذلك حقاً وصدقاً : ووهبت بارما ومودينا نفسيهما دون حيطة للبيمونت ، غير ان حركة قوية ، حركة قومية انفصالية قامت في رومانيو .

وفي ميلانو وجد حزب جمهوري هام : جاء ماتزيني ليقيم في ميلانو في بداية نيسان ، وقبل الجمهوريون أن يضحوا بأنفسهم ، وكل ماطلبوه ببساطة هو أن يرجأ كل حل قطعي حتى النصر . وقبلت بذلك الحكومة الموقتة والبورجوازية الميلانية اللتان مازالتا حتى ذلك الحين انفصاليتين وذاتي نعرة خاصة . وفي البندقية كانت حالة مانين مماثلة غير أن الأرياف ، في كلا البلدين ، كانت تخشى الجمهورية وساءتها القوة غير الكافية التي أتت بها الحكومة الموقتة للتأهب للحرب . وهذا ماأفاد الدعاية البيمونتية : انتقل جيوبرتي الى ميلانو ، موصياً بحل الانضمام الى البيمونت ، وفي ميلانو كانو يغنون آخر شعره « شارل - آلبير أو النمسا » . وانتهت هذه الدعاية بأقرار القيام باستفتاء مباشر لتسوية القضية الميلانية . وشارك هذا الاستفتاء بالتصويت ، ووجد مايقارب سبعمائة صوت معاد للانضمام الى البيمونت . وعلى القارة البندقية ، قررت المدن المعادية للبندقية ، متذكرة ظلمها القـديم ، الاستفتاء ، وجرى في ٤ حزيران ، في أربعة أقاليم فقط وهي : تريفيز ، بادوا ، فيسانس ، روفيغو ، لأن الاقاليم الثلاثة الاخرى ، في ذلك الحين ، احتلها النمساويون : كانت الاكثرية عظيمة لصالح الانصهار مع اللومبارديا ، وبما أن اللومبارديا صوتت على الاتحاد مع البيمونت ، فهذا يؤدي اذن إلى الانصهار مع البيمونت . وفي البندقية

الأصلية ، اضطر مانين ان يقبل حل القضية بمجلس . وقد انعقد هذا المجلس في بداية تموز وصوت أيضاً ، بالاجماع تقريباً ، لصالح البيمونت . ووضع الميلانيون والبنادقة شرطاً وهو أن يضع مجلس تأسيسي (جمعية تأسيسية) دستور النظام الجديد . وهكذا اتجه الرأي الى تشكيل مملكة ، وهذا العمل يعتبر مع ذلك مرحلة لها أهميتها في المستقبل .

وفي الواقع لقد تعلق نجاح الحركة بالحوادث العسكرية . ويبدو أن القوة المجتمعة في ايطاليا ، القوى البيمونتية أو قوى المتطوعين ، أو القوى المنظمة كثيراً أو قليلاً والآتية من باقي شبه الجزيرة ، استطاعت بداهة أن تجنب ، في الأصل ، الخطر النمساوي ، لأنها كانت تؤلف قوة عددية عظيمة ؛ ولكن هذا الجيش كان بطيء التنظيم جداً . ولم يتجمع ، في منطقة ميلانو الا ١٠٠٠٠ جندي، ومازالوا في حالة تدريب عندما فاجأتهم الهزيمة. أما شارل - آلبير فقد أبدى لامبالاة كلية بشأن الأقاليم البندقية ، ويبدو أنه تخلى عنها الى النمسا . وفي الحقيقة ، كان في مفاوضة مع انكلترا التي حملت اليها النمسا ، في آخر شهر أيار ، اقتراحات مصالحة . وفي بداية حزيران ، قبل شارل - آلبير ، مبدئياً ، هـذه المقترحات وهي : أن تكون الحدود بين النمسا والبيمونت على نهر الآديج ، وهذا يعني التخلي عن لومبارديا للبيمونت ، على أن تبقى البندقية للنمساويين مع الاحتفاظ بنظام الاستقلال الذاتي . قبل شارل - آلبير هذه الاقتراحات نهائياً في بداية تموز . وعندما بدأ الريب بهذه المفاوضات وبنتيجتها في ميلانو ، ثار الرأي وبخاصة ماتزيني ، على هذا الحل . وهكذا فقد شارل - آلبير ثقة أبناء قومه به .

ومن جهة أخرى ، نظمت القوى العسكرية النمساوية نفسها وانتصرت

بسرعة . فقد أتاها من فينا نجدات من خمسة عشر ألف رجلاً ، تحت قيادة الجنرال نوجانت الذي وصل ايطاليا في الأيام الأولى من شهر حزيران. وقضى بسرعة على الموانع في القارة البندقية واسترجع المدن الواحدة بعد الأخرى . وفي هذا الوقت خرج راديتسكي من حصونه وبحركات جريئة بل وغير حذرة ، فرق شمل التوسكانيين والنابوليين الذين ظلوا في جنوب البلاد ، فوق فيسانس ؛ وفرض على الجنرال دوراندو التسليم وبموجبه تعهد الجنرال بالا يقاتل خلال ثلاثة أشهر ، واستعاد راديتسكي فيسانس في ١٠ حزيران ١٨٤٨ . وفي هذا الحين تعلق البيمونتيون بأخذ مدينة بشيرا ، دون نجدة سائر المقاتلين ودون الافادة من المخاطرة الستراتيجية التي قام بها راديتسكي .

وعندما تجمعت القوى النمساوية ، قوى نوجانت وقوى راديتسكي قام الماريشال بالهجوم ، في ٢٣ تموز ، وخرق الخطوط البيمونية في معركة **كوستوزا** ، في ٢٥ تموز ، ولهذا اضطر باقي الجيش البيمونتي الى انسحاب سريع . ونظمت **لجنة السلام العام** ، في ميلانو ، أمر الدفاع ؛ وانبرى شارل - آلبير ووعد في ٣ آب بالدفاع عن المدينة . ولكن راديتسكي وصل إليها في ٥ منه ، فهرب الملك ، وأجلى قسم من سكان المدينة خلف الجيوش البيمونتية ، وفي ٩ منه وقعت هدنة عرفت باسم **هدنة سالاسكو** باسم الجنرال البيمونتي الذي وقعها . ولم يخسر شارل - آلبير اللومبارديا التي استرجعها راديتسكي فحسب ، بل قبل بالجلاء عن الدوقيات وسحب الجيوش التي كانت له في الدولة البندقية . ثم احتلت الجيوش النمساوية فراره ، في ١٤ آب ، واندحر متطوعو غاريبلدي في سويسرا . وخسر الايطاليون الحرب

القومية : واذا مااستمرت الحرب ، منذ الآن فصاعداً ، فستأخذ طابع خلاف بين البيمونت والنمسا لاطابع حرب قومية .

اخفاق الحركة القومية . — ولكن الثورة لم تنته مع ذلك على الصعيد الليبرالي ، بل ، على العكس ، استمرت واتسعت في روما وفي فلورنسا اللتين انتهتا بالوصول الى الجمهورية ، وقامت في البيمونت ، على حين أن رد الفعل ، بالعكس ، انتصر في نابولي وفي المملكة اللومباردية — البندقية ، وأعيد الدوقان الكبيران الى بارما ومودينا . ولن نقول شيئاً عن هذه الليبرالية ، لأننا نود أن نبقى على صعيد الحركة القومية .

وبينما استمرت الثورات الليبرالية ، فقد أغمي على السراب القومي : لقد زالت كل قوة للتلاحم ، والشيء الوحيد ، الذي بقي ، هو رسم تلك العصبة الايطالية التي اقترحها البابا . لقد جعلها جيوبرتي قضيته ، فمازال له بعض النفوذ ، ونراه في شهري نيسان وأيار ، ينتقل الى روما حيث قام بالدعاية لصالح الفكرة ونجح ، على مايبدو ، وحياه السكان . ولكن كان عليه إقناع البابا : فأرسل إليه في شهر تموز الأب روسميني ، وكان من أهم اللاهوتيين الاحرار في ايطاليا . عرض روسميني على البابا أمر اشتراك البيمونت في العصبة ، بل وحريات الكنيسة اذا أراد الحفاظ على مشروعه . وحاولت توسكانا ، كذلك ، أن يقرر البابا معاودة الفكرة ، مقابل التخلي عن بعض نقاط في التشريع الليوبولدي . وبعد هذه الحركة انكمشت الحكومات وتخلت عن مبدأ العصبة . وعندئذ حاول جيوبرتي ان يثير حركة في الرأي ليفرضه على الحكومة : عقد ، في ١٠ تشرين الأول ، في تورينو ، مجلساً أسماه « المؤتمر الاتحادي » . وكان يعتمد على حركة موازية في الرأي في دوقية توسكانا ، يدفعها الأستاذ

مونتانيللي ، الذي تقدم بفكرة مجلس تأسيسي ايطالي ، منتخب بالتصويت العام ، او على الأقل ، اذا لم يستطع الامتداد على ايطاليا كلها ، مجلس تأسيسي لايطاليا الوسطى . غير ان جيوبرتي نفسه رأى أن هذه الفكرة لا يمكن نجاحها فأبعدها . وفي غضون ذلك قامت ثورات ديموقراطية في روما وفي فلورنسا ، في آخر سنة ١٨٤٨ ، وأدت الى ابعاد البابا والدوق الأكبر ، والى اعلان الجمهورية . ومع ذلك فقد تابع رئيس الحكومة التوسكانية الجمهورية ، غيرازي ، فكرة عصبة ايطاليا الوسطى : وقام بانتخاب المجلس التأسيسي الايطالي ، في الوقت الذي قام فيه انتخاب المجلس التأسيسي التوسكاني ، في ٥ آذار ؛ ولكن ١/٥ الناخبين اشترك في هذه الانتخابات التي لم يكن لها مثيل في الدول الايطالية الأخرى .

وهكذا سقطت فكرة العصبة الايطالية ، وهي بقية من الفكرة القومية ، أمام لا مبالاة السكان وأمام سوء ظن الأمراء ؛ حتى ان الاتحاد ، الذي اقتصر على دولتين ، الدولة الحبرية والدول التوسكانية ، لم يتم . وستكون هزيمة الوحدويين المائزينيين في روما ، على يد الجيوش الفرنسية ، آخر ضربة وجهت الى الحزب القومي الموجود .

وفي الوقت نفسه حلّت الحركات العسكرية . فقد وجدت ، في الواقع ، انتفاضة في ايطاليا الشمالية ، دون امكان تسميتها انتفاضة قومية ، ولكن وجد فيها عنصر تضامن ، لأن البيمونت استأنفت العمليات لنجدة اللومبارديين البائسين الذين سقطوا ضحية الاضطهادات النمساوية . وفي الحقيقة كانت الحركة حركة سياسية بقدر ماهي حركة قومية او اكثر . فقد كانت نتيجة عمل جمهوريي جنوه والديمقراطيين الذين اجبروا شارل-البير على العمل مكرهاً . وكان شارل-البير يرغب بأخذ ثأره ؛ وكانت عنده دوماً

روح فروسية وأراد أن يأتي بها لنجدة اللومبارديين ،وبحث عن أحلاف له في برلين ، في شهر تشرين الثاني ١٨٤٨ ، وفي نابولي في كانون الثاني ١٨٤٩ ، وعرض على ملك نابولي قطعاً من الدولة الحبرية . ليجعله يقرر التحالف وبالرغم من النصائح التي اسدتها له كل من فرنسا وانكلترا ، نقض الهدنة ، في ٢٢ آذار ١٨٤٩ وهاجمت جيوشه في ٢٠ منه . ولكن راديتسكي سحقه في نوفارو، في ٢٤ منه ؛ وتنازل عن العرش ، بعد المعركة ، لصالح ابنه ، فيكتور - ايما نوئيل الثاني . ولحسن حظ البيمونت ، تدخل بسرعة السفير الفرنسي لدى النمساويين وحصل ، في ٢٦ منه ، على تعليق الحرب، مقابل احتلال النمساويين للاسكندرية وانسحاب السفن الحربية البيمونية من الادرياتيك .

وبقيت البندقية وحدها تدافع عن علم الحرية الايطالية ، لأن القصد ليس الآن القومية الايطالية . ومنذ ١١ آب ١٨٤٨ ، عندما انسحب المفوضون البيمونتيون ، وبعد الهدنة الاولى ، كان مانين ، في الحقيقة ، دكتاتور البندقية ، دكتاتور واقع ، وصرح بأن سلطته ليست الا موقتة ، وكانت البندقية منعزلة فعلًا . فقد اعتبر بالضبط ان هدنة سالاسكو قد جعلتها في حل من الذوبان مع لومبارديا والبيمونت . وكانت تؤمل في فرنسا ، ولكن التدخل العسكري الفرنسي لايدخل ، كما رأينا ، في مفاهيم الحكومة . وفي شباط ١٨٤٩ ، أمر لوي - نابوليون بالتصريح الى البنادقة بأنه لن يحارب لأجلهم . وكل ماحاولت الحكومة الفرنسية الحصول عليه، على الأقل ، كان استقلال البندقية الذاتي ، كما حاولت ان تمنع مهاجمة المدينة وحصارها بابقاء بعض السفن الحربية في أعماق الادرياتيك.

لقد نظمت المدينة عسكرياً على يد الجنرال بيبيه الذي التجأ اليها . وكان يعتمد على الدفاع الطبيعي،الذي تشكله الأهوار، وعلى المؤن العظيمة

التي جمعت في المدينة . ولكن القوة الحقيقية لمقاومة البنادقة كانت قوتهم المعنوية ، والنظام الذي قبلوا معه ضرورات النضال لقد بقي الشعب بكامله هادئاً ومتضامناً اثناء الحصار . وكانت النداءات تغذي عاطفة المقاومة . فمن ذلك : « ان البندقية طلبت من الكنائس مالها ، ومن النساء حليهن ، ومن الاجراس برونزها ، ومن المطابخ نحاسها ، ومن خراطيش العدو حديدها ، كل شيء الا ان تكون كرواتية ! » . ولدى سماع خبر نوفارو قرر البنادقة المقاومة ، مهما كلف الأمر ، عوضاً عن ان يتركوا انفسهم يقتلون ، وخولوا مانين السلطات الكاملة في سبيل الدفاع ولكن، في ٢٦ أيار ، أخذ النمساويون آخر حصن بيد البنادقة على القارة وهو حصن مالغيتا. وفي ٣ حزيران بدأت البطاريات النمساوية تقذف المدينة بالقنابل. وانتشر التيفوس والكوليرا في المدينة وتركا بسرعة اربعة آلاف ميت . وفي ٢٢ آب اضطرت البندقية ألى الاستسلام . ومن الممكن القول بأن البندقية ومانين كانا عظمتين وحيدتين في ايطاليا ، اثناء ثورة ١٨٤٨ .

وهكذا اخفقت الحركة القومية الايطالية اخفاقاً ذريعاً . وكانت ، والحق يقال ، حركة استقلال اكثر مما كانت حركة تنظيم قومي . حتى ولم يكن فيها اتحاد ايطالي تصوره الشعب بوضوح . ولم يكن الوحدويون الا قبضة ، ولم يتجاوز الالبيرتيون فكرة ايطاليا الشمالية التي تضم الدوقيات . ان عناصر سوء الظن السياسي ، واستحكام الاوساط النعرية الخاصة شلت القوة الناجعة الممكنة ، البيمونت ، وتحملت البيمونت نفسها ، في اخفاق هذه الثورة ، مسؤولية ثقيلة . ومع هذا فان البيمونت هي التي ستفيد قطعاً من الحركة . لأن البيمونت ، في ايطاليا التي سقطت ثانية تحت نير رد الفعل ، ظلت البلد الدستوري الوحيد : وقد حافظ فيكتور ايمانوئيل في الواقع على النظام الأساسي الذي منحه أبوه في العام ١٨٤٨ ، وبقيت

البيمونت الدولة الوحيدة المستقلة من كل نفوذ أجني دون سائر الدول الايطالية . أما فيا عداها فقد كان نفوذ النمسا أو نفوذ فرنسا ، في روما ، مفروضين في الواقع .

غير أن ثورة ١٨٤٨ ، على أي حال ، كانت تجربة لايطاليا ظهرت في بعض النقاط ، وبخاصة ، لقد برهنت على أن ايطاليا غير قادرة على تشكيل نفسها بنفسها كما كانت تعتقد ، وانها غير قادرة على تشكيل وحدتها بقوة الثورة الداخلية وحدها . لقد كانت ، لتشكيل وحدتها ، بحاجة إلى ظروف أخرى دبلوماسية وسياسية ، ولن تتوافر هذه الظروف إلا في العام ١٨٥٩ و ١٨٦٠ .

٢ - قوميات النمسا

كانت ثورة فينا في ١٣ آذار ١٨٤٨ حركة ليبرالية ضربت شكل الحكم المطلق ، وطردت مترنيخ من فينا . وتبدو هذه الثورة حركة سياسية بسيطة جداً ، وبالاجمال ، محلية موضعية . وفي الحقيقة، ان هذه الثورة ، رغم انها كانت حركة سياسية بسيطة ، كانت أكثر خطورة من ذلك ، لأنها وضعت ، على بساط البحث ، قضية بنية الامبراطورية النمساوية : فعلى ضوء الثورة شوهد أن الدولة لم تكن سوى فسيفساء صنعت من بعض نظم عامة لجميع البلاد في الادارة والجيش والاكليروس . وقد زالت وسائل السلطة ، وبقيت الدولة في الهواء ، دون سند ودون قوة تلاحم ، لأن العنصر ، الذي يعتمد عليه كل شيء ، وهو العاهل ، قد زال . ومن جهة أخرى ، وضعت الثورة ، في الصعيد الأول من المسرح السياسي ، العناصر المقومة في الأمة ، لا في الدولة ، كما هي الحال حتى الآن ، وهنا ظهرت تنوعات واختلافات هذه العناصر ، حتى ان تعايشها بدا غير ملائم .

وهكذا لم تضع ثورة ١٣ آذار المشكلة السياسية العادية في التوفيق بين سلطة الحكومة وحقوق المواطنين فحسب ، وإنما وضعت ايضاً قضية أخرى وهي: كيف يمكن أن تعيش معاً هذه الشعوب المختلفة التي تؤلف الامبراطورية النمساوية . ولقد بينا كيف أن الحكومة النمساوية حاولت ، في عدة مراحل متعاقبة ، إعادة تنظيم الامبراطورية .

من الوجهة الزمنية ، أثارت الحركتان البوهيمية والهونغارية ، اللتان انفجرتا في وقت واحـــد ، الثورة الليبرالية في فينا . وكانت الحركة الهونغارية أهم من الأخرى بكثير ، ودامت زمناً طويلًا وقـد قامت الحركتان اليوغوسلافية والرومانية منافستين لهـا أو كرد فعل ضدها ونظراً لامتدادها زمناً طويلًا سندرسها على حدة . و الآن نبدأ بدراسة الحركات السلافية .

الحركات السلافية . ـ كانت الحركات السلافية أعظم تجديد سياسي ، لأن الهونغاريين موجودون منذ زمن طويل من وجهـة النظر السياسية ، ولم يكن من الثورة إلا أن عجلت وقوت حركة التلاحـم والاستقلال الهونغارية . وعلى عكس ذلك ، كانت الحركات السلافية عناصر جديدة ، وتختلف عن الحركة الهونغارية ، ولم تسع ، على نقيض هذه ، الى تشكيل دول منفصلة ، ولا تفهم خارجاً عن الامبراطورية ، حـــتى انهـــا ساعدت على تعمير الامبراطورية عندما هددت . ولقد رأينا ذلك في ايطاليا عندما لم تخرج العناصر الكرواتيـة و الهونغارية على أوامر راديتسكي. وظلت الحركات السلافية موالية ، والتجديد فيها هو أنه في الوقت الذي كانت فيه الحركة حتى ذلك الحين فكرية صرفـاً ، أخذت لتنتقل الآن

إلى الصعيد السياسي ولم تطلب ضمانات « ثقافيــة » ، فحسب ، بل ضمانات سياسية أيضاً .

بوهيميا . — كانت بوهيميا أول من تحرك ، فمنذ وصل نبأ الثورة الباريسية ، تحرك التشيكيون . وحتى ذلك الحين ، لم تكن الحركة سياسية ، ولم يكن فيها أحزاب منظمة ، والتجمع الوحيد المستعد للعمل كان يتألف من بعض الجذريين (الراديكاليين) فقد قام هؤلاء بمبادرة الدعوة لاجتماع سياسي كبير عقــد في براغ ، في ١١ آذار ، وأعرب عن مطلوب مزدوج وهو : مساواة التشيكيين والألمان من جهة ، ومن جهة أخرى انعقاد دياط عام سنوي للأقاليم الثلاثة في مملكة القديس - فانسيسلاس القديمة ، أي بوهيميا ، مورافيا ، سيليزيا . وسمى هذا الاجتماع العام وفداً ليحمل هذه المطالب الى فينا ، وكان هذا الوفد يناقش الحكومة عندما نشبت ثورة ١٣ آذار في فيتا . وفي ٥ نيسان حول هافليتشيف مباشرة مجلته الى صحيفة كبرى يومية .

وبعد يوم فيتا ، جدد البوهيميون عريضتهم وأرسلوا وفداً ثانياً ليضع أمام الحكومة نوعاً من إنذار . وكان على رأس هذا الوفد كاتب شاب ، **ريجير** ، المولود في ١٨١٨ ، وقد حصل على الدكتوراه في الحقوق برسالة في حرية الصحافة . ووضع ريجير هذا له مغزاه ومعناه . فقد كان صحافياً وشاعراً يكتب بالتشيكية . وتنازلت الوزارة النمساوية الجديدة ، وزارة **بيليو سدوروف** بالحال . حتى ان ريجير كلف بأن يحرر بنفسه قرار مجلس الوزراء ، في ٨ نيسان ، الذي يسمى ، « **ميثاق بوهيميا** » . وقد اعترف هذا الميثاق للتشيكيين بجميع الحريات السياسية المعتادة : حرية الصحافة ، حرية الاجتماع ، العبادة ، التعليم ، والمساواة أمام القانون ؛ ويحق جميع المكلفين بالضريبة في التصويت . وخارجاً عن

هذه الحريات الفردية ، اعترف الميثاق بـ « الحقوق التاريخية » لبوهيميا : أعلن مساواة القوميتين الالمانية والتشكية ومساواة اللغتين ؛ ووعد بتنظيم سلطة عليا ، في براغ ، للبلاد الثلاثة المؤلفة للمملكة : بوهيميا ، مورافيا ، سيليزيا ، على أن تنظم الجمعية التأسيسية النمساوية العامة هذه الدولة الجديدة ، بما يبرهن على ولاء التشيكيين للتاج النمساوي ؛ وانتظاراً لذلك ، اقيمت ، في الواقع ، سلطة محلية بشكل لجنة قومية مؤلفة من صهر الوجهاء المساعدين للحاكم ومن لجنة ١١ آذار .

واتيحت للبوهيميين فيما بعد فرصة مواتية للتعريف بأنفسهم بشكل اوضح كقومية : دعت ، في الواقع « لجنة الخمسين » في البرلمان التحضيري الألماني ، بالاتسكي لأن يأتي ويتعاون معها ، ولا عجب في ذلك ، لأن بالاتسكي كانت له صلات المانية ، وكان معروفاً في المانيا اكثر من أي عالم تشيكي آخر . ودعت لجنة الخمسين في الوقت نفسه البوهيميين ان يرسلوا نوابهم الى برلمان فرنكفورت ، بصفة اعضاء في الكونفدراسيون الجرماني ، فأجاب بالاتسكي هذه الدعوة برسالة رفض نسخت في كراس ولاقت انتشاراً كبيراً . وتجدر الاشارة في هذه الرسالة الى نقطتين :

١ - يقول بالاتسكي : « لست المانيا ، وعلى الأقل ، لا يتملكني شعور بأن اكون كذلك » . ويقول : « انني تشيكي ، ومن أصل سلافي ، والقليل الذي استحقه هو بكامله في خدمة الوطن » .

ان هذا الرفض ، الذي يعارض به بالاتسكي التعاون مع الألمان ، ينكر التضامن التاريخي لبوهيميا مع المانيا ، أو بتعبير آخر ، المفهوم القديم الذي ساد في العصر الوسيط وهو الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . وهذا الرفض يعني ان أساس الدولة ، كما يفهمه بالاتسكي ، هو رضى الشعب

بأن يؤلف جزءاً من الدولة وان يقرر مصيره بعقد ، او بتعبير آخر ، هو وضع أسس مفهوم الدولة الحديثة المعارض لدولة المانيا التاريخية .

٢ - يقول بالاتسكي : « من المؤكد ان الدولة النمساوية اذا لم توجد منذ زمن طويل ، فيجب علينا ، لمصلحة اوربة والانسانية ، ان نبادر لايجادها » . فهو يتصور هذه الدولة النمساوية على أساس المساواة التامة في الحقوق والاعتبار لكل القوميات التي تشكلها . ونجد في هذه العبارة ، أن المفهوم ، الذي كانت القوميات السلافية بحاجة اليه للخلاص ، ولمعارضة القوميات الأخرى بصورة عامة ، هو قوة التنسيق ، التي لا يمكن ان توجد الا في تبعيتها لدولة مشتركة نمساوية ، وهذا وحده يساعدها على ان تلعب دور المدافعين عن الحضارة الغربية حيال الشرق . وهذا يقتضي ، كما نرى مفهوم دولة نمساوية جديدة ، دولة نمساوية كانت وما زالت موجودة .

واتبعت كلمة الأمر التي قالها بالاتسكي : فقد قام هافليتشيف بحملة مقالات ضد الانتخابات المقترحة من اجل برلمان فرنكفورت . وغنيت الاغاني ضد الالمان . وكانت النتيجة مقاطعة التشيكيين للانتخاب ، وعدم اشتراك المان بوهيميا تقريباً ايضاً . وقد جرت هذه الانتخابات في آخر نيسان ، في ثلث الدوائر الانتخابية تقريباً ، وكان عدد المصوتين ضئيلاً . وهكذا عرف التشيكيون بأنفسهم عن طريق معارضتهم للألمان . لقد عرفوا بأنفسهم ، ولكن دون ان ينكروا ، من اجل ذلك ، تضامنهم مع المان بوهيميا .

وتطورت الحالة العامة تدريجياً في الامبراطورية النمساوية ، في الأشهر التالية ، في اتجاه ليبرالية عظيمة ، بسبب ثورات محلية صغيرة فينوازية ، وبخاصة ثورات ١٥ أيار و ٢٦ أيار ، التي قررت على ان يكون البرلمان النمساوي مجلساً تأسيسياً . وكان على التشيكيين في هذا البرلمان النمساوي

ان يظهروا حقوقهم . وعينت فينا على بوهيميا حاكماً ليبرالياً مناصراً للقضية التشيكية ، وهو الكونت ليون تون ، الذي تعاون مع اللجنة القومية . وكان هـذا التعاون دليلاً على ان ولاء التشيكيين للتاج مازال موجوداً دائماً . وفكر بيلرسدورف بتقديم حقيبة (وزارة) في وزارته الى شافاريك اولاً ، ثم الى بالاتسكي فرفضا . وعندما غادر الامبراطور فينا على اثر الثورة التي قامت في المدينة ليقيم في انزبروك ، في ١٧ أيار ، صوت التشيكيون على رسالة تفان وبذل في سبيل الامبراطور. وفي ٢٦ منه ، رفضوا ان يطيعوا حكومة فينا الثورية . واوفد ريجير الى انزبروك ليطلب الى الامبراطور ان يرسل بسرعة نائب الملك الذي عين لبوهيميا ، وهو الارشيدوق فرنسوا ـ جوزيف . وسمح الامبراطور بدعوة الدياط وتشكيل مجلس حكومة من ثمانية أعضاء في براغ ؛ وبتعبير آخر ، لقد شرع بالتنظيم القومي في بوهيميا ، قبل ان يوضع الدستور النمساوي ودستور الحقوق البوهيمية .

ولكن ، أمام الحكومة التي قامت بهذه التنازلات ، بقي الجيش متعلقاً بشدة بمفهوم الدولة القديم وكان فيندشغراتز يقود جيش بوهيميا ويمثل العناصر الرجعية في الدولة . فقد وجه خطابات الى الجنود لصالح السلطة . وجرى خلاف بين الجنود والعناصر الراديكالية في الحرس القومي ، في ١٢ حزيران ١٨٤٨ ، فانسحب فيندشغراتز من المدينة ، دون شرط ، ثم دخلها في ٢٧ منه واعلن حالة الأحكام العرفية . وعادت الأمور الى ما كانت عليه قبل ١٥ أيار . وما كاد الدياط ينعقد في ١٦ منه حتى أجل . يضاف الى ذلك ان التحقيقات السابقة في التنظيم التشيكي ارجئت وعلقت بقرارات من البرلمان النمساوي .

انعقد هذا البرلمان في فينا في ٢٢ تموز . ويتألف في اكثريته العظمى

من السلافيين . الغى النظام الاقطاعي ، في ٧ ايلول ، وبدأ عندئذ عمل تأسيس الدولة . ثم انتقل هذا البرلمان فيما بعد من فينا الى مدينة صغيرة في مورافيا وهي مدينة كروميير ، في ١٩ تشرين الأول . وتجمع التشيكيون في البرلمان ، خلف بالاتسكي وريجير ، والفوا يميناً اتحادياً (فيدرالياً) ، وحاول هذا اليمين وضع حل للقضية النمساوية ، والتوفيق بين السلطة المركزية واحترام القوميات . ولكن شفارتزانبرغ ، الذي تسلم الوزارة في تشرين الثاني وعرض وجهات نظره في خطاب له في ٢٧ تشرين الثاني ، أقام مقام هذا المفهوم مفهوماً آخر ، وهو المفهوم الوحدوي ، لا المفهوم الاتحادي ، واحترم ، مع ذلك ، مختلف القوميات بمنحها استقلالها الذاتي الاداري . وهكذا لم يطالب التشيكيون بنظام خاص بهم ، بل كانوا يفيدون من التنظيم العام للاستقلالات الذاتية القومية في داخل الدولة النمساوية . وفي الواقع ، لم ينالوا شيئاً اكثر من القوميات الأخرى ، لأن الحركة الرجعية تغلبت أخيراً في النمسا .

اليوغوسلافيون — كان اليوغوسلافيون في وضع مغاير : لقد كانوا تابعين لتاج القديس — ايتين ، ويتميزون عن المجر لا عن الألمان . ونجد عندهم مطالبة مزدوجة معاً : المطالبة بالاستقلال الذاتي لكل فئة يوغوسلافية ، وفي الوقت نفسه ، عاطفة تضامنهم . ولذا لم تقم الحركة اليوغوسلافية ضد فينا والحكومة المركزية ، بل انها اعطت الدليل على انه لاتوجد حركة سلوفينية في القسم اليوغوسلافي التابع مباشرة لفينا ، ولكنهم كانوا ضد المجر وكان المجر يؤلفون حائلاً بين حكومة الامبراطور وبينهم ، ولما لم يتفاهم اليوغوسلافيون مع المجر ، توجهوا ، لأعلى منهم ، إلى الامبراطور . وولدت ثورة فينا والمثل الذي ضربه الهونغاريون ، مطاليب سياسية ، في هذه المناطق ، بعد أن ظلت ، حتى الآن ، مطاليب فكرية . وقامت الحركة في آن

واحد ودون اتفـاق ، في المنطقتين اليوغوسلافيتين : التخوم الصربية وكرواتيا .

حركة التخوم الصربية . — كان صرب التخوم اكثرثورية وديموقراطية . لقد وجدوا زعماءهم في آن واحد في الاكليروس وعند العسكريين ؛ وكان الزعيان الكبيران المتروبوليت **راياتسيتش** والكولونيل **سوبليكاك** . لقد نقلوا مطاليبهم أولاً إلى بودابست ، فرفضت ؛ وأجابهم كوسوط : « السيف يقرر » . عندئذ توجهوا إلى فينا : طالبوا بتشكيل «فويفوديا» أي اقليم مستقل . واستقلت الجيوش الصربية عن بودابست واستنجدت بالمتطوعين ، برئاسة زعيم شاب قوي ، **شترا ديميرو فيتش** . وانفجرت في القرى مشادات بين الفلاحين الصرب والفلاحين الهونغاريين . وفي ١٣ أيار انعقدت الجمعيـة العمومية في كارلوفيـتز . وطالبت باقليم مستقل وانتخبت حاكماً مستقلاً وأعلنت بأنها اقليم يرتبط مباشرة بفينا .

كرواتيا . — أما كرواتيا ، فقد وجدت عندها من قبل اطارات قومية ، ويكفي أن تحرك لتلعب دورهـا . واستعملت الطريقة نفسها وحصلت على النتيجـة نفسها كما هي الحال في التخوم الصربية : قدمت مطالب إلى بودابست ثم إلى فينا . وتألفت اللجان الثورية في كل مكان في كرواتيا . وصرح الكرواتيون في العريضة التي قدموها للامبراطور بأنهم سيؤمنون استقلالهم بأنفسهم إذا رفضت الحكومة المركزية مطالبهم ضد « القوم الآسيوي الذي ليس لنـا ما نأخذه منه أو نعطيه إياه » . وقرروا مطاليبهم في مجلس عقد في **آغرام** . ووجدوا في فينا مستجيبين وحماة كالارشيدوق جان والكونت آبوني . وانضمت الحركتان إلى بعضها . وعينت حكومة فينا بانا من كرواتيا ، انتقته من بين أبنـاء البلاد وعينته مباشرة ، على حين أن بان كرواتيا كان يرتبط ، حتى الآن ،

بيودابست ؛ وكان البـــان الجديد الكولونيل يلاشيش . وكان وطنياً كرواتياً وشاعراً كرواتياً معاً ، وضابطاً موالياً لفينا، ورفع دفعة واحدة إلى رتبة فريق وقائداً لقطعة من الجيش . وباشر وظيفته الجديدة في ١٤ نيسان ودعا الدياط إلى أغرام .

واتحدت الحركتان الصربية والكرواتية ، والقى يلاشيش بنداء إلى الكرواتيين والصربيين وطبعه في الابجديتين الرومانيـة (من روما) والسيريلية . وفي الاحتفال الذي اقيم للمتروبوليت راياتسيتش نجـده إلى جانب الأساقفة الكاثوليك الكرواتيين . وكان رجال الآداب والكتاب يبشرون باتحادالفئتين اليوغوسلافيتين ،وانعقد دياط آغرام في ٥ حزيران، ووضع برنامج مطاليب ليبرالية ومحلية : طالب باتحاد الأقاليم القـديمة في « المملكة الاتحادية الثلاثية المؤلفة من سلافونيا ، كرواتيا ، دالماسيا » مع التخوم الصربية . ويقول الكرواتيون في الرسـالة التي وجهوها إلى الارشيدوق جان«اننا نشكل مع الصربيين شعباً واحداً ، ونرتبط ارتباطاً وثيقاً ، ولا شيء في العالم يستطيع فصلنا ».

وكانت هذه الحركة اليوغوسلافية تشكل ، كما نرى ، عنصـراً لحالة جديدة تماماً تضع وجود تاج القـــديس ايتين موضع تساؤل ، لأن الشيعة اليوغوسلافية في الدولة كانت تريد الانفصال عن بودابست . وبالرغم من المجاملة التي أبدتها الحكومة الامبراطورية بتسمية يلاشيش فقـد حاولت أيضاً التفاهم مع الهونغاريين ، بتضحية الكرواتيين: ففي ١٠ حزيران اكدت اتحاد كرواتيا وهونغاريا، وجردت يلاشيش من وظائفه. وصرحت حكومة بودابست أن يلاشيش متمرد . ولكن تعنت الهونغاريين كان سبباً في اخفاق هذا الحل الثنائي ، وعندئذ قررت فينا أن تلعب بحظ الكرواتيين . ارسل الدياط وفداً من الكرواتيين إلى فينـا ليحمل لهـا

مشروع دستور الدولة الكرواتية ، وتزعم يلاشيش هذا الوفد بجرأة ، بالرغم من أن حكومة بودابست اعتبرته متمرداً ، ولكنه في الواقع كان مدعوماً من قبل صداقاته في فينا ، وتخلص من الخطر الذي كان يهدده. وأمام الهونغاريين ، الذين كانوا مترددين ، أعطى الأمر إلى الجنود الكرواتيين الذين يخدمون في ايطاليا أن يظلوا أوفياء إلى الامبراطور وحماه العطف الذي كان له في فينا ، و ثبت في سلطاته ، ورجع إلى آغرام حيث طلب إلى الدياط أن يصوت على اقتراح الولاء للامبراطورية الوحدوية . وفي ٩ تموز عهد الدياط اليه بسلطات واسعة وانفض . وفي مؤتمر عقد في فينا ، في ٢٦ تموز ، تحت تحكيم الارشيدوق جان ، دعا يلاشيش الهونغاريين لسحب القرار الذي اتخذوه ضده ، فرفض الهونغاريون . عندئذ انسحبت الجنود الصربية من القطعات الهونغارية وانتظمت جانباً ، وشكل يلاشيش منها جيشاً قومياً . وفي ٤ ايلول صدرت براءة امبراطورية ثبتته في جميع سلطاته .

وهكذا تم الوفاق والتفاهم بين الحكومة الامبراطورية والقوميات الكرواتية ـ الصربية ضد الهونغاريين ، مقوضي وحدة الامبراطورية النمساوية ومضطهدي الصرب والكرواتيين . وارتبطت فينا واليوغوسلافيون ، ونظم يلاشيش الجيش الصربي ـ الكرواتي ، وأسهم هذا الجيش في جميع العمليات الموجهة ضد الهونغاريين . ففي البدء ، كان على يلاشيش أن يعمل وحده : استلم ، في ٣ تشرين الأول ، قيادة جميع الجيوش ضد الهونغاريين وارسلت اليه جميع النجدات الجاهزة في النمسا ، ثم قاتل الصرب تحت قيادة فيند شغراتز . وعندما قهر فيند شغراتز الثورة في فينا ، في ٣١ تشرين الأول ، تألفت وزارة شفارتزانبرغ ، في تشرين الثاني ، عندما تسلم الامبراطور الجديد السلطة ، في ٢ كانون الأول . وأسهمت

جيوش يلاشيش الصربية - الكرواتية أولاً بحملة كانون الأول ١٨٤٨ التي يقودها فيند شغرائتز ، وبعد نهوض الهونغاريين من عثارهم في شهر آذار ، في الحملة التي قاموا بها معاً ضد الروس والنمساويين ، في تموز وفي آب ١٨٤٩ . وهكذا كان الصرب والكرواتيون عنصراً من العناصر القوية في اصلاح الامبراطورية واخفاق الهونغاريين .

نرى أن مصير الصربيين والكرواتيين ، في مستقبلهم السياسي ، ممزوجاً بمصير جميع القوميات الأخرى في الامبراطورية ، كما يتعلق مصيرهم بمصير التشيكيين بالبرلمان النمساوي اولاً ، ثم بشفارتزانبرغ . وأخيراً، لم يحصل الصرب والكرواتيون على تشكيل دولة في منظمة فدرالية اكثر من التشيكيين ، ولكنهم حصلوا ، على الأقل ، في النمسا الجديدة التي شكلها شفارتزانبرغ على فائدة ، وهي تحررهم من الحجر ومساواتهم مع الهونغاريين في الدولة الجديدة التي وجد فيها « فويفوديا » اقليم كرواتي واقليم سلوفينيا - دالماسيا، ويتمتعان بالمساواة وبنفس النظم التي تتمتع بها الأقاليم الأخرى في الامبراطورية ويتمتع بها الهونغاريون الذين كانوا يوجهونهم سابقاً .

هذا فضلاً عن أن الحركة السلافية في النمسا كانت تمتاز ايضاً بالتضامن العام بين السلافيين الذي فسحت الثورة أمامه مجالاً للظهور . ولقد رأينا أنه كان بين المفكرين كتاب وعلماء سلافيون وعاطفة وحدة السلافيين كافة . وقد تعممت هذه العاطفة بفضل الثورة ، وبفضل دعوة الألمان لهم للاسهام في برلمان فرنكفورت . وقد ابعد التشيكيون هذه الدعوة . وكان برلمان فرنكفورت يتطلع إلى جمع أوربه الوسطى تحت الادارة الألمانية . غير أن هذا التطلع أوجد عند السلافيين ضرورة معارضة الكتلة السلافية للكتلة الألمانية ، وشعر سلافيو الشمال بخاصة الذين كانوا على اتصال مباشر ومعارضة مع الالمان بعاطفة التضامن مع الأجناس

السلافية الأخرى اكثر من غيرهم ، هذه العاطفة التي أخذت تتملك السلافيين جميعاً .

لقد ألقى بفكرة التجمع السلافي كاتب كرواتي اسمه ساكسينسكي . فقد نشر في شهر نيسان في « صحيفة القومية الايلليرية » مقالاً تصور فيه اتحاداً فيدرالياً بين جميع السلافيين ينظمه دياط يسهم فيه السلافيون من مختلف اجزاء اوربة . وأثار هذا المقال ضجة ؛ ونسخ ثانية في « الصحيفة القومية التشيكية » التي يديرها هافليتشيف ، في ٣٠ نيسان ، وفي هذا اليوم بالذات اجتمع في براغ فريق يتألف من عشرين تشيكياً وبولونيا وسموا لجنة من اثني عشر عضواً لاعداد هذه المنظمة السلافية . وكان يرأس هذه اللجنة الكونت **ماتياس فون‌تون** ؛ فقد دعا الى مؤتمر يعقد في براغ ، في ٣١ أيار ، لسلافيي الامبراطورية ، لا لجميع السلافيين كما اراد مقال ساكسينسكي ، ودعا اليه ، مع ذلك ، سلافيي البلاد الأخرى كضيوف ، دون ان يحق لهم التصويت أو المناقشة ، بل الاشتراك في المؤتمر . وهذه الدعوة ، التي وجهت في أول أيار ، كانت تضم بين موقعيها الكونت ماتياس فون‌تون ، وعدداً من كبار الزعماء التشيكيين ، مثل شافاريك ، بالاتسكي ، ريجير ، شتور ، أكبر كاتب سلوفاكي ، وسلوفيني ، وبولوني ، وصربي من لوزاس . وبالتالي وجد اناس من جميع أجزاء الدولة النمساوية . ثم انضم آخرون الى الموقعين الاولين ، في الأيام التالية . وظهر النداء اولاً بالتشيكية في جرائد البلاد ، ثم ترجم الى الالليرية والبولونية والصربية في لوزاس ، والألمانية .

قوبلت الفكرة بحماسة . ونجد في هذا النداء طابعاً لروح مزدوجة : وهي ان السلافيين يعارضون الألمان صراحة ويذيعون الفكرة القائلة بلزوم انقاذ امبراطورية النمسا من التفتت . ويؤكدون ، من جهة أخرى ، بأن

للسلافيين الحق بحريتهم وانهم ، في الواقع ، وصلوا اليها من قبل ، وانه يجب ضمان هذه الحرية والعمل على عظمة الجنس السلافي بالتفاهم بين مختلف جماعاته . ولازالة كل سوء تفاهم ، نشرت اللجنة ، في ٥ أيار ، اعلاناً ، حرره بالاتسكي ، يوضح ويعرف وجهات نظرها .

مؤتمر براغ — افتتح المؤتمر، في ٢ حزيران ، في براغ ، وضم ، منذ الأيام الاولى ، ٢٢٩ شخصاً ، ثم ارتفع العدد الى ٣٦٣ ، وجدفيهم ٤٢ يوغوسلافياً ، و ٦١ بولونياً . كانت الفئة العظيمة فيه بالطبع فئةالتشيكيين والسلوفاكيين ، وعددهم ٢٣٦ عضواً .ورفعت المدينة لاستقبالهم الألوان التشيكية : الأبيض والأحمر ، والألوان السلافية عموماً : الأبيض ، والأزرق ، والأحمر . وزينت ردهة الاجتماعات بجميع اعلام الفئات السلافية في اوربة كلها ، والعلم الأصفر والأسود ، علم امبراطورية النمسا ، وانتخب بالاتسكي رئيساً للمؤتمر . وانقسم اعضاء المؤتمر للدراسة التي يجب عملها الى ثلاثة فرق : فرقة مملكة بوهيميا ، اليوغوسلافيون ، والبولونيون والروتين والروس الصغار .

وضع منهاج العمل **فرنسوا زاش** : ويتضمن تحويل النمسا الى دولة اتحادية ، مع لزوم معرفة جميع اللغات السلافية في الامبراطورية من قبل اعضاء الحكومة والادارة ، ومساواة البولونيين والروس ، وتحرير الصرب المضطهدين من الاتراك ، وتعليم مختلف اللغات في البلاد السلافية ، وعقد المؤتمرات العلمية السنوية في البلاد السلافية ، والتسامح المطلق في الأديان . ولم يكن هذا البرنامج برنامجاً تساوياً فحسب ، أو يتضمن فقط تحويل النمسا، وانما كان اوسع من ذلك ، لأنه يتصور في آن واحد نظاماً عاماً للسلافيين وايضاحات عن حالة البولونيين والصرب في تركيا .

وهناك وثيقة أخرى للمؤتمر وهي بيان وجهه المؤتمر الى اوربة ، وقد حرره بالاتسكي ، وفيه يتجاوز البرنامج النمساوي الأصلي ، ويسرد فلسفة حق الشعوب المؤسسة على شعار الثورة الفرنسية : « حرية ، مساواة ، إخاء » . وهذا البيان يدل على الهام معنوي سام جداً . والعبارة المكررة التي نجدها في آن واحد في برنامج عمل زاش وفي بيان بالاتسكي هي دوماً اتهام الألمان والمجر المعارضين للسلافيين .

وأخيراً نجد مشروع رسالة موجهة الى امبراطور النمسا توضح مطاليب المؤتمر . وقد صوت على النص النهائي في ١٤ حزيران . ولكن في ١٢ منه قامت ثورة براغ التي تكلمنا عنها وقطعت الجلسات موقتاً . ثم استؤنفت الجلسات في ١٦ منه ، ولكن عدداً من المؤتمرين كانوا قد انصرفوا من قبل ، وفي ٢٨ منه ، غداة دخول فيندشغرائتز براغ ، اجل المؤتمر نهائياً .

ولكن العمل، الذي بدىء به، توبع، في الأشهر التالية، من قبل كبار المشتركين ، تحت شكل جمعية عرفت باسم جمعية « الزيزفون السلافي » (الزيزفون هو شجرة السلافيين الرمزية ، كشجرة السنديان عند الألمان) . وهدف هذه الجمعية هو الحصول على نظام دستوري مع مساواة القوميات في داخل النمسا ، وحماية الاستقلال السياسي لامبراطورية النمسا من مزاعم برلمان فرنكفورت والكونفدراسيون الجرماني ، وأخيراً العمل على الاتحاد الأخوي للسلافيين . وانشأت جمعية « الزيزفون » اخوات لها في الامبراطورية كلها . وتدخلت لتطلب تخفيفاً للتدابير الانتقامية التي اتخذها فيندشغرائتز في بوهيميا . ثم دعت التشيكيين لصالح سلافيي الجنوب الذين كانوا يناضلون الهونغاريين ، واحتجت بحرارة على سحق المجر بالدم حركة سلافية قامت في آخر السنة. ودعت أخيراً ، في ٢٨ كانون الأول ، مؤتمراً من جميع

اخواتها ، وقررت ان تنقلب الى اتحاد ،وأن يكون لها مؤتمر سنوي ؛ ولم تعقد جمعية الزيزفون أي اجتماع آخر .

ولم يخرج عملياً من هذه الحركة الجامعة - السلافية شيء فعلي . وذلك لأن الحركة كانت روحية صرفاً ، اكثر منها سياسية . الا أن لها اهميتها ،لأنها كانت اول ظاهرة للتضامن بين جميع السلافيين ، وبخاصة لأن السلافيين توصلوا فيها الى تعزيف انفسهم أمام الألمان ، ولم يبدوا عداءاً لامبراطورية النمسا ، ولم يقوموا بظاهرات مؤيدة للروس ؛ ولم يكونوا بالتالي في أصل ما سمي ، في منتصف القرن التاسع عشر ، « الجامعة السلافية » التي كانت شكلاً سياسياً خاصاً استعملته الدبلوماسية الروسية .

الحركة الهونغارية . - تمتاز الحركة الهونغارية في عام ١٨٤٨ بسيماء خاصة بالنسبة للقوميات الأخرى في الامبراطورية ، وبالنسبة لماضيها ايضاً . ولم يكن القصد من هذه الحركة ، كما في الحركات السلافية ، الحفاظ على امبراطورية النمسا مع تحويلات ضرورية ، بل كانت هذه الحركة تنزع ، على العكس ، الى تفتيت الدولة النمساوية ، لتخرج منها جسماً جديداً . ومن جهة أخرى ، كانت الحركة الهونغارية ،حتى الآن ،حركة ارستقراطية ، اما في ١٨٤٨ ، فعلى العكس ، كانت نتاج دفع ديموقراطي . وفي هذه الحالة او تلك ، لم تحدث الحركة دفعة واحدة ، بل على مراحل ، وسنبحث في كل منها .

لم يكن الهونغاريون، في الأصل ، مبعدين عن تقاليدهم ، وقد طالبوا بحقوقهم التاريخية فقط . واجتمع الدياط في برسبورغ، وكان في جلسة عندما وصل اليه نبأ ثورة باريس ، التي احدثت مباشرة ، في العالم المالي ، انهياراً، واعطت للحركة الهونغارية دافعاً جديداً . وكان عنصر العمل الحزب

الراديكالي الجديد الذي تشكل في ١٨٤٧ حول كوسوط بالرغم من انه لم يكن سوى عنصر تجمع قومي هونغاري . كانت الأزمة المالية بالنسبة لكوسوط حجة في كشف مسؤولية الحكم المطلق ، وطلب من الدياط ، ونوعاً ما الى هيئة المدافعة ، تحت ضغط الشبيبة الراديكالية التي كانت تقوم بظاهرة في برسبورغ ، التصويت على برنامج مطاليب يتضمن وزارة هونغارية مسؤولة ، وضمانات لاحترام القوانين الهونغارية ، ونظاماً دستورياً عاماً للمملكة لأنه الوحيد القادر على تأمين الأمن المالي .

لقد كان يوم ١٣ آذار في فينا لحد ما ناجماً عن تأثير الهونغاريين ، لأن قراءة خطاب كوسوط والدعاية له في سكان فينا أثارا حماسة وتحريضاً في الأفكار كانا في أصل المظاهرة الحتمية التي قلبت حكم مترنيخ . ولقد كان ليوم ١٣ آذار نتائج مباشرة : ففي بست شكلت الشبيبة « لجنة الأمن » وحررت برنامجاً في اثنتي عشرة نقطة حربة قومية . وفرض كوسوط في برسبورغ على الدياط التصويت على عدة قرارات ثورية : الضرائب الاجبارية على الجميع ، الغاء الاعباء الاقطاعية مقابل تعويض يدفع للمالكين . وأرسل وفد الى فينا واستقبله الشعب فيها بحماسة بعد ان انتصر على الحكومة .

استسلمت الحكومة الجديدة دون صعوبة أمام هذه المطاليب . ونقلت سلطات الملك الى حاكم هونغـــاريا ، وتقرر تشكيل وزارة من ثمانية أعضـاء مسؤولين أمام الدياط . ونظم قانون ٢٢ آذار هذه الوزارة التي ضمت زعماء الائتلاف القومي : دياك ، باتياني ، كوسوط . ونظم كوسوط حرساً قومياً . ومع ذلك فقد عينت الحكومة القضايا التي تحتجزها لنفسها باعتبارهاذات أهمية عامة . ولكنها تنازلت ، بعد قليل ، أمام اضطراب جديد ، وتقرر ان تكون تسوية القضايا العامة والتقسيم بين القضايا العامة والقضايا الهونغارية الخاصة بيد التشريع . وأن يؤيد الملك جميع القوانين التي صوت

عليها . وقد اذيعت هذه القوانين في ١١ نيسان وشكلت نظام هونغاريا الجديدة .

ظلت هونغاريا الجديدة هذه وحدوية : وقد دل القانون بصراحة على دمج ترانسلفانيا وكرواتيا والتخوم بهونغاريا ، على ان يكون لها نواب في البرلمان الهونغاري . وكانت الحكومة المحلية التي نظمها نظام ١١ نيسان ، ديموقراطية ، وأصبحت بست العاصمة السياسية لا برسبورغ . وتألف البرلمان الهونغاري من مجلس يسمى لثلاثة اعوام بتصويت غير عام ولكنه واسع جداً . والغيت الامتيازات الاقطاعية ، وكذلك امتيازات الاكليروس ، واعلنت مساواة القوميات ، وأصبحت الكوميتات أي الادارة المحلية منسجمة مع هذه المبادىء الجديدة . وأقرت حرية الصحافة مع التعهد المتوجب دفعه على الصحف والعقوبات على التهجم على أساس الدولة . ويعترف هذا الدستور أخيراً بسلامة المملكة واسهام هونغاريا في الحياة العامة للدولة ؛ وانشئت وزارة هونغارية في فينا للتعاون في القضايا العامة ، ومن جهة أخرى استلم الحاكم الهونغاري من الملك السلطة التنفيذية في هونغاريا .

وهكذا حصل الهونغاريون على توكيد ، بل يمكن القول ، على زيادة حقوقهم التاريخية . ووجدت الآن دولة هونغارية ، في نطاق الامبراطورية ، متكيفة ، بالطبع ، مع المفاهيم الجديدة الليبرالية الدارجة . ولكن هونغاريا المنبعثة من جديد كانت في الوقت نفسه هونغاريا جديـــدة من الوجهة الاجتماعية ، لأن الارستقراطية التقليدية فقدت امتيازاتها ، أي فقدت سيطرتها السياسية والإجتماعية .

وكانت هذه الحوادث معاصرة للامتيازات التي تنازلت عنها الحكومة لبوهيميا ومماثلة لها ، وبالتالي ، وجدت الدولة النمساوية في حكم ثلاثي : **النمسا ، بوهيميا ، هونغاريا** . كما كانت هذه الحوادث معاصرة للحركات

القومية السلافية والرومانية ، في داخل هونغاريا نفسها . ولقد رأينا ان الهونغاريين ، حيال هذه الحركات السلافية ، كانوا متعنتين وغير متسامحين ، ورادين للمطالب السلافية ؛ وكان كوسوط ، بخاصة ، مسؤولا بشخصه عن التطور العام الذي قيده هذا الرفض الهونغاري .

وقد وضعت الثورة الايطالية أمام الحكومة النمساوية ضرورة ملحة بأن يكون لديها اسلحة ورجال ! وبعد تردد اتجهت شطر الهونغاريين للحصول عليهم فرفض الهونغاريون ان يدعوا جنود جيشهم الموجودين تحت قيادة راديتسكي ، وابدى كوسوط ملاحظته بقوله : « فكروا بأننا من اجل الـ ١٢٠٠٠ هونغاري الموجودين في الجيش سنرى عودة ٣٥٠٠٠ كرواتي » . وفي هذه الظروف لعبت الحكومة الامبراطورية لعبتها الثنائية وضحت بالكرواتيين لحساب الهونغاريين للحصول على ماتحتاجه من هؤلاء من رجال ومال . وصدرت براءة امبراطورية في ١٠ حزيران ١٨٤٨ أيدت سلامة تاج القديس - ايتين ، وبالتالي دمج ترانسلفانيا وكرواتيا ، ووضعت جيش التخوم تحت قيادة حكومة بست ، وجردت بان كرواتيا من وظائفه . وفي ٢٦ حزيران تسلم الحاكم الهونغاري تفويضاً بجميع سلطات الامبراطور في البلاد الهونغارية .

ولكن هذا الحل اصطدم بتعنت الهونغاريين . فقد انقسم الائتلاف القومي : فمن جهة المعتدلون : باتياني ، أوتفوس ، زيشيني ، وكانوا يرون بانه يجب قبل كل شيء بقاء الدستور واستمراره ، وتقويته ، ولهذا ، يجب البقاء على صعيد الشرعية . غير ان كوسوط ، على العكس ، رغم انه كان وزير المالية ، بقي محرضاً ، ومالقاً : وباع التضامن الوزاري بثمن

بخس ، وسلك سياسة على حدة . وفي اول تموز انشأ لنفسه جريدة ، وأخذ يلقي في البرلمان بتصريحات عنيفة . وانعقد البرلمان في ٤ تموز ، وطلب كوسوط من المجلس شروطاً لتطبيق النظام الجديد : لقد اراد ان تبدأ الحكومة الامبراطورية باخماد تامة مـــا سماه « المتمردين » أي الكرواتيين ، قبل ان تهتم باللومبارديين ؛ كما اراد فرط ارتباط المانيا والنمسا، وصرح بأن الهونغاريين، في حالة حرب بين النمسا والمانيا ، لن يهتموا بالقضية ؛ وأخيراً صرح بأنه نصير حرية الايطاليين . وهكذا ادت سياسة كوسوط الى تفتيت الامبراطورية النمساوية . ولزم الأمر انشاء كتائب جديدة هونغارية خاصة ، وكان في ذلك بداية لجيش هونغاري . وهكذا اتجه الهونغاريون نحو سياسة متطرفة جعلت ثنائية الحكم مستحيلة .

لذا غيرت الحكومة النمساوية اتجاهها ، لاسيما وان نجاح فيندشغراتز في براغ وراديتسكي في ايطاليا قد قوياها . وعندئذ تبنت يلاشيش ، فأتى الى انزبروك ، في ١٦ حزيران ، على رأس وفد كرواتي ، واستطاع ، بفضل مهارة موقفه ، ان يدخل البلاط ثانية ، وعاد الى اغرام مع تثبيته في وظائفه ، وطلب من الدياط ان يصوت على الدكتاتورية التي عهدت اليه في ٦ تموز . وتمت القطيعة النهائية بين السلافيين والهونغاريين اثر مؤتمر عقد بينهم دون جدوى في ٢٦ تموز . فضلاً عن ان باتياني كان في هذا المؤتمر ، متعنتاً ايضاً حيال السلافيين ، كالديموقراطيين . وفي هذه الظروف ، تم التلاحم ، بين الحكومة النمساوية والسلافيين ، ضد الهونغاريين . وانتصبت الحكومة النمساوية بقوتها ، وفي ١٤ آب ، سحبت السلطات من الحاكم الهونغاري ، وفي ٤ ايلول ، صدرت براءة امبراطورية أعادت ليلاشيش جميع سلطاته . وفي البرلمان النمساوي ، الذي انعقد في ٢٢ تموز ، كان السلافيون أكثرية أمام

الألمان والهونغاريين . وهكذا قطف الهونغاريون ثمار سياستهم الانانية الخاصة والمتعنتة حيال السلافيين .

وفي هذه الشروط ، وجد الهونغاريون أمامهم جميع الغرباء عنهم : ثار السلوفاكيون في الشمال ولكنهم سحقوا في الدم في شهر آب . وفي الجنوب ، دحر الترانسلفانيون وصرب البانات الهونغاريين بدفعهم انحاء شتى في معركة زنت – تاماز ، في ١٩ آب . وعبر الكرواتيون نهر الدراف في ١٢ ايلول ، ورفض البرلمان النمساوي ، في ١٥ ايلول ، استقبال وفد من بست . وتواجد حل السلافيين وحل الحكومة النمساوية : وذلك باحلال المساواة بين القوميات ، في الامبراطورية الجديدة ، وبصورة ادق ، المساواة بين الكرواتيين والهونغاريين .

وفي الوقت الذي كان فيه السلافيون والحكومة الامبراطورية يتألبان على الهونغاريين أحرز المتطرفون الهونغاريون نصراً مبيّناً . وتحت تأثير الكراهية التي سببتها براءة ٤ ايلول ١٨٤٨ انقاد الدياط لدفع كوسوط وقرر بصوته اصدار نقد ورقي هونغاري وانشاء جيش قومي ، و « لجنة دفاع » تحت رئاسة كوسوط ، والغيت آخر بقايا النظام الاقطاعي ، ولم يخضع أي من هذه القوانين لتأييد الامبراطور . وأمام انتصار المتطرفين اسقط في يد المعتدلين وانسحبوا ؛ وامتنع الماغنات عن المجيء الى البرلمان ، وعجزت جهود باتياني في اصلاح ذات البين ، وفترت همة دياك و اوتفوس وانسحبا ، وانتحر زيشيني ، وسلم الحاكم الهونغاري سلطاته . وهكذا أبعد تدريجياً حل هونغاريا الحرة في داخل الامبراطورية النمساوية .

وحاولت حكومة فينا أيضاً أن تجد شكلاً أخيراً للتوفيق بواسطة محافظين هونغاريين ، وأرادت بذلك تسمية مفوض ملكي يلغي البرلمان ،

ويحكم في النزاع بين الهونغاريين والسلافيين ، ويعيد بناء الحكومة الهونغارية على أساس **البراغماتيك سانكسيون** . وأخذ الكونت الهونغاري المحافظ ، الكونت لامبرغ ، القضية على عاتقه ؛ فدعمه المعتدلون ، ولكن المجلس بدا معادياً للكونت لامبرغ بعنف وحرم على الجنود طاعته ، كما حرم على الكونت نفسه ممارسة وظائفه ، وداهمت الجماهير المفوض السامي على جسر الدانوب ، فاغتالته ، في ٢٨ ايلول ١٨٤٨ . ولم يبق بعد الآن إلا حل واحد ، وهو الحرب بين الهونغاريين وباقي المملكة . وفي ٣ تشرين الأول حل الامبراطور البرلمان الهونغاري ، وأعلنت حالة الطوارىء ، وسمت الحكومة الامبراطورية يلاشيش قائداً لجميع الجيوش وارسلت اليه كل مالديها من نجدات في باقي المملكة .

ومع هذا فقد تأخرت الحرب بسبب ثورة جديدة قامت في فينا ، في ٦ تشرين الاول ، وفيها شنق الجنرال **لاتور** وزير الحربية بعد أن علق بفانوس . ولذا لزم أولاً توطيد السلطة في فينا في ٣١ تشرين الأول، وتشكيل الحكومة على أسس جديدة ، وزارة شفارتزانبرغ . في ٢١ تشرين الثاني ، وأخيراً تغيير شخص الامبراطور ، وذلك بتولي فرانسوا - جوزيف، في ٢ كانون الأول ١٨٤٨ ، عرش النمسا . ولكن الهونغاريين لم يعترفوا بالامبراطور الجديد .

بدأت الحرب في بداية تشرين الثاني ؛ وفي ١٢ تشرين الثاني سلمت الحكومة فيند شغرائتز صلاحيات واسعة . وفي ٨ كانون الاول ، شكل الامبراطور حكومات خاصة في كرواتيا - دالماسيا ، وفي ترانسلفانيا ، وأخيراً في البانات و « الفيفوديا » في ١٨ كانون الاول . وفي ١٥ كانون الأول قام الهجوم من مختلف الجهات ، من الشمال ومن الشمال الغربي ؛

ضد الهونغاريين وكان يقود جيشهم الجنرال البولوني دمبينسكي . دحر الهونغاريون الى وراء نهر تيسزا ؛ وأخذت بودابست في ٥ كانون الثاني ١٨٤٩ ؛ وانتصر النمساويون عليهم أخيراً في كابولنا ، في ٢٦ شباط . وانتهى الأمر بحل التقسيم ، ووضع دستور ٤ آذار الهونغاريين في صف القوميات الأخرى في الامبراطورية ، وكم أفواه المعتدلين ، لأن وجود هونغاريا القديمة كان في موضع حرج وتضمنت التسوية بالدستور العام الحفاظ على الاصلاحات الاجتماعية التي صوت عليها الدياط ؛ ونالت هونغاريا الأصلية أي هونغاريا دون الأراضي السلافية ، استقلالها الاداري ، ولكن في الامبراطورية الموحدة . وكان هذا المفهوم الحديث ، مفهوم النمسا الجديدة على نقيض الثنائية التاريخية ، وعلى نقيض حق هونغاريا القديم .

ولكن الدستور لم يعمل عمله في هونغاريا اكثر من الثنائية البدائية . لقد انتقلت لجنة الدفاع مع البرلمان الى دوبرتشن ، ولكنها لم تستسلم ، وتبنى الهونغاريون موقف عدم القبول بالدستور . وتشكل من جديد جيش جديد في ترانسلفانيا تحت قيادة جنرال بولوني آخر يدعى بيم وعندما أصبح الجيش على أهبة الاستعداد شكا السلاح ودحر الألمان والروس خارج ترانسلفانيا في آخر آذار ، ثم استأنف الهجوم على النمساويين فطرحهم الى ماوراء نهر تيسزا نحو الغرب والشمال . وكسر جيش فيند شغراتز في ٧ نيسان ١٨٤٩ واستردت بست . وفي آخر شهر نيسان تحررت ارض هونغاريا الأصلية كلها .

كانت النتيجة الطبيعية لهذا النصر تقوية الحزب الانفصالي : ففي ١٤ صوت البرلمان بالاجماع ، الا المعتدلين فقد انسحبوا فعلاً ، على سقوط « بيت آل هابسبورغ اللعين » وصرح « بأنه يضع هونغاريا » مع جميع

اجزائها واقاليمها في صف الدول المستقلة » . وانتظمت الجمهورية الجديدة بسرعة ، وانتخب كوسوط رئيساً . وهذا يعني الانفصال . والفت هونغاريا دولة مستقلة . ولا شك في ان الحركة لم تحظ بإجماع الرأي ، لأن المعتدلين انسحبوا تباعاً أمام المتطرفين ، ولكن هل هونغاريا المستقلة قادرة على الحياة ؟ لقد اثبتت الحوادث انها واقفة ضدها .

كانت هذه القضية بالنسبة للنمسا رئيسية . و كانت كذلك بذاتها ، فضلًا عن ان ثورة هونغاريا هدمت امكانات سياسة شفارتزانبرغ الألمانية : فقد اضطرت النمسا ان تطلب من الألمان ان يؤجلوا كل قرار تنظيم في المانيا . وكان من نتيجة الحرب الهونغارية ان اطلقت، في المانيا ، يد بروسيا بسبب انسحاب النمسا الذي اضطرت اليه . ولم تقبل النمسا هذا الانفصال الهونغاري ، كما لم تقبله القوميات الأخرى في الامبراطورية ايضاً . لأن هذه القوميات لاتستطيع ان تعاق عليه أي أمل ، ولا ان تجد فيه أي فرصة ، نظراً لتعنت الهونغاريين على الصعيد القومي . لقد كانت القضية قضية قوة بين النمسا والهونغاريين ، وبتهكم فظيع عادت كلمة كوسوط الى السلافيين: « السيف يقرر »، ضد الهونغاريين .

واعيد بناء الجيش النمساوي على يد قادة اتوا من اركان الجيش في ايطاليا ، وبخاصة هايناو ، ولكن الأمر كان يتطلب لزوم أداة اقوى من الجيش النمساوي : فتوجه شفارتزانبرغ الى الروس ، وكان عندهم ١٥٠٠٠٠ رجل في غاليسيا و ٤٠٠٠٠ في بولونيا ، واكثر من ذلك الجنود الذين احتلوا الافلاق في العام الفائت . شخص فرنسوا - جوزيف وشفارتزانبرغ الى فارسوفيا (وارسو) لتنظيم حملة مشتركة ، وجاء ضباط من الأركان الروسية الى فينا لتحضير العمليات . وفي اول أيار ١٨٤٩ ، اعلنت

«الجريدة الرسمية » التحالف مع الروس . ورتبت ثغور جميع الجيوش ضد الهونغاريين جاء باسكيفيتش من غاليسيا واجتاز جبال الكربات مع ٨٠٠٠٠ رجل ، وانحدر هايناو على طول نهر الدانوب ؛ ودخل هونغاريا في راب ، في آخر حزيران . وصعد يلاشيش منطلقاً من بانات وأخذ نوفيزاد وبيترفاردان ، وأخيراً جاء آخر جيش نمساوي روسي من ترانسلفانيا ، حيث أخذ كرولشتات . وبعد بضعة اسابيع أخذت الجيوش الآتية من بودابست ، ومن جهة أخرى ، أخذت الجيوش الآتية من الطرف الآخر ، دوبرتشن في الجنوب ، في شهر حزيران . وطرح الهونغاريون في جنوب البلاد حيث سحقوا بانضمام الجيوش الثلاثة في تيميسفار ، في ١٠ آب . وسبب هذا الاخفاق تفتت اللجنة الهونغارية ، من جهة كوسوط ، ومن الجهة الاخرى وزير الحربية جورجي . واضطر كوسوط الى التخلي عن السلطة ، واستلم جورجي بين أيدي الروس في فيلاغوس ، في ١٣ آب . وهرب كوسوط الى تركيا ، واستلم كومورن ، آخر حصن هونغاري ، في ٢٩ ايلول . وكانت النتيجة نهاية هونغاريا . وأصبح مصير هونغاريا منوطاً بالنمسا ومرتبطاً بالتنظيم العام للنمسا ، وبنفس الصفة كسائر القوميات الأخرى .

نتائج الثورة في الامبراطورية النمساوية . — ماهي نتائج ثورة ١٨٤٨ في الامبراطورية النمساوية ؟ يجب ان نشير الى انه تم ، خلال هذه الحركات القومية ، تحول اجتماعي في الامبراطورية : لقد ألغي النظام الاقطاعي وحذف تشريع الامتيازات ، دون ان تتهدم قوة الارستقراطية الاقتصادية : فقد حافظ النبلاء على ملكياتهم الكبرى . واذا لم يوجد النظام الاقطاعي حقاً ، فان السيطرة الاقتصادية للطبقة النبيلة مازالت مستمرة

في الواقع . وهناك نتيجة تجدر الاشارة إليها وهي أن النمسا نظمت نفسها ، في البدء ، في اتجاه سياسة ليبرالية . ولكن، في النهاية ، أقام نظام باش الحكم المطلق ومحا الحريات السياسية الداخلية .

ان ما يهمنا من ذلك هو القوميات . فمن الطبيعي انها حصلت جميعاً ، كل واحدة بذاتها ، على المكاسب الاجتماعية للثورة . ومن الوجهة القومية ، تصورت الحكومة وبدأت تنظم تباعاً اشكالاً عديدة للدولة النمساوية : اولاً **الحكم الثلاثي** : النمسا بوهيميا ــ هونغاريا؛ وبعد اخفاق التفاهم مع الهونغاريين ، جربت **الاتحادية** (فيدراليسم) ، بشكل تؤلف فيه كل قومية من القوميات جزءاً من الدولة الاتحادية النمساوية؛ واخيراً مع شفارتزانبرغ ، **حل الوحدة** ، وتشكيل نظم اقليمية : وهذا هو دستور ٤ آذار ١٩٤٩ . وقد بدىء بتنظيم هذه الهيئات الاقليمية في القوميات الصغيرة ، وفي الأنظمة ١٨٤٩ و ١٨٥٠، الأقاليم الألمانية في مورافيا ، وسيليزيا ، وبوهيميا وغاليسيا . وآخر تطور حدث هو : ان برنامج الحكومة المركزية أصبح استبدادياً بالتدريج ، وقامت الصعوبات عندما اريد تنظيم وضع القوميات الكبرى مثل الكرواتيين والهونغاريين. وأخيراً ، انتهى شفارتزانبرغ بحذف الدستور المتوقع ، في ٣١ كانون الأول ١٨٥٠ ، وعندئذ ساد الحكم المركزي المطلق على جميع القوميات في الامبراطورية .

ونتساءل لأي حد كانت هذه القوميات متهيأة لقبول هذه الحلول المتتابعة التي أتت بها الحكومة النمساوية ! في البدء ، طلبت كلها، كما رأينا ، استقلالاً سياسياً ذاتياً واسعاً جداً ؛ ثم في برلمان فينا وكريمسير ، جهدت القوميات ، الا الهونغاريين ، بالتوفيق بين وحدة الامبراطورية والاستقلالات الذاتية القومية ، بشكل اتحادي . ثم ان محنة الحرب الأهلية اقنعت

الجميع ان من الضروري الابقاء على وحدة الدولة . ويشت البورجوازية خاصة ، فاندفعت في مصالحها المادية . وشايع الصحفيون الأحرار فكرة حكومة قوية تحافظ على السلام في الدولة . وهذا رأي بالاتسكي و أوتفوس . أما الذين رفضوا قبول هزيمة القوميات ، مثل دباك ، فقد اقتصروا على سياسة الدفاع السلبي بالتخلي عن الحلول الثورية وعن الانفصال .

وهكذا خرجت الامبراطورية النمساوية من الثورة بأقوى مما كانت عليه في السابق . لقد تصابت نوعاً ما ، وستبقى هادئة عشرة أعوام ، إلى ان تداهمها حرب خارجية بائسة فتضع من جديد قضية القوميات . وكانت هذه الحرب حرب ايطاليا عام ١٨٥٩ التي كان من نتيجتها حدوث تحول داخلي في النمسا بموجب براءة ١٨٦٠ .

الفصل الثامن

الوحـدة الألمانيـة

من ١٨٤٨ إلى ١٨٥٠

كانت الحركة الألمانية أكثر جميع الحركات القوميـة تعقيداً في ثورة ١٨٤٨ . فقد اشتبكت فيها قضايا متعددة ، وتنازعت الألمـــان ، كما رأينا ، مفاهيم متناقضة . وبعد أن نجحت الحركة الألمانية نجاحاً تاماً ، اخفقت كليـــاً ، حتى ان حركة ١٨٤٨ لم تقـرر المستقبل ، لأن العقائدية ، التي حققت الوحدة الألمانية ، فيما بعد ، لم تكن عقائدية ١٨٤٨ . يضاف إلى ذلك أن هذه الحركة ، كما سنرى ، قـد كشفت بخاصة عن المزاج القومي .

١ ـــ الاعمال التحضيرية وانعقاد البرلمان

لقد كانت ألمانيا ، قبيل الثورة ، معرفة بدقـة في الصعيد السياسي أكثر مما في الصعيـد القومي . وكانت العاطفة القومية حارة وعامـة ، ولكنها لم تذهب إلى أبعد من ذلك : وتصورت أهداف كثيرة ظلت غامضة . وقدمت بعض الحكومات فكرة إصلاح الدياط ، ولكن هذا العمل كان محدود القيمة والأهمية : وفكرت حكومات أخرى ببرلمان جمركي للاتحاد الجمركي (تسولفراين) ، ولكن لم يكن في كل هذا ألمانيا تامة

لأن الاتحاد الجمركي لم يمتد على ألمانيا كلها. ولم توضع القضايا الأساسية وهي : أصل السلطة في ألمانيا ، وشكل الدولة ، وامتداد ألمانيا نفسها . وعلى العكس ، كان الألمان ، على الصعيد السياسي الخاص، أكثر وعياً لما يرغبون في السياسة الداخلية . وفي هـذه الظروف ، سبقت الثورات السياسية الحركة القومية ، وكانت أكثر وضوحاً منها . فقد ظلت هذه الحركة تطلعاً كبيراً ، ولكن لم يكن لها زعيم له برنامج أو سلطة يعترف بها الجميع ، ولذا كانت هذه الحركة القومية ، في الواقع ، تحت رحمة الحوادث .

فكرة اصلاح الدياط . - كانت القضية مرتبطة بالفكرة الليبرالية ، وانبثقت مباشرة منذ أن شجعت ثورة باريس الألمان . وقامت مبادهات مختلفة من جهات متعددة ، ومع نجاح متفاوت ، منذ علم بثورة ٢٤ شباط ١٨٤٨ : فمن جهة الأمراء ، وأولاً ، من الجهة البروسية ، كان الممثل البروسي في الدياط ، **الكونت دونهوف** ينصح الملك فريديريك - غليوم بأن يتزعم الحركة ، وأن يدعو إلى فرنكفورت ، ممثلي ألمانيا كلها ، وجميع الدياطات ، وينظم جيشاً وأسطولاً ألمانيين مع علَم . غير أن فريديريك - غليوم ، لم يذهب بعيداً ، وأرسل منذ ٢٨ شباط **رادوفيتز** الى فينا ، وجرى اتفاق بين الحكومتين النمساوية والبروسية ، في ٢٥ آذار ، لدعوة مؤتمر الأمراء في درسدن . وعندما اختتم المجلس المتحد ، في ٦ آذار ، عاد فريديريك - غليوم في خطابه ، وأثار الذكريات الكبرى لعام ١٨١٣ و ١٨١٥ . ولكن أفكاره ظلت غير دقيقة وغير محدودة : لقد كان يتصور امتداد الاتحاد الجمركي في سائر ألمانيا ، ومحكمة عليا ، واتفاقاً نقدياً . كما أن ملك بافاريا ، من جانبه ، في نداء وجهه إلى

الشعب ، في ٦ آذار ، انتهى بقـوله : « كل شيء لشعبي ، كل شيء لألمانيا »، وفي ١٦ آذار ، اقترح حلاً وهو : هيئتان من مندوبي الدياطات تتفقان مع هيئة الأمراء ، وهكذا تتشكل حكومة من ثلاث هيئات ، أي نوع من تذكار دياط الامبراطورية المقدسة . وأخـــيراً تصور ملك فُرتامبرغ تجمع الدول الألمانية من جديد بشكل لايبقى فيه إلا أربـع أو خمس دول . وفي الوقت نفسه ، اقنعت مبادرة خاصة حكومات الغرب أن تأخذ على عاتقها الاصلاح أيضاً : وبناءً على اقتراح هنري فون غاغيرن في مجلس هَسّ ، في ٢٥ شباط ، قررت الحكومات الثلاث في هس ، وباد ، وناسّو أن ترسل بعثة استعلامات لدى الحكومات الأخرى ؛ وتألفت هذه البعثة من رجلين : ماكس فون غاغيرن والجنرال ليرباخ . وبدأت تحقيقها في كارلسروه وشتوتغارت، ثم انتقلت إلى مونيـخ ، ثم الى برلين حيث وصلت في ٢٣ آذار متأخرة ، لأن الثورة نشبت في الفترة الفاصلة بين التاريخين . وكانت الفكرة البدائيـة تشكيل حكومة موقتة تأخـذ بيدها القضايا الأجنبية ، بانتظار التمثيل القومي . إلا أن هذه الفكرة تحولت تدريجياً بالتعديلات التي جمعت من مختلف العواصم ، بيد أنهـا وصلت متأخرة ، لأن حلولاً أخـرى تدخلت . وبالاجمال ، يجب أن نأخذ من هذا ، ان الحكومات فهمت ضرورة إصلاح ألمانيا ، ولكنها أرادت أن تقصر هذا الاصلاح على إصـلاح الدياط ، وتصورت بصعوبة اشراك الشعب بكامله ، الأمة ، في هذا العمل .

دراسة الاصلاحات . ـ وهناك مبـادهـة أخـرى لم تكن من الحكومات الخاصة، بل، إذا أمكن القول، من حكومة ألمانيا ، من الدياط : كان دونهوف مفعماً بالنشاط والمبادهة ، وكان يتجاوز تعليمات حكومته

ويحاول أن يفيد من الغياب الموقت للمندوب النمساوي في إجازة : ففي أول آذار وجه الدياط ، بناءً على مبادهته ، نداءً إلى الحكومات وإلى الشعب الألماني ، وناشدهم الاتفاق والتعاون في سبيل التقدم العام، ووعد أن يعمل على توطيد الأمن والحياة القومية وفي ٩ آذار ، وضع في أسلحة ألمانيا النسر الأمبراطوري القديم والراية القديمة للامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . وفي ١٠ آذار دعا الدول الألمانية ، بناءً على اقتراح مندوب باد ، فيلكر ، أن تلحق به سبعة عشر « رجل ثقة » ليدرسوا معه الاصلاحات التي يجب القيام بها .

التمثيل القومي . - وهو المبادهة الثالثة والخامسة وقد اقترحها الأفراد . فبناء على اقتراح تقدم به ليبراليان ، **دومر وإنسهايم** ، اجتمع واحد وخمسون ليبرالياً ، آتين من الجنوب والغرب ، في هايدلبرغ ، في ٥ آذار ١٨٤٨ ، واتخذوا قراراً يطالب **بالتمثيل القومي** ، وبأنه يجب على رجال الثقة من جميع البلاد الألمانية أن ينظموه ، وسموا لجنة مؤلفة من سبعة أعضاء لدراسة شكل هذا المجلس . وكان هؤلاء الأحرار معتدلين يكرهون الحركة الشعبية الزراعية التي بدأت ترتسم في ألمانيا وتحدت الأمراء . ودعا السبعة الأعضاء ، الذين اشتركوا في جميع الدياطات الألمانية القديمة والحالية . ثم وسعوا دعوتهم على رابطات وطنية ، وأخيراً ، على وجهاء . وكلف **غوفينوس** أن يدرس مقدماً المشروعات التي ستعرض على المجلس . وهذه المبادهة الخارجة عن القانون ، التي قام بها بعض الأحرار الليبراليين ، كانت في أساس الثورة القومية .

وفي غضون ذلك ، قامت الثورات في فينا ، في ١٣ آذار ، وفي برلين في ١٨ ، وفي مونيخ في ١٩ ، وتحولت جميع الدول إلى دول

ديموقراطية . ومن جهـــة أخرى ، نشبت الحركة الجمهورية في الجنوب الغربي وأخفقت . ويبدو أن فريديريك – غليوم أراد أن يتزعم الحركة القومية ، اما لأنه رأى فيها تحويل نظر ، وأما عن قناعة شخصية . ففي ندائه الذي وجهه إلى سكان برلين ، في ٢٠ آذار ، قال: « إلى شعبي وإلى الأمة الالمانية » وصرح بأن سلام ألمانيـا يأتي من « اتحـــاد الأمراء والشعوب ، تحت إدارة عامة » . وصرح بأنه على استعداد لأن يأخـذ على عاتقه هذه الادارة في يوم الخطر ، وأضاف : « ان بروسيا ، من الآن فصاعداً ، تتحول في ألمانيا » ، وستكون الشروط العامة لهـــذا التجديد الأنظمة الدستورية ، ومسؤولية الوزراء ، وهيئة المحلفين ، والمساواة في الحقوق السياسية والمدنيـة والمساواة في العبادات . ويبدو أنه كان عند فريديريك ـ غليوم اخلاص حقيقي في هذه النقطة ؛ وفي ٢٨ آذار ، قال إلى ضباطه : « إن جميع أفكاري ، في الوقت الحاضر ، منهمكة في الوطن الألماني . ولانقاذه من الانقسام ، ولن أتردد أمام أعظم التضحيات » . غير أن أفكاره كانت مزيجـاً من أمور مبهمة مع بعض الدقة والوضوح وهذا ماجعل برنامجه ضعيفاً هزيلاً . ويلفت النظر فيـــه الاختلاف بين الخزي الذي فرضته عليه ثورة برلين والمزاعم الألمانية التي يؤكد عليها . وهذا الموقف من فريديريك – غليوم أثار مباشرة كثيراً من سوء الظن والاحتجاجات : فمن ذلك أن الحكومة النمساوية اتهمته في بلاغ وجهته إلى عملائها في ألمانيـا ، في ٢٤ آذار : إننا نؤمن بأن الملك لايتابع إعادة النظر في الدستور ، وإنما الانقلاب التام ، وليس هذا العمل منه بناءً على معاهدة ابرمت بشكل منظم ، بل حسب إرادته الخاصة وحدها . وفي هذه الظروف ، يريد الامبراطور بوضوح ، أكثر من أي وقت مضى ، أن يبقى على صعيد معاهدة ٨ حزيران ١٨١٥ ، التي يمكن ولاشك أن تتغير

ولكن دون أن تفسخ من جانب واحد ويترتب على ذلك مفعول حقوقي » .

وفي الدول الأخرى ، في فرتامبرغ ، في ساكس ، في هس ، في باد ، ظهر عداء عنيف ضد ملك بروسيا ، سواء من الحكومات أم من الشعوب وعلى الراين بدأت تظهر من جديد ، فكرة اتحاد الراين ، وفكرة الحاكم البروسي . وهكذا نرى ، منذ الأصل ، الأمارات الأولى لسوء تفاهم بين فريديريك - غليوم الرابع وألمانيا . وكان هنري فون غاغيرون وحده في ألمانيا ، يدافع عن ملك بروسيا .

انعقد المجلس التحضيري (الفور بارلمان) ، الذي نصت عليه لجنة السبعة ، في فرنكفورت في ٣١ آذار . ويتألف من ٦٠٠ عضو تقريباً ، موزعين بشكل متفاوت جداً بين مختلف دول المانيا ، فلم يكن للنمسا إلا ممثلان ، باعتبار أنه لم يكن لها برلمان ، ولذا لم يكن لها مندوبون ، على حين أنه كان لبروسيا ١٤١ مندوباً ، والفرتامبرغ ٤٢ ، وبافاريا ٤٤ ، وبالمقابل كان لدوقية باد ٧٢ ، ودوقية هس - دارمشتات ٨٤ . ولم يكن لهؤلاء الاعضاء في الفور بارلمان بالطبع أي تفويض بالسلطات الشخصية ولا يمثلون شيئاً ، وهم من أصول مختلفة . وعقد الفور بارلمان اربع جلسات ، من ٣١ آذار إلى ٣ آب ، واتخذ بعض قرارات هامة .. ووجد نفسه أمام مشروعين مهيأين لاصلاح المانيا .

١ - المشروع الأول ، وضعته لجنة السبعة ، ويتصور دولة اتحادية ، مع رئيس ووزارة مسؤولة ، ومجلس منتخب ومجلس الدول ، ويدخل في اختصاصها الجيش ، والعلاقات الخارجية ، والتجارة ، والجمارك والنقد ؛ وتقوم وحدة القوانين المدنية والجنائية في كل المانيا . ولم يكن هذا المشروع بالإجمال الا توضيحاً لفكرة البندسشتات عوضاً عن الشتاتنبوند والدولة الاتحادية مكان كونفدراسيون الدول .

٢ – المشروع الثاني ، اتى به الديموقراطيون الراديكاليون ، جماعة شتروف ، ويتضمن خمس نقاط تتصور جميع القضايا السياسية ، والاجتماعية والقومية ؛ ويريد أن يوطد في المانيا الوحدة القومية باكثر مما في المشروع الآخر وأن يلحق الدول المحلية بالحكومة القومية بشكل أوثق .

وقامت المناقشة بين النزعتين حالاً ؛ وأخيراً أحيلت القضية الى البرلمان لينظر بها حين انعقاده .

كيف سيكون هذا البرلمان ؛ هذا هو القرار الرئيسي . لقد أضيفت الى الكونفدراسيون بروسيا الشرقية وبروسيا الغربية اللتان لم تؤلفا جزءاً منه ، وليمبورغ وشلزفيغ . ودعيت هذه الاقاليم الأربعة لارسال ممثلين عنها الى البرلمان ، كما تؤلف ، بالطبع ، اللوكسمبورغ وأقسام النمسا جزءاً من الكونفدراسيون . ويكون الناخبون جميع المواطنين دون تمييز في الدين والحالة الاجتماعية ، باعتبار انهم مستقلون ، وهذا يعني التصويت العام الذي ينتخب نائباً عن كل ٥٠٠٠٠ نسمة . أما الاهتمام بتنظيم وتعريف كيفية الاقتراع فقد ترك الى الدول الخاصة .

وفي داخل هذا المجلس الأول ، قام نزاع عنيف لمعرفة ما اذا كان المجلس سيبقى في حالة انعقاد أو لا ؛ لقد أراد الجمهوريون ، وكانوا عنيفين ، مثل هيكر وشتروف ، استمرار انعقاد المجلس ، فلم يحصلوا على ما يبغون وانفصلوا . ثم انتهى الأمر بتسوية : وهي أن يسمي المؤتمر التحضيري وفداً مؤلفاً من خمسين عضواً لم يوضح دورهم ويقصى عنهم الجمهوريون . وأخيراً ابعد هذا البرلمان برنامجاً جمهورياً لصالح الطبقات العاملة ، وأعرب على أمله بتحسين مصير الطبقات الفقيرة .

وهكذا تناولت المطاليب ، التي ظهرت في المؤتمر التحضيري ، الصعيد

السيامي والصعيد الاجتماعي معاً ، ولكنها أبعدت في هذه النقطة الأخيرة .
وفي الواقع ، لم يقم الفور بارلمان بأي مبادهة ثورية الا ببادهة دعوة البرلمان ، وهذا كثير .

وبانتظار اجتماع البرلمان وضعت مشاريع عمل لتعرض عليه عند انعقاده . ونمت في ذلك الحين الحركة الجمهورية والاجتماعية في غرب المانيا واثرت على الانتخابات في اتجاه محافظ ، في شهر نيسان ، وفي الوقت نفسه افتتحت قضية الدوقيات الدانياركية بثورة هولشتاين . وضعت مشاريع العمل اولاً من قبل « رجال الثقة السبعة عشر في الدياط » . وكان مشروعهم مشروع دالمان . فقد انتهى في ٢٦ نيسان ونشر حالاً ؛ ويتضمن امبراطوراً وراثياً ، ومجلس أمراء أعلى ، ومجلساً منتخباً أدنى ، والوحدة الدبلوماسية والعسكرية والاقتصادية في المانيا ومحكمة اتحادية . ولكن الدول المختلفة وبروسيا نفسها استقبلت فكرة الامبراطور استقبالاً سيئاً .

ووضع الخمسون مشروعاً آخر ، وكانوا يعتبرون أنفسهم أداة انعقاد البرلمان ، وبهذه الصفة دعوا بالاتسكي ليأتي ويتعاون معهم . ودعوا أيضاً دول النمسا ، بما فيها سلافيي الشمال ، وبخاصة التشيكيين ، الى انتخاب ممثليهم في البرلمان ؛ ولقد رأينا أن هذه الدعوات اصطدمت برفض . واقترح الخمسون تعليق الدياطات المحلية أثناء انعقاد البرلمان ، فرفضت الدول .

وأخيراً وضع الدياط مشروعاً ثالثاً : وقد افزعت الحركة الثورية الجمهورية هذا الدياط ، فأراد انشاء سلطة تنفيذية بالحال ؛ وقد اقترحها في ١٢ نيسان ، ولكن اقتراحه أثار خلافاً مع الخمسين .

وأظهرت هذه الحلول المختلفة المتصورة صعوبات ، واصطدم بها تنظيم

المانيا آجلاً . وفي الواقع ، لم يتوصل الى شيء فعلي في هـذين الشهرين والنصف . وهذه ظاهرة عجز ولادي للمرور الى صعيد العمل، ونراه صفة مميزة للبلاد ومع هذا فقد تمت نتيجة واحدة ، لأن كل شيء سلم لقرار البرلمان . وهذا اعتراف ضمني لمبدأ السيادة القومية في المانيا كلها .

تركيب برلمان فرنكفورت . – وفي شهر نيسان قامت في المانيا حركة اجتماعات ومناقشات وانتخـابات . وتوجب انتخـاب ٨٣١ نائبـاً للبرلمان ومن يحل محلهم من نواب مختلف البرلمانات في المانيا ، وتركت كيفية الاقتراع لقرار الدول الخاصة .

لقد وجد في الواقع أقل من ستمائة نائب في برلمان فرنكفورت بسبب قطيعة ممثلي التشيكيين في بوهيميا . إلا أن ممثلي النمسا كانوا كثراً في آخر السنة في برلمان فرنكفورت . وجـد في البدء ٤٠٠ الى ٥٠٠ نائب في الجلسة . ولم يوجد تقريباً ، في هذا البرلمان ، ممثلون للطبقات الشعبية ، وهذا يوضح لنا أن العمال شعروا بحاجة لانشاء منظمات موازية . فقد كان النواب جميعهم بورجوازيين أو أناساً من الطبقات العليا ولم يكن ليمثل المهن الاقتصادية إلا ١٤٠ نائباً منهم ٤٦ تاجراً و ٦٠ مزارعاً ، وكان هؤلاء وهؤلاء منتخبين من بين كبار الملاكين أو التجار أو رجال الأعمال الهامين . وكان المفكرون مسيطرين ، وقد بلغ عددهم ٥٦٩ ، منهم ١٠٦ أساتذة ، ٢٢٣ رجل قانون ، ١١٨ أعضاء ادارات . وكان لتركيب برلمان فرنكفورت هذا مغزاه من حيث جمع (سوق) **الحزب القومي** ، الذي كان بخاصة ، كما رأينا ، حزب المفكرين ، ومن حيث المفهوم الذي كونه ألمان ذلك الزمن عن القيمة الاجتماعية .

لم يكن لهؤلاء النواب بالطبـع أي تجربة في العمل البرلماني . اجتمعوا في ١٨ أيار في كنيسة القديس – بول ، في فرنكفورت .وفي الجلسة الثانية

انتخب الرئيس هنري فون غاغيرن ، نائب الهس ، بـ ٣٢٠ صوتاً على ٣٩١ . ونظم العمل الداخلي حسب نموذج النظام الذي تبنته الجمعية التأسيسية في فرنسا : فقد انقسم هذا البرلمان الى خمسة عشر مكتباً (لجنة) للمناقشة الأولية للمشاريع قبل مناقشات الجلسات العامة . وتشكلت هذه المكاتب في لجان خاصة ، ولكن اللجان البرلمانية الفرنسية كانت هيئات عمل ؛ أما هنا فكانت مجالس نقاش حقيقية صغيرة تضم من خمسة عشر الى ثلاثين عضواً ، ثم ازدادت . وهكذا وجدت لجنة الشؤون الاقتصادية ، وكانت برلماناً حقيقياً صغيراً ، ولجنة العرائض ، ولجنة الشؤون الخارجية ، وأرادت أنها توجه الدبلوماسية ، ولجنة التشريع وتقوم بعمل مزدوج مع لجنة الدستور وهذه اللجنة أساسية لأنه يتوجب عليها اعداد مشروع تنظيم المانيا ، وكان رئيسها **باسرمان** ، وتضم كبار نظريي الحزب القومي : آندريان ، دالمان ، هنري سيمون ، روبيرت بلوم ، فيلكر ، وغيرهم . وكان هؤلاء النواب يؤدون مهتهم بكثير من الوجدان وبكثير من القناعة ، ويهتمون بالذهاب بالمناقشات حتى آخر حد ، ويعالجونها بروح الألمان الذين يندفعون حتى النهاية في نظرياتهم ولا يتخلون عن أفكارهم . وتعددت المشاريع ، وامطرت التعديلات ، ووجدت موجة من العرائض أتت من المانيا كلها . وهكذا ضاع النواب في مناقشات لانهاية لها . ومن جهة أخرى ، ارتكبوا ، في ٢٩ آيار ، خطأً في تثبيت جدول أعمال المناقشات بشكل نهائي ، ولم يعرفوا كيف يأتون بالمرونة الضرورية في المناقشات وفي العمل .

وهكذا كان البرلمان أداة ضعيفة للعمل ، ورأى انه لا يستطيع ان يسير أعماله بشكل نافذ إلا إذا اقتصر على عمل واضح ومحدود وهو : سن الدستور ، وبقي في مضمار التشريع بخاصة . ولكن وجوده كان على درجة عظيمة

الأهمية . ومهما يكن اتجاهه ، فان وجوده وحده كان ثورة ، وذلك لأنه وجدت للمرة الاولى هيئة تمثيلية لكل المانيا .

٢ — البرلمان في العمل .

لقد كان هذا البرلمان مطلق اليدين ، ليس أمامه أي عائق في الأشهر الأولى من انعقاده ، ولم تأته من الحكومات أي عقبة . إلا أن الحكومات في الخريف بدأت تشعر بأنها أكثر وعياً وأكثر قوة . لقد تحمل البرلمان حقاً مسؤولية مصيره . وظهرت الأحزاب السياسية بسرعة . وفي الواقع ، وجدت اختلافات كبرى في الرأي وتناقض في المصالح . لقد كانت جميعاً حسنة النية ورصينة ، ولكنها سيئة التصرف ومتعنتة : كان طابع هذه الأحزاب فردياً عنيداً ومتعصباً ، ولم يكن لها في الوقت نفسه نظام داخلي . وأخذت تتنوع بازدياد . وفي الحقيقة كان الحس السياسي ينقص رجال الأحزاب جميعاً .

اليسار . لم يكن في البرلمان سوى عنصرين معرفين جيداً ولهما نظام وهما بالطبع الطرفان . كان **اليسار** ، بالاجمال ، تتمة للعناصر الراديكالية والديموقراطية التي ظهرت في السنوات الأخيرة . فقد تجمع في الفندق الألماني (لقد كانت تعرف هذه الأحزاب من المكان الذي تجتمع فيه) حول روبيرت بلوم وكانوا يرون ان يطبق في المانيا ، مع الوحدة ، برنامج متقدم جداً بالديموقراطية . ومع ذلك فقد كانوا يقبلون أيضاً الاعتراف بوجود ملكيات ، وبعدم تقويضها حتى انه في هذه المجموعة التي اجتمعت في الفندق الألماني ، انفصل بسرعة الديموقراطيون المتعنتون الذين ظلوا مخلصين أوفياء لمثلهم الأعلى الثوري وهو تركيز جميع السلطات التنفيذية والتشريعية في فرنكفورت ، والسيادة البرلمانية ، الجمهورية . وكان الزعيمان برنتانو

وتسيتز ؛ يجتمعان في دونوسبرغ . وستعرضها الحركات الثورية ، الحركات الاجتماعية التي قامت في المانيا ، للخطر أكثر مما ستدعمها .

اليمين . — وفي الطرف الآخر ، في اليمين ، انعقد اجتماع في **دارة بطرس** ، ثم في مقهى **ميلاني** . وكان برنامج اليمين أن يقتصر البرلمان على دوره التأسيسي الذي يجب أن يتم باتفاق مع الحكومات . ورفضوا في البرلمان كل سلطة تنفيذية . وبالجملة كان هذا اليمين يضم النعرات المعارضة لصهر الدول في المانيا . ووجدت له فرق مختلفة . وجد **البروسيون** حول **رادوفيتز وفينكيه** . ووجد **البافاريون** ، حول **لاسولكس** ؛ **والهانوفريون** ، حول **ديتمولد** ؛ **ونمساويو اليمين** حول **شميرلنغ** الرئيس النمساوي السابق في الدياط ، وأمهر رجال البرلمان وأكثرهم خبرة . وإلى جانب هذه الفرق ذات النعرة الخاصة ، كان اليمين يتألف من اكليركيين من جميع المذاهب .

الوسط . — وبين هذين الطرفين ، يتألف الوسط من كتلة النواب ، وكان يرغب مخلصاً بالوحدة والحرية معاً ، غير أنه كان مضطرب الأفكار ، وعلى العموم محافظاً ، وبالتالي يفزع من الحركات الشعبيه . وكانت فيه جميع الدرجات الممكنة للحرية والقومية والمحافظة . ويضاف الى ذلك تعاطف الأصل ، وقضايا التكتيك ، ولذا كان الوسط مقسماً الى جماعات ذات موقف مضطرب ومتناقض . وعلى العموم ، وجد انقسام بين جماعتين : الوسط الأيمن والوسط الأيسر .

كان **الوسط الأيمن** يتألف من حزب الدولة الاتحادية السابق ويلتف حول هنري غاغيرن . إلا أن هنري يلتف غاغيرن هذا أصبح رئيساً للبرلمان ، وبالتالي لايستطيع أن يوجه الحزبّ فعلاً . وكان الحزب يجتمع في كازينو ، ويضم النظريين الأساسيين من انصـــار الاصلاح الدستوري والحرية في

الدول ، بتعاون الأمراء والشعب . وكان الجميع متفائلين ، وهذا قوة ، ولكن لم يكن لديهم حس بالواقع ، وهذا ضعف . ونجد بينهم دالمان ودرويسن المؤرخين ، وباسرمان وماتي مؤسسي « الجريدة الألمانية » وفيلكر وميفيسن .

واجتمع الوسط الأيسر في فندق فورتامبرغ . وكانت أفكاره افكار الوسط الأيمن ، ولكنه كان يلح في اتجاه السيادة القومية على طبقتين ، أما في الدول وأما في التنظيم الألماني . كانوا ملكيين وبرلمانيين ، وأنصار تحديد الاستقلال الذاتي للدول أكثر مما يريد الوسط الأيمن . وكانوا من كبار العاملين ، وسيطروا بصورة خاصة في اللجان ، وأهم زعمائهم ريجير وفيشر .

وكان كل حزب من هذه الأحزاب ، ومن الممكن القول ان كل نائب من هؤلاء النواب يؤكد قناعاته واعتقاداته في موجة من الاقتراحات والخطب . وتدفقت العرائض من جميع أجزاء المانيا . ووجهت جميع أنواع الأسئلة إلى برلمان فرنكفورت . حتى انه توجب مضاعفة عدد أعضاء لجنة العرائض ، وكل هذا يدل على روح قومية حارة ، وإيمان عريض عصير ألمانيا القومي ، ولكنه كان في الوقت نفسه بادرة صعوبات عظيمة عملية .

وكان ينتظر الكثير من نواب فرنكفورت ، حتى انهم أنفسهم كانوا مستعدين للقيام بالكثير ، وأول خطأ لهم زعمهم القيام بسياسة عظيمة .

الحكومة المؤقتة . ـ كان يراد في البدء تشكيل حكومة مؤقتة على الأقل : وقد أراد النواب في حماسهم واندفاعهم الأول أن يؤكدوا سيادتهم . وفي ٢٧ أيار ، بعد أربعة أيام من المناقشات ، صوت المجلس على اقتراحين مبدئيين ، وقال عن نفسه بأنه « هيئة ارادة الامة الألمانية وانتخابها لتأسيس وحدة المانيا وحريتها السياسية » .

أما المبدأ الذي اعتمد عليه فهو أنه يعتبر نفسه ممثلاً لسيادة الأمة الألمانية . وأضاف : « ان دساتير الدول لاتكون مقبولة إلا في الحد الذي تكون فيه على اتفاق مع العمل التنظيمي لبرلمان فرنكفورت » ؛ وهذا يعني ، بعد العودة إلى الاتجـاه الليبرالي ، الالتزام الذي فرضه دياط ١٨٣٢ ، بعد الثورة ، على الدساتير الألمانية : فقد صرح بالاتحتوي هذه الدساتير مايعاكس التنظيم الملكي للدياط ، أي ان برلمان فرنكفورت خص نفسه بحق تنسيق النظم المختلفة في الدول الخاصة .

وحتى ذلك الحين كانت السلطات القديمة مستمرة في ممارسة السلطة في ألمانيا ، أي اما الحكومات المحلية واما الدياط . ولم يؤخـذ أي اعتبار للعمل السابق الذي قام به الدياط والخمسون والمؤتمر التحضيري (الفوربارلمان) ، ونوقشت مقترحات جديدة . فقد وجد ستة عشر اقتراحاً لأشكال الحكومات الخاصة ، و ٢٢٣ خطيباً لمناقشتها . ونظر في جميع الحلول الواحد بعد الآخر ، وأخيراً جنبت جميع الترتيبات الممكنة . وبعد اسبوعين لم يتوصل إلى شيء . وفي ٢٤ حزيران اقترح هنري غاغيرن أشياء واضحة دقيقة وذلك بأن يشكل المجلس نفسه حكومة لجميع ألمانيا ، وأن يعهد بها موقتاً إلى نائب الامبراطورية ، واقترح الأرشيدوق جان . وتؤلف هـذه الاقتراحات تسوية ترضي فكرة السيادة لأن المجلس يسمي الحكومة ، كما ترضي المبـدأ الملكي ، لأن الحكومـة أسندت إلى نائب الامبراطورية ، وهذا يفترض وجود امبراطورية ، وامبراطور ، وأخـيراً التقاليد الهابسبورغية ، لأن الأرشيدوق انتخب ليكون نائباً للامبراطورية .

انتصر الاقتراح ، بعد أن جنبت الموافقة الضرورية للدول بـ ٤٧٧ صوتاً مقابل ٣١ . وهكذا نرى أن البرلمان يريد أن يؤكد تفوقه على الحكومات

المحلية . وجنبت الجمهورية بـ ٣٥٥ صوتاً مقابل ١٧١ . وصوت على قرار تسمية نائب الامبراطورية بـ ٤٠٥ أصوات مقابـــل ١٣٥ ، وانتخب الأرشيدوق جان بـ ٤٣٦ صوتاً مقابل ٥٢ إلى هنري غاغيرن الذي لم يكن مرشحاً ، و ٢٧ امتناع من أقصى اليسار الجمهوري . وتم انتخاب الارشيدوق في ٢٩ حزيران . عندئذ الغي الدياط بـ ٥٧٠ صوتاً مقابل ٣٥ . وصوت على مسؤولية الوزراء ، وعدم مسؤولية نائب الجمهورية ، كما لو كان ملكاً دستورياً إلا أن الارشيدوق جان مازال ، لبضعة أسابيع ، مضطراً إلى البقاء في النمسا بسبب وظائفه ، ولا يمكنه أن يأتي إلا في آخر تموز ويشكل وزارته ، وقد شكلها من برلماني الجنوب والمنطقة الرينانية ، يضاف لهم شميرلنغ ، مندوب النمسا ؛ وترأس الوزارة البرنس الليبرالي **فون لاينينغن** . وكانت هذه الحكومة أول حكومة ألمانية .

جيش المانيا . - ولكن برلمـــان فرنكفورت لم ينتظر تشكيل حكومة ليؤكد إرادة عظمة ألمانيا ويحاول أن يعطي لألمانيا أداة السياسة العظيمة ، **أي الجيش** . ولم ينظر إلى هذا الجيش ببساطة كجيش حماية اتحادية دلت الأحداث على ضرورته بمحاولات الثورات الجمهورية ، وإنما كجيش حقيقي لألمانيا . واقترحت لجنة الحرب ، التي يرأسها فريديريك - تيودور فيشر ، في ٧ تموز ، ان يشكل الجيش القومي بزيادة ٢٪ على جميع جنود الدول . وأخيراً تقرر أن يشكل الجيش القومي باقتطاع ٢٪ من الجيوش المحلية . وعندما أريد إعداد هذا الجيش ، اصطدم بمعارضة الجيوش المحلية ، وفي الواقع ، لم يتوصل مطلقاً الى تنظيم الجيش القومي . ولكنهم لم يريدوا جيشاً فقط ، وانما أرادوا اسطولاً ايضاً : فقد شعروا بالذل من تفوق الأسطول الدنياركي ، في البالطيك ، على البروسيين ، وارتفعت

في ألمانيا كلها حركة غير عادية لصالح الاسطول ، ولاسيما عند شعب لم يكن له في أي وقت مضى اسطول ، وهو مع ذلك قاري بصورة أساسية . وتألفت لجان في كل مكان لصالح الاسطول ، وانعقد مؤتمر للأسطول في هامبورغ في ٣١ أيار ، وأشترت لجنة الاسطول سفناً من انكلترا ومن هولنده ، وسلحت سفن مساعدة في بريم ولوبيك ، وشرع بأنشاء سفينة خط كبرى في هامبورغ . وصوت البرلمان على اعتماد ستة ملايين مارك لأنشاء الاسطول دون أن يعلم كيف يمكن الحصول على هذه الستة ملايين .

البرنامج الالماني الجامع . - وفي الوقت الذي كان فيه برلمان فرنكفورت ينشيء وسائل السياسة العظمى كان ينادي ببرنامج حقيقي جرماني جامع . ولقد رأينا أنه استنجد بالبوهيميين ، وتعاون النمسا . وأراد أن يضم إلى ألمانيا جميع البلاد الناطقة بالألمانية ، ورحب بالقرار البروسي الذي يفصل المناطق الناطقة بالألمانية من بروسيا البولونية ، وقبل نواب هذه المناطق في البرلمان . وفي ٢٦ آب ، أبعد اقتراحاً لصالح إعادة تأسيس بولونيا ، وأدخل بروسيا البولونية في الكونفدراسيون . وقبل نائبين من ليمبورغ ، وصوت ، في ١٩ تموز ، على إرسال بعثة إلى حكومة البلاد المنخفضة للمطالبة بحذف القانون الأساسي أي الدستور الهولاندي ، في ليمبورغ واللوكسمبورغ ، هذين الاقليمين اللذين يعتبران ألمانيين ، وأراد إقامة جنود في الاقليمين . ووجد منهم أنصار لضم البلاد الاخرى ، وطالبوا بالتيرول والكانتونات السويسرية الشرقية ؛ وهلل رادوفيتز مصرحاً بأن الحدود الألمانية على نهر المنسيو ، أي ان المملكة اللومباردية - البندقية تؤلف جزءاً من ألمانيا ، كما في زمن فريديريك - بارباروس . وطالب نائب بالألزاس ، باسم حقوق اللغة الألمانية . وفي قضية الدوقيتين

تحمس البرلمان للمطالبة بهولشتاين وشلزفيغ ؛ وهاج ضد هدنة ٢٦ آب . وبعد مناقشة عنيفة ، في ٤ ايلول ، رفض البرلمان المصادقة على الهدنة بصوت دالمان ، بـ ٢٣٨ صوتاً مقابل ٢٢١ . وهـذا ماسبب استقالة وزارة لاينينغن . ولكن دالمان لم يستطع التوصل إلى تشكيل وزارة اخرى ، واضطر البرلمان إلى العدول عن تصويته ، في ١٦ ايلول ، بطرح حرب الدانيمارك بـ ٢٥٨ صوتاً مقابل ٢٣٧ ؛ وعندئذ أعيد تشكيل الوزارة السابقة برئاسة شمير لينغ .

وعبر عن هذا الهياج الوطني ، الذي أثاره تصويت البرلمان ، بمحاولة ثورة جمهورية ، وثورات : فرنكفورت في ١٨ ايلول ، وكولونيا في ٢٥ ، وحركة شتروف في سبيل الجمهورية الاجتماعية الالمانية . وتبنى برلمان فرنكفورت النظرية التاريخية واللغوية في القومية ودفعها حتى النهاية . وهذا الموقف الجامع للجرمان كان من نتيجته تحويل الرأي الاوربي ضد ألمانيا : فقد احتجت هولنده في ١٠ آب ، وبلجيكا في ١٩ ، ضد مزاعم البرلمان في ليمبورغ واللوكسمبورغ ؛ واحتجت فرنسا ، في ٩ حزيران ، ضد دمج المناطق البولونية ، ولقد رأينا أن باستيد أبدى قلقه من هذه الحركة الوحدوية الالمانية . واحتج سكان بوهيميا والتيرول وحتى تريستا ، لأن بعض الالمان كانوا يطالبون بضم تريستا ، على هذه المزاعم . وأخذت انكلترا وروسيا على عاتقها ، باتفاق مع فرنسا ، حماية الدانيمارك .

وهكذا نرى ان برلمان فرنكفورت ألقى بنفسه ، دون كثير تفكير ، في سياسة توسع كبرى . وفي الوقت نفسه ، انطلق في عمل تشريع مركزي ، وطمع في أن يخص نفسه بسلطة التشريع ويخضع الدول إلى تشريعه . واندفع دون أن يهتم بحقوق الدول ، أو بوسائل التنفيذ .

وأنشأ الارشيدوق ووزارته بوروقراطية (ديوانيــة) امبراطورية ، بل وفي آخر آب ، تمثيلاً دبلوماسياً في الخارج ، إلا أن الحكومات الاجنبية لم تقبل الاعتراف به . وفي ٢٠ ايلول صرح بلاغ بأن القضايا العامـــة (المشتركة) خاصة بمفوضي الامبراطورية ، وعين مباشرة خمسة مفوضين لغرب وجنوب ألمانيا . وفي ٢٢ ايلول صرحت وزارة العدليـــة بأن الملاحقات والاحكام على جنح الصحافة يجب أن تتم باسم حكومة الامبراطورية . وفي ٣٠ تشرين الاول ارادت وزارة الداخلية أن يعرض عليها نظام جميع الجمعيات السياسية ، وفي ٧ تشرين الأول، ان تؤمن لنفسها الاشراف على ممارسة حق الاجتماع . وفي ٢٢ ايلول وضع البرلمان خطة الوحدة التجارية، وفي ٢١ تشرين الثاني صوت على إلغاء الجمارك الداخلية ، وهذا ما أثار أنواعاً من الصعوبات العملية ولم يؤد إلى شيء . وفي ٢٢ كانون الاول ، حدد بسلطته الضرائب التي يتوجب على الدول دفعها لتغذية موازنته . غير أن الحكومات لم تأبه لذلك ، ولم يعش برلمان فرنكفورت ، من وجهة النظر المالية ، إلا بما بقي في صندوق الدياط .

مقاومة الدول الالمانية . — أما الحكومات ، التي كانت أقل فزعاً من الثورة بما في البـــدء ، وتشجعت بمقاومة النمسا وفريديريك - غليوم الظافرة على الثورة ، فقد تبنت ، حيال هـذه السلطة التشريعية لبرلمان فرنكفورت ، المقاومة السلبية واحياناً المقاومة الايجابية . وفي ١٨ايلول بدأ ملك بافاريا وملك فورتامبورغ بالتحدث عن الموقف المشترك الذي يجب اتخاذه لمقاومة برلمان فرنكفورت . وفي ١٤ تشرين الأول اطرحت الدول دعوة لجنة التشريع في الارتباط مباشرة بحكومة فرنكفورت بحذف حكومتها المحلية . ونشبت منازعة عنيفة مع النمسا في ١٢ تشرين الأول :

فقد سمت حكومة الامبراطورية مفوضَيْن للأقاليم الألمانية في النمسا . فاستقبلا استقبالاً سيئاً عند وصولهما إلى النمسا . وفوق ذلك ، أراد هذان المفوضان أن يحشرا وساطتهما بين الحكومة النمساوية ورعاياها . وأرسل أربعة نواب من فرنكفورت لهذا الغرض ، وكان منهم روبيرت بلوم . ووصلوا إلى فينا في ١٧ تشرين الأول وزجوا بأنفسهم دون تبصر في النزاع ، في الوقت الذي استعاد فيه فيند شغراتز فينا ، في ٣١ تشرين الأول . فلم يراع هذا أحداً ، وأعدم روبيرت بلوم بالرصاص ، في ٩ تشرين الثاني وفي الخريف أي في الوقت الذي أصبحت فيه الحكومات في كل مكان سيدة الموقف ، وجد برلمان فرنكفورت الوسيلة لأغاظة أوربة ودول ألمانيا كلها تقريباً .

الدستور . - كل هذا يجري ولم يباشر البرلمان عمله الأساسي ، وهو الدستور . إلا أنه في ١٩ تشرين الأول بدأ هذا العمل أي في جلسته المائة . واخذت التعقيدات تتدفق . وقد أريد ، قبل الدستور، التوكيد على حقوق الألمان الأساسية . وفي هذه النقطة ، نجدنا أمام عمل لجنة الدستور ، وقد دام هذا العمل ثلاثة أشهر ، وتم الاتفاق تقريباً على الخطوط الكبرى ، ولم يتحمل ذلك مناقشات كبيرة ، وانتهى كل شيء في آخر تشرين الأول . وهذه الحقوق الأساسية هي : المساواة أمام القانون ، حرية الصحافة ، والاجتماع ، والتعليم ، والدين ، واستقلال القضاء ، والاستقلال الذاتي للمدن (قومون) ، والمبدأ التمثيلي في جميع الدول . وأذاع غاغيرن ، وقد أصبح وزيراً ، هذه الحقوق ، في ٢٨ كانون الأول ، كقانون للامبراطورية . وهي تؤلف نوعاً من حق ألماني عام يتضمن المساواة في التمتع بهذه الحقوق من كل فرد ألماني مهما كانت قوميته الخاصة في ألمانيا : بافارياً ، بروسياً ، الخ ... ومن جهة أخرى ،

وطد هذا الحق العـام تحرير الفرد تحـريراً حقيقيـاً ، والتحرير من كل العبوديات التي ثقلت عليه بما فيها استحالة الانتقال والذهاب الى الخارج ؛ وقد وضع حق الهجرة ، والتحرر من كنائس الدولة والمدارس الدينية ، والتحرر من اضطهادات الاغلبيـة من الأجانب من الأعراق الأخـرى . وهذه الحقوق الأساسية هي القسم الدائم من عمل برلمان فرنكفورت .

تنظيم السلطات . — ولكن كان من الصعب تنظيم السلطات . فقـد بدىء بمعـالجة قضـايا دقيقة وفريدة . وكان هذا عمل كل آخر سنة ١٨٤٨ . ولم تلغ الدول حتى ذلك الحين ، وظلت كما كانت عليـــه في الربيع وفي الصيف ، وبدأت برد الفعل أو باتخاذ احتياطاتها ضد طغيان البرلمان . وارتسم في المانيا الجنوبية عـداء لكل حل مركزية ؛ وفي ٢٢ ايلول أعلنت بافاريا معارضتها بعناد لتسمية العـاهل الألماني ؛ وفي آخر تشرين الثاني ، أرسلت رسولاً الى شفارتزانبرغ لتطلب دعمـه ضد ترتيب برومي وضد مركزية فرنكفورت ؛ وفي كانون الأول ، اعلمت فرنسا وانكلترا بأنها لن تعترف بحكومة بروسية ألمانية ؛ وفي كانون الثاني ، أعلمت برلين بأنها ترى بالا تخرج النمسا من المانيا . ووجـدت صدى لما تقول عند جارتها في فرتامبرغ ؛ واتفقت فرتامبرغ وبافـاريا ، في ٢١ تشرين الأول ، على شكل ديركتوار جماعي وفاوضتا الحكومات الأخرى بهذا الحل حتى كانون الأول . وكان فريديريك — غليوم الرابع متقلباً دوماً في افكاره ؛ فقد نشر مذكرات متناقضة ، وأكد ، على لسان بعثة في النمسا ، بأنه لا يتصور مطلقاً قطيعة بين النمسـا والمانيا . إلا أن ، مذكرة من حكومته ، في ٢٧ كانون الثاني ، عرفت برلمان فرنكفورت بأن النمسا إذا تنصلت ، فان بروسيا تقترح بأن تقوم مقامها ، وطالبت بالمكانة التي يستحقها وضعها وأهميتها ، وصرحت بأنهـا مستعدة

لان تقدم لألمانيا جميع الخدمات التي تطلب منها . وفي الواقع ، انتوطيد سلطة الملك في داخل بروسيا قد أعطاه قوة أكبر إزاء الدول الألمانية الأخرى .

أما النمسا ، فقد كانت آخذة بالنهوض : وكان شفارتزانبرغ يرى توطيد وضع النمسا في المانيا وفي ايطاليا كما كان قبل الثورة . وفي ٢٦ تشرين الأول أعلم نائب الامبراطورية بأن النمسا لن تخرج من المانيا . وفي ٢٨ كانون الأول ، سلم شميرلينغ مذكرة تعليمات : فقد طلب أن تترك له أيضاً مهلة ستة أشهر ؛ وستعمل النمسا كعضو في الكونفدراسيون ، بتعاون مع برلمان فرنكفورت ، ولكن من المتوجب الانتظار حتى تنهي دستورها الخاص لتثبيت الدستور الالماني . وفي ١٥ كانون الأول ، انسحب شميرلينغ من الوزارة وحل محله في الرئاسة هنري غاغيرن . وفي الواقع ، فرط برلمان فرنكفورت بالوقت الذي كان فيه سيد عمله الوحيد ؛ أما الآن فعليه أن يحسب حساب الحكومات ، ولا سيما في هذا الوقت الذي وضعت فيه قضايا دقيقة في التنظيم العام .

وتفتتت الأحزاب : انقسم حزب الوسط الأيسر ؛ وفزع أربعون نائباً من الحركات الاجتماعية فانضموا الى اليمين ؛ وكان اليسار في شقاق منذ بعثة روبيرت بلوم في فينا . وتشكل فريق آخر ، في البرلمان ، وهو فريق لمساوي مع زمرة نعرويين من الجنوب انفصلوا عن الوسط وشكلوا حزباً رجعياً خاصاً ، لأنهم أرادوا أن يرجعوا الى حالة الأمور السابقة . وازداد اضطراب الأحزاب . وكانت هذه الظروف سيئة للمناقشات الدستورية الكبرى .

قرارا المبدأ . – وفي ٢٧ تشرين الأول ، اتخذ البرلمان قرارين مبدئيين :

١ – لا يمكن لأي جزء من المانيا أن يتحد في دولة مع بلاد غير ألمانية .

٢ – إذا كان لبلد الماني ولبلاد غير المانية سيد واحد ، فان علاقاتها لا تكون إلا اتحاداً شخصياً .

وبهذين القرارين وضع برلمان فرنكفورت القضية النمساوية . وقد أثار مقتل روبيرت بلوم استياءً شديداً في المانيا ، وكان غاغيرن يدعم الفكرة البروسية . ولذا أجاب برلمان فرنكفورت بمزاج سيء على اقتراح شفارتزانبرغ في انتظار النمسا ريثما تنهي تنظيمها الجديد الخاص لتعمل في التنظيم الالماني . وصوت بـ ٢٦١ صوتاً مقابل ٢٢١ ، على الدخول في علاقات دبلوماسية مع النمسا ، وبتعبير آخر ، على اعتبار النمسا دولة أجنبية عن المانيا . وعلى العكس ، اقترح شفارتزانبرغ على البرلمان ، في ١٧ كانون الثاني ، خطة كونفدراسيون اوروبة الوسطى ، لا كونفدراسيون المانيا وحدها ، المقسمة إلى ست دوائر ، وتؤلف النمسا فيها دائرة .

القرارات الكبرى . – اتخذت القرارات الكبرى في قراءتها الاولى في سياق شهر كانون الثاني : جنب مبدأ الديركتوار ، مبدأ رئيس الجمهورية المنتخب بأكثرية قوية وفي ٢٥ كانون الثاني صوت على لقب **الامبراطور** لسيد ألمانيا بـ ٢١٤ صوتاً مقابل ٢٠٥ . ولكن وراثة اللقب اطرحت بـ ٢٦٣ صوتاً مقابل ٢١١ . وفي اليوم التالي ، ٢٩ كانون الثاني، صوت على مبدأ نظام مجلس امبراطورية الدول ، ولكن لم يقرر عدد الممثلين، ولا عدد الدول التي تسهم في مجلس الامبراطورية . وفي ٢٨ كانون الثاني ، انتهى التصويت على القراءة الاولى ، وعندئذ دعا غاغيرن ، ببلاغ ، الحكومات الألمانية أن تبدي رأيها في المشروع . وفي الفترة من ١٥ شباط

إلى ٢ آذار ، وبانتظار أجوبة الحكومات ، ناقش البرلمان القانون الانتخابي. ودرس فيه مختلف الأشكال .

وهكذا ، انتهى في آخر كانون الثاني رسم الدستور . ولكن هذا الدستور وضع في الاضطراب . لأن القضايا الأساسية ، أي موقف بروسيا والنمسا ، لم توضح ووجدت المناقشات أمام جزع الحكومات المحلية ، التي صدمتها مزاعم البرلمان التشريعية . وأخيراً وضع هذا الدستور في وسط قلق أوربة ، وفرنسا وأنكلترا ، وأيضاً روسيا التي اتخذت موقفاً واضحاً : فقد أعلم القيصر بشكل قاطع بأنه لايعادي فقط سياسة برلمان فرنكفورت في الجامعة الجرمانية ، لأن هذا بديهي، وإنما الوحدة الألمانية . وقد قال ذلك في حزيران ، وكرره في منتصف ايلول ، ودعم النمسا صراحة في سياستها التسلطية وإرجاعها الأمور في دولها إلى ما كانت عليه في السابق . وفوت برلمان فرنكفورت الوقت الذي كان يستطيع فيه فرض الدستور. وفي شهر آدار ، افتتحت الأزمـــة الكبرى التي أدت إلى فشله ، أزمة التاج الأمبراطوري

٣ ــ الازمة الامبراطورية واخفاق البرلمان

الوحدة الألمانية بشكلها الامبراطودي ـ تغيرت الحال فجأة في درامة الوحدة الألمانية في شهر آذار ١٨٤٩ : فقد وقف البرلمان ، في ذلك الحين ، أمام مشكلة رئيسية ، وهي تعريف البلاد وامتيازات التاج في السلطة المركزية . وتصنف الأحزاب ، في هذه المشكلة ، كما يلي : في بداية شباط ١٩٤٩ تأسس فريق يسمى « الألمانيون الكبار » ويتلخص برنامجهم في أنه يجب على ألمانيا أن تحتوي النمسا ، وأن يوجه التنظيم

الفيدرالي من قبل حكومة تتألف من أكثر من سبعة أعضاء وعلى رأسها (ناظر) الامبراطورية ، ويكون بالتوالي ، كل ثلاثة أعوام ، امبراطور النمسا وملك بروسيا . ورداً على تشكيل هذا الفريق تألف في ١٧ شباط فريق « الالمانيون الصغار » ، وهؤلاء يريدون تأليف دولة ألمانية خاصة ، ويجبونها صغيرة وخاصة ، وبالتالي ، دون النمسا ، ويعطونها شكل امبراطورية وراثية . ولكن لم يكن هذا الحزب أو ذاك عظيماً حتى يشكل أكثرية البرلمان فمن جهة الألمانيين الكبار وجد من ١٢٠ إلى ١٣٠ نائباً ؛ ومن جهة الالمانيين الصغار وجد أكثر من ذلك من ٢٢٠ إلى ٢٣٠ . وفي هذه الشروط كان القرار تابعاً لأقلية ثالثة ، لليسار ، حسبما يقرر لهذا الحل أو ذاك .

توافدت تدريجياً أجوبة الحكومات على بلاغ غاغيرن المؤرخ في ٢٨ كانون الثاني . وكان الرأي العام في ألمانيا ، بكتلته ، يريد الاتحاد القومي ، وضغط على الحكومات . ففي بافاريا ، كانت بالاتينا وفرنكونيا وحدويتين وديمقراطيتين . وعلى العكس ، ظلت بافاريا العليا انفصالية ومحافظة ؛ ولكن البرلمان البافاري قرر في ٧ شباط ، لصالح الدستور الامبراطوري . وفي فرتامبرغ ، في هانوفر ، في ساكس ، شلت المجالس الحكومة المحافظة وذات النعرة المحلية الانفصالية ، وضغطت لتأييد الدستور الامبراطوري . وفي بروسيا ، انقسم الرأي ، ولكن ، بشكل عام ، تقدم الرأي المحافظ تقدماً محسوساً ، وفي الانتخابات التي جرت في بداية السنة وافقت الهيئة الانتخابية على الانقلاب الملكي الذي تم في ٥ كانون الأول

وفي آخر شباط صرحت ست وعشرون دولة بقبول الدستور الامبراطوري ، مبدئياً ، مع بعض التعديلات التي يجب أن تدخل عليه . وفي بداية آذار ، أعربت بافاريا عن رأيها لصالح ديركتوار من خمسة

أعضاء . وفي ٩ آذار وصل جواب شفارتزانبرغ ، وكان جريئاً : فقد كان يرى في أن تدخل النمسا بكاملها في الكونفدراسيون ، وليس فقط البلاد التي كانت تؤلف سابقاً جزءاً من الأمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ، وأن يوجه هذا الكونفدراسيون هيئة من سبعة أعضاء ، ترأسها النمسا ، وتضم هذه الهيئة ممثلي النمسا وبروسيا ، ولكل منهما صوتان ، وبافاريا ، ولها صوت واحد ، وتتقاسم الدول الألمانية الاخرى بقية الأصوات . وأن تنظم هيئة دول ، إلى جانب ديركتوار السبعة أعضاء ، وتتألف من مندوبي المجالس ، ويكون للنمسا في هذه الهيئة ٣٨ ممثلا ولألمانيا ٣٢. وهذا يعني، دون مواربة ، الاعتراف بارادة سيطرة النمسا على ألمانيا .

وأعربت ألمانيا بمجموعها عن رأيها لصالح الوحدة بشكل امبراطوري . وزعمت النمسا أن تسيطر بكتلتها على ألمانيا وتشرف عليها . وفي الوقت، الذي كان فيه شفارتزانبرغ يعلن دستور ٤ آذار الذي يعيد بناء النمسا ، وضع وجود النمسا نفسها على بساط البحث عندما اهتزت هونغاريا وأخفق فيندشغراتز .

أثار جواب النمسا ، في فرنكفورت ، رد فعل شديداً : ففي ١٢ آذار اقترح نائب باد، فيلكر، أن تحذف المناقشة الثانية للدستور ، وأن يخص التاج الامبراطوري ، مباشرة ودون انتظار ، بملك بروسيا . فرد اقتراحه ، في ٢١ آذار ، ولكن بأكثرية ضعيفة : ٢٨٣ صوتاً مقابل ٢٥٢ . وفي الحقيقة ، إن مبالغة مزاعم شفارتزانبرغ وجهت المترددين في برلمان فرنكفورت ، نحو بروسيا . ثم أعيد النظر سريعاً بالدستور . وأدخلت عليه بعض التعديلات التي أعطته طابعاً أكثر ليبرالية : أدخل فيتو التعليق في الدستور عوضاً عن الفيتو المطلق ؛ وصوت على وراثة التاج الامبراطوري بأكثرية أربعة أصوات فقط . وأخيراً حذف مجلس

الامبراطورية الذي نص عليه في المشروع الأول وانتهى الدستور ، ونشر في ٢٧ آذار ١٨٤٩ . وشكل المانيا مع حكومة امبراطورية تمثل ألمانيا تمثيلاً دبلوماسياً في الخارج ، وتوجه السياسة الخارجية ، وتنظم القوى العسكرية الألمانية ، وأخيراً السلطة التشريعية والسلطة الاقتصادية العامة . وعهد بهذه الحكومة إلى امبراطور وراثي له القيادة العليا للجيوش ، ويتمتع بحق الفيتو التعليقي على المشاريع التي يصوت عليها البرلمان ، وبحق حل البرلمان . ويتألف البرلمان ، أو **الريخشتاغ** من مجلسين : **مجلس الدول** ، ويتألف نصفه من ممثلي الحكومات ، والنصف الآخر من ممثلي الشعوب ، ويمثل الدول الخاصة في الامبراطورية ؛ **ومجلس الممثلين** ، وينتخب بالتصويت العام .

وانتهى الدستور . وفي ٢٨ آذار جرى انتخاب الامبراطور ، وانتخب فريدريك ـ غليوم الرابع بـ ٢٩٠ صوتاً ؛ ووجد ٢٤٨ امتناعاً ، اذ لم يشأ المعارضون أن يصوتوا ضده ولكنهم امتنعوا فقط . وفي ٥ نيسان ، استدعى شفارتزانبرغ ، بعد نتيجة هذا التصويت ، النواب النمساويين ؛ وفي ٨ منه ، أرسل إلى سفراء النمسا في ألمانيا مذكرة صرح فيها : بأن المجلس تجاوز حقوقه . . . وإن الحكومة النمساوية لايمكنها الاعتراف بصحة قراراته ، ولا بحقه في عمل لاحق . . . وتعتبر هذا المجلس غير موجود » . وهكذا ولد التنظيم الألماني حكومة امبراطورية بشكل برلماني وديموقراطي . وكان هذا الحادث ثورة تاريخية كبرى في ألمانيا لأن الوحدة تمت فيها ، وطردت النمسا من ألمانيا .

رفض التاج الامبراطوري . ـ وكان الوقت مناسباً لبروسيا لتلعب مصيرها . كان يراد في بروسيا أن ينتهز الملك الفرصة ويترأس ألمانيا : وكان مستشاروه ، وبخاصة رادوفيتز ، الأمير الملكي ، يتوسلون إليه أن

يقبل التاج الامبراطوري وكانت الوزارة ، عدا بعض التغييرات التي يجب إجراؤها على الدستور ، من نفس الرأي ؛ وتكفي المفاوضة مع الحكومات لاحداث هذه التغييرات في الدستور الذي كان مقبولاً بذاته . وصوت المجلسان على رسائل وجهت للملك في المعنى نفسه ، وفعلت مثل ذلك نقابات برلين ، والمجلس البلدي . وعندما وصل وفد فرنكفورت إلى برلين لينقل اقتراح المجلس إلى الملك ، استقبله السكان استقبالاً ظافراً . ومن جهة أخرى ، ضغطت المجالس في كل مكان في ألمانيا على الحكومات . واضطر ملك فرتامبرغ ، في ٢٤ منه ، أن ينشر الدستور الامبراطوري . وصرحت بافاريا ، من جانبها ، بانها تربط جوابها بجواب النمسا . وأرجأت ساكس وهانوفر جوابها . وبالاجمال أعطت ثماني وعشرون دولة ألمانية موافقتها على الدستور الجديد .

وبينما كان الناس في بروسيا يتوسلون إلى الملك أن يقبل التاج ، كانت جماعته الخاصة تسدي إليه نصائح مغايرة: كانت بطانة (كاماريلا) الأشراف والضباط التي تحيط به معادية لهذا التاج الآتي من مجلس برلماني . ووجد الملك نفسه بين رغباته في توجيه ألمانيا وصنع الوحدة ، وتقاليده العائلية والقومية . غير أنه كان في هاتين النقطتين حازماً دوماً : فقد كان يقول بأن تحويل ألمانيا لا يمكن أن يكون إلا بالحكومات نفسها ، لا بمجلس شعبي . وكرر ذلك في هذه الآونة : فقد كتب في رسالة إلى مستشاره بونسن : « لا أملك أن أقول نعم أو لا ، لأنه ليس لديكم شيء تقدمونه إلي : انها قضية تحتاج إلى تسوية بين أمثالي ؛ ولا يوجد مقابل الديمقراطيين ، الا اللجوء إلى الجنود » .

والنقطة الثانية ، التي ظهر عندها حازماً دوماً ، هي أن النمسا لا يمكن أن تطرد من ألمانيا ، وان النمسا ضرورية لالمانيا . واستعلم من

الجنرال فون بفول الذي عاد من فرنكفورت بقوله : « وما الذي سيخرج من كل هذا ؟ » فأجاب الجنرال : « امبراطورية تصبح لها زعيماً » ، ورد الملك « أبداً ، أبداً ! إنني أعلم من أنا ، ولست الأول والآخر في ألمانيا . ان النمسا تملك التاج الامبراطوري وستحتفظ بـه ، وستكون بروسيا سيف الامبراطور . وإنني أفضل أن أقدم الطست إلى الامبراطور ، قياماً بوظيفتي الامبراطورية ، على أن تمس يدي التاج » . وكتب إلى دالمان : « مادام هنالك أمل بالابقاء على وحدة ألمانيا والحفاظ على السبع وثلاثين مليون متساوياً ، وترك بيت آل هابسبورغ على رأس الامبراطوريـة المسيحية وألمانيا ، فلن أقبل التاج الامبراطوري . خذ خارطة ألمانيا ، ولون بالسواد الدول النمساوية وانظـر : إنك تفهم عندئذ السبب الأساسي لرفضي ، وآمل أن تقبله . أجر التجربة بنفسك ؛ لقد اجريتها وليس في وسعي أن أعمل غير ذلك . إن هذه الامبراطورية لن تكون إلا قطعة من ألمانيا ؛ وستسقط من ٤٤ إلى ٢٧ أو ٣٠ مليون نسمة ، غير قادرة على القيام بالعمل الذي فرضه الأزل عليها لتجابه منتصرة على الثورة في الغرب والاستبداد في الشرق » .

وعرف ، بأجوبة مماثلة ، قراره إلى رسل فرنكفورت في ٣ نيسان ، وسفير النمسا ، في ٦ منه . وطلب شهراً لأعطاء جوابه : وسيعطيه في ٢٧ نيسان .

وهكذا انفصل ملك بروسيا عن حل فرنكفورت بعقائدية كاملة : وهي أن السيادة الملكية ، في نظره ، تقف أمام سيادة الشعب ، ومفهوم الحق التاريخ المعارض لمفهوم الحق الطبيعي ، ومفهوم دور ألمانيا والنمسا حيال مفاهيم القومية الشعبية . وفي ٢٧ نيسان ، قام بعملين معبرين :

فقد رفض التاج الذي قدمه إليه برلمان فرنكفورت وأعلن حل المجلس البروسي ، مغيراً ، بقرار ، قانون الانتخاب .

اخفاق الوحدة الشعبية . — ان رفض بروسيا للتاج الامبراطوري معناه إلغاء عمل برلمان فرنكفورت . وقد حاول البرلمان أن ينفذ الدستور رغم كل شيء بدعوة الريخشتاغ للانعقاد في ١٥ آب ، وقرر بأن تحل بافاريا ، وهي دولة ألمانية هامة ، محل بروسيا . ونصح غاغيرن الارشيدوق جان باستعمال القسر لاجبار الدول على قبول الدستور الامبراطوري ، ولكن الارشيدوق رفض ، واستقال غاغيرن ، في ٩ أيار . واستدعى فريديريك — غليوم ، كما فعل شفارتزانبرغ ، النواب البروسيين ، في ١٥ أيار . وفي ٢٠ أيار غادر فرنكفورت ستون نائباً من الحزب الامبراطوري . وغادر باقي الحزب المدينة في ٢٦ منه . فضلاً عن أنه ، في آخر نيسان ، بدأت الحركة الثورية الكبرى الجمهورية ، وانتشرت أولاً في ساكس ، في شهر أيار ، ثم في المناطق الغربية ووضعت وجود الدول الالمانية في خطر . وأنقذ الجيش البروسي الوضع ، في ساكس أولاً ، بقمع الثورة من ٥ إلى ٩ أيار ، ثم في دوقية باد الكبرى ، وفي بالاتينا البافارية وفي هسّ . وانهارت قضية السيادة الشعبية التي تمثلها حكومة فرنكفورت بسبب الثورة .

ولم يبق في البرلمان ، الآن ، إلا العناصر الديموقراطية والجمهورية ، وعددهم ١١٠ تقريباً ، وفقدوا اعتبارهم في الثورة الجمهورية الاشتراكية التي قامت في الغرب .

وفي فرنكفورت وجد هؤلاء النواب أنفسهم مغمورين ومحاطين بالجنود البروسية التي احتلت دوقية باد الكبرى والبالاتينا وجاءت تكافح الثورة . وفي ٣٠

أيار قرر البرلمان أن ينتقل إلى دولة فرتامبرغ ، حيث ظلت العناصر الديموقراطية قوية ولها شوكتها . وتألفت فيها جمعيات سياسية تقدمية ، مثل « رابطات مارس » التي قامت بتظاهرات كبرى في شتوتغارت ، في ٢٧ أيار . وفكروا في أن يجدوا ملجأ في هذه الدولة الديموقراطية . وما وصل النواب الى شتوتغارت حتى ألقوا ببيان يدعو الألمان للقيام على الاستبداد ؛ وسموا ، في ٧ حزيران ، مجلس وصاية من خمسة أعضاء لحكم ألمانيا . وأمروا بتجنيد أربعين ألف رجـــل لطرد البروسيين من الحصون الاتحادية في **راشتات ولانداو** ، وقرروا تجنيد اللاندوهر (الجيش البري) ليفرضوا احترام الدستور ، واتفق باقي البرلمان مع حركة الجمهوريين . ولذا جعل إجماع الرأي ضـــده : فقـد أعلن ملك فرتامبرغ وحكومتها انها ضده ؛ كما أن رئيس مجلس الوزراء ، **رومر** ، أنذرهم ، في ١٧ حزيران ، أن ينتقلوا إلى مكان آخر ، وفي ١٨ منه أمر الجنود ببعثرتهم . ودعا رئيس البرلمان زملاءه للاجتماع في ٢٣ آب في كارلسروه ، ولكن البرلمان لم يجتمع فيها . ولم يبق من الحكومة التي ألفها برلمان فرنكفورت ، منذ عام ، إلا الارشيدوق ووزارته .

وهكذا أخفق حل الوحدة الألمانية بطريق المجلس الشعبي ولم تكن السيادة القومية التي ينادي بها على درجة من القوة للانتقال إلى الواقع . لقد أخفقت الوحدة الألمانية أمام عداء ملك بروسيا ، وأمام ايديولوجيا (عقائدية) الحكومات ، وكذلك يجب القول ، إنها أخفقت بسبب التواطؤ النهائي لعملها مع الديموقراطية الثورية .

٤ - الاتحاد بپروسيا

الاتحاد الضيق . - ومع هـذا فان فكرة الوحدة لم تهجر بعـد . فقـد كانت هنالك حلول أخرى ممكنة كحل فرنكفورت في السيادة القومية . لأن قضية إصلاح الدياط كانت موضوعة دوماً بـين الحكومات ، ولأن حركة الرأي لصالح القومية مازالت واسعة .

كان فريديريك - غليوم يناصر دوماً إصلاح الحكومة والدياط ليقيم دولة فدرالية ويكون لهـا زعيماً عسكرياً ويحلها محل الكونفدراسيون السابق . ومن جهة أخرى ، كان الرأي العام البروسي يدفعه لانتهاز الفرصة التي يمثلها شغور النمسا التي مازالت مشغولة بثورتها الداخلية ، ليصنع ، إلى حد ما ، الوحدة الألمانية التي قصر دونها برلمان فرنكفورت . وفي بداية أيار دعا فريديريك - غليوم الرابع الدول الألمانية إلى إرسال مفوضين فوق العادة إلى برلين للمناقشة في إصلاح الكونفدراسيون . وقال : « ان دستور ألمانيا يجب أن يكون حصيلة تعاون الحكومات والشعوب » . ووصل رسل الحكومات الى برلين في منتصف شهر أيار ، وفي ٢٦ منه وقع « اتحاد الملوك الثلاثة » : ملك بروسيا وساكس وهانوفر ، ووجه هؤلاء الملوك بلاغاً إلى الحكومات في ٢٨ منه ، ليعلموها عن اتفاقهم ويطلبوا منها قبول مشروع دستور ليعرض فيما بعد على مجلس شعبي . وفي الواقع ، ان مشروع الدستور ، الذي أعده الملوك الثلاثة ، كان ، على وجه التقريب ، دستور برلمان فرنكفورت باستثناء السلطة التنفيذية التي لم يعهد بها إلى **امبراطور** ، بل الى **رئيس** تساعده هيئة امراء مؤلفة من ستة أعضاء ، على أن يكون **المجلس الاعلى** مؤلفاً من مندوبي الحكومات لابترتيب انتخابات وتسميات حكومية .

أفادت بروسيا ، في الرأي الألماني ، من الشدة التي ردت بها الحركة الاشتراكية الثورية . ومن جهة ثانية ، وضع الوحدويون جانباً قناعتهم الشخصية واجتمعوا في غوطا في ٢٥ و ٢٦ حزيران ، في مجلس شبه رسمي ضم على وجه التقريب جميع زعماء أحزاب الوسط في فرنكفورت : وقرروا إلزام الامراء بقبول مشروع الدستور البروسي ، وقبلوا أن يضحوا بمبدأ السيادة الوطنية رغبة في الوحدة . وفي آخر شهر آب ، قبلت ثماني وعشرون دولة اقتراحات الملوك الثلاثة . إلا أن بافاريا وفرتامبرغ رفضتا ولزمتا الحذر ولذا فان فريديريك - غليوم لايستطيع أن يفكر بأن يكون الدستور الألماني كما كان الاتحاد الجمركي الذي توسع شيئاً فشيئاً حتى شمل مجموع ألمانيا . وأما مايتعلق بطريقة سلوكه فقد فعل بالإجمال كما فعل بالدستور البروسي ونجح وذلك عندما تخلص من مبدأ السيادة القومية ، ومنح ، من سلطته الخاصة ، دستوراً واستطاع أخيراً أن يجمع الرأي حوله . وقبل الدستور ثمانية وعشرون أميراً ووضع موضع التطبيق : وفي ١٥ تشرين الأول ، قرر مجلس إدارة الاتحاد الالماني تطبيق الدستور ؛ وحددت الانتخابات في ٣١ كانون الثاني ١٨٥٠ ودعي مجلس الاتحاد ، الريخشتاغ ، الى ارفورت للاجتماع في ٢٠ آذار .

كانت هذه الانتخابات محافظة صراحة : فقد انتصر رجال الوسط في فرنكفورت مثل: غاغيرن ، بيكيرات ، فينكية . ويتألف نصف أعضاء مجلسي ارفورت من نواب بروسيين . وفي ألمانيا الجديدة هذه ، التي لاتضم بافاريا وفرتامبرغ والنمسا ، كانت بروسيا أعظم من غيرها من الدول بكثير ، وكان نصف أعضاء المجلسين من نوابها . وقد تلقى قسم من هؤلاء النواب البروسيين أمراً بالا يقبلوا مايعاكس سلامة التاج البروسي .

وهذا الموقف كما نرى يعتبر مقيداً ومحـدداً ، من الوحدة الألمانية . وقد سعى غاغيرن رئيس برلمان ارفورت ، في توجيه المناقشات بسرعة لوضع الدستور . وتبنى المجلس الأدنى هـذا الدستور في ١٩ نيسان ١٨٥٠ ، والمجلس الاعلى في ٢٥ . ثم تأجل البرلمان ، وهذا ماجعل للاتحاد الالماني وجوداً في الحق ، ولكن هذا الاتحاد كان ناقصاً ، ومن هنا أتى الاسم الذي أعطي له وهو « الاتحاد الضيق » .

هيئة الحكم الموقتة في ألمانيا . — وفي غضون ذلك . خرجت النمسا من صعوباتها الداخلية ، في آخر آب ١٨٤٩ ، ولكنها كانت ملزمة بعد ، ولعدة أشهر ، بالحذر : فقـد كان يتوجب عليها تمتين الوضع الناشىء عن النصر الرومي . وناور شفارتزانبرغ بمهارة عظيمة ، على اعتبار أنه كان غير حر في حركاته ، وعلى اعتبار أن الارشيدوق يجسد دوام الرايخ . وكانت معارضـة دول الجنوب للتفوق البروسي بالنسبة إليه قاعدة أولى لعمل ممكن . وفي الواقع ، قررت بافاريا ان تسد الطريق في وجه الطموح البروسي . وتخلص ماكسمليان ، في ١٠ حزيران ، من برلمانه ليكون طليق اليدين . ووضع مشروع دستور ألماني عارض بـه المشروع البروسي ، وقبلته فرتامبرغ ، ثم عرضـه على الملكين الآخرين ، ملكي ساكس وهانوفر ، وأدخلت على هذا المشروع تعديلات في تموز ١٨٤٩ ، ثم في كانون الاول . وكان مبدأ هذا المشروع أن تخول الادارة الامبراطورية الى هيئة أمراء ترأسها النمسا .

وفي الأصل ، لايستطيع شفارتزانبرغ العمل إلا بواسطة ملكي بافاريا وفرتامبرغ ، لأنه لم يكن حراً بعد في عمله . ولذا طمن بافاريا بأن ليس لها من صديق تطمئن إليه إلا النمسا . وفي آخر آب ، اقترحت بافاريا

والنمسا أن يستعاض عن الارشيدوق بهيئة موقتة : ونوقش هذا المشروع مع بروسيا التي استعدت بحمق للمناقشة ، ولم تدرك بعـــد وجود عدم تلاؤم بين اتحادها الضيق وبين التنظيم الجديد للسلطة في ألمانيا بعناية النمسا وبافاريا • وتصورت أن تصون حقوقهــا مصرحة ، بأنهــا تفاوض باسم مجموع الاتحاد الالماني ومحاولة بأن لاتجر نفسها ، كما تريد النمسا ، إلى صعيد الحق القديم للدياط . وتدخل اتفاق بينها وبين الملوك الآخرين في ٣ ايلول ، وينص على أن يحل محل الارشيدوق لجنة من مساويين اثنين ومن بروسيين يترأسون اللجنة بالتعاقب ، وأن تمثل الدول الأخرى نفسها لديهم . وقبلت الحكومـات الأخرى بهذا الحل الذي يعني تشكيل هيئة موقتة . وهكذا وجدت بروسيا نفسها مرتبطة بتعهدين متناقضين ، في الواقع ، حيال الاتحاد الضيق وحيال هذه الهيئة الموقتة .

لقد سجل شفارتزانبرغ في هذا العمل نقطة نجاح ، ولغم بشـكل أصم الاتحاد الضيق ، بواسطة الأمراء الآخرين : فقد حصل من ساكس وهانوفر على أن تضعا تحفظاً بحقون النمسا المتوقعة إذا قبلتا الدخول في الاتحاد الضيق ، وعلى أن يعاد النظر في دستور الاتحاد إذا بقيت بافاريا وفرتامبرغ خارجـاً عن الاتحاد . وفي ٢٥ تشرين الأول رفضت ساكس أن تقوم بالانتخابات من أجل مجلس ارفورت ؛ وحذت هانوفر حذوها . وهكذا أخذ الاتحاد الضيق ، بسبب انفصال الساكس وهانوفر ، بعد رفض بافاريا وفرتامبرغ ، صفـة نوع من جـامعـة تجمع بروسيا مع الدول الألمانيـة الصغرى ، أمام الدول الأربع الكبرى في المانيا الجنوبية تساندها النمسا . وفقد كذلك صفته القومية الخاصة ، وأخذ صفة جامعة (عصبة) بروسية مع الدول الصغرى فقـــط وعصبة بروتستانتية تفزع الكاثوليك وترمح

بهم إلى بافاريا والنمسا . واعتبر مكيدة دبرتهـــا بروسيا ، عوضاً عن أن يكون حركة قومية .

وفي آخر السنة ، كانت النمسا مالكة لقواها . فقد استقدم شفارتزانبرغ من ايطاليـــا جنوداً كانوا في التيرول ، وكانت هذه الجيوش مستعدة للدخول ، عند مقتضى الحال ، إلى ألمانيا . وفي شهر كانون الأول ، اقترح شفارتزانبرغ ، بعد أن تخلص من قلقه الداخلي ، تسيير هذه الهيئة الموقتـة التي قررت في ٣٠ ايلول . واستقال الارشيدوق في ١٤ كانون الأول ليترك المكان لهذه الهيئة . واضطرت بروسيا أن تنحني ، لأنهـا قبلت ، في ٣٠ ايلول ، مبدئياً ، هذا الشكل الجديد للحكم . وصرحت مع ذلك بألا تهتم هذه اللجنة إلا في القضـايا الادارية دون السياسية . وهكذا وجد في ألمانيا هيئتان حكوميتان : الاولى عامة لكل ألمانيا ، ولكن ليس لها إلا صفة مؤقتة ، وهي هذه الهيئة الجديدة ؛ والأخرى منتظمة وسوية من حيث الأصل ، لأنها منبثقة عن عمل دستوري وانتخاب ولكنها ضيقة ، وهي حكومة الاتحاد البروسي .

اتفاق مونيخ . — أما وقد أقيم حكم جديد في المانيـا عوضاً عما بقي من برلمان فرنكفورت ، فقد اقترح شفارتزانبرغ ، باتفاق مع بافاريا ، مشروع اصلاح في المانيا : وهـذا ما يسمى « اتفاق مونيخ » في ٢٧ شباط ١٨٥٠ . وبموجبه تخول إدارة ألمانيـا إلى مجلس من سبعة أعضاء يضم النمسا ، والخمسة ملوك ، والهسّان ولهما صوت مشترك . وتبنى الملوك الآخرون مشروع شفارتزانبرغ . وسلم فريديريك — غليوم الرابع وقبل المفـــاوضة ، في ٨ نيسان ، مبدئياً وباسم الدول المتحدة مع بروسيا بكونفدراسيون ، وباعتبار أنه يفاوض ، تخلى عن الاتحاد الضيق وعندئذ جذبه شفارتزانبرغ إلى صعيد الحق القديم ؛ وباعتبار أن القصد كان يقتضي

اصلاح الكونفدراسيون القديم لذا وجب العمل حسب نظام الحق القديم . وفي ٢٧ نيسان دعت الهيئة الموقتة للحكم جميع دول الكونفدراسيون الجرماني، بما فيها البلاد المنخفضة والدانيمارك، من أجل قضية اللوكسمبورغ ومن أجل هولشتاين ، للانعقاد في فرنكفورت في مجلس عام للدياط . وهذا يعني تنظيماً جديداً للهيئة القديمة للكونفدراسيون السابق للثورة . وفي شهر تموز ، طلبت من الدول المجتمعة في فرنكفورت أن تسمي مجلساً ضيقاً للدياط ورفضت ، في الوقت نفسه ، النقـاش مع بروسيا في اصلاح الدستور « في اجتماعات حرة » . وهكذا ، وبالتدريج ، وجدت وسيلة لبعث الدياط ، لا بشكله القديم ، بل بشكل مجلس ضيق وتخلت بروسيا تدريجياً عن مشروعها في الاتحاد الضيق . وسدت عليها المنافذ ، وكان عليها اما قبول إعادة إنشاء الدياط بشكله المقلوب الجديد واما التخلي عن الاتحاد الضيق . يضاف إلى ذلك ان معارضة ناخب هس والأميرين الصغيرين ، في الاتحاد الضيق ، علقت تطبيق دستور ارفورت ، موقتاً ، في ١٠ آب

تراجع اولمتز . - لقد كان وضع بروسيا حيال النمسا ، سيئاً جداً ، على الصعيد الداخلي والخارجي : ففي الداخل ، جمعت النمسا الدول الألمانية الأساسية حولها ؛ وفي الخارج ، أعلن القيصر البرومي صراحة أنه ضد الوحدة الألمانية . ولسوء حظ بروسيا ، انتهى النقاش النظري وانتقل إلى صعيد الواقع بقضية تفجرت في هس الناخبية . فقد أثار ناخب هس ووزيره هاسنر فلوغ ، بسياستها الرجعية ، ثورة طردتهما من كاسّل في أول ايلول ١٨٥٠ . ولذا وجب اخماد هذه الثورة ، ومن الذي يأخذ على عاتقه ذلك ؟ فبموجب الحق القديم السابق لعام ١٨٤٨ ، كان يحق لبروسيا أن تمرر جيوشها في الطرق على أرض هس ؛ ومن

جهة ثانية ، بموجب دستور الاتحاد الضيق ، الذي تدخل هس فيه عضواً ، يجب على حكومة الاتحاد أن تعمل ؛ وفي كلا الحالتين ، كان يجب على بروسيا أن تقوم باخماد ثورة هس . غير أن الدوق - الاكبر استنجد بالمجلس الضيق في الدياط ، ولم يستنجد بملك بروسيا ، وعين مجلس الدياط بافاريا لتقوم بالتنفيذ الفيدرالي عوضاً عن بروسيا .

كان احتجاج فريديريك - غليوم على خرق حقوقه شديداً وأعد جيشه لدخول دوقية هس . ولكن النمسا تعهدت حتى الأعماق وراء هس ، باتفاق مع ملك ساكس وفرتامبرغ وبافاريا . وفي ١١ تشرين الأول ، اتفق الملوك على التصريح بأن معارضة بروسيا للتنفيذ الفيدرالي الذي قرره المجلس الضيق للدياط يخلق « حالة حرب » . وفي ٢٠ ايلول ذهب شفارتزانبرغ إلى نيقولا الثاني قيصر روسيا إلى فارسوفيا وحصل منه على ما يؤمنه بأن روسيا تدعم السياسة النمساوية . وليعطي نفسه موقفاً جميلاً ، قبل ، مع ذلك ، بأن يناقش اصلاح الدياط ، كما طلبت بروسيا في « المؤتمرات الحرة » في درسدن ، لا في المجلس العام للدياط .

وأرسل فريديريك - غليوم ، من جهته ، رئيس مجلس وزرائه . الجنرال براندنبورغ إلى فارسوفيا ، ليحاول الحصول على دعم القيصر ، أو ، على الأقل ، على حياده . فهاج الرأي البروسي بشدة . وسادت برلين حمى حربية . وعاد براندنبورغ من فارسوفيا بجواب مثبط : وهو أن القيصر يدعم النمسا ويلزم بروسيا بالتنازل . ولم يكن بامكان فريديريك - غليوم الرابع أن يفعل غير ذلك : فقد قرر ، في أول تشرين الثاني ١٨٥٠ ، قبول المقترحات النمساوية في مناقشة الاصلاح في مؤتمر ، طالباً ضمانات على الاحتلال البافاري لهس ، وقبل حل الاتحاد

الضيق ، بعد استشارة أعضائه . وفي الواقع ، قررت هيئة الأمراء في الاتحاد الضيق ، في ١٥ تشرين الثاني ، قبول حل الاتحاد .

وبعد أن تنازل فريدريك – غليوم الرابع عن الجوهر ، مأخوذاً بتناقضاته ، قرر ، مع ذلك ، في ٦ تشرين الثاني ، النفير العام للجيش البروسي ، وفي ٢٥ منه ، خطب أيضاً خطاباً حربياً . وبدا الوضع على أهبة حرب بين بروسيا وبافاريا ، ووراء بافاريا ، كانت النمسا ، تدعمها الروسيا .

واستطاع شفارتزانبرغ أن يعمل بشدة ليهدم بروسيا ؛ فألقى انذاراً ، في ٢٥ تشرين الثاني ، يطلب فيه جلاء الجيوش البروسية عن هس . ورضي أن يستقبل في اولمتز رئيس مجلس الوزراء البروسي ، مانتويفل في ٢٩ تشرين الثاني : وقبلت بروسيا أن تتخلى هس والهولشتاين للتنفيذ الفيدرالي وأن تعلن تسريح الجيش البروسي . وهكذا كان « تراجع اولمتز » خزياً رهيباً لبروسيا . ودفع فريديريك – غليوم الرابع في ذلك ثمن الخطأ الذي ارتكبه برفض التاج الذي قدمه اليه نواب فرنكفورت ؛ ولم يفهم أن عناصر الوحدة ، في المانيا ، كانت في الشعوب ، لا في الحكومات ، وأن محاولته في صنع الوحدة بالحكومات قد أدت به إلى اخفاق ذريع أكيد .

أما مؤتمر درسدن فقد ناقش بعض الوقت حلولاً بدت مستحيلة كلها ، وبالرغم من أنه تقرر ، عند اليأس من القضية ، الرجوع ببساطة إلى الصيغة القديمة ، فقد انعقد الدياط في ٢٣ تشرين الأول ١٨٥١ ، واستأنف مناقشاته ، وكأن شيئاً لم يكن ، جرياً على ما كان يفعل في عام ١٨٤٧ .

وهكذا نرى أن ثورة ١٨٤٨ ، في المانيا ، كانت حركة عظيمة ، وتختلف اختلافات محسوسة جداً عن الحركة الايطالية ، التي كانت حركة الجميع ، في ذلك العصر وتشبهها كثيراً ، بهدفها ، لأن القصد ، في المانيا كما في ايطاليا ، كان في احلال الوحدة القومية محل تشعث الدول . ولكن الحركة القومية في المانيا ، على عكس ايطاليا ، دامت بشكل أطول من الحركة الليبرالية . فقد رأينا ، في ايطاليا ، أن الحركة القومية انحلت بسرعة ، وان الحركات الليبرالية استمرت أيضاً بما يقارب العام ، أما في المانيا ، على العكس ، فقد أخفقت فيها الحركة الليبرالية عملياً في خريف ١٨٤٨ ، وامتدت فيها الحركة القومية بشكلها البرلماني ، في صيف ١٨٤٨ ، وبشكل الاتحاد الضيق في العام ١٨٥٠ .

وكانت هذه الحركة القومية الألمانية ، من جهة أخرى ، أعمق ، وأبسط ، وأرسخ في القلوب في المانيا منها في ايطاليا . لقد رغب الألمان في الوحدة القومية اكثر مما رغبوا بالحرية ، ورد عندهم سراب العظمة القومية المثل الأعلى الليبرالي إلى الصعيد الثاني بسرعة ، ولكننا ، في هذه الرؤية القومية ، نرى شيئاً من الاضطراب والاختلاط ، فقد ظهرت بسرعة شهوة السيطرة بشكلها القومي . ولم يكن في هذه الرغبة شيء من البعد عن المنفعة الذي عرفت به العقائدية القومية الأصلية . لقد أصبحت الفكرة القومية ، في برلمان فرنكفورت ، حجة لاستعباد الشعوب الأخرى ، التي لم تكن لتؤلف جزءاً من ألمانيا ، ولكنها تنطق اللغة الألمانية . حتى ان برلمان فرنكفورت الناشىء عن السيادة الديموقراطية باع هذا الحق رخيصاً ، ونظم نوعاً ما حقيقة نظريته في ان القومية تعبر عن عبقرية الشعب . وهنا ، نرى ، لصالح القومية ، ظهور العواطف الغريزية والعميقة للشعب الألماني ، ارادة القوة ، وغريزة النهب والسلب . ومذ

يبدو أي امكان لذلك كان دوار العظمة يأخـــذهم فينسيهم الأسس الاخلاقية للقومية .

ويدل درس برلمان فرنكفورت أيضاً على الصعوبة التي لاقاها الألمان المرور من الصعيد الفكري إلى الصعيد العملي ، والمرور من الفكر إلى العمل . لقد بدا المفكرون الألمان الذين يوجهون برلمان فرنكفورت غير قادرين على تحقيق مذاهبهم الخاصة بأنفسهم ، امـا لأن الفكر السياسي ينقصهم ، واما أيضاً لأنهم ينزعون بشكل غريزي لدفـع مذاهبهم حتى النهاية : فهم يظهرون لانتصار مفاهيمهم تعنتاً عنيـداً ، وهـذا التعنت صفة من صفات طبعهم . وبدا في العام ١٨٤٨ وفي ١٨٤٩ ان هؤلاء المفكرين كانوا بحاجة إلى زعيم ينسق فيما بينهم ويقودهم ليتمكنوا من الوصول إلى شيء عملي . غير ان هذا الزعيم لم يكن عنـــدهم في العام ١٨٤٩ ؛ ولذا تنـــازلوا ، بين يدي ملك بروسيا ، ولكن ملك بروسيا كان غير قادر على أن يأخذ على عاتقه العمل الذي أسنده التاريخ اليه .

لقد وضعت ثورة ١٨٤٨ لألمانيا جميع القضايا التي ستوضع أمامها من جديد في السنوات التالية : وضعت قضية **الوحدة الداخلية** ، أي ترتيب العلاقات بين الدول الخاصـة والحكومـة المركزية التي يجب انشاؤها . ووضعت سنة ١٨٤٨ أيضاً ما يسمى في القرن العشرين « **قضية الانشلوس** » أي قضية علاقات الأجزاء الألمانية في النمسا مع الدولة الألمانية. ووضعت ثورة ١٨٤٨ أيضاً لأول مرة **القضية الاجتماعية** : فقد أخرجت حركة العمال وحاجات تنظيم هذه الحركة بشكل بدائي مع هذا التنظيم المزدوج الذي رأيناه في عالم الحرفين وعالم عمال المصانع . هذه هي القضايا التي وضعت

أمام المانيا السياسية في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين أيضاً ، حتى ان حركة ١٨٤٨ ، التي أخفقت بسرعة في المانيا ، ظلت بالنسبة لألمانيا القرن العشرين ، مطبوعة بطابع الجدة ، وهي ان الحلول التي كان يبحث عنها في ١٨٤٩ قد وجدتها المانيا بأشكال مختلفة : اما ببسمارك ، أو بغليوم الثاني ، او بالرايخ الثالث ، وقد اخفقوا نهائياً الواحد بعد الآخر .

★ ★ ★

الخاتمة

وهكذا وصلنا إلى نهاية هذا التحقيق الطويل ، ومن هذا التحقيق نستطيع أن نستخلص بعض النتائج :

أولاً) ان حركة القوميات ظهرت لنا عنصراً من العناصر الأساسية في ثورة ١٨٤٨ ، وعلى ضوء هذه الثورة ، نستطيع أن نسجل نتائجها . ويكفي لذلك ، أن نتحقق من الوضع في بداية القرن لنرى بسهولة أهمية المسافة المقطوعة . ونرى من جهة أخرى ، في الدور الثاني ، انه لا يضاف إلى جغرافية القوميات الا بعض عناصر تفصيلية ، لأن التاريخ اللاحق لعام ١٨٤٨ لم يكن منه إلا أن وسع الحركات التي ظهرت ، ومن الممكن القول ان هذه الحركات نمت كماً ، وان هذا النمو لم تخرج عنه طبيعة جديدة . ان ما ينقص ، في العام ١٨٤٨ ، للوصول إلى حلول القرن العشرين هو قيام بعض الحركات في بلاد الشمال وفي البلقان : ففي الشمال ، في اسكاندينافيا ، ظهرت الحركات النورفيجية والفنلاندية ، في الوقت الذي تفتحت فيه الجامعة الاسكاندينافية أي محاولة الاتحاد بين جميع القوميات الاسكاندينافية ، الدانماركية والنورفيجية والسويدية ، التي تلاحظ حوالي العام ١٨٦٠ . وإلى جانبها قامت ، بشكل موقت ، حركات قومية في البلاد البالطيكية دون أن نتأكد حقاً ما إذا كانت تطابق قوميات حقيقية . ومن جهة أخرى ، قامت في البلقان الحركة البلغارية إلى جانب الحركة الصربية واليونانية . ومن الممكن أيضاً ، ليكون البحث كاملاً ، الكشف عن قومية تركية أصلية خاصة ، وبصورة عامة ، في الامبراطورية العثمانية ، بعض حركات آسيوية أرمنية وعربية .

لقد تجلت حركة القوميات خاصة بمطاليب أقليات ، مثل مطاليب

الكاتالانيين ، التي كانت ترمي قليلاً أو كثيراً الى الاستقلال الذاتي أو الحصول على ضمانات سياسية . ومن الممكن القول بأن القوميات تفجرت في النصف الأول من القرن التاسع عشر ووعت نفسها ووضعت مطاليبها .

ثانياً) وفي هذا الدور أيضاً ظهرت نظرية القومية . وفي غداة ثورة ١٨٤٨ وضع أول مؤلف حقيقي في درس الحقوق العامة الدولية للأستاذ مانتشيني ، في تورينو ، عام ١٨٥١ . وفي السنوات التي تلت ، صدرت عدة كتب أعطت القومية تفسيراً أو هدفاً للتاريخ . وتعلق مختلف المؤلفين بهذا المظهر أو ذاك من مظاهر القومية ، وهنا أيضاً لا نجد جديداً تمكن إضافته إلى ما كنا اكتشفناه . والشيء الجديد هو ادخال فكرة التفوق العرقي ، على يد غوبينو ، واستعمال علم الحياة (البيولوجيا) في مادة القومية التاريخية . وفي الحقيقة ، ان القوميات ، منذ ١٨٤٨ ، قد كسبت كل عتادها العقائدي .

ثالثاً) وإذا رجعنا إلى النمو التاريخي الذي حللناه طويلاً ، ظهرت لنا القومية بملامح مختلفة : لقد بدا لنا أن القومية لا تتضمن بالضرورة تعبيراً سياسياً ، اذ يمكنها أن تبقى قليلاً أو كثيراً على صعيد الوحدة الروحية ، دون أن تبدي رغبة في صنع فردية دولة . وهذه هي حال القومية المفهومة بشكل ديني ؛ وهذه أيضاً حال ألمانيا زمناً طويلاً ، وحال القوميات السلافية في النمسا ، قبيل ١٨٤٨ ، التي كانت ترى في فكرة الامبراطورية حماية سياسية كافية ضد هونغاريا . ولكن من الواضح أنه ينبغي ، لبقاء هذه الفكرة القومية نظرية ، أن لا تعيق نموها ظروف الحكم .

في الدول القديمة التشكل ، أي في الدول التي قام فيها عمل انصهار وتلاحم العناصر الاساسية في الأمة ، حتى ولو كانت مختلفة ، كان الشكل

الأول والوحيد زمناً طويلاً هو الوطنية . وجوهرها الأساسي هو التلاحم الروحي للجماعة ، وإرادة القبول ، إرادة الوحدة ، وباختصار مفهوم العقد ، والرضى الالزامي ، بين العناصر المقومة للدولة . وفي هذه الحالة ، تكون فكرة القومية في أساسها عقائدية (إيديولوجيا)عقلانية ، ولا تتصور القهر السياسي ، بل وتمثل بالنسبة له ، على العكس ، نقيضاً . ولذا كانت الحرية لها شرطاً وتتويجاً . وهذا هو المفهوم الفرنسيالأساسي للقومية .

وعلى العكس ، في الدول التي رأينا فيها القومية تتفجر في الدور المعاصر ، وبخاصة ، منذ ١٨١٥ ، نراها تنشأ دوماً من عاطفة التباين مع البيئة المحيطة ، اما في واقعها الحالي، واما في واقعها التاريخي ، حتى ولو نسي هذا الواقع بعض الوقت . ثم ان القومية تقوى وتتكامل ، بتوضيح نفسها ، وبالعودة إلى كل ماسجلها ، وإلى كل مايمكن أن ينمي هذا التباين ، أي التاريخ والأدب الشعبي والاخـــلاق والعادات والتقاليد وغيرها . أما المطالبة بالحرية فلا تظهر إلا في المرحلة الثانية : إنها أداة تحتاج إليها القومية لتتحرر وتحقق ذاتها ؛ ولكن القومية لاتتحدد مع الحرية ، ومن الممكن أن ترفض هذه الحرية للآخرين . وهذه هي حال الهونغاريين ، وفي بعض الأجزاء ، حال الالمان . ومن جهة أخرى ، إذا وجدت القومية وسيلة للتحقق بشكل مغاير ، استطاعت أن تتخلى عن الفكرة الليبرالية ، وهذا ما سيحدث للوحدة الالمانية مع بسمارك . وهنا تبدو الصفة المميزة للحركة القومية في ترك الخطة العقلانية ، والمنـــاداة بالعنصر العاطفي ، اللاعقلاني ، وبالغرائز التي توجهها نحو كره الآخرين ، نحو إرادة القوة ، ونحو السيطرة . وإن الشكل المتطرف لهذه العاطفة القومية هو ما يسمى النظرية القومية المتعصبة .

رابعاً) تختلف النتائج حسب الاتجاه الذي تأخذه حركة القوميات ، فاذا ألح على العنصر العقلاني المثالي ، تمكنت حركة القوميات من النزوع إلى اتحاد في الحرية يحصل عليه لذاته ويقبله الآخرون . وعندئذ يكون الاتجاه عنصر تفاهم بين الشعوب التي يظهر مثلها الأعلى اتحاداً يتشكل بحرية بين قوميات حرة . وهذا هو مفهوم نابوليون الثالث ، ومن الممكن القول مفهوم الفرنسيين على العموم.

وإذا أصر ، بالعكس ، على العنصر اللاعقلاني والعاطفي ، وهذا مايسير الجماهير بسهولة أكثر من العقل ، ثقفت حركة القوميات الحقد والقومية ، ودفعت إلى تشعيث الروابط الدولية ، وأدت إلى الحرب . وهذا هو مفهوم بسمارك وبصورة عامة مفهوم الألمان .

وهكذا نلامس ، مع مبدأ القوميات ، عنصراً من العناصر الأساسية لايضاح التطور التاريخي لأوربة بل والعالم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين .

فهرس الاعلام

Beaumont بومون
Bauer, Christin باور ، كريستن
Beccaria بكاريا
Becker, Nicolas بيكر ، نيقولا
Beckerath بيكرات
Belgio Joso
بلجيو جوزو ، الأميرة
Belgrade بلغراد
Bem, Général بيم ، جنرال
Benzenberg بنزنبرغ
Bezirke بيزيركه : مقاطعة
Beranger بيرانجيه
Berchet, Giovanni برشيه ، جيوفاني
Bergmann برغمان
Berthier (Gl) برتيه (جنرال)
Biblioteca italiana
المكتبة الايطالية
Bignon بينيون
Blanc, Louis بلان ، لوي
Blanqui بلانكي
Blaï : Blaj بلاي
Bleiweis بلايفايس
Blittersdorf بليتر سدورف
Blum, Robert بلوم ، روبير
Böckh بوخ
Bommel, Van(الأب) بومل ، فان

Börne بورنه
Brabançonne (La) لابرابانسون
Bismarck بسمارك
Bixio بيكسيو
Boinvilliers بوانفيلليه
Bonald بونالد
Bonhomme, Jacquès بونوم ، جاك
Bossuet بوسويه
Bowring, Sir John
بورينغ ، السيرجون
Brandburg, Von براندبورغ ، فون
Bratianu براسيانو
Brentano برنتانو
Breslau بريسلاو
Brisgau بريسغاو
Brodzinski برودزينسكي
Broglie, dè بروي ، دو
Brouckère, Charles de
بروكير ، شارل دو
Buchez بوشيز
Büchner بوخنر
Bugeaud, général بوجو ، جنرال
Budapest بودابست
Bundesstadt بوندسشتات
Bunsen بونسن

C

Campe كامب
Comphausen كامفاوزون
Cantu كانتو
Capponi كابوني
Carlotta كارلوتا
Carre كار
Carrel, Armand كاريل ، آرمان
Casati كازاتي
Casimir - Périer كازيير - بيريه
Cattaneo كاتانيو
Caussidière كوسوديير
Cavaignac, godefroy كافنياك
Cavour كافور
Cernovicz شيرنوفيتش
Chafarik شافاريك
Celakovsky سيلاكوفسكي
Celles (de) سيل (دو)
Circourt, Adolphe de
سيركور ، آدولف دو
Chateaubriand شاتوبريان
Chlopicki شلوبيكي
Chopin شوبن
Choumadia (La)
شومادياء الاقليم الواقع في شرق بلغراد

Cobden, Richard
كوبدن ، ريتشارد
اقتصادي وصناعي انكليزي
Coito كوانو
مدينة على نهر المنسيو في ايطاليا الشمالية
Colomb, général كولومب ، جنرال
Comte كونت
Consigliatore (il)
الكونسيلياتور : المشاور والناصح
Constant, Benjamin
كونستان ، بنيامين
Cotta كوتا
Cousin, Victor كوزن ، فيكتور
Crémieux كريميو
Czarnocki تشارنوسكي

D

Dahis (les) داهي اسم اطلق على الانكشارية في باشوية بلغراد
Dahlmann دالمان
Danica دانيكا : نجم الصبح
Déak, Franz دياك ، فرانز
Debreczen دوبرتشن
Delessert دوليسير
Dembinski, Gènéral
دمبينسكي ، جنرال

Denis , Ernest دوني ، ارنست
Després دسبريه
Dessewffy , Aurel دسوفي ، اوريل
Detmold دتمولد
Devaux دوفو
Deutschtum دويتشتوم
Dobrovsky دوبروفسكي
Donnersberg دونرسبرغ
Dönhoff دونهوف
Dorn دورن ، العامل دورن
Draskovitch , Jean دراسكوفيتش
Droysen درويسن
Du Bos دوبوس أو دوبو
Dufour دوفور
Dupont de L' Eure دوبون دولور
Durando دوراندو

E

Egmont ايغمونت
Eichorn ايشورن
Engels انغلز
Eötvos , Joseph اوتفوس جوزيف
Ernest - Auguste ارنست - اوغست
Esclavon
اسكلافون : اسم عام لجميع السلافيين
Estkowski ايستكوفسكي
Eupen اوبن
Ewald ايفالد

F

Fabvier فابيه ، كولونيل
Failly فايي
Falk فالك
Fallersleben , Hoffmann
فاليرسلبن ، هوفمان
La fayette لافاييت
Ferintsek فيرينتسيك
Ferronnaye (La) لافرونيه
Fichte فيخته
Flottwell فلوتويل
Focsani فوسكاني
Foscolo فوسكولو
Foy فوا ، جنرال
Frédéric فريدريك
François - Joseph
فرانسوا - جوزيف

G

Gaj غاي
Gallois غالوا

الغلفيون Guelfes : أنصار البابا في ايطاليا من القرن الثاني عشر الى القرن الخامس عشر

وعكسهم الجبليون Gibelins : أنصار الأمبراطور

Gendebien	جندوبين
Gérard , général	جيرار ، جنرال
Gervinus	غرفينوس
Gikha , gégoire	جيخا ، غريغوار
Gioberti	جيوبرتي
Guesen	غنيزن
Gobineau	غوبينو
Goerlitz	غورليتز
Gödelö	غوديلو
Görgei	جورجي
Gotha	غوتا
Gottingen	غوتنغن
Graz	غراتز
Grimm	غريم
Grütli	غروتلي
Gubernium	غوبرنيوم

الادارة في ترانسلفانيا

Guerrazzi	غيرازي
Guillaume , Charles	غليوم ، شارل
Guizot	غيزو
Gützkow	غوتز كو
Györ	جيور

H

Haïdouks
الاشقياء الخارجون عن القانون في باشوية بلغراد

Haller	هالر
Hanka	هانكا
Hassenrflug	هاسنر فلوغ
Haurane , Duvergier de	هوران ، دوفير جيه دو
Haüsser	هوسر
Havlitchek	هافليتشيك
Haynau	هايناو
Hecker	هيكر
Heine	هاينه
Hegel	هيغيل
Helckel	هيلكيل
Heppenheim	هابنهاج
Herwegh	هيرفيغ
Herzen	هرتزن
Hétairie	هيتيري
Holstein	هولشتاين
Hoznek	هوزنيك

Hütten , Ulrich von
هوتن ، اولريخ فون

I

Ingolstadt — انغلشتات

Insbrück — انزبروك

Invalides — انفاليد ، قصر

Itzheim — اتزهايم

J

Jahn — يان

Jean , Archiduc
جان ، ارشيدوق

Jelacic — يلاشيش

Jenneval — جنفال

Johannes - gymnasium
يوهانس ـ جيمنازيوم

: Johanneum — يوهانيوم
متحف أسمه الارشيدوق جان

Jordan , Sylvestre
جوردان ، سيلفستر

Josika — جوزيكا

Jungmann — يونغمان

Jutland — جوتلاند

K

Kamienski — كامينسكي

Kant — كانط

Kamptz — كامبتس

Kaïsarov — كايزاروف

Kapolna — كابولنا

Kara - djich , vuk
قره ـ جيش ، فوك

Karinski — كارينسكي

Karlowitz — كارلوفيتز

Kassa — كاسّا

Klein , Samuel — صموئيل كلاين

Kraichgau — كريشغاو

Kemeny — كيميني

Kisfaludi — كيسفالودي

Kisselev — كيسّيلف

Kogalniceanu — كوغالنيسيانو

Kollar — كولار

Kombst — كومبست

Komorn — كومورن

Kopitar — كوبيتار

Kosciusko — كوسيوسكو

Kossuth — كوسوط

Maëstricht ميسترخت
Maï , Angelo ماي ، آنجيلو
Maistre , Joseph de
جوزيف دوميستر
Majeur , Piere ماجور ، بيير
Malmédy ماليدي
Mameli ماميلي
Mamiani ماميانى
Mancini مانتشيني
Manin مانين
Manteuffel مانتويفل
Manuel مانويل
Manzoni مانزوني
Marcokranievitch
ماركو كرانيفيتش
Marie - Thérèse ماريا ـ تيريزا
Marmont مارمون
Martignac مارتينياك
Martin , Henri مارتن ، هنري
Marx , Karl ماركس ، كارل
Mathieu Lansberg
ماتيو لانسبرغ ـ جريدة
Matthy ماتي
Mauguin موغن
Mavissen مافيسّن

Mazzini مازيني
Mazzinhowicki مازينكوويسكي
Méane (de) ميان المونسينور دو
Meiner ماينر
Menzel مانتزل
Mérods , Félix de
ميرود ، فيليكس
Michar ميشار اسم مدينة في باشوية بلغراد
Miéroslawski ميروسلاوسكي
Mignet مينيه
Milani ميلاني مقهى في فرنكفورت
Minto مينتو
Miskievicz ميسكيفيتش
Mittelmayer ميتل ماير
Molé موليه
Moltke , von مولتكه ، فون
Mons مونس
Montalembert مونتا لامبير
Montanelli مونتانيلي الأستاذ
Montez , Lola مونتز ، لولا
Montlosier مونلوزيه
Moranski مورانسكي
Motz , von موتز ، فون

La Patente de 1960 — براءة ١٨٦٠ في النمسا

Poulin — بولن

Pellico, Silvio — بيليكو ، سلفيو

Pépé , guillaume , général — بيبه ، الجنرال غليوم

Pesmés — اغاني السهر عند الصرب

Peschern — بشيرن

Pest Hirlap — بست هيرلات ، جريدة بست ،

Petiaux , Duc — بتيو ، الدوق

Petoefi — بيتوفي

Pfizer — بفيزر

Pfül , Von — بفول، الجنرال

Pillersdorf — بيلر سدورف

Pirot — بيرو، مدينة في يوغوسلافيا

Polignac — بولنياك

Porgovici — بورغوفيتشي

Posnanie — بوسنانيا

Potocki , Jean — بوتوكي ، جان

Potter , Louis — بوتر ، لوي

Pouchkine — بوشكين

Pragmatigues Sanctions — براغماتيك سانكسيون: براءة ملكية

Presburg — برسبورغ

Pruth — بروت ، نهر

Puzta — بوزتا

Q

Quinet , Edgar — كينيه ، ادغار

R

Radetzky — راديتسكي

Radowitz — رادوفيتز

Radulesco , Héliade — رادوليسكو

Radziwill — رادزيفيل

Raguse — راغوز

Dubrovnik — وتسمى اليوم

مدينة في يوغوسلافيا ، وهي غير مدينة راغوز في صقلية .

Ranke — رانكه

Rajitch — راجيتش

Raumer — راومر

Rajacitch — راجاتشيتش ،المتروبوليت

Raspail — راسباي

Rehfus — ريفوس

Reuter — رويتر

ريشليو	Richelieu
ريجير	Riger
ريجيرونغ	Regierung
ريزور جيمنتو (البعث)	Risorgimento
ريسكون – تو	Risquons - Tout
روجيه	Rogier
رومر	Römer
روزيتي	Rosetti
روسميني ، الفيلسوف	Rosmini
روسي	Rossi
روسو ، جان – جاك	Rousseau , Jean - Jacques
راويه كولار	Royer - Collart
رتامبرغ	Rtemberg
روغه ، آرنولد	Ruge , Arnold
الروتينيون	Les Ruthènes

S

ساشكيفيتش	Sachkievitch
ساغونا	Saguna
سان اوغستن	St - Augustin
سانت اوليز	Sainte - Aulaire
ساكسينسكي	Sakcinski
سان سيمونية	St - Simonisme
سان فيت	St - Vith
سالاسكو	Salasco
سالنياك – فينلون	Salignac - Fénélon , de
سالزبوري	Salzbury
سافيني	Savigny
سافويه	Savoye
ساكس – كوبورغ ، ليوبولد	Saxe - Cobourg , Léopold
شاملز	Schamlz
شارنهورست	Scharnhorst
شميرلنغ	Schmerling
شنيكنبورغر	Schneckenbürger
شليغيل	Schlegel
شيللينغ	Schelling
شلوزر	Schlözer
شفارتزانبرغ	Schwazenberg
شفايدنيتز	Schweidnitz
سيباستياني	Sebastiani
سيلدنيسكي	Seldnitzky
سيرينغ	Seraing
شابر	Shapper
سيسموندي	Sismondi
سلوفايسكي	Slovaiski

سيبيو	Sibiu
وهي: هرمنشتات	Hermannstadt
سينكاي ، جورج	Sincaï, George
سيستروفا	Sistrova
سكوبتشينا	Skouptchina
مجلس قومي للكنيزات في صربيا	
سناديسكي	Sniadecki
زوندربوند	Sonderbund
سبافانتا	Spaventa
سوفروني	Sophronyi
سبورير	Sporer
شتاديون	Stadion
وزير الداخلية في النمسا	
شتال	Stahl
شتاتنبوند	Statenbund
ستوردزا	Stourdza
آل ستوردزا في البغدان	
آل سوتزو في الافلاق	Soutzo
ستاراتينيروفيتش	Staratinirovich
شتراوس	Strauss
شتروف	Struve
شتور	Stur
سوبليكاك، الكولونيل	Sublikac
زيبل	Sybel
زيشيني	Szechenyi
زيتشن	Szecsen
زلكر	Szelker
المعمرون من صغار الملاكين في ترانسلفانيا .	
زنت ـ تاماز	Szent - Tamaz
زيغليجيتي	Szigligeti

T

تيدستش	Tedesci
تيبو	Thibaut
تيري ، اوغستن	Thierry, Augustin
تيير	Thiers
الكونت تون، ليون	Thun, Leon
والكونت ماتياس	Mathias
توكوفيل	Tocqueville
تيسزا ، نهر	Tisza
توماسشيك	Tomaschek
تومازيو	Tomaseo
توريللي ، لويجي	Torelli, Luigi
تويانسكي	Towïanski

Y

Ypsilanti — يبسيلانتي

Z

Zach , François — زاش ، فرنسوا

Zay — زاي

Zitz — زيتز

Zucchi — زوكشي

الفهرس

المقدمة

الدور ١٨١٢ ــ ١٨٤٨

الفصل الأول

الحرية الفرنسية وانعكاساتها الدولية

الفصل الثاني

تشكيل دولة بلجيكا

الفصل الخامس

الثورة الأوربية عام ١٨٤٨

الفصل السادس

قوميات جنوب شرقي اوربة

الفصل السابع

الحركة القومية في ايطاليا وفي الامبراطورية النمساوية

الفصل الثامن

الوحدة الألمانية

من ١٨٤٨ إلى ١٨٥٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسماء الأشهر في البلاد العربية

كانون الثاني	=	ينـــاير
شبـــاط	=	فبراير
آذار	=	مارس
نيسان	=	ابريل
أيار	=	مايو
حزيران	=	يونيو
تمـــوز	=	يوليو
آب	=	اغسطس
ايلول	=	سبتمبر
تشرين الأول	=	اكتوبر
تشرين الثاني	=	نوفمبر
كانون الأول	=	دسمبر



كلمة شكر

خالص الشكر لكل من أسهم في نشر هذا الكتاب



تاريخ

الحركات القومية

في أوربة

تأليف

الدكتور نور الدين حاطوم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة دمشق